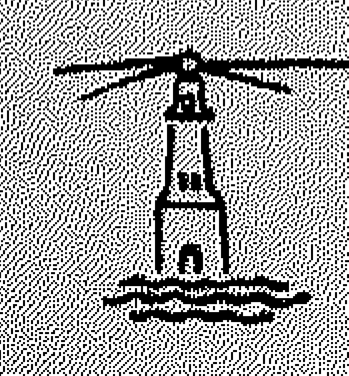

Bibliotheca Alexandrina
0137787

اقرأ

سامى الكيالى

النفس الإنسانية

فى أدب الجاحظ



دار المعارف بمصر

النفس الإنسانية

في أدب الجاحظ

سامى الكيالى

النفس الإنسانية
فى أدب الجاحظ

اقرأ ٢٢٦

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٢٦ – ١ كتوبر ١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م

تمهيد

حفل تاريخنا الأدبى بصفوة من أعلام الفكر فى الأدب والحكمة والفلسفة والتشريع استطاعوا ، بما تركوه لنا من تراث عقلى ، أن يحتلّوا أرفع قمة من تاريخ الفكر العالمى ، وألا يقل إنتاجهم قيمة عما تركه العباقرة من أعلام الفكر عند سائر الأمم الحية .

وليس فى قولنا هذا أى غلوّ ، ولن تتملكنا عصبية الجنس حين نقول إنهم بزّوهم فى الكثير من ميادين المعرفة ، نقولها إقراراً للحقيقة وواقع التاريخ ، وشاهدنا على ذلك بحوث المفكرين الأجانب ودراسات المستشرقين المنزّهين عن الهوى والذين كلما أوغلوا فى بحوثهم عن مفكرى العرب الأفذاذ انكشفت لهم الأضواء الباهرة مما يجعلهم جدّ دهشين .

وإن أعجب بشىء فعجبى من أولئك الهدامين الذين يدعون لهدم كل صلة لنا بميراثنا القديم . وهى لوثة الشعر بين الحاقدين الذين يزينون لشبابنا الطرى العود بأساليب مغرية . هذا الاتجاه المعوجّ السقيم الذى يرمى إلى التشكيك بجلال ماضينا والكفر بخصائصنا وإذابة شخصيتنا العربية التى عاشت طوال القرون فى حفاظها على أصالتها المتميّزة رغم الغوائل التى غالتها والأهوال والنكبات التى عصفت بها .

وقد فات أولئك الهدامين أن محاولاتهم عبر القرون قد فشلت واستطاعت « العربية » في تاريخها الطويل أن تقاوم الهزات وتصارع النكبات . وليس هذا فقط بل استطاعت ، بحيوية عجيبة ، أن تصمد للأعاصير وأن تثبت للأحداث قوية الإيمان . وأن تصهر فى بوتقتها الكثير من الأمم ذوات الحضارات المتباينة وأن تجعل منها « عربية » العادات واللغة ، بل عربية الأصول والفروع والأنسام رغم كل ما حاوله الهدامون من الغزاة والشعوبيين . . وما يحاوله فى عصرنا هذا الشعوبيون والمستعمرون ! .

فنحن حين نرجع إلى ما تركه « العقل العربى » من تراث ذهني أصيل نقف مزهوين ومعجبين ، ويقف غيرنا ، ولا سيما المنصفون من شتى الأمم — يقفون مبهورين ، دهشين ، بل حائرين من حيوية هذا العقل الذى استطاع فى فترات متفاوتة الزمن ، أن يخلق ويبدع فى شتى ميادين الحياة والفكر ، وأن تظل آثار عبقريته حية جديدة ذات ألوان وتزاويق لا تمحوها الأيام مهما تقادم عليها الزمن .

* * *

من أولئك الأعلام الذين تركوا للفكر العربى آثاراً حيّة فى الأدب وفى تصوير منازع النفس ورسم خلجات الحياة ، إلى تصويره ثقافة عصره أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ — هذا

الأديب العظيم الذى عاش طوال عمره فى خضمّ الأحداث فما ترك ظاهرة من ظواهر الحياة والمجتمع إلا رسمها وصوّر دقائقها ونفذ إلى أعماقها بأسلوب تميّز بالدقة والقوة وبالسهولة والوضوح .

ولا علينا قبل أن نغوص فى طائفة من صور أدبه التى تصوّر ألواناً من النفس الإنسانية أن نقف وقفات عابرة عند ظواهر حياته نستشف من سطورها أطوار هذه الحياة — أريد طفولته ونشأته وأساتذته وكتبه لنرى أى إنسان عبقرى هذا الأديب الذى نستطيع أن نفاخر به أدباء العالم دون حرج . . .

* * *

متى ولد الجاحظ ؟

لا يهمنا أن نعرف اليوم الذى ولد فيه وإن اتفق الرواة على أن قبيلة بنى كنانة استقبلت طفلها كالكثيرين من أطفال البصرة الفقراء الذين يولدون وينشأون دون زفة ولا ضجيج . .

ولدته أمه سنة ستين ومائة للهجرة ، وفى رواية سنة ثلاثة وستين ومائة فما كاد يحبو حتى توفى والده فنشأ فى غمار اليتم .

وكانت البصرة لعهده بيئة من بيئات العلم والأدب والمعرفة .

ولم تشأ القبيلة أن تتركه لهوج الإهمال بعد أن رأت عنده ملامح من الذكاء العجيب فبعثت به إلى كتاتيب البصرة يتعلم القراءة والخط ويحفظ سور القرآن . . فما كاد يأخذ حظه منها في فترات جدّ قصيرة دلت علي ألمعيته حتي بعث به كبير

القبيلة إلى المربد ، والمربد فى البصره كسوق عكاظ [١] فى الحجاز يتبارى على صعيدها الشعراء ويعلو منبرها الخطباء .

فما كاد يشبّ بعد أن تلقى اللغة شفاهاً عن آله وذويه ومن إليهم ممن اتخذوا الفصحى أداتهم فى المخاطبة والحديث— ما كاد يشبّ ويتذوّق حلاوة الأدب بعد أن حفظ الكثير الكثير من أشعار العرب حتى أخذ يتتلمذ على أعلام البصرة ، يستمع إلى دروسهم . ويلازمهم فى جلساتهم الخاصّة وحلقاتهم العامة ، يتحدث إليهم ويناقشهم فيما غمض عليه من فهم النصوص فيفيد الكثير من هذه المناقشات ويدوّن فى دفتره ما علق بذهنه من شوارد اللغة وأصول الأدب .

وكان أكثر أساتذته الأعلام الذين أحبهم ولازمهم لزوم الظل إلى الأصل : الأصمعى وأبا زيد الأنصارى وأبا عبيدة معمر بن المثنى والأخفش والنظام وإبراهيم بن سيّار البلخى وصالح بن جناح النخمى وغيرهم وغيرهم من الأعلام ،

---

(١) عكاظ نخل بقرب الطائف كانت قبائل العرب تقصدها لأنها فى طريقها إلى الحج فيجتمعون فى مكان يقال له الابتداء فتعمر أسواقهم بالناس . وينتهز الشعراء هذه الفرصة فيعرضون ما قالوه من نخب قصائدهم على نقدة القريض هناك ، ويكون لذلك احتفال حافل يشهده الجماهير فتشيع قصائدهم شيوعاً تاماً ويترنم بها الركبان فى كل صقع وذلك غاية ما يتمناه شاعر لشعره . وقد كان لهذه السوق العظيمة وغيرها من أسواق العرب تأثير كبير فى تهذيب اللغة العربية .

وما زال يلازمهم ويأخذ عنهم طرائف العلم وأصول الأدب حتى كاد يدانيهم ، ولا نجانف الحقيقة حين نقول إنه استطاع وما زال فى طراوة العمر ، أن يبزّ بعض أساتذته .

ولم يعرف الزهو . بعد أن بلغ مرتبة الفهم والإدراك ، بل اعتبر نفسه ما زال فى عهد التلمذة ، يقرأ بنهم ، يبحث ويناقش بهدوء . وقد يعود عن خطله إذا استبانت الحقيقة له — صفة العالم الذى ينشد الحقيقة مجردة من كل لبس ، بل كلما تفتّحت أمامه آفاق المعرفة شعر بضآلة ملكاته الفكرية وأنه ما زال « طالب علم » يخبّ مجدّاً فى هذه الدروب الطويلة .

وإذ نشأ فى بيئة اختلطت فيها النزعات الفارسية بالأصول العربية رأى ألا تفوته معرفة اللغة الفارسية . وتدلّ رسائله وبعض كتبه على أنه لم يكن يجهل مبادئ هذه اللغة التى روى الكثير من أدب أدبائها ، وقد استكمل ثقافته الإنسانية بقراءة ما ترجمه أساطين الفكر عن الهند والفرس والإغريق فقرأها وتمثل الكثير من نصوصها . وخرج منها بمحصول وفير يوائم ثقافته العربية الأصيلة .

وسار أديبنا الشاب الدؤوب المجدّ فى هذا الدرب الطويل من دروب المعرفة . وما زال إلى أن ملك أعنة القلم فبدأ يدلى بدلوه ، يكتب ويمزّق . ثم أخذ يخوض معضلات الفكر والعقائد التى تواجه عصره بجرأة وجنان قوى .

وكانت الحياة العقلية لزمنه قد بلغت احتدام فورانها . . من مذاهب تتصارع وآراء تتصادم ، إلى نزعات وتيارات تلتقى وتفترق . إلى عصبيات جنسية . إلى فرق دينية ، إلى شعوبية حاقدة تضرم النيران وتزعزع العقائد وتنفث السموم والدسائس للقضاء على الكيان العربى والخصائص العربية ، إلى أدوات هدّامة مدمرة تحاول تقويض الصرح العربى الممرّد الذى تعب الأولون فى وضع أسسه وبناء دعائمه .

وكان لابدّ لأديبنا الفذ من خوض هذه المعارك .

هدته سليقته العربية ألا ينحرف عن العروبة الأصيلة ولا سيما وقد رأى فى أصولها النقاء والصفاء ، الحب والتسامح ، الرأفة والإحسان ، الكرامة والمروءة ، البذل والعطاء ، الإيثار والتضحية ، الشمم والإباء . وكل مظاهر الحياة الإنسانية التى بذر بذورها الأولون .

فالعرب هم فى الذروة بين الأمم ، لا تدانيهم فى خصائصهم الكريمة ، وشمائلهم النبيلة أمة من الأمم . .

يقول : « لم يكن لعبد المطلب فى قريش نظير ، كما أنه ليس فى العرب لقريش نظير ، وكما أنه ليس فى العرب للناس نظير . . . »

وفى معرض الرد على خصومه يدعم حججه بما تركه العرب من أقوال حكيمة وآراء سديدة فيها فصل الخطاب . إنه يتمثّل

دائماً بأدابهم وحكمتهم وخلاصة تجاربهم فيجد فى أصالتها ورواثها وحقائقها ما يدحض أباطيل خصومه وترّهاتهم . .

ومن أقواله فى هذا الصدد : « وأنا أقول فى هذا قولاً أرجو أن يكون مرضيا . . ولم أقل : أرجو ، لأنى أعلم فيه خللاً . . ولكننى أخذت بآداب وجوه أهل دعوتى ، وملتى ، ولغتى ، وجزيرتى ، وجيرتى . . وهم العرب » .

فالعرب هم الأصل وسائر الأمم هنّ الفرع .

هذا ، وبعد أن عبّ من ثقافات الهند وفارس والإغريق هدته سليقته أن يقول :

« إن العرب أنطق ، وإن لغتها أوسع ، وإن لفظها أدلّ ، وإن أقسام تأليف كلامها أكثر ، والأمثال التى ضربت أجود وأسير ، والبديهة مقصورة عليها ، والارتجال والاقتضاب خاصّ فيها » .

ولسنا هنا فى معرض مناقشة هذا الرأى الذى تعود مناقشته لمن يملك أعنة اللغات الأربع ، ولكننا أردنا أن نستخرج من هذه الجملة حبّه العميق للغته — لأهل دعوته وملّته وجزيرته وجيرته وهم العرب .

كان يتعصّب لقومه كلما رأى خصوم العرب يشنّعون على قومه . وإذا أحسّ بخطر الشعوبيين على الروح العربية الأصيلة نقدهم أقسى نقد . وهاجمهم أعنف هجوم فى

الكثير من كتبه ورسائله :

فمن وصفه لهم : « واعلم أنك لم تر قوماً قطّ أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشدّ استهلاكاً لعرضه ، ولا أطول نصباً ولا أقلّ غُنْماً من أهل هذه النِّحلة ، وقد شفى الصدورَ منهم طولُ جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقّد نار الشّنآن فى قلوبهم ، وغليانُ تلك المراجل الفائرة ، وتسعّر تلك النيران المضطرمة ، ولو عرفوا أخلاق كل أمة ، وزىّ كل لغة وعللهم واختلاف إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيئاتهم وما علة كل شىء من ذلك ، ولمَ اختلقوه ، ولمَ تكلفوه ، لأراحوا أنفسهم ، وَلخَفّت مؤنتهم على من خالطهم[١] » .

* * *

كانت اللوثات العقائدية والتيارات العنصرية بدأت تزرع بذورها المختلفة الألوان فى الأرض العربية البكر . . وكثيراً ما حاد الكثيرون عن الاتجاه القويم . . ولكن أبا عمرو ، وقد غلّب عقله على هواه ، لم ينحرف مع المنحرفين ، ولا ضلّ مع الضالين المضلين ، فقد ظلّ محتفظاً بسليقته العربية ، بل ظلّ طوال عمره المديد هذا « الإنسان العربى » الذى يدافع عن كرامة الإنسان بشتى ميوله ومظاهره .

كان ينقد ويجرّح ، ويهزأ ويعبث ، يلمز ويغمز . .

---

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٢ .

وكان يهدف من وراء هزئه وعبثه ، نقده وتجريحه ، إلى تصوير الإنسان على حقيقته . . وربما خطر له من وراء هذا النقد أن يهدى الإنسان إلى السبيل الأقوم ، أن يقوّم اعوجاجه ، أن تبرأ النفس البشرية من العيوب . .

ولكن وقد عرف البشر على حقيقته كأنى به يقول هيهات هيهات . . فنى جبلّة الإنسان هذه الجراثيم التى تأبى إلا أن تنفث سمومها . . فقد أخفقت رسالة الأنبياء والحكماء فى إصلاح جبلّة هذا الآدمى فذهبت أقوالهم الحكيمة ونصائحهم السديدة أدراج الرياح .

ولم يخف ذلك على الجاحظ فكان يصف هذه الملتويات التى تتألف منها طبيعة الإنسان وصف العالم النفسانى الحاذق .

وسنعود إلى الكلام عن رأيه فى سجايا الإنسان وطباع البشر بعد أن نمرّ مروراً سريعاً بملامح من مراحل حياته . . .

فمذ برزت مواهبه وشعّت أضواء عبقريته كثر حاسدوه وكثر مبغضوه وأخذوا يتقوّلون عليه شتّى الأقاويل ويجرّدونه من كل مكرمة وفضيلة .

وهذه المثالب هى سلاح الأغبياء الموتورين والحاسدين الثرثارين الذين حرمهم الله من الذكاء والفطنة والعلم ، وما كان هذا التهديم الذى حاولوه ليطفئ سنا عبقريته فازدراهم وهزأ بهم ولزم داره ودور الوراقين يزيد من نطاق معرفته .

اعتزل الناس فترة دون أن يجهل طباع الناس .

كانوا مادة أدبه فى تصوير طباعهم وخلقهم ونزواتهم ومباذلهم وألاعيبهم وأهوائهم وشهواتهم وكل ما تنطوى عليه نفوسهم من خير أو شر . من حب أو بغض . .

رأى الدنيا أمامه منطوية فى صفحات الكتاب .

وما قرأت لأديب أعطى الكتاب حقه من التجلة والوصف كما فعل الجاحظ .

فالكتاب عنده : « نعم الذخر والعقدة ، والجليس والعمدة ، ونعم النشوة ونعم النزهة ، ونعم المستغل والحرفة ، ونعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل والزميل . ونعم الوزير والنزيل . .

« الكتاب وعاء ملئ علماً . وظرف حشى ظرفاً ، وإناء شحن مزاحاً ، إن شئت كان أعيي من باقل ، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل ، وإن شئت سرتك نوادره ، وشجتك مواعظه ، ومن لك بواعظ مثله ، و بناسك فاتك ، وناطق أخرس ، ومن لك بطبيب أعرابى وروى وهندى وفارسى ويونانى ، ونديم مولد ، وحبيب ممتع ، ومن لك بشىء يجمع بين الأول والآخر ، والناقص والوافر والباطن والظاهر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغث والسمين ، والشكل وخلافه . والجنس وضده » .

ولو ذهبت أروى ما كتبه الجاحظ عن الكتاب وأثره فى تكوين العقول وخلق الحضارات لأمليت بضع صفحات . .

يروى عن أبى هفان أنه قال : لم أر قط ، ولا سمعت مَن أحبَّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قطّ إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتّى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر .

وروى الخطيب البغدادى عن محمد بن سليمان الجوهرى قال :

كنا نصطحب الجاحظ على سائر أحواله من جدّ وهزل ، وقد خرجنا يوماً للنزهة ، فبينا نحن على جامع البصرة ننظر شيئاً أردناه ، إذ امرأة عارضت معها أوراق مقطعة ، فعرضتْ ذلك علينا فلم نجد فيها طائلاً ، فتركناها وانصرفنا ، وتخلف الجاحظ ونحن ننتظره فأطال ، ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً . وأخذ الأوراق وقال : انتظرونى . . ومضى إلى منزله ، فلما عاد أخذنا نهزأ به ويقول : فزت بقطعة من العلم وافرة . . وضحكنا . . فقال : أنتم حمقى والله ، إن فيها ما لا يوجد إلا فيها . . ولكنكم جهّال ، لا تعرفون النفيس من الخسيس » .

* * *

كانت الكتب سلوته فى الحياة . وكانت طباع الناس وأخلاقهم المتباينة ملهاته وموضع دراساته . . وما كان ليفرّق

أحياناً بين جبلّة الإنسان وغريزة الحيوان وله فى ذلك آراء سنعرض إليها .

* * *

بعد أن قرأ الجاحظ كثيراً . واتسعت آفاق ثقافته ، ووعى علوم العربية بشتى فروعها ومختلف ألوانها ، وبعد أن أحاط إحاطة شاملة بما ترجم عن الهندية والفارسية والإغريقية — رأى أن المؤلفين الذين سبقوه إلى التدوين والتأليف ليسوا أكثر منه فهماً ، ولا أبصر منه ذوقاً ، ولا أقدر وأعمق منه على تناول قضايا الفكر والأدب بالبحث والدرس .

وأخذ يؤلّف الرسالة تلو الرسالة ، والكتاب تلو الكتاب ، فما فرغ من تأليف كتاب « العباسية » الذى أهداه للمأمون حتى اختاره لتولى ديوان الرسائل فى بغداد ، وهو منصب خطير لا يتولاه إلا الأعلام من أئمة الأدب . . فحزّ هذا الاختيار فى نفوس الكثيرين من الأدباء المرموقين ، وأخذت دسائسهم تنصبّ عليه ، فلم يتركوا قذيفة من قذائف المثالب إلا رموه بها . ومع ازدرائه بمثالبهم وعدم اهتمامه بتخرصاتهم شعر أنه انتقل من جوّ منطلق إلى جوّ موبوء — جوّ الحسد والتنافس واختلاق الأكاذيب ، ولا سيما حين شعر رجال الديوان أن أسلوبه البليغ وبيانه المشرق طغى على أساليبهم المتعاظلة وبيانهم الهزيل المتقعّر . .

وأدرك سهل بن هارون ، وزير المأمون ، مدى قوة شخصية الجاحظ وثقافته العميقة والهوة التى تفصل بين أسلوبه وأسلوبهم ، وبيانه وبيانهم فقال كلمته التى هزّت أفئدة الديوانيين :

« إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتّاب » !

ولم يثبت الجاحظ فى هذا الجوّ المليء بالدسائس — ضاق بالجوّ الحكومى الرتيب الموبوء فاعتزل حياة الديوان . وآثر حياة الانطلاق فى الآفاق الكفرية الواسعة الرحاب . .

وسرّ « الديوانيون » الدخلاء وأكثرهم من الإمعيين لتخلى الجاحظ عن هذا المنصب الخطير . . .

آثر حياة الفكر . . وآثر التفرغ للدرس والبحث ، وقد خشى ، بعد أن امتلأ صدره بالكثير من الهواجس — خشى أن تلتهم حياة الديوان هذه الهواجس بل أن تلتهم آراءه التى حرص أن تنطلق حرّة لا تتأثر بأى مؤثر . .

آثر الحياة الحرة على قيود الوظيفة .

وكثيراً ما كان يطلب إليه معالجة موضوع من هذه الموضوعات الفكرية التى يواجهها مجتمعه فلا يتردد . . وسرعان ما يجرى قلمه بكتابة رسالة أو تأليف كتاب . .

وكما أخذنا الآن بمبدأ تخصيص « منح تفرغ » للممتازين من الأدباء والفنانين ورجال الفكر والثقافة لينصرفوا للإنتاج

بعيداً عن العوائق المادية والاجتماعية التى تعترضهم وتحدّ من إنتاجهم[١] . فقد كانت هذه السنة جارية عند أسلافنا بغير الأسلوب المتّبع فى عصرنا هذا . فقد أقطعه ابن الزيات فى عهد المعتصم أربعمائة جريب[٢] لقاء تفرغه لكتابة كتاب فى موضوع فرضه عليه . وكتب إليه يقول :

« وتنتهى مشاهرتك ، وقد استطلقته لما مضى ، واستسلفت لك لسنة كاملة . . »

نعم ، آثر الجاحظ الحياة الحرة المنطلقة على قيود الوظيفة وجوّها الموبوء . . وقد فرض على نفسه أن يتفرغ لعالم الفكر بآفاقه الواسعة فلا يكاد يفرغ من تأليف كتاب حدد له موضوعه أو ألفه بوحى من فيض موهبته حتّى يجد المكافأة الضخمة تنتظره وتنسيه مضض بؤسه وسواد فقره .

فحين فرغ من تأليف كتاب « البيان والتبيين » أهداه إلى قاضى القضاة أحمد بن أبى دواد فأعطاه خمسة آلاف دينار ، وحين فرغ من تأليف كتاب « الزرع والنخل » أهداه إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطاه أيضاً خمسة آلاف دينار ،

---

(١) صدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومى قرار وزارى تحت رقم ١٦٢ بتاريخ ١٨/٨/١٩٥٩ لتنظيم منح التفرغ ومكافأة الأدباء والفنانين . وهو مستمد من القرار الذى أصدرته وزارة الثقافة والإرشاد فى الإقليم الجنوبى .

(٢) الجريب : وحدة مساحية من الأرض تساوى ٢٤٠٠ متر مربع .

وقبل تأليف هذين الكتابين كان قد فرغ من تأليف كتاب « الحيوان » فأهداه إلى محمد بن عبد الملك فأعطاه خمسة آلاف دينار .

وإذا تجلت مواهبه الفذّة جعل التأليف صناعته ، فما من باب إلا ولجه باطمئنان وجلى فيه ، وقد كثرت كتبه ورسائله حتى بلغت ، على حد بعض الرواة ، ثلاثمائة وخمسين مصنفاً لم تصلنا منها غير « البيان والتبيين » و « البخلاء » و « الحيوان » و « المحاسن والأضداد » و « رسائل المعاد والمعاش » و « التبصر بالتجارة » و « كتمان السرّ وحفظ اللسان » و « الجدّ والهزل » و « الحسد والعداوة » و « ذم القواد » و « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » و « الربيع والخريف » و « الحنين إلى الأوطان » و « صناعة الكلام » و « الأصنام » و « كتاب المعلمين » و « الجوارى » و « النساء والبلدان » و « جمهرة الملوك » و « كتـــاب المغنيين » و « الاستبداد والمشاورة فى الحرب » عدا كتبه المخطوطة التى لم تطبع بعد وهى « سحر البيان » و « تنبيه الملوك » و « العرافة والفراشة » و « النبى والمتنبى » و « مسائل القرآن » و « العبر والاعتبار فى النظر فى معرفة الصانع وإبطال مقالة أهل الطبائع » وغير ذلك من الكتب والرسائل . .

ولا مجال لكى نعطى إلمامة عن خصائص كل كتاب

فحسبنا هذه الإشارة لندلّ على مدى ثقافته التى تدلنا على أنه كان موسوعة كبرى ، فما من مسألة من المسائل التى تشغل أدباء عصره ومفكريه إلا تناولها بالبحث والدرس وقال رأيه بأسلوبه الواضح الذى تترقرق بين كلماته أحياناً روحه الهازئة الساخرة إذا أراد العبث بفكرة لم يهضمها ، فكان ، بدون ريب ، شيخ أدباء عصره ، أو كما وصفه ثابت بن قرة بأنه « مدره المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى سَحْبان فى البلاغة ، وإن ناظر صارع النّظّام فى الجدال ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأى والأدب . وبين النثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم[1] » .

وإذ بلغ هذه المكانة بين معاصريه كثر حاسدوه كما أشرنا ، وكثر خصومه حتى اضطر أخيراً أن يكتب الكتاب وينحله اسم غيره من بلغاء الكتاب القدامى .

روى المسعودى فى التنبيه والإشراف القصة التالية عن الجاحظ نفسه :

« إنه كان يؤلف الكتاب الكثير المعانى ، الحسن النظم ، فينسبه إلى نفسه ، فلا يرى الأسماع تصغى إليه ، ولا الإرادات تتيمّم نحوه ، ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة ، وأقلّ فائدة ، ثم ينحله عبد الله بن المقفع ، أو سهل بن هارون ، أو غيرهما

---

(١) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٩٧ .

مَن المتقدمين . ومنْ قد صارت أسماؤهم فى المصنفين ، فيقبلون على كتُبِها ، ويسارعون إلى نسخها، لا لشيء إلا لنسبتها إلى المتقدمين ، ولما يداخل هذا العصرفى حسد منْ هو فى عصرهم ، ومنافسته على المناقب التى يخصّ بها ويعنى بتشييدها » .

غريزة الحسد هذه عند معاصريه والتى أثارته وأرمضته تناولها بأحاديثه ورسائله فوصفها وصفاً بليغاً . وكتب فيها الكثير من الجمل والعبارات التى تدلّ على تفهّمه جبلة الإنسان تفهماً صحيحاً .

وكان لابدّ من أن يحتدم الصراع بينه وبين خصومه الذين ضاقوا بأدبه ونزعاته فأطلقوا ألسنتهم بحقه يهدّمون ويدسّون عليه لدى السلطان ويثيرون العامة عليه ولاسيما فيما يتعلق بشعوره الدينى فى فترة كانت الزندقة خلالها قد انتشرت على نطاق واسع فاعتبروا آراءه الحرة هرطقة ودعوته إلى معالجة الشئون التى تمسّ العقيدة كفراً وزندقة وما كان الجاحظ من الزنادقة بل كان حرّ الفكر يبسط آراءه بتفكير منطلق وروح سمحة تستهدف سلطان العقل للوصول إلى لبّ النصوص التى تفسّر جوهر الدين .

ولسنا هنا بصدد بحث هذه الناحية التى اختلف معاصروه فى أمر عقيدته : فمنهم مَن اعتبره من أصميم الزنادقة ، ومنهم

منْ برّأه من هذه التهمة التي كثيراً ما ألصقت بكل منْ تفلسف وفكر .

كان ابن أبي داؤد يقول فيه :

« أنا أثق بظرفه ، ولا أثق بدينه »

واتّهمه أبو منصور البغدادى صاحب كتاب « الفَرْق بين الفِرَق » بالجهل وجرّده من الروح الإنسانيّة فقال :

« ولو عرفوا جهالاته فى ضلالاته لاستغفروا الله من تسميتهم إياه إنساناً ، فضلاً عن أن ينسبوا إليه إحساناً » .

ولم يكتف بذلك بل جعله أكثر قبحاً من خنزير ممسوخ . فاستشهد ببيتين لشاعر موتور :

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانيــاً
ما كان إلا دون قبح الجاحظ

رجل ينــوب عن الجحيم بنفســـه
وهو القذى فى كل طرف لاحظ

ووصفه ثعلب بقوله :

« كان كذاباً على الله ، وعلى رسوله ، وعلى الناس . .

* * *

لسنا هنا فى معرض مناقشة أقوال خصومه ودحضها بالكثير من الشواهد التى جاءت فى رسائله وكتبه والتى تصوّر عمق شعوره الدينى وإيمانه المطلق بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر

بل أردنا من هذا الاستطراد أن نشير إلى مدى مبلغ الحقد والصغار من نفوس بعض خصومه الذين كان الحسد يتأكل صدورهم . . وهذا الذى دفعه أن يخصّ هذه الغريزة الرعناء — غريزة الحسد بالكثير من أقواله يحللّ جبلّة الإنسان تحليلاً عميقاً فكتب ، كما قلت ، آيات بيّنات تصور هذه الظاهرة أبلغ تصوير .

يقول : « الحسد ، أبقاك الله ، داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود ، علاجه عسِر ، وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، منه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرّق كل جماعة ، وقاطع كل رحم بين الأقوياء ، ومحدث التفرقة بين القرناء ، وملقّح الشر بين الخلطاء ، يكمن فى الصدور كمون النار فى الحجر . .

ويتساءل : لمَ صار فى العلماء أكثر منه فى الجهلاء . . . ولمَ كثر فى الأقرباء وقلّ فى البعداء . . وكيف دبّ فى الصالحين أكثر منه فى الفاسقين ، وكيف خصّ به الجيران من جميع الأوطان ؟

ويجرى قلمه فى تصوير نفسية الحاسد تصويراً لا ينأى قط عن تلك اللمحات التى يرسلها أساطين علماء النفس حين يرسمون الخلجات التى تنبض بها قلوب الموتورين الذين يتأكلهم الحسد .

ويقول : « ما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخوّص عينه . وإخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك ، والإعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك . .

ويتساءل وهو يصف نفسية الحاسد فى شتى مظاهرها بقوله :

« متى رأيت حاسداً يصوّب لك رأياً وإن كنت مصيباً ، أو يرشدك إلى الصواب وإن كنت مخطئاً ، أو نصح لك فى غيبة عنك ، أو قصّر من عيبه لك ؟

« فهو الكلب الكلب ، والنمر الحرب ، والسم القشب ، والفحل القطم[1] ، والسيل العرم ، إن ملك قتل وسبى ، وإن ملك عصى وبغى ، حياتك موته وثبوره ، وموتك عرسه وسروره ، يصدّق عليك كل شاهد زور ، ويكذّب فيك كل عدل مرضى ، لا يحب من الناس إلا من يبغضك ، ولا يبغض من الناس إلا من يحبك ، عدوك بطانته ، وصديقك عدوه . أحسن ما تكون عنده حالاً ، أقل ما يراك مالاً ، وأكثر ما تكون عيالاً ، وأعظم ما تكون ضلالاً ، وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهداً ، وأبعد ما تكون من الناس حمداً . فإذا كان الأمر على هذا فمجاورة الأموات ، ومخالطة الزمنى ، والاكتناف بالجدران ، ومص المصران ، وأكل

---

(١) القطم : الكثير العض .

القردان ، أهون من معاشرة مثله والاتصال بحبله .

« وما أرى السلامة إلا فى قطع الحاسد ، ولا السرور إلا فى افتقاد وجهه ، ولا الراحة إلا فى صرم مداراته ، ولا الربح إلا فى ترك مصافاته . . » .

وبعد أن يسترسل فى وصفه البليغ وتحليله الدقيق لنفسية الحاسد يحدّد لنا لون العقوبة التى يجب أن تفرض على الحسّاد فيقول :

« لو ملكت عقوبة الحاسد لم أعاقبه بأكثر مما عاقبه الله ، بإلزامه الهموم قلبه ، وتسليطها عليه ، فزاده الله حسداً ، وأقامه عليه أبداً . .

هذه هى العقوبة التى فرضها على الحساد . . أى أن يعيشوا حياتهم فى ضرام هذا الداء ، تتأكل نيرانه المشتعلة حنايا صدورهم . وتمرّ أيامهم فى كمد وغمّ وحزن واصفرار وجوههم ، هذه الوجوه التى يزداد هزالها واصفرارها كلما تألق نجم الذين يرمونهم بالحسد . . أى كلما علا مقامهم وبعد صيتهم وشع فيض أدبهم وعلمهم . .

وكان الجاحظ فى عصره وبين حاسديه هذا الموهوب الذى علا مقامه وبعد صيته وشعّ فيض أدبه وعلمه فطوى الكثيرين وخلد أدبه على الزمن .

ومن يدرى ؟ فقد تكون هذه الظاهرة الرعناء التى دهمته

فى حياته ، هى التى حفزته أن يدرس أحوال الناس وتتبّع أطوارهم ويلاحظ أخلاقهم وطباعهم . . . ونقرأ فى كتبه الكثير من هذه التأملات الفلسفية التى صوّر فيها الإنسان بشتى نوازعه ـ هذا الإنسان الذى شغلت جبلّته وسجاياه الفلاسفة والمفكرين من عهد أفلاطون وأرسطو إله عهد المتنبى والمعرى ، إلى شوبنهور ونيتشه ، إلى ڤولتير وروسو . . وإلى عشرات المفكرين من المعاصرين ، المتشائمين منهم والمتفائلين . نعم ، وكما شغل المفكرون والفلاسفة بجبلة الإنسان وسجاياه فقد شغل بها الجاحظ فلم يترك ظاهرة من ظواهر حياة الإنسان إلا تناولها بالوصف الدقيق الذى يصوّر ملامحه وطبائعه وخوالجه بأسلوب تترقرق « الواقعية » من خلال سطوره وقد مزجت بروح من الدعابة والسخرية .

إلا أن الجاحظ لم يكن كبعض الفلاسفة المتشائمين الذين جرّدوا الإنسان من خصائصه الأصيلة ــ أريد من « إنسانيته » بل كان ، إلى كشفه عوراته يسترها بوريقات زاهرة ذات أريج عبق من أسلوبه الرائع الذى يجعلك ترى بالعين المجردة رذائله وفضائله ، سيئاته وحسناته .

والواقع ، أن الإنسان يجمع فى ذاته المتناقضات . . . وما زال كبار المفكرين ، من عصر الإغريق إلى يومنا هذا ، فى حيرة صارخة من عوامل هذه المتناقضات . . وكلما حاولوا

سبر أغوار نفسه رأوا أنفسهم تائهين فى دروب مظلمة ، ودياميس عفنة تضيع فى مجاهلها أقدر العقول . .

وحين وضع العلامة الشهير الكسيس كارل مجهره الدقيق على عيوننا فى كتابه « الإنسان . . ذلك المجهول » أرانا العجب . .

« فالإنسان ، كما يعرفه الأخصائى ، بعيد عن أن يكون بذاته الإنسان الحقيقى ، إنه ليس أكثر من صورة تتألف من صور أخرى تقيمها الوسائل العلمية الخاصة بكل علم على حدته ، فهو المشرّح تلك الجيفة التى يقطعها إرباً ، وهو الوعى والشعور عند العالم النفسانى والقائلين بالحياة الروحانية ، أو هو الشخصية التى يظهرها الاستبطان لكل إنسان ، قارّة فى صميم ذاته . وهو عند الكيميائى تلك الجواهر الكيميائية التى تؤلف الأنساج وأخلاط البدن ، وهو عند الوظائفى ـ العالم بالوظائف ، تلك العمائر الباهرة من الخلايا والسوائل المغذية التى يعكف على درس قواعدها وأسسها ، وهو عند رجال الصحة والمربين إما تلك الأنساج المركبة وإما تلك القوة الشاعرة الواعية التى يحاول هؤلاء بجملتهم أن يرفعوها إلى السمت الأعلى من التطوّر والنشوء على مرّ الأزمان . وهو عند أهل الاقتصاد ذلك « الإنسان الاقتصادى » الذى ينبغى له أن يستهلك على التوالى وبغير انقطاع تلك المصنوعات التى يؤدى استهلاكها إلى بقاء الآلات التى استعبدته وردّته رقيقاً ، تعمل الليل بعد النهار . .

لم يبق الإنسان فى اعتبارنا ذلك الإنسان البالغ التعقيد الذى تحلله الوسائل العلمية لا غير ، بل هو فوق ذلك الشاعر والبطل ، والقديس . هو تلك الميول والخواطر والآمال التى تسوق الإنسانية .

لقد امتزجت تصوراتنا عن الإنسان بالغيب وما بعد الطبيعة.

لقد قامت هذه الأشياء عامة على أسس يعوزها الضبط والتحديد . حتى لقد أصبح الإغراء فى اختيار أيها يلذّ لنا عظيماً قوياً ، لهذا نرى أن فكرتنا فى الإنسان تختلف بمقتضى مشاعرنا ومعتقداتنا ، فالمادى والروحانى كلاهما يقبل التعريف العلمى الذى يحدّد بلورة من كلوريد الصوديوم ويؤمن به . ولكنهما يختلفان إزاء الإنسان . والنفسانى الذى يؤمن بالمبدأ الآلى ، لا ينظر إلى الكائن الحى نفس النظرة التى يراها النفسانى المؤمن بالمبدأ الحيوى « أى الروحانى » . فالكائن الحىّ الذى يراه « چاك لوب » يختلف جهد الاختلاف عن ذاك الذى يراه « هنزدريش » ، ولا شبهة فى أن الإنسان قد بذل جهداً جباراً لكى يعرف ذاته ، وعلى الرغم من أننا نملك كنوز المشاهدة التى استجمعها العلماء والفلاسفة والشعراء والمتألهون على مدى الأحقاب والدهور ، فإننا لم نفقه إلا بعض نواحى خاصة من أنفسنا ، ولم ندرك الإنسان فى مجموعه عرفناه شيئا مكونا من أجزاء مستقلة ، وحتى تلك الأجزاء

قد خلقناها بأساليبنا ، فكلٌّ منا إنما هو بمثابة جمهرة من الخيالات والأشباح ، تستقر فى جوفها حقيقة مجهولة[١] »

ومع ما فى جبلة الإنسان من ملتويات وقف عالم كبير إزاءها حائراً نرى الجاحظ ينفذ إلى أغوار هذه الجبلّة فيصورها بأسلوب يجمع بين إحساس العالم ونزعة الأديب .

يقول : « أو ما علمت أن الإنسان الذى خلقت السمواتُ والأرض وما بينهما من أجله كما قال عزّ وجلّ « سخر لكم ما فى السموات والأرض جميعاً منه » إنما سموه العالمَ الصغير سليلَ العالمَ الكبير . لما وجدوا فيه من جمع أشكال ما فى العالم الكبير ، ووجدنا له الحواسّ الخمسَ ، ووجدوا فيه المحسوسات الخمس ، ووجدوه يأكل اللحم والحب ، ويجمع بين ما تقتاته البهيمة والسبع ، ووجدوا فيه صَولة الجمل ووثوبَ الأسد ، وغدر الذئب ، ورَوَغان الثعلب ، وجُبْن الصِّفْرِد[٢] ، وجمع الذَّرَّة[٣] ، وصنعة السُّرْفة[٤] ، وجود الدِّيك ، وإلف الكلب ، واهتداء الحمام .

---

(١) المقتطف ج ١ مجلد ٩٢ ص ١١ .

(٢) الصفرد طائر يضرب به المثل فى الجبن .

(٣) الذرة : ضرب من النمل أحمر صغير .

(٤) السرفة : دويبة سوداء الرأس وسائرها أحمر تتخذ لنفسها بيتاً مربعاً من دقائق العيدان تضم بعضها إلى بعض بلعابها على مثال الناوس ثم تدخل فيه وتموت . ويقال فى المثل : أصنع من سرفة .

وربما وجدوا فيه مما فى البهائم والسباع خُلُقين أو ثلاثة ، ولا يبلغ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته وصَولته وحقدُه وصبره على حمل الثِّقْل . ولا يلزَم شبهُ الذئب بقدر ما يتهيأُ فيه من مثلِ غدره ومكره . واسترواحه وتوحُّشه ، وشدَّة نُكره .

« كما أن الرجل يصيبُ الرأىَ الغامض المرَّة والمرَّتين والثلاثَ ، ولا يبلغُ ذلك المقدارُ أن يقال له داهية وذو نكراء أو صاحب بزلاء[1] . وكما يخطئُ الرجل فيفحشُ خطؤه فى المرة والمرتين والثلاث ، فلا يبلغ الأمرُ به أن يقال له غبىٌّ وأبلهُ ومنقوص . »

إنسان الجاحظ الذى اجتمعت فيه الأضداد وشتَّى المتناقضات عالم صغير فيه جميع أجزائه وأخلاطه وطبائعه : يقول : « ألا ترى فيه طبائع الغضب والرضا ، وآلة اليقين والشك ، والاعتقاد والوقف[2] ، وفيه طبائع الفطنة والغباوة ، والسلامة والمكر ، والنصيحة والغشّ . والوفاء والغدر ، والرياء والإخلاص ، والحب والبُغْض ، والجِدّ والهزل ، والبخل والجُود . والاقتصاد والسرف ، والتواضع والكبر ، والأنس والوحشة ، والطفرة والإمهال ، والتمييز والخبط ، والجبن

(١) البزلاء : الرأى الجيد . والشدائد . والنكراء : الدهاء والفطنة .

(٢) والتمنى .

والشجاعة ، والحزم والإضاعة ، والتبذير والتقدير ، والتبذل والادخار ، والتوكل ، والقناعة ، والحرْص ، والرغبة والزهد ، والسخْط ، والرِّضا ، والصبر والجزَع ، والذكر والنسيان ، والخوف والرجاء ، والطمع واليأس ، والتنزه والطبَع ، والشك واليقين ، والحياة والقحة ، والكتمان والإشاعة ، والإقرار والإنكار ، والعلم والجهل ، والظلم والإنصاف ، والطلب والهرب ، والحقد وسرعة الرضا ، والحِدَّة وبُعد الغضب ، والسرور والهمّ ، واللذة والألم ، والتأميل والتمنىّ . والإصرار والندم ، والجماح والبدوان ، والعِيّ والبلاغة ، والنطق والخرَس ، والتصميم والتوقف ، والتغافل والتفاطن ، والعفو والمكافأة ، والاستطاعة والطبيعة ، وما لا يحصى عدده . ولا يُعرف حدُّه » .

لقد استطاع الجاحظ ، قبل اثنى عشر قرناً ، أن ينفذ إلى جبلة الإنسان فيصفها وصف العالم النفسانى الخبير بطواياه . وليس هذا فقط بل استطاع أن يصف ملامحه وأن يرسمها بأسلوب تصويرى ملؤه السخرية والدعابة . ولو أن مصوراً كاريكاتوريًّا اتخذ من هذه الملامح مادته ، وأجرى عليها أصباغه وتلاوينه لجاءنا بأطرف الصور المضحكة الحية .

ولا مجال لعرض هذه الصور فحسبنا الإلماع إلى بعضها وهى منبثة فى كتبه — فى كتاب البخلاء ، وفى رسالة التربيع والتدوير . وفى الكثير من رسائله .

لقد اتخذ الإنسان بشتى مظاهره مادة أدبه فسلّط عليه أضواء حيّة من هزئه وسخريته وأساويبه المليء بالمفارقات العجيبة .

وكثيراً ما يترك قارئه فى حيرة وهو يرسم بطل مسرحيته :

أيصف فضائله أم رذائله ، تقاه أم غوايته ، ورعه أم فسقه ، صدقه أم كذبه ، هداه أم ضلاله ، بخله أم كرمه ، شحه أم تبذيره ، رحمته أم قسوته .

على أنه لا يترك القارئ فى تيه من الحيرة بل سرعان ما تهديه خيوط نقده القاسى المرّ إلى تصوير « الإنسان » بصورته الخفيفة دون هذه الأقنعة التى يستر بها نوازعه الخفية .

ولو أخذ العرب فن المسرحية عن اليونان كما أخذوا عنهم الكثير من المعارف الإنسانية ، ولو حاول الجاحظ هذا الفن لما قلّ عن سرفوكلس وأرسطوفان وغيرهما من أبطال التمثيليات عند الأغارقة .

فالنماذج البشرية عند الجاحظ أكثر من أن تحصى ، لم يترك طبقة إلا تناول أفرادها بالوصف الدقيق والتحليل النفسانى العميق . وقد لا تعطينا بعض هذه الصور التى أريد أن أضمنها بحثى هذا الصورة الكاملة لأدبه الذى يصوّر المنازع الإنسانية ، فلابدّ من الرجوع إليها فى شتيت كتبه ، ومتابعة فصولها وحكاياتها ونوادرها ، فحسبى من هذا الإلماع توجيه أنظار الشباب المعنيين بالدراسات الأدبية إلى أدب الجاحظ ليقرأوه

ويدمنوا قراءته ، فيرون الأدب الرائع والأسلوب السهل البليغ المنتزع من صميم الحياة . فأديبنا العظيم لا يتقعّر ، ولا يتعاظل ، بل يسترسل على سجيته فيصيب الهدف ، يجمع بين الواقع والخيال ، وبين الوصف والتصوير ، قد يكون الكلام عنده فى لفظ الجدّ ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه الجدّ كما قال ، يسخر فى نقده ويلذع ، ويقسو ويرقّ ، يعبس ويبسم وهو فى جميع صوره هذا الكاتب البليغ والأديب النفسانى الفذّ الذى عرف طبيعة البشر فصوّرهم على حقيقتهم دون تزّيد أو نقصان .

* * *

يصف طائفة كتاب الدواوين الذين يركبهم الزهو والخيلاء حين يصبحون أداة السلطان ولسانه الناطق بقوله :

« إن قبح الكتابة بنى على أنه لا يتقلدها إلا تابع ، ولا يتولاها إلا مَن هو فى معنى الخادم ، ولم نر عظيماً قط تولاها بنفسه أو شارك كاتبه فى عمله » .

وقد عرفنا أن الجاحظ تولى كتابة الدواوين ثلاثة أيام فلم تطق نفسه هذه القيود التى تقسره أن يكتب ما يراد لا ما يريد ، فاستقال وآثر الانطلاق والحرية على قيد الوظيفة وأسارتها .

فحين يصف هذه الطبقة من الكتاب يصفها وصف خبير ،

يقول : « فكل كاتب محكوم عليه بالوفاء ، ومطلوب منه الصبر على اللأواء ، وتلك شروط متنوعة عليه ، ومحنة مستكملة لديه ، وليس للكاتب اشتراط شيء من ذلك ، بل يناله الاستبطاء عند أول زلة وإن أكدى ، ويدركه العزل بأول هفوة وإن لم يرض .

« تجب للعبد استزادة السيّد بالشكوى ، والاستبدال به إذا اشتهى ، وليس للكاتب تقاضى فائدة إذا أبطأ ، ولا التحوّل عن صاحبه إذا التوى ، فأحكامه أحكام الأرقاء ، ومحله من الخدمة محل الأغبياء . ثم هو مع ذلك فى الذروة القصوى من الصلف ، والسنام الأعلى من البذخ ، وفى البحر الطامى من التيه والسرف .

« يتوهم الواحد منهم إذا عرّض جبتّه ، وطوّل ذيله ، وعقص على خده صدغه . أنه المتبوع ليس التابع ، والمليك فوق المالك » .

ويشير إلى كتاب الدواوين الناشئين بقوله :

« ثم الناشئ فيهم إذا وطئ مقعد الرئاسة ، وتورّك مشورة الخلافة ، وحجزت السلة دونه ، وصارت الدواة أمامه وحفظ من الكلام فتيقه ، ومن العلم ملحه ، وروى لبزرجمهر أمثاله ولأردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع أدبه ، وصيّر كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليلة ودمنة كنز

حكمته ، أنه الفاروق الأكبر فى التدبير ، وابن عباس فى العلم بالتأويل ، ومعاذ بن جبل فى العلم بالحلال والحرام ، وعلى ابن أبى طالب فى الجرأة على القضاء والأحكام ، وأبو الهذيل العلاف فى الجزّ والطفرة ، وإبراهيم بن سيار النظام فى المكامنات والمجانسات ، وحسين النجار فى العبادات والقول بالإثبات ، والأصمعى وأبو عبيدة فى معرفة اللغات والعلم بالأنساب . . »

وبعد أن يهزأ بهم هذا الهزء المر ، وبعد أن يضفى عليهم النعوت التى تبرز خصائص صلفهم وكبريائهم وألواناً من جهلهم المطبق يشير إلى تعاليهم ويصف أحدهم بقوله :

« يكون أول بدوه الطعن على القرآن فى تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين مَنْ نقل الآثار ، فإن استرجح أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فتل عند ذكرهم شدقه ، ولوى عن محاسنهم كشحه ، وإن ذكر شريح جرّحه ، وإن نعت له الحسن استثقله ، وإن وصف له الشعبى استحمقه ، وإن قيل له ابن جبير استجهله ، وإن قدم عنده النخعى استصغره[1] . . إلخ »

ألا نرى فى هذا الوصف صورة من صور الكثيرين من الأدباء الناشئين الذين ينكرون فضل مَن تقدمهم من الأعلام ،

(١) ذم أخلاق الكتاب للجاحظ . عن ثلاث رسائل نشرها المستشرق يوشع فنكل ، المطبعة السلفية . ص ٤٢ .

يدّعون العلم وهم إلى الجهالة أقرب ، والفهم وهم بالغباوة ألصق ، يريدون أن يفرضوا أنفسهم على عالم الأدب بالهذر والثرثرة والتهويل وهم براء من كل موهبة إلاّ الادعاء باسم العلم والأدب .

هذه النماذج البشرية كثيرة عند الجاحظ . ولو صبها فى تمثيليات لكان لنا منها ، كما قلت ، ثروة فى الأدب المسرحى لا تقل عما تركه الأغارقة . .

ولو رحت أنقل بعض هذه الصور لملأت صفحات . .

يصف لنا ملامح قاض من قضاة البصرة ألحّ عليه الذباب فنعه وقاره أن يذبه فاحتمله على مضض ، ثم ألحّ عليه إلحاحاً مزعجاً فاحتمله بضيق نفذ معه صبره ، فأخذ يذبه بإشارات مضحكة تصلح مادة لرسام كاريكاتورى بارع .

ولا علينا أن نقضى لحظات مع الجاحظ نرى خلالها تصويره الدقيق لملامح هذا القاضى المتزمّت .

يقول : « كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوّار ، لم يرَ الناس حاكماً قط ، ولا زّميتاً ، ولا ركيناً[1] ، ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه وملك من حركته مثلَ الذى ضبط وملك ، كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه فيحتبى ولا يتكئْ ، فلايزال منتصباً

---

(١) الزميت : العظيم الوقار ، والركين : الرزين .

لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حبوّته[1] ، ولا يحوّل رجلاً عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبنى أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك ، حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ، ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى محله ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك إذا بقى عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلى العشاء الأخير وينصرف » .

وإلى هنا ليس فى الصورة إلا وصف وقاره وجلال القضاة أو تزمتهم ثم يكمل الصورة بقوله :

« فالحق يقال : لم يقم فى طول تلك المدة والولاية مرّة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شربَ ماءً ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه فى طول الأيام وفى قصارها ، وفى صيفها وشتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يده ، ولا يشيرُ برأسه . وليس إلا أن يتكلم ، ثم يوجز ، ويبلغ بالكلام اليسير ، المعانى الكثيرة . فبينا هو كذلك ذاتَ يوم وأصحابه حواليه ، وفى السماطين[2] بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذُبابة ، فأطال

---

(١) الحبوة : بالفتح وتضم . أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٢) السماط : الصف .

المكث ، ثم تحول إلى مؤق عينيه[١] ، فرام الصبر فى سقوطه على المؤق ، وعلى عضه ، ونفاذ خرطومه ، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته أو يغضّ وجهه[٢] ، أو يذب بأصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن والى بين الأطباق والفتح ، فتنحّى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد إلى مؤقه بأشدّ من مرته الأولى فغمس خرطومه فى مكان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله أضعف ، وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى ، فحرّك أجفانه وزاد فى شدة الحركة وفى فتح العين ، وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحّى عنه بقدر ما سكنت حركته ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلحّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدّاً من أن يذبّ عن عينيه بيده ، ففعل وعيون القوم إليه ترمقه ، وكأنهم لا يرونه ، فتنحّى عنه بقدر ما ردّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذبّ عن وجهه بطرف كمه ، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال :

---

(١) المؤق : طرف العين مما يلى الأنف .

(٢) يغضن وجهه : جعل به غضوناً وذلك بأن يقبض جلده .

أشهد أن الذباب ألجُّ من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ! وأستغفر الله ! فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عزّ وجلّ أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ، وقد علمتُ أنى عند الناس من أزمت الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعفُ خلقه ! ثم تلا قوله تعالى : « وإنْ يسلبهمُ الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب » .

صورة هذا القاضى الذى منعه وقاره أن يذب عن وجهه الذباب فاحتمل بلجه فما حرك رأسه أثناء كلامه ولا رفع يديه ، حتى إذا زاد لجه استعان على ذلك بتحريك أجفانه تحريكاً يثير الضحك . . وما زال حتى رفع يديه ، ثم خرج عن وقاره فدفعه بطرف كمه .

هذه الصورة على ما فيها من تصوير دقيق لهذا الوقار والتزمت ، هى بعض صور الجاحظ المنبثة فى كتبه ورسائله . .

هذه الصورة التى تصوّر الوقار المضحك نرى ما يماثلها عند رئيس الأساقفة بلون آخر . . فهو لا يتحدث عن وقاره بل عما يجب أن يكون عليه رئيس الأساقفة من زهد وتقوى ، ومن خلق وخُلق وحسن مظهر . .

يقول : « ووقع بين فتًى من النصارى وبين ابن فهريز كلام . فقال له الفتى : ما ينبغى أن يكون فى الأرض رجل واحد أجهل منك . وكان ابن فهريز فى نفسه أكثر الناس

علماً وأدباً ، وكان حريصاً على الجثلقة .

فقال للفتى : وكيف حللت عندك هذا المحل ؟

قال : لأنك تعلم أنا لا نتخذ الجاثليق إلا مديد القامة ، وأنت قصير القامة ، ولا نتخذه إلا جهير الصوت ، جيد الحلق ، وأنت دقيق الصوت ، ردىء الحلق ، ولا نتخذه إلا وافر اللحية عظيمها ، وأنت خفيف اللحية صغيرها ، وأنت تعلم أنا لا نختار للجثلقة إلا رجلاً زاهداً فى الرياسة ، وأنت أشدّ الناس عليها كلباً ، وأظهرهم لها طلباً ، فكيف لا تكون أجهل الناس ، وخصالك هذه كلها تمنع من الجثلقة ، وأنت قد شغلت فى طلبها بالك ، وأسهرت فيها ليلك » .

لقد جمع فى هذه الصورة بين ما يتوجّب على هذا الرئيس الروحى من المظاهر التى توحى بالاحترام والإجلال ، ولا سيما الخصائص الخلقية والعلمية والدينية التى لا بدّ منها لمن يتربّع على كرسى هذا المقام الجليل ليستطيع أن يفرض احترامه على أبناء طائفته .

وفى جميع صور الجاحظ ونماذجه البشرية — نرى الإنسان على حقيقته ، فهو إلى هزئه وسخريته يرسم فضائل من يعرض إليهم فتجىء الصورة متناسقة الألوان على أروع ما تكون صور الكثير من الآدميين . .

* * *

وفى رسالة « التربيع والتدوير » نقع على صور آية فى الطرافة لا يستطيع كاتب مهما بلغ من قوة البيان أن يصف أطوار الناس وسجاياهم ، ولا سيما أصحاب الدعاوى العريضة الذين يقحمون أنفسهم فى كل فن من فنون المعرفة وهم منها خواء — كما وصفهم ووصف طباعهم الجاحظ . .

وهذه الرسالة فى هجاء أحمد بن عبد الوهاب ، وهى تختلف فى أسلوبها عن أسلوب الهجاء الذى اعتمده الشعراء والأدباء فى عصره .

تصوّر ملامحه الجثمانية تصويراً يثير الضحك ، وكشف عن جهله كشفاً مزرياً .

وليرينا مقدار جهله أثار ما يقرب من مائة مسألة فى العلم والأدب . وفى الفلسفة والمنطق وفى شتى المعارف المتداولة فى عصره فأحاط بها إحاطة شاملة وأرانا جهل خصمه بأوليات الأمور . . ولا يهمنا اليوم قيمة هذه الآراء التى كانت سائدة فى عصره . . وهل هى صحيحة أم غير صحيحة ، بقدر ما تهمنا ثقافة الكاتب وأسلوبه الهازئ الساخر الذى يسربله بالنكتة حين يصوّب سهم نقده إلى خصمه .

ونقرأ فى هذه الرسالة آراء فى أصل الإنسان فنراه يلتقى مع داروين صاحب نظرية التطور التى تقول : إن كل الكائنات الحية ذات صلة من القرابة بعضها ببعض ، وإنها

كلها حتى الإنسان ، تنحدر من أسلاف بسيطة ، ثم ارتفعت وتطوّرت ، فالحيوانات الثديية كالقردة والنسناس تشبه الإنسان إلى حدّ كبير .

لا أقول إن الجاحظ من القائلين بهذه النظرية . . ولكن كلامه يدلّ على أنه التقى مع داروين بالحدس العلمى لا بالتحقيق الذى تفرضه نظريات العلم الحديثة .

يقول فى ردّه على الملاحدة : « اعلم أن الله تعالى قد مسخ الدنيا بحذافيرها ، وسلخها من جميع معانيها ، ولو مسخها كما مسخ بعض المشركين قردة ، أو كما مسخ بعض الأمم خنازير ، لكان قد بقى بعض أمورها ، وحبس عليها بعض أعراضها ، كبقية ما مع القرد فى ظاهره من شبه الآدمى ، وبقية ما مع الخنزير فى باطنه من شبه البشرى ، لكنه جلّ ذكره مسخ الدنيا مسخاً متتبعاً ومستقصى مستفرشاً ، فبين حاليهما جمع التضادّ ، وبين معنييهما غاية الخلاف ، فالصواب اليوم غريب ، وصاحب مجهول ، فالعجب ممن يصيب وهو مغمور ، ويقول وهو ممنوع ! ، فإن صرت عوناً عليه مع الزمن قتلته ، وإن أمسكت عنه فقد رفدته[1] » .

---

(١) فى مشابهة القرد للإنسان يقول : والقرد يضحك ويطرب ، ويقعى ويحكى ، ويتناول الطعام بيديه ويضعه فى فيه ، وله أصابع وأظفار . وينقى الجوز ، ويأنس الأنس الشديد ، ويلقن بالتلقين الكثير ، إذا سقط فى الماء=

ومن رسالة إلى صديقه الوزير ابن الزيات وهو فى محنته :

« لا والله ، ما عالج الناس داءً قط أدوى من الغيظ ، ولا رأيت شيئاً هو أنفذ من شماتة الأعداء . . ثم يختمها بذم الدهر فيقول : ولما مسخَ اللهُ الإنسان قرداً وخنزيراً ترك فيهما مشابهَ من الإنسان ، ولما مسخ زماننا لم يترك فيه مشابهَ من الأزمان » .

* * *

لسنا هنا فى معرض تحليل آرائه العلمية ومدى مطابقتها للنظريات العلمية فى عصرنا هذا ، ولا سيما وقد مرّت على آرائه ما ينيف على ألف سنة ونظريات العلم تتطوّر مع الزمن وفى لحظات معدودة ، ولكنى أردت من هذه الإشارة أن ألمح إلى ما كان عليه الجاحظ من ثقافة علمية تبدو واضحة فى بعض كتبه وفى الرسالة التى كتبها فى هجاء زميل تطاول عليه وحطّ

غرق ولم يسبح ، كالإنسان قبل أن يتعلم السباحة . فلم تجد الناس للذى اعترى القرد من ذلك – دون جميع الحيوان علة – إلا هذه المعانى التى ذكرتها من مناسبة الإنسان من قبلها .

ويقول : واجتمع فى القرد الزواج والغيرة . وهما خصلتان كريمتان ، واجتماعهما من مفاخر الإنسان على سائر الحيوان ، ونحن لم نر وجه شىء غير الإنسان أشبه صورة وشبهاً على ما فيه من الاختلاف . ولا أشبه فماً ووجهاً بالإنسان من القرد .

الحيوان ج ٤ ص ٩٨

من أدبه فردّ عليه لا بالسب والشتم كما كانت طريقة الهجاء في عهده بل جعل الهزء والسخرية مادة الردّ فجاء بالأعاجيب .

يصف خصمه بقوله : « كان أحمدُ بن عبد الوهاب مفرطَ القصرَ ويدّعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعاً وتحسبه لسعة جُفرته[٢] واستفاضة خاصرته مدوراً ، وكان جَعْد الأطراف قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعى السباطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه ، أخمص[١] البطن ، معتدل القامة ، تامّ العظم ، وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، وهو مع قِصَر عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد[٣] ، رفيع العماد ، عادىّ القامة ، عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة في الجسم ، والسعة في العلم .

وكان كبير السن ، متقادم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب . حديث الميلاد » .

وفى الرسالة ، إلى هذه الصورة عشرات الصور عن ملامحه الجثمانية تصلح لعدة صور كاريكاتورية ، بل هى صورة كاريكاتورية بحدّ ذاتها لو التفت إليها المعنيون بفن الرسم عندنا لجاءونا بأطرف الصور . أما ملامحه النفسانية فهى آية

---

(١) الجفرة : جوف الصدر .
(٢) أخمص : ضامر .
(٣) الباد : باطن الفخذ .

فى تصوير منازع الأدعياء فى كل لون من ألوان الحياة . .

يصف دعواه لشتّى فنون المعرفة بقوله :

« . . كان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها ، وتكلفه للإبانة عنها على قدر غباوته فيها . .

وكان كثير الاعتراض ، لحجاً بالمراء ، شديد الخلاف ، كلفاً بالمجاذبة ، متتابعاً فى العنود ، مؤثراً للمغالبة ، مع إضلال الحجة والجهل بمواضع الشبهة ، والخطرفة عند قصر الزاد ، والعجز عند التوقف ، والمحاكمة مع الجهل بثمرة المراء ، ومغبة فساد القلوب ونكد الخلاف ، وما فى الخوض من اللغو الداعى إلى اللهو ، وما فى المعاندة من الإثم الداعى إلى النار ، وما فى المجاذبة من النكد ، وما فى التغالب من فقدان الصواب .. وكان قليل السماع غمراً ، وصُحفيًّا غفلا ، لا ينطق عن فكر ، ويثق بأول خاطر . . ولا يفصل بين اعتزام الغُمْر ، واستبصار المحق ، يعدّ أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ، وليس فى يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب .

ويقول بعد أن ضاق بدعواه العريضة :

« فلما طال اصطبارُنا حتّى بلغ المجهود منا ، وكدنا نعتاد مذهبه ، ونألفُ سبيله ، رأيت أن أكشف قناعه ، وأبدىَ صفحته للحاضر والبادى . وسكان كل ثغر وكل مصر ،

بأن أسأله عن مائة مسألة أهزأ فيها ، وأُعرفُ الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان فى مكة ليكفّوا عنا من غربه ، وليردّوه بذلك إلى ما هو أولى به . .

لا أريد أن أطيل الوقوف عند هذه الرسالة الفريدة فى أدبنا والتى يحسن بكل أديب مثقف أن يقرأها مرة ومرات بل حسبي الإلماع إلى بعض فقرات منها التى تصوّر مثالب صديقه وتسخر منه بقدر ما تصوّر سجايا الطبع البشرى .

يقول له هازئاً : « يعجبنى منك — جعلت فداك — بغضُ الشُّهرة ودبيبك فى غمار الحشوية ، استغناءً بنفسك ، وصوناً لقدرك ، ومعرفةً بما أعطيت ، وثقةً بالذى أوتيت ، وما أقل ، بحمد الله ، ما سبقك به إبليس ، وما أيسر ما فاتك به آدم فزاد الله شاكرَك نعمة وناصرَك عزة ! »

فكل الصفات التى يوردها تناقض ما عرف عنه :

ويستمر فى حديثه الهازئ وتهكمه الساخر فيخاطبه بقوله :

« جعلتُ فداك ، قد شاهدتَ الإنس مذ خُلقوا ، ورأيت الجن قبل أن يحتجبوا ، ووجدت الأشياء بنفسك خالصة وممزوجة . وأغفالاً وموسومة ، وسالمة مدخولة ، فما تخفى عليك الحجة من الشبهة ، ولا السُّقم من الصحة ، ولا الممكن من الممتنع ، ولا المستغلق من المستبهم ، ولا النادر من البديع ، ولا شبه الدليل من الدليل ، وعرفتَ علامة الثقة من علامة

الريبة ، حتى صارت الأقسام عندك محصورة ، والحدود محفوظة ، والطبقات معلومة ، والدنيا بحذافيرها مصورة ، ووجدت السبب كما وجدت المسبّب ، وعرفت الاعتلال كما عرفت الاحتجاج ، وشهدتَ العلل وهى تولد ، والأسبابَ وهى تُصنع ، فعرفتَ المصنوع من المخلوق ، والحقيقة من التمويه » .

وبعد أن يضفى عليه هذه النعوت ويجعله علامة دهره وفريد عصره يسأله بعض الأسئلة المحرجة فى طبيعة الحياة وظواهر الكون وهى أسئلة وثيقة الاتصال بثقافة عصره .

« . . فما تقول فى الرِّئى وما تقول فى الرؤيا ؟ وما تقول فى إكسير الحياة ؟ وما تقول فى كيموس الصنعة ؟ وما تقول فى الزجر؟ وما تقول فى الفراسة ؟ وما تقول فى الفأل ؟ وما تقول فى الطِّيرَة ؟ . . . »

ويعدّد له الكثير من أحوال الإنس والجن ، ومن الحقائق والأباطيل ، ليحرجه ويكشف عن جهله وادعائه ، وعن صلفه وغروره .

وينتقل بنا من وصف ظاهرة إلى أخرى ، فيصف جماله ويتغزّل بحسنه . . أى جمال وأى حسن وقد وصفه فى بدء الرسالة بأنه مفرط القصَر ويدّعى أنه مفرط الطول ، وكان جعد الأطراف ، قصير الأصابع ، ويدعى البساطة والرشاقة ،

وكان كبير السن، ويدّعي أنه معتدل الشباب :

يقول : «وهل غايةُ الجميل إلا وصفك ، وهل زين البليغ إلا مدحك ؟ وهل يأمُل الشريف إلا اصطناعك، وهل يرجو الملهوف إلا غياثك ؟ وهل للطلاب غرض سواك ؟ وهل للغوانى مثلٌ غيرك ؟ وهل للماتح[1] رجزٌ إلا فيك ؟ وهل يحدو الحادى إلا بذكرك ؟ وهل تقع الأبصار إلا عليك ؟ وهل تصرف الإشارة إلا إليك ؟

« فلولا أن يأخذ الواصف بنصيبه منك ، وبحصته من الصدق فيك ، وبسهمه من الشكر لك . لكان الإطناب عندهم فى وصفك لغواً ، وكان تشقيق الكلام عجزاً ، ولكان تكلفه فضلاً .

ومن هذا الذى يضيره أن يكون ذلك، ويمتحنَ بالتسليم لك ولم يعد إقرارَه إحساناً وخضوعه إنصافاً ؟ أم مَن الشبيه بك فى منزلتك ؟ ألستَ خلفَ الأخيار وبقية الأبرار ؟ وأى أمرك ليس بغاية ؟ وأى شىء منك ليس فى النهاية ؟ وهل فيك شىء يفوق شيئاً أو يفوقه شىء ؟ أو يقال : « لو لم يكن كذا لكان أحسن » أو ، « لوكان كذا لكان أتم » ؟

وبعد هذه التوطئة يصف سحر جماله :

« وأين الحسن الخالص والجمال الفائق والملح المحض

---

(١) الماتح : هو المستقى ، وكان العرب يتناشدون الأراجيز على أفواه الآبار .

والحلاوة التى لا تستحيل والتمام الذى لا يحيل ، إلا فيك أو عندك أو لك أو معك !

« لا . . بل أين الحُسن المصمَت ، والجمال المفرَد والقدّ العجيب والكمال الغريب والملح المنثور والفضل المشهور ، إلا لك وفيك .

« وهل على ظهرها جميل حسيب ، أو عالمٌ أريب ، إلا وظلك أكبرُ من شخصه ، وظنُّك أكثر من علمه ، واسمك أفضل من معناه . وحلمك أثبت من نجواه ، وصمتك أفضل من فحواه ؟ وهل فى الأرض حلم سواك ، وهل أظلت الخضراء ذا لهجة أصدق منك ، وهل حملت النساء أجلّ منك »

ويمضى هكذا فى مفارقاته العجيبة إلى أن يقول :

« ولو لم يكن إلا أنّا لا نستطيع أن نقول فى الجُملة وعند الوصف والمدحة : « هو أحسن من القمر ، وأضوأ من الشمس ، وأبهى من الغيث ، وهو أحسن من يوم الحلبة . . . »

« وإنا لا نستطيع أن نقول فى التفاريق : « كأن عنقه إبريق فضة ، وكأن قدَمه لسان حية ، وكأن عينه ماوية ، وكأن بطنه قبطية ، وكأن ساقه بُرْديّة ، وكأن لسانه ورَقة ، وكأن أنفه حدّ سيف ، وكأن حاجبه خطّ بقلم ، وكأن لونه الذهب وكأن عوارضه البرَد ، وكأن فاه خاتم ، وكأن جبينه هلال .

« وهو أطهر من الماء ، وأرق طباعاً من الهواء ، وهو أمضى من السيل ، وأهدى من النجم — لكان ذلك البرهان النيرّ ،

والدليل البيّن ! وكيف لا يكون ذلك ، وأنت الغاية فى كل فضل ، والنهاية فى كل شكل ! »

وليزيد من هزئه به وسخريته عليه جعل النساء تقع فى حبه بعد أن صوره ، كما قلنا ، آية فى البشاعة ونفى عنه كل مظاهر الرشاقة : صاحب أصابع قصيرة جعدة كأصابع الحيوان ، طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، عتيق الوجه ، وإلى ما شئت من صوَر منفرة :

يقول : « وبعد فمن يطمع فى عيبك ، بل منْ يطمع فى قدرك . وكيف . وقد أصبحتَ وما على ظهرها خودٌ[1] إلا وهى تعثُر باسمك ، ولا قينة إلا وهى تغنى بمدحك ، ولا فتاة إلا وهى تشكو تباريحَ حبك ، ولا محجوبةٌ إلا وهى تنقب الخروق لمرّك ، ولا عجوز إلا وهى تدعو لك ، ولا غيور إلا وقد شقىَ بك !

فكم من كبــد حرّى منضَجه ، ومصدوعة مفرَثَـة[2] وكم من حشا خافق ، وقلب هائم ، وكم من عين ساهرة وأخرى جامدة ، وأخرى باكية ! . .

وكم من عبرَى مُولهة وفتاة معذّبة ، قد أقرَح قلبـها الحزن ، وأجمد عينها الكمَد . قد استبدلت بالحلْى العطلة وبالأنس الوحشة . وبالتكحيل المرَه[3] ، فأصبحتْ والهة مبهوتة ،

---

(١) الخود : الشابة الجميلة . (٢) مفرثة : مشقوقة .

(٣) المره : عدم التكحيل .

وهائمة مجهودة بعد طرف ناصع وسن ضاحك وغنج ساحر ، وبعد أن كانت ناراً تتوقد وشعلة تتوهج ! » .

ويمضى فى وصف ملكاته الفكرية ووصف جماله وهو وصف يثير الضحك إلى أن يقول :

« وقد علمنا أن القمر هو الذى يضرب به الأمثال ويشبه به أهلُ الجمال . وهو مع ذلك يبدو ضئيلاً نضواً ، ويظهر معوجا شختاً[1] ، وأنت أبداً قمرٌ بدر وبحر غمر ، ثم هو مع ذلك يحترق فى السرار[2] . ويتشاءم به فى المحاق ، ويكون نحساً كما يكون سعداً ، ويكون ضراً كما يكون نفعاً ، ويقرض الكتان ، ويشجب الألوان ، ويخم فيه اللحم ، وأنت دائم اليمن ، ظاهرُ السعادة ، ثابت الكمال ، شائع النضج ، تكسو من أعراه ، وتكِن من أشحبه وعلى أنه قد محق حسنَه المحاق ، وشانه الكلف[3] ، وليس بذى توقد واشتعال ، ولا خالص البياض ، ولا متلألئ ، يعاوه الغيم ، ويكسوه ظل الأرض . ثم لا يعتريه ذلك إلا عند كماله . وليلة فخره واحتفاله ، وكثيراً ما يعتريه الصفار ، من بخار البحار ، وأنت ظاهر التمام ، دائم الكمال ، سليم الجوهر ، كريم العنصر ،

---

(١) شختاً ضامراً : نضواً مهزولا .

(٢) السرار : الليالى التى يختنق فيها القمر فلا يرى .

(٣) الكلف ما يعترى القمر من حمرة الخسوف . والمحاق آخر الشهر أو ثلاث ليال من آخره .

ناري التوقد ، هوائى الذهن ، دُرّى اللون ، روحانى البدن !

وفى مترادفات من الأضداد التى تصوره على غير حقيقته يختم هذه الفقرات بقوله :

« على أن ضياءه — ضياء القمر — مستعار من الشمس ، وضياؤك عارية عند جميع الخلق ، فكم بين المعير والمستعير ، والمتبين والمتحير ، وبين العالم وما لا حس فيه ، فلا زالت الأرض بك مشرقة ، والدنيا معمورة ، ومجالس الخير مأهولة ، ونسيم الهواء طيباً ، وتراب الأرض عبقاً » .

وبعد فلا يهمنا من رسالة التربيع والتدوير « هجاء أحمد ابن عبد الوهاب » . فأمثاله عندنا وعند كل الأمم . وفى كل عصر كثيرون ، بل الذى يهمنا هذه الثروة البيانية والتصوير الكاريكاتورى الذى جادت به براعة الجاحظ بأسلوب غاية فى السهولة والجرس الموسيقى فتشعر وأنت تقرأ هذه الرسالة الهجوية . وكأنك تقرأ قصة محبوكة الأطراف تمثل أنماطاً من العقول الآفنة وأصنافاً من البشر المختلفى الأهواء والميول والذين يجمعون النقائض وتتلاقى فى « ذاتيتهم » شتى المتناقضات !

وهنا تبدو براعة الجاحظ فى التصوير النفسانى العميق الذى لا يقل فى نتائجه عما انتهى إليه أكابر علماء النفس .

* * *

إن مجال الكلام عن النفس الإنسانية فى أدب الجاحظ مجال طويل ، فهو طراز وحده بين أدبائنا القدامى ، عاش

فى صراع عنيف مع الحياة ، وعرف البشر على حقيقتهم فصوّر طباعهم أصدق تصوير .

لم يمتلئ قلبه بالحقد ، ولم ينظر إلى الدنيا النظرة التشاؤمية التى تريه الخير شراً ، والنعيم بؤساً ، والنور ظلاماً ، والأغاريد بكاءً وعويلاً . والبسمات التى ترقرق أضواؤها على الشفاه الحالمة ازوراراً ونقمة وعبوساً — لقد فلسف الحياة كما يجب أن تكون الحياة مشرقة الأسارير فغمس قلمه فى تصوير جوانبها المتباينة والنفاذ إلى أعماق أطوائها ثم كتب فجاء وصفه آية فى الدقة وبراعة التصوير .

كان أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم .

وكانت سخريته هى المنفذ المنطلق لجميع مشاكل الحياة . . وللكثير من الهموم والأحزان التى أخذت طريقها إلى نفسه . . فما تكاد تجثم على صدره حتى ينفس عنها بقطعة تصويرية أو بقصة يرسم خياله الخصب خيوطها ، هذا إن لم يستطع انتزاعها من صميم الحياة .

وكان خصومه يتندّرون عليه . ويلصقون به شتى المثالب ، فلا يتخاذل ، ولا تنهار قواه ، بل كان يصمد ، ويكيل لهم الصاع صاعين .

قيل لأبى هفان لمَ لا تهجو الجاحظ وقد ندّد بك وأخذ بمخنقك ؟ فقال : أمثلى يخدع عن عقله ، والله لو وضعَ رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت

فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة !

وكان أكثر تندّرهم على دمامة وجهه وجحوظ عينيه ، فشبهوه بالقرد تارة ، وبالخنزير تارة أخرى . . كما شبهوه بالشيطان . . .

والقصة التى يرويها عن العجوز الشمطاء التى قادته إلى صائغ يهودى وقالت له : مثل هذا . وانصرفت . . جعلته فى شبه حيرة وتعجّب . . وقد ذهل . . فلما انصرفت العجوز . . سأل الصائغ عن قولها : « مثل هذا . . » فقال له : إنها أتتْ إلىّ بفص . . وأمرتنى أن أنقش عليه صورة شيطان . . فأجبتها : « إننى لم أر الشيطان قط » فما كان منها إلاّ أن أتت بك !

ومع أن القصة جاءت على لسانه إلا أننى أميل أن تكون من تلفيق خصومه . . وقد دست فى كتبه . . .

وما كان هذا التندّر عليه إلا ليزيده إمعاناً فى رسم طبائع الناس وتصويرهم على حقيقتهم دون تلك الأقنعة المزيفة التى يتبرقع بها الكثيرون . .

وقد انتقم لنفسه لا بنفس أساليبهم بل بأسلوبه الذى يضفى على الصور المرئية وغير المرئية جدة فى الأسلوب التصويرى وجدة فى الأسلوب الواقعى .

وتبدو عذوبة شخصيته بحدة ذكائه ووفرة نكاته التى تنثال على طرف لسانه فيرويها ولو جاءت على خلاف معتقده .

وقد يرويها على لسان غيره كالقصة التالية :

كان رجلٌ من أهل السواد تشيّع . . وكان ظريفاً .

فقال له ابن عم له :

بلغنى أنك تبغض عليًّا عليه السلام ، ووالله لئن فعلتَ لتردَنَّ عليه الحوضَ يوم القيامة ولا يسقيك .

قال : والحوض فى يده يوم القيامة .

قال : نعم .

قال : وما لهذا الرجل الفاضل يقتلُ الناس فى الدنيا بالسيف وفى الآخرة بالعطش !

فقيل له : أتقول هذا مع تشيّعكَ ودينك ؟

قال : والله . . لا تركتُ النادرةَ ولو قتلتنى فى الدنيا وأدخلتنى النارَ فى الآخرة .

واعتزازه بشخصيته كانت تملى عليه خواطر هى الهزء بسماجة الإمعيين والذين يحرجونه بأسئلتهم الباردة . .

من هذه المباسطات القصة التالية :

دخل عليه أحد الفضوليين فسأله عن حاله . .

فقال له : سألتنى عن الجملة فاسمعها منى واحداً واحداً ،

حالى أن الوزير يتكلم برأيى ، وينفذ أمرى ، ويواتر الخليفة الصلات إلىّ ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب ألينها وأجلس على الليّن الطرى ، وأتكئ على هذا الريش ، ثم أصبر حتى يأتى الله بالفرج . .

فقال له الرجل : الفرج ما أنت فيه . .

قال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ، ويعمل محمد ابن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى . . فهذا هو الفرج !

* * *

وقصة برنارد شو حين جاءته غريتا غاربو الممثلة الحسناء ، وهى فى فجر صباها وقد أخذت بسحر حديثه بعد أن قرأت الكثير من قصصه ورواياته وطريف مقالاته ونكاته — جاءته تقترح عليه أن يتزوج بها عسى أن يرزق طفلاً له رأس أبيه ووجه أمه . .

ماذا كان جواب برنارد شو ؟

قال : إنه يرحب بالمقترح الجميل كل الترحيب لولا خوفه من مكائد الوراثة . . فقد يأتى الطفل وله رأس أمه ووجه أبيه !

هذه الصورة ذاتها نراها عند الجاحظ الدميم الوجه ، القبيح التقاطيع ، المشوه الخلقة ، فقد اشترى جارية تركية رجاء أن يرزق منها ولداً يكون بحسنها وذكائه . .

إن حذر برناردشو كان أقوى من نهم الجاحظ الجنسى . .

فقد تزوج الجارية التركية فولدت له ولداً جاء بقبحه وجهلها !

* * *

عاش الجاحظ سنوات طوالاً فى صراع مع الحياة . . ومع الناس . . وفى صراع مع المذاهب والتيارات الفكرية التى

خاض غمارها بذهن وقّاد . . فحينًا تلفتنا فى واحات أدبه النضير نجد أزاهير مختلفة الألوان ذات عبق . ونجد القتاد والأشواك ذات الوخزات الحادّة ، بل نجد ، إلى هذا ، ذهناً متفتحاً لشتى ألوان الثقافات ، وقلباً ذكيًّا ، وشعوراً مرهفاً ، وإحساساً نفاذاً .

وظلّ حتى العقد العاشر من عمره لم يهدأ إنتاجه الفكرى بالرغم من الأمراض الوبيلة التى لازمته : من الفلج والنقرس . .

* * *

يقول المبرد : دخلت على الجاحظ فى أخريات أيامه فقلت له : كيف أنت ؟

فقال : كيف يكون مَنْ نصفهُ مفلوجٌ لو حزّ بالمناشير ما شعر به ، ونصفهُ الآخر منقرسٌ[1] لو طار الذبابُ بقربه لآلمه .

وأشدّ من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها . . ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنتَ شيخٌ
كما قد كنتَ أيامَ الشباب

---

(١) منقرس : مصاب بالنقرس ، وهو ورم ووجع فى مفاصل الكعبين ، وأصابع الرجلين ، وفي إبهامهما أكثر .

لقد كذبتك نفسك : ليس ثوب
دريس[١] كالجديد من الثيـــاب

* * *

وكان المتوكل قد طلب إلى عامله أن يحمل إليه الجاحظ لتعليم ولديه . . فقال لمن أراد حمله : وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ، ذى شق مائل . ولعاب سائل ، وفرج بائل ، وعقل حائل[٢] .

وقال لمتطبب يشكو إليه علته : اصطلحت الأضداد على جسدى ، إن أكلتُ بارداً أخذ برجلى ، وإن أكلت حارًّا أخذ برأسى .

* * *

فى سنة خمس وخمسين ومائتين انتهت حياة الجاحظ بعد أن ترك فى دنيا الأدب ثروة ضخمة من التآليف فى شتى فنون المعرفة ما زالت تتناقلها الأجيال وتتدارسها بلذة وشوق فتجد عنده الأدب الحى والثقافة الإنسانية التى ترمز إلى حيوية العقل العربى المتطوّر الذى ما عرف قطّ التوقف والجمود بل التجاوب مع الثقافات العالمية المنطلقة .

---

(١) دريس : بال .
(٢) متغير .

لولا قوة الراعى
لهلكت الرعية

إن الناس لا يصلحهم إلا رئيس واحد يجمع شملهم ويكفيهم ويحميهم من عدوهم ، ويمنع قويهم عن ضعيفهم ، وقليل لهم نظام أقوى من كثير لا نظام لهم ولا رئيس عليهم .

إذ قد علم الله سبحانه وتعالى أن صلاح عامة البهائم فى أن يجعل لكل جنس منها فحلاً يوردها الماء ويصدرها وتتبعه إلى الكلأ . كالعير فى العانة والفحل فى الإبل والمجمة ، وكذلك النحل العسالة والكراكى ، وما يحمى الجحور فى المروج إلا الحصان ، فجعل منها رؤساء متبوعة وأذناباً تابعة .

ولو لم يقم الله للناس الوزعة من السلطان ، والحماة من الملوك . وأهل الحياطة عليهم من الأئمة لعادوا نشراً لا نظام لهم ومتكلبين لا زاجر لهم ، ولكان من عزيز ومن قدر قهر ، ولما زال الشر راكداً ، والهرج ظاهراً حتى يكون التغابن والبوار ، وحتى تنطمس منهم الآثار ، ولكانت الأنعام طعاماً للسباع ، وكانت عاجزة عن حماية أنفسها . جاهلة بكثير من مصالح شأنها ، فوصل الله تعالى عجزها بقوة من أحوجه إلى الاستمتاع

بها ، ووصل جهلها بمعرفة من عرف كيف وجه الحيلة فى صونها والدفاع عنها ، وكذلك فرض على الأئمة أن يحوطوها بالحراسة لها والذياد عنها ، ويردّ قويها عن ضعيفها ، وجاهلها عن عالمها ، وظالمها عن مظلومها ، وسفيهها عن حليمها .

فلولا السائس ضاع المسوس . .

ولولا قوة الراعى لهلكت الرعية . .

* * *

وانفراد السيّد بالسيادة كانفراد الإمام بالإمامة . وبالسلامة من تنازع الرؤساء تجتمع الكلمة ، وتكون الألفة ، ويصلح شأن الجماعة .

وإذا كانت الجماعة ، انتهت الأعداء وانقطعت الأهواء .

التعاون الاجتماعى

ثم اعلم ، رحمك الله تعالى ، أن حاجةَ بعض الناس إلى بعض ، صفةٌ لازمةٌ فى طبائعهم ، وخلقةٌ قائمة فى جواهرهم ، وثابتة لا تزايلهم ، ومحيطةٌ بجماعتهم ، ومشتملة على أدناهم وأقصاهم ، وحاجتهم إلى ما غاب عنهم — مما يعيشهم ويحييهم ، ويمسك بأرماقهم ، ويصلح بالهم ، ويجمع شملهم ، وإلى التعاون فى دَرْك ذلك ، والتوازر عليه — كحاجتهم إلى التعاون على معرفة ما يضرهم ، والتوازر على ما يحتاجون من

الارتفاق بأمورهم التى لم تغب عنهم ، فحاجة الغائب موصولةٌ بحاجة الشاهد ، لاحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى ، واحتياج الأقصى إلى معرفة الأدنى . معان متضمّنةٌ ، وأسباب متصلة ، وحبال منعقدة ، وجعل حاجتنا إلى معرفة أخبار منْ كان قبلنا ، كحاجة منْ كان قبلنا إلى أخبار منْ كان قبلهم ، وحاجة منْ يكون بعدنا إلى أخبارنا ، ولذلك تقدّمت فى كتب الله البشارات بالرسل ، ولم يسخر لهم جميعَ خلقه ، إلا وهم يحتاجون إلى الارتفاق بجميع خلقه ، وجعل الحاجة حاجتين : إحداهما قِوامٌ وقوت ، والأخرى لذةٌ وإمتاع وازديادٌ فى الآلة ، وفى كل ما أجذلَ النفوس ، وجمع لهم العتاد ، وذلك المقدار من جميع الصنفين وفقٌ لكثرة حاجاتهم وشهواتهم ، وعلى قدر اتّساع معرفتهم وبُعْد غورهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشرية وفطرة الإنسانية ثم لم يقطع الزيادة إلا لعجز خلقهم عن احتمالها ، ولم يجز أن يفرق بينهم وبين العجز . . إلا بعدم الأعيان ، إذ كان العجز صفة من صفات الخلق ، ونعتاً من نعوت العبيد .

لم يخلق الله تعالى أحداً يستطيعُ بلوغَ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخرَ له . فأدناهم مسخرٌ لأقصاهم ، وأجهلهم ميسر لأدقهم ، وعلى ذلك أحوجَ الملوك إلى السوقة فى باب ، وأحوج السوقة إلى الملوك فى باب ، وكذلك الغنى والفقير ، والعبد وسيدُه ، ثم جعل الله تعالى كل شىء للإنسان

خوَلاً ، وفى يده مذَلّلاً ميسراً ، إما بالاحتيال له والتلطف فى إراغته واستمالته ، وإما بالصولة عليه ، والفتك به ، وإما أن يأتيه سهواً ورهواً . على أن الإنسان لولا حاجتهُ إليها ، لما احتال لها ، ولا صال عليها ، إلا أن الحاجة تفترق فى الجنس والجهة والجبلّة ، وفى الحظ والتقدير .

ثم تعبّدَ الإنسان بالتفكير فيها ، والنظر فى أمورها ، والاعتبار بما يرى ، ووصل بين عقولهم وبين معرفة تلك الحكم الشريفة . وتلك الحاجات اللازمة ، بالنظر والتفكير ، وبالتنقيب والتنقير ، والتثبت والتوقف ، ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم إليها ، وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها والبيان عنها .

ضرورة المجتمع
إلى البيان

وهو البيانُ الذى جعله الله تعالى سبباً فيما بينهم ، ومعبراً عن حقائق حاجاتهم، ومعرفاً لمواضع سد الخَلّة ورفع الشبهة ، ومداواة الحيرة ، ولأن أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح الماثلة ، والأجسام الجامدة ، والأجرام الساكنة ، التى لا يتعرّف ما فيها من دقائق الحكمة وكنوز الآداب ، وينابيع العلم ، إلا بالعقل الثاقب اللطيف ، وبالنظر التامّ النافذ ، وبالأداة الكاملة ، وبالأسباب الوافرة ، والصبر على مكروه

الفكر ، والاحتراس من وجوه الخدع والتحفظ من دواعى الهوى ، ولأن الشكل أفهم عن شكله ، وأسكن إليه وأصب به ، وذلك موجود فى أجناس البهائم ، وضروب السباع ، والصبى عن الصبى أفهم له ، وله آلف وإليه أنزع ، وكذلك العالم والعالم ، والجاهل والجاهل ، وقال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً » لأن الإنسان عن الإنسان أفهم ، وطباعه بطباعه آنس ، وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه .

ثم لم يرض لهم من البيان بصنف واحد ، بل جمع ذلك ولم يفرق ، وكثر ولم يقلل ، وأظهر ولم يخف ، وجعل آلة البيان التى بها يتعارفون معانيهم ، والترجمان الذى إليه يرجعون عند اختلافهم . فى أربعة أشياء . وفى خصلة خامسة . وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة فى جهاتها ، فقد تبدل بجنسها التى وضعت له وصرفت إليه . وهذه الخصال هى : اللفظ ، والخط ، والإشارة ، والعقد ، والخصلة الخامسة ما أوجد من صحة الدلالة ، وصدق الشهادة . ووضوح البرهان ، فى الأجرام الجامدة والصامتة ، والساكنة التى لا تتبين ولا تحس ، ولا تفهم ولا تتحرك إلا بداخل يدخل عليها ، أو عند ممسك خلى عنها ، بعد أن كان تقييده لها .

ثم قسم الأقسام ورتب المحسوسات ، وحصل الموجودات ،

فجعل اللفظ للسامع ، وجعل الإشارة للناظر ، وأشرك الناظر واللامس فى معرفة العقد ، إلا بما فضل الله به نصيب الناظر فى ذلك على قدر نصيب اللامس ، وجعل الخطّ دليلاً على ما غاب من حوائجه عنه ، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه ، وجعله خازناً لما لا يأمن نسيانه ، مما قد أحصاه وحفظه وأتقنه وجمعه ، وتكلّف الإحاطة به ، ولم يجعل للشامّ والذائق نصيباً .

البيان

كلما كانت الدلالةُ أوضح وأفصح ، وكانت الإشارةُ أبين وأنور ، كان أنضح وأنجع .

* * *

الاستعانة بالغريب من « الألفاظ » عجز .

* * *

أحسنُ الكلام ما كانَ قليلُهُ يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه .

* * *

لكل ضرب من الحديث ضربٌ من اللفظ ، ولكل نوع من المعانى نوعٌ من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزْل للجزْل ، والإفصاح فى موضع الإفصاح ، والكناية فى موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال .

ينبغي للمتكلم – أي منْ كان من أصحاب علم الكلام والجدل – أن يعرفَ أقدار المعاني ويوازنَ بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسمَ أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات .

* * *

متى سمعتَ ، حفظك الله ، بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك وأن تحكيها إلا معَ إعرابها ، ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير .

وكذلك إذا سمعتَ بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخيّر لها لفظاً حسناً ، فإن ذلك يفسدُ الإمتاع بها ، ويخرجها من صُورتها ، ومن الذى أريدت له . .

لكل كاتب ألفاظه

. . ولكل قوْم ألفاظٌ حظيتْ عندهم ، وكذلك كلُّ بليغ في الأرض ، وصاحبُ كلام منثور ، وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون ، فلابد من أن يكون قد لهج وألف

ألفاظاً بأعيانها ، ليديرها فى كلامه وإن كان واسع العلم ، غزير المعانى ، كثير اللفظ ، فصار حظ الزنادقة من الألفاظ التى سبقتْ إلى قلوبهم ، واتصلت بطبائعهم ، وجرت على ألسنتهم : التناكح ،والنتائج . والمزاج ، والنور والظلمة ، والدفاع والمناع ، والساتر والغامر ، والمنحل والبطلان ، والوجدان ، والأثير ، والصدّيق[١] وعمود السبح[٢] ، وأشكالاً من هذا الكلام . فصار وإن كان غريباً مرفوضاً مهجوراً عند أهل ملتنا ودعوتنا ، وكذلك هو عند عوامّنا وجمهورنا ، ولا يستعمله إلا الخواص ، وإلا المتكلمون .

الألفاظ المعبِّرة

لكل ضرب من الحديث ضَرْبٌ من اللفظ .
ولكل نوع من المعانى نوع من الأسماء . . .
فالسخيف للسخيف . والخفيف للخفيف ، والجَزْل

(١) الصديق : يعنون به المؤمن الخالص الإيمان . وفى اعتقاد المانوية أن الصديق حين يحتضر يحضره أربعة آلهة ومعهم ركوة ولباس وعصابة وتاج وإكليل النور فيلبسونه التاج والإكليل ويعطونه الركوة بيده . ويعرجون به فى عمود السبح إلى فلك القمر .

(٢) السبح : يراد به العروج والصعود إلى السماء . وفى ذلك العمود الوهمى ترتفع التسابيح والتقاديس والكلام الطيب وأعمال البر .

للجزل ، والإفصاح فى موضع الإفصاح ، والكناية فى موضع الكناية . والاسترسال فى موضع الاسترسال .

وإذا كان موضع الحديث على أنه مُضْحِكٌ ومُلْهٍ ، وداخل فى باب المزاح والطيب ، فاستعملتَ فيه الإعرابَ ، انقلبَ عن جهته ، وإن كان فى لفظه سخف وأبدلت السخافة بالجزالة ، صارَ الحديثُ الذى وُضِع على أن يسُرَّ النفوسَ يكربها ، ويأخذُ بأكظامها .

* * *

ولكل صناعة ألفاظٌ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلاً بينها وبين تلك الصناعة ، وقبيحٌ بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين فى خطبة ، أو رسالة ، أو فى مخاطبة العوام والتجار . أو فى مخاطبة أهله وعبده وأمته ، أو فى حديثه إذا تحدث ، أو خبره إذا أخبر .

وكذلك فإنه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الإعراب ، وألفاظ العوامّ وهو سجىّ صناعة الكلام داخل ، ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل .

الألفاظ والمعانى

وإنما الألفاظُ على أقدار المعانى ، فكثيرُها لكثيرها ، وقليلُها لقليلِها ، وشريفُها لشريفها ، وسخيفُها لسخيفها .

والمعانى المفردةُ ، البائنة بصورها وجهاتها ، تحتاج إلى أقل مما تحتاج إليه المعانى المشتركة ، والجهات الملتبسة .

ولو جَهِد جميع أهل البلاغة أن يخبروا من دونهم عن هذه المعانى ، بكلام وجيز يغنى عن التفسير باللسان ، والإشارة باليد والرأس — لما قدَروا عليه .

وقد قال الأول : « إذا لم يكن ما تريدُ فأرد ما يكون »

وليس ينبغى للعاقل أن يسُومَ اللغات ما ليس فى طاقتها ، ويسُومَ النفوس ما ليس فى جبلتها لذلك صار صاحبُ كتاب المنطق إلى أن يفسره لمن طابَ من قِبَله علم المنطق. وإن كان المتكلم رفيق اللسان ، حسن البيان ، إلا أنى أشك على حال أن النفوس إذ كانت إلى الطرائف أحنّ ، وبالنوادر أشغف ، وإلى قصار الأحاديث أميل ، وبها أصَبّ — أنها خليقةٌ لاستقبال الكثير وإن استحقّتْ تلك المعانى الكثيرة، وإن كان ذلك الطويل أنفع ، وذلك الكثير أردّ[1] .

---

(١) أى أنفع : وفى اللسان هذا أمر أرد عليه أى أنفع له .

الشكل والمضمون

المعانى مطروحةٌ فى الطريق يعرفها العجمىّ والعربى ، والبدوى والقروى ، والمدنى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخيّر اللفظ ، وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع وجَوْدَة السبّك .

فإنما الشعر صناعة وضربٌ من النسج ، وجنس من التصوير .

وقد قيل للخليل بن أحمد : مالك لا تقول الشّعر؟ قال : الذى يجيئنى لا أرضاه . والذى أرضاه لا يجيئنى .

فأنا أستحسنُ هذا الكلام ، كما أستحسنُ جوابَ الأعرابى حين قيل له : كيف تَجِدُكَ ؟

قال : أجدنى أجدُ ما لا أشتهى ، وأشتهى ما لا أجد !

البلاغة

ومتى شاكل اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وَفْقاً ولذلك القدر لِفقاً[1] ، وخرج من سَمَاجة الاستكراه وسَلِمَ

---

(١) اللفق : أحد شقى الملاءة . . . والمراد : مساواة اللفظ لمعناه وملاءمته له .

من فساد التكلّف ، كان قميناً بحسن الموقع ، وحقيقاً بانتفاع المستمع ، وجديراً أن يمنعَ جانبَهُ من تأول الطاعنين ، ويحمى عِرضَه من اعتراض العائبين ، ولا يزالُ القلوب به معمورةً ، والصدورُ به مأهولةً .

ومتى كان اللفظُ أيضاً كريماً فى نفسه ، متخيَّراً من جنسه ، وكان سليماً من الفُضُول ، بريئاً من التعقيد . حُبِّبَ إلى النفوس، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشَّتْ له الأسماع ، وارتاحتْ له القلوب ،وخفّتَ على ألسُنِ الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكرُهُ ، وعظم فى الناس خطرُهُ ، وصار ذلك مادّةً للعالم الرئيس، ورياضة للمتعلِّم الرَّيِّض ، ومنْ أعارَه من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، حبب إليه المعانى ، وسَلَس له نظامُ اللفظ ، وكان قد أغنى المستمعَ عن كدّ التكلّف ، وأراحَ قارئ الكتاب من علاج التفهم . .

الكاتب

ينبغى للكاتب أن يكون رقيق حواشى اللسان ، عذبَ ينابيع البيان ، إذا حاور سدّدَ سهم الصواب إلى غرض المعنى ، لا يكلّمُ العامة بكلام الخاصّة ، ولا الخاصة بكلام العامة .

العناية بالتأليف

ينبغى لمنَ كتب كتاباً أن لا يكتبه إلا على أن الناس كلّهم له أعداء ، وكلّهم عالم بالأمور ، وكلّهم متفرّغ له ، ثم لا يرضى بذلك حتى يدَع كتابه غُفلاً ، ولا يرضى بالرأى الفطير . فإن لابتداء الكتابة فِتنةً وعَجباً ، فإذا سكنت الطبيعة . . أعاد النظرَ فيه . . فيتوقف عند فصوله توقفَ مَنْ يكونُ وزنُ طمعه فى السلامة أنقصَ من وزن خوفه من العيب .

التفكير الصحيح

« الخطأ كثيرٌ غامر ومستول غالب ، والصواب قليلٌ خاص ومقموعٌ مستخفٌ » ويقول : « لعمرى إن العيون لتخطئ . وإن الحواسّ لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن . وما الاستبانةُ الصحيحة إلا للعقل . . . »

صعوبة ترجمة الشعر

. . والشعر لا يُستطاع أن يترجَم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حوِّل تقطّع نظمهُ وبطل وزنه ، وذهب حسنُه ، وسقط

موضعُ التعجب ، لا كالكلام المنثور .

والكلامُ المنثور المبتدأ على ذلك أحسنُ وأوقعُ من المنثور الذى تحوّل من موزون الشعر ..

* * *

وقد نُقلت كتبُ الهند ، وترجمت حكمُ اليونانية ، وحوّلت آداب الفرس ، فبعضها ازدادَ حُسناً ، وبعضها ما انتقص شيئاً ، ولو حوّلت حكمة العرب ، لبطل ذلك المعجز الذى هو الوزن ، مع أنهم لو حولّوها لم يجدوا فى معانيها شيئاً لم تذكره العجم فى كتبهم التى وضعتْ لمعاشهم وفِطَنهم وحِكَمهم . وقد نقلت هذه الكتب مِن أمّة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن . ومِن لسان إلى لسان ، حتّى انتهت إلينا ، وكنا آخرَ من ورثها ونظر فيها . فقد صحّ أن الكتبَ أبلغُ فى تقييد المآثر . من البنان والشعر .

* * *

ثم قال بعضُ منْ ينصر الشعر ويحوطُه ويحتجُّ له : إن الترجمان لا يؤدى أبداً ما قال الحكيمُ ، على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها ، ويؤدىَ الأمانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجرىّ ، وكيف يقدر علي أدائها وتسليم معانيها ، والإخبار عنها علي حقها وصدقها ،

إلا أن يكون فى العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها . مثل مؤلف الكتاب وواضعه .

فمتى كان رحمه الله تعالى ابنُ البطريق . وابن ناعمه ، وأبو قرة ، وابن فهر ، وابن وهيلى ، وابن المقفع مثل أرسطاطاليس ؟ ! ومتى كان خالدٌ مثل أفلاطون ؟ ! . . .

شرائط الترجمان

ولابدّ للترجمان من أن يكون بيانُه فى نفس الترجمة ، وفى وزن علمه فى نفسِ المعرفة .

وينبغى أن يكون أعلمَ الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها ، حتّى يكون فيهما سواءً وغاية . ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين ، علمنا أنه قد أدخلَ الضيمَ عليهما ، لأن كلِ واحدةٍ من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها ، وتعترضُ عليها . وكيف يكون تمكّنُ اللسان منهما مجتمعين فيه ، كتمكّنه إذا انفرد بالواحدة . وإنما له قوّةٌ واحدة . فإن تكلم بلغة واحدة استُفْرِغتْ تلك القوة عليهما ، وكذلك إن تكلم بأكثرَ من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات . وكلما كان البابُ من العلم أعسرَ وأضيق ، والعلماء به أقلّ ، كان أشدّ على المترجم ، وأجدرَ أن يخطئُ فيه . ولن تجد البتة مترجماً يفى بواحدٍ من هؤلاء العلماء .

اللسان

أرشدك الله للصواب ، وعرفك فضل أولى الألباب ، ووهب لك جميل الآداب ، وجعلك ممن يعرف عزّ الأدب كما يعرف زوائد الغنى .

دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله فقلت له : يا أمير المؤمنين فى اللسان عشر خصال : أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق يردّ به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الأشياء ، وواعظ يعرف به القبيح ، ومعزّ ترد به الأحزان ، وخاصة تزهى بالضيقة ، وملهى يونق الأسماع .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : رحم الله امرأً أصلح من لسانه .

وسمع عمر بن عبد العزيز رجلاً يتكلم فأبلغ فى حاجته فقال : هذا والله السحر الحلال .

وقال مسلمة بن عبد الملك : إن الرجل يسألنى الحاجة فتستجيب نفسى له بها ، فإذا لحن انصرفت نفسى عنها .

اللفظ والإشارة
بين الإنسان والحيوان

.. لا يخرج الحيوان فى لغة العرب من فصيح وأعجم ، كذلك يقال فى الجملة ، كما يقال الصامت لما لا يصنع صمتاً قط ، ولا يجوز عليه خلافه . والناطق لما لم يتكلم قط ، فيحملون ما يرغو ، ويثغو ، وينهق ، ويصهل ، ويشحج ، ويخور ، ويبغم ، ويعوى ، وينبح ، ويزقو . ويصغو ، ويهدر ، ويصفر ، ويصوصى ، ويقوقى ، وينعب ، ويزأر ، وينزب ، ويكش ، ويعج[1] ، على نطق الإنسان إذا جمع بعضه على بعض ، ولذلك أشباه كالذكور والإناث إذا اجتمعا ، وكالعير التى تسمى لطيمة ، وكالظعن ، فإن هذه الأشياء إذا وجد بعضها إلى بعض أو أخذ بعضها من بعض ، سميت بأنبه النوعين ذكراً وبأقواهما .

---

(١) الرغاء للإبل ، والثغاء للشاء ، والنهيق للحمير ، والصهيل للخيل ، والشحيج للبغال ، والخوار للثيران . والبغام للظباء . والعواء للذئاب ، والنباح للكلاب . والزقاء للديكة . والضغاء السنابير ، والهدير للفحول ، والصفير للنسور ، والصوصاءة للجراء . والقوقأة للدجاج . والنعيب للغربان والبوم . والزئير للأسد ، والنزيب للظباء أو ذكورها خاصة ، والكشيش للأفاعى تحدثه بجلودها ، والعجيج الصياح . ويراد بها الفحيح وهو صوت الأفاعى الذى تحدثه بأفواهها .

والفصيح هو الإنسان ، والأعجم كل ذى صوت لا يفهمُ إرادته إلا من كان من جنسه .

ولعمرى أنا نفهم عن الفرَس والحمار والكلب والسنور والبعير . . كثيراً من إرادته وحوائجه وقصوده[1] ، كما نفهم إرادةَ الصبي فى مهده ، ونعلم — وهو من جليل العلم — أن بكاءه يدلّ على خلاف ما يدُل عليه ضحكه ، وحمحمةُ الفرس عند رؤية المخلاة ، على خلاف ما يدل عليه حمحمته عند رؤية الحجر ، ودُعاء الهرة الهرّ خلاف دعائها لولدها ، وهذا كثير . .

* * *

والإنسان فصيح ، وإن عبّرَ عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومية .

وليس العربى أسوأ فهماً لطَمْطَمَة الرومى ، من الرومى لبيان لسان العربى ، فكل إنسان من هذا الوجه يقال له فصيح ، فإذا قالوا : فصيح وأعجم ، فهذا هو التأويل فى قولهم أعجم ، وإذا قالوا : العرب والعجم ولم يلفظوا بفصيح وأعجم ، فليس هذا المعنى يريدون ، إنما يعنون أنه لا يتكلم بالعربية ، وأن العرب لا تفهم عنه .

* * *

(١) قصوده : جمع قصد .

ووجدنا الحكمة على ضربين :
شيء جُعل حكمةً وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة ،
وشيء جُعلَ حكمة ، وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة ،
فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل فى جهة الدلالة على أنه حكمة ، واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يَستْدِل ، والآخر دليل يَستْدِل ، فكل مستدَل دليل ، وليس كل دَليل مستدلاً فشارك كل حيوان ، سوى الإنسان ، جميع الجماد فى الدلالة ، وفى عدم الاستدلال . واجتمع للإنسان إن كان دليلاً مستدلاً .

ثم جُعل للمستدل سببٌ يدلُّ به على وجوه استدلاله ، ووجوه ما نتج له الاستدلال ، وسمّوا ذلك بياناً .

* * *

وجعل البيان على أربعة أقسام : لفظ ، وخطّ ، وعقد[1] ، وإشارة . وجُعل بيان الدليل الذى لا يستدلّ تمكينَه المستدِلُّ من نفسه ، واقتيادَه كل من فكر فيه إلى معرفة ما استُخْزِنَ من البرهان ، وحُشِيَ من الدلالة ، وأودع من عجيب الحكمة فالأجسام الخُرْسُ الصامتة ، ناطقة من جهة الدلالة ، ومعربة من جهة صحة الشهادة . على أن الذى فيها من التدبير والحكمة ،

---

(١) العقد : الحساب دون اللفظ والخط ، وهو نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين .

مخبرٌ لمن استخبره ، وناطق لمن استنطقه ، كما خبَّر الهزال ، وكسوف اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السِّمَنُ وحسنُ النَّضرة عن حسن الحال .

فموضوع الجسم ونصبته ، دليل على ما فيه وداعية إليه ، ومنبهة عليه . فالجماد الأبكم الأخرسُ من هذا الوجه ، قد شارك فى البيان الإنسان الحىَّ الناطق . فمن جعل أقسام البيان خمسة ، فقد ذهب أيضاً مذهباً له جواز فى اللغة ، وشاهد فى العقل ، فهذا أحدُ قِسمَىِ الحكمة ، وأحدُ معنيَىْ ما استخزنها الله تعالى من الوديعة .

* * *

والقسمة الأخرى ما أودَع صدورَ صنوف سائر الحيوان ، من ضُروب المعارف وفطرها عليه من غريب الهدايات ، وسخَّر حناجرها له من ضروب النغم الموزونة . والأصوات الملحَّنة ، والمخارج الشجية ، والأغانى المطربة .

قد يقال إن جميع أصواتها معدَّلة ، وموزونة موقعة ، ثم الذى سهَّل لها من الرفق العجيب فى الصنعة ، مما ذلَّله الله لمناقيرها وأكُفِّها ، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيأ لها من الآلة ، وكيف أعطى كثيراً منها من الحِسِّ اللطيف ، والصنعة البديعة ، من غير تأديب وتثقيف ، ومن غير تقويم وتلقين ، ومن غير تدريج وتمرين ، فبلغت بعفوها ، وبمقدار قوى فطرتها ، من البديهة والارتجال ، ومن الابتداء

والاقتضاب ، ما لا يقدرُ عليه حذاق رجال الرأى ، وفلاسفة علماء البشر . بيَد ولا آلة ، بل لايبلغ ذلك من الناس أكملُهم خصالاً وأتمهم خلالاً ، لا من جهة الاقتضاب والارتجال ، ولا من جهة التعسف والاقتدار ، ولا من جهة التقدم فيه ، والتأنى فيه ، والتأتى له ، والترتيب لمقدماته ، وتمكين الأسباب المعينة له ، فصار جهد الإنسان الثاقب الحس ، الجامع القوى ، المتصرّف فى الوجوه ، المقدّم فى الأمور ، يعجز عن عفو كثير منها . وهو ينظر إلى ضروب ما يجىء منها . كما أعطيت العنكبوت ، وكما أعطيت السرْفة ، وكما علم غريب الصنعة فى غير ذلك من أصناف الخلق ، ثم لم يوجب لهم العجزَ فى أنفسهم فى أكثر ذلك . إلا بما قوى عليه الهمجُ والخشاش وصغار الحشرات .

ثم جعل الإنسان ذا العقل والتمكين ، والاستطاعة والتصريف ، وذا التكاييف والتجربة ، وذا التأنى والمنافسة ، وصاحب الفهم والمسابقة . والمتبصرَ شأنَ العاقبة ، متى أحسنَ شيئاً كان كل شىء دونه فى الغموض عليه أسهل ، وجعلَ سائر الحيوان ، وإن كان يحسنُ أحدُها ما لا يحسنُ أحذق الناس متى أحسن شيئاً عجيباً ، لم يمكنهُ أن يحسنَ ما هو أقربُ منه فى الظن ، وأسهلُ منه فى الرأى ، بل لا يحسن ما هو أقرب منه فى الحقيقة ، فلا الإنسان جعل نفسه كذلك ، ولا شىء من الحيوان اختارَ ذلك ، فأحسنتْ هذه الأجناسُ

بلا تعلم ، ما يمتنع على الإنسان وإن تعلم ، فصار لا يحاوله ، إذ كان لا يطمع فيه ، ولا يحسدُها ، إذ لا يؤمِّل اللحاقَ بها ، ثم جعل تعالى وعزّ هاتين الحكمتين بإزاء عيون الناظرين ، وتجاهَ أسماع المعتبرين ، ثم حثّ على التفكير والاعتبار ، وعلى الاتعاظ والازدجار ، وعلى التعرّفِ والتبيّن ، وعلى التوقف والتذكّر ، فجعلها مذكرة منبهة ، وجعل الفِطر تنشئ الخواطر ، وتَجُولُ بأهلها فى المذاهب .

ذلك الله ربُّ العالمين : « فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقين ».

العشق

كلُّ عشقٍ يسمّى حبّاً ، وليس كلُّ حبٍّ يسمّى عشقاً . لأن العشق اسمٌ لما فضَلَ عن المحبّة ، كما أن السرفَ اسمٌ لما جاوز الجود ، والبخلَ اسمٌ لما قصرَ عن الاقتصاد ، والجُبنَ اسمٌ لما فضَل عن شدّةِ الاحتراس ، والهوَجَ اسم لما فضَلَ عن الشجاعة . .

* * *

والعشق داء لا يملك دفعه ، كما لا يستطاع دفع عوارض الأدواء إلا بالحِمْية ، ولا يكاد ينتفع بالحمية مع ما يولد الأغذية ويزيد فى الطبائع بالازدياد فى الطعم ، ولو أمكن أحداً أن يحتمى من كل ضرر ، ويقف عن كل غذاء ، للزم ذلك

المتطبب فى آفات صحته ، ونحل جسمه ، وضوى لحمه ، حتى يؤمر بالتخليط ، ويشار عليه بالعناية فى الطيبات ، ولو ملك أيضاً صرف الأغذية ، واحترس بالحمية ، لم يملك ضرر تغيير الهواء ، ولا اختلاف الماء .

وأنا واصف لك العشق لتعرف حده :

هو داء يصيب الروح ، ويشتمل على الجسم بالمجاورة ، كما ينال الروحَ الضعف من البطش ، والوهن فى المرء ينهكه . وداء العشق وعمومه فى جميع البدن بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم ، وصعوبة دوائه يأتى من قبل اختلاف علله .

وإنه يتركب من وجوه شتى كالحمّى التى تعرض مركبة من البرد والبلغم فمن قصد لعلاج أحد الخلطين كان ناقصاً من دوائه ، زائداً فى داء الخلط الآخر ، وعلى حسب قوة أركانه يكون ثبوته وإبطاؤه فى الانحلال .

فالعشق يتركب من الحب والهوى والمشاكلة والإلف ، وله ابتداء فى المصاعدة ، ووقوف على غاية ، وهبوط فى التواليد إلى غاية الانحلال ووقت الملال .

الحب

الحب اسم واقع على المعنى الذى رسم به لا يعتبر له غيره ، لأنه قد يقال المرء يحب الله ، وإن الله عزّ وجلّ يحب المؤمن .

وإن الرجل يحب ولده ، والولد يحب صديقه وبلده وقومه ، ويحب على أى جهة يريد ولا يسمى ذلك عشقاً ، فنعلم حينئذ أن اسم الحب لا يكتفى به فى معنى العشق حتى تضاف إليه العلل الأخرى . . إلا أنه ابتداء العشق ، ثم يتبعه الهوى فى الأديان والبلدان وسائر الأمور . . ولا يميل صاحبه عن حجته واختياره فيما يهوى . . ولذلك قيل : عين الهوى لا تصدق . . وحبك الشيء يعمى ويصم .. يتخذون أديانهم أرباباً لأهوائهم . وذلك أن العاشق كثيراً ما يعشق غير النهاية فى الجمال ، ولا الغاية فى الكمال ، ولا الموصوف بالبراعة والرشاقة . . ثم إذا سئل عن حجته فى ذلك لم تقم له حجة . . ثم قد يجتمع الحب والهوى ، ولا يسميان عشقاً ، فيكون ذلك فى الولد والصديق والبلد . والصنف من اللباس والفرش والدواب فلم ير أحد منهم يسقم بدنه ولا يتلف روحه من حب ولده ولا بلده وإن كان قد يصيبه عند الفراق لوعة واحتراق . . وقد رأينا وبلغنا عن كثير ممن قد تلف وطال جهده وضناه بداء العشق .

* * *

فاعلم أنه إذا أضيف إلى الحب والهوى المشاكلة — أعنى مشاكلة الطبيعة — أى حب الرجال النساء ، وحب النساء الرجال المركب فى جميع الفحول والإناث من الحيوان صار ذلك عشقاً صحيحاً ، وإن كان ذلك عشقاً من ذكر لذكر

فليس إلا مشتقاً من هذه الشهوة وإلا لم يسمّ عشقاً إذا فارقت الشهوة . . .

ثم لم يره ليكون مستحكماً عند أول لقياه حتى يعقد ذلك الإلف ، وتغرسه المواظبة فى القلب ، فينبت كما تنبت الحبة فى الأرض حتى يستحكم ويشتدّ ويثمر وربما صار لها كالجذع السحوق والعمود الصلب الشديد ، وربما انعقف فصار فيه بوار الأصل ، فإذا اشتمل على هذه العلل صار عشقاً تامًّا . . ثم صارت قلة العيان تزيد فيه ، وتوقد ناره ، والانقطاع يسعره ، حتى يدخل العقل ، وينهك البدن ، ويشتغل القلب عن كل نافعة . ويكون خيال المعشوق نصب عين العاشق ، والغالب على فكرته ، والخاطر فى كل حال على قلبه .

* * *

وإذا طال العهد واستمرّت الأيام نقص على الفرقة واضمحلّ على المطاولة ، وإن كانت كلومه وندوبه لا تكاد تعفو آثارها ولا تدرس رسومها . . فكذلك الظفر بالمعشوق يسرع فى حلّ عشقه . . والعلة فى ذلك أن بعض الناس أسرع إلى العشق من بعض لاختلاف طبائع القلوب فى الرقة والقسوة ، وسرعة الإلف وإبطائه ، وقوة الشهوة وضعفها ، فما يظهر المعشوق عشقه إلا اعداه بدائه ، ونكت فى صدره ،

وشغف فؤاده . . وذلك من المشاكلة وإجابة بعض الطبائع بعضاً ، وتوقان بعض الأنفس إلى بعض ، وتقارب الأرواح ، كالنائم يرى آخر ينام ولا نوم به فينعس ، وكالمتثائب يراه مَن لا تَثاؤب به فيفعل مثل فعله قسراً من الطبيعة، وقلما يكون عشق بين اثنين يستويان فيه إلا عن مناسبة بينهما فى الشبه : فى الخلق والخلق ، وفى الظرف ، أو فى الهوى ، أو الطباع . ولذلك ما ترى الحسَن يعشق القبيح ، والقبيح يعشق الحسَن ، ويختار المختار الأقبح على الأحسن ، وليس يرى الاختيار فى غير ذلك فيتوهم الغلط عليه لكنه لتعارف الأرواح وازدواج القلوب .

المجدولة بين :

المرأة الممشوقة والمرأة السمينة

ورأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة .

والمجدولة من النساء تكون فى منزلة بين السمينة والممشوقة ، ولابدّ من جودة القدّ وحسن الخرط واعتدال المنكبين واستواء الظهر . ولابدّ أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيفة .

وإنما يريدون بقولهم مجدولة : جودة العصب وقلة الاسترخاء وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول .

ولذلك قالوا : خمصانة وسيفانة ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها قضيب خيزران .

والتثنى فى مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك الضخمة والسمينة وذات الفضول والزوائد ، على أن النحافة فى المجدولة أعمّ ، وهى بهذا المعنى أعرف ، وهى بهذا المعنى تحبب على السمان الضخام وعلى الممشوقات والقضاف ، كما تحبب هذه الأصناف على المجدولات .

وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنثور فقالوا : أعلاها قضيب وأسفلها كثيب .

رجلان لا يعشقان!

رجلان من الناس لا يعشقان عشق الأعراب :
أحدهما : الفقير المدقع ، فإن قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه .
وثانيهما : الملك الضخم الشأن ، لأن فى الرياسة الكبرى ، وفى جواز الأمر والنهى ، وفى ملك رقاب الأمم ما يشغل شطر قوى العقل عن التوغل فى الحب والاحتراق فى العشق .

الحب بين الخير والشر

ولما رأينا الحب من أكبر أسباب الشر ، اجتنبنا أن نذكر أبواب السبب الجالب للخير ، ليفرق بينه وبين أبواب السبب الجالب للشر ، وحتى نذكر أصولهما وعللهما الداعية إليهما والموجبة لكونهما ، فتأملنا شأن الدنيا فوجدنا أكبر نعيمها وأكمل لذاتها ظفر المحب بحبيبه والعاشق بطلبه ، ووجدنا شقوة الطالب المكدى وغمه فى وزن سعادة الطالب المنجح وسروره ، ووجدنا العشق كلما كان أرسخ ، وصاحبه به أكلف فإن موقع لذة الظفر منه أرسخ وسروره بذلك أبهج .
فإن زعم زاعم أن موقع لذة الظفر بالعدو المرصد أحسن

من موقع لذة الظفر من العاشق الهائم بعشيقته ، قلنا : إنا قد رأينا الكرام والحلماء وأهل السؤدد والعظماء ربما جادوا بفضلهم من لذة شفاء الغيظ ، ويعدّون ذلك زيادة فى نبل النفس وبعد الهمة وعلو القدر ، ويجودون بالنفيس من الصامت والناطق ، وبالثمين من العروض ، وربما خرج من جميع ماله ، وآثر طيب الذكر على الغنى واليسر ، ولم نر نفس العاشق تسخو بمعشوقه ، ولا يجود لشقيق نفسه ، ولا لوالد ولا لولد بار ، ولا لذى نعمة سابغة يخاف سلبها ، وصرف إحسانه عنه بسببها ، ولم نر الرجال يهبون للرجال إلا ما لا بال له فى جنب ما يهبون للنساء . حتى كان العطر والصبغ والخضاب والكحل والنتف والقصّ والتحذيف والحلق وتجويد الثياب وتنظيفها والقيام عليها وتعهدها مما لم يتكلفوه إلا لهن . ولم يتقدموا فيه إلا من أجلهن ، وحتى كأن الحيطان الرفيعة والأبوب الوثيقة والستور الكثيفة والخصيان والظؤورة والحشوة والحواضن لم تتخذ إلا للصون لهن ، والاحتفاظ بما يجب من حفظ النعمة فيهن .

* * *

لم نجد أحداً من الناس عشق والديه ولا ولده ، ولا من عشق مراكبه ومنزله ، كما رأيناهم يموتون من عشق النساء الحرام .

قال الله تعالى: « زيِّنَ للناس حُبُّ الشَّهوات مِنَ

النِّساءِ والبَنينَ والقناطيرِ المقنطرَةِ من الذهب والفضةِ والخيل المسوَّمةِ والأنعام والحرثِ » فقد دلَّ تبارك وتعالى على جملة أصنافَ ما خولهم من كرامته ومنَّ عليهم من نعمته ، ولم نر الناس وجدوا بشيء من هذه الأشياء وجدهم بالنساء ، ولقد قدم ذكرهن فى هذه الآية على قدر تقدمهن فى قلوبهم .

مكانة الزوجات من الأزواج

ومما يستدل به على تعظيم شأن النساء أن الرجل يُستحلف بالله الذى لا شيءَ أعظم منه ، وبالمشى إلى بيت الله ، وبصدقة ماله ، وعتق رفيقه فيسهل عليه ولا يأنف منه .

فإن استحلف بطلاق امرأته تربّد وجهه ، وطار الغضب فى دماغه ، ويمنع ويعصى ويغضب ويأبى وإن كان المحلف سلطاناً مهيباً ، وإن لم يكن يحبها ، ولا يستكثر منها ، وكانت نفسها قبيحة المنظر ، دقيقة الحسب ، خفيفة الصداق ، قليلة النشب ، وليس ذلك إلا لما قد عظم الله تعالى من شأن الزوجات فى صدور الأزواج .

الدفاع عن النساء

ولسنا نقول ، ولا يقول أحد ممن يعقل أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر .

ولكنا رأينا ناساً يزرون عليهن أشدّ الزراية ، ويحتقرونهن أشدّ الاحتقار ، ويبخسونهن أكثر حقوقهن .

وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال . فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ، ولولا أن ناساً يفخرون بالجلد وقوة المُنّة وانصراف النفس عن حب النساء حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمته وزوجته وولده دليلاً على الضعف ، وباباً من الخور لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه فى هذ الكتاب[1] .

ويقول : ونحن وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة فى جملة القول فى الرجال والنساء أكثر وأظهر فليس ينبغى لنا أن نقصر فى حقوق المرأة ، وليس ينبغى لمن عظّم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات ، وكذلك الإخوة والأخوات والبنون والبنات ، وأنا وإن كنت أرى أن حق هذ أعظم فإن هذه أرحم .

* * *

والمرأة أيضاً أرفع حالاً من الرجل فى أمور منها : أنها التى تُخطب وتراد وتُعشق وتُطلب .

وهى التى تُفدى وتُحمى . قال عنبسة بن سعيد للحجاج

---

(١) يشير إلى كتابه « فى النساء »

ابن يوسف : أيفدى الأمير أهله ؟

قال : والله إن تعدوننى إلا شيطاناً ، والله لربما رأيتنى أقبّل رجل إحداهن .

غناء المرأة وغناء الرجل

الغناء الحسن من الوجه الحسن والبدن الحسن أحسن ، والغناء الشهى من الوجه الشهى والبدن الشهى أشهى . . وكذلك الصوت الناعم الرخيم من الجارية الناعمة الرخيمة .

وكم بين أن تفدى إذ شاع فيك الطرب مملوكاك وبين أن تفدى أمتك ؟

وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهى أن تقبّله ، وبين أن تسمعه من فم تشتّهى أن تصرف وجهك عنه !

وعلى أن الرجال دخلاء على النساء فى الغناء ، كما رأينا رجالاً ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح .

وبعد : فأيما أحسن وأملح وأشهى وأغنج !

أن يغنيك فحل ، ملتف اللحية ، كثّ العارضين أو شيخ متخلع الأسنان ، مغضّنُ الوجه ، ثم يغنيك إذا هو غنى بشعر ورقاء بن زهير :

رأيتُ زَهَيْراً تحتَ كلكل خالـــد
فأقبلت أسعي كالعَجُول أبـــادِرُ

أم تغنّيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها خرطت من ياقوتة ، أو من فضة مجلوة بشعر عكاشة ابن محصن :

من كفّ جارية كأنّ بنانها
من فضّة قد طُرّقتْ عُنّابا
وكأن يُمناها إذَ نطقتْ به
ألقتْ على يدها الشمال حِسابا

* * *

فأما الغناء المطرب فى الشعر الغزل فإنما ذلك من حقوق النساء ، وإنما ينبغى أن تغنّى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة بالنساء اللواتى فيهن نطقت تلك الأشعار وبهن شبب الرجال ، ومن أجلهن تكلفوا القول فى التشبيب .

كتب الزنادقة

. . والذى يدلّ على ما قلنا : أنه ليس فى كتبهم مثلٌ سائر . ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ، ولا حكمة غريبة ، ولا فلسفة ، ولا مسألة كلامية ، ولا تعريفُ صناعة ، ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحة ، ولا تدبير حرب ، ولا منازعة عن دين ، ولا مناضلة عن نِحلة ، وجُلّ ما فيها ذكر النور والظلمة ، وتناكح الشياطين ، وتسافُدُ العفاريت ،

وذكر الصنديد ، والتهويل بعمود السنخ ، والإخبار عن شقلون ، وعن الهامة والهمامة ، وكله هذر ، وعي وخرافة ، وسخرية وتكذب ، لا ترى فيه موعظة حسنة ، ولا حديثاً مونقاً ، ولا تدبير معاش ، ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصة ، فأى كتاب أجهل ، وأى تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الإطاعة ، والبخوع بالديانة لا على جهة الاستبصار والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح دين ! ؟ والناس لا يحبون إلا ديناً أو دنيا : فأما الدنيا فإقامة سوقها وإحضار نفعها . . وأما الدين فأقل ما يطمع في استجابة العامة واستمالة الخاصة ، أن يصور في صورة مغلطة ، ويموه تمويه الدينار البهرج ، فليس إنفاقهم عليها من حيث ظننت ، وكل دين يكون أظهر اختلافاً وأكثر فساداً ، يحتاج من الترقيع والتمويه ، ومن الاحتشاد له والتغليط فيه إلى أكثر . وقد علمنا أن النصرانية أشد انتشاراً من اليهودية تعبداً ، فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم في توكيده واحتفالهم في إظهار تعليمه .

اختلاف طبائع الناس .

اعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ، ولم يحب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم ؛ لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا مجبرين

فى الأمور المتفقة والمختلفة لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة .

وفى هذا ذهاب العيش وبطلان المصلحة والبوار والتواء .

ولو لم يكونوا مسخرّين بالأسباب ، مرتهنين بالعلل لرغبوا عن الحجامة أجمعين ، وعن البيطرة والقصابة والدباغة .

ولكن لكل صنف من الناس مزيّن عندهم ما هم فيه ، ومسهل ذلك عليهم .

فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه، أو سوء حذق ، أو خرقاً قال له : يا حجام .

والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له : يا حائك .

ولذلك لم يجمعوا على إسلام أبنائهم فى غير الحياكة والحجامة والبيطرة والقصابة .

ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبباً للاتفاق والائتلاف لما جعل واحداً قصيراً وآخر طويلا ، وواحداً حسناً والآخر قبيحاً ، وواحداً غنيًّا وآخر فقيراً، وواحداً عاقلاً وآخر مجنوناً، وواحداً ذكيًّا وآخر غبيًّا، ولكن خالف بينهم ليختبرهم ، وبالاختبار يطيعون، وبالطاعة يسعدون . ففرّق بينهم ليجمعهم ، وأحبّ أن يجمعهم على الطاعة ليجمعهم على المثوبة ، فسبحانه وتعالى ما أحسن ما أبلى وأولى ، وأحكم ما صنع ، وأتقن ما دبّر .

لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة ،

ولو رغبوا بأجمعهم عن كدّ البناء لبقينا بالعراء ، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات ، ولبطل أصل المعاش ، فسخرّهم على غير إكراه، ورغبهم من غير دعاء .

ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها ، ومن البلاد إلا أعدلها ، ومن الأمصار إلا أوسطها .

ولو كان كذلك لتناجزوا على طلب الواسط ، وتشاجروا على البلاد العليا ، ولما وسعهم بلد ، ولما تمّ بينهم صلح ، فقد صار بهم التسخير إلى غاية القناعة . وكيف لا يكون كذلك وأنت لو حوّلت ساكنى الآجام إلى الفيافى ، وساكنى السهل إلى الجبال ، وساكنى الجبال إلى البحار ، وساكنى الوبر إلى المدر لأذاب قلوبهم الهمّ ، ولأتى عليهم فرط النزاع .

وقد قيل عمّر الله البلدان بحب لأوطان .

وقال عبد الله بن الزبير رحمه الله تعالى : ليس الناس بشىء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم .

وقال معاوية فى قوم من اليمن رجعوا إلى بلادهم بعد أن أنزلهم من الشام منزلاً خصباً ، وفرض لهم فى شئون العطاء : يصلون أوطانهم بقطيعة أنفسهم .

وقال الله جلّ وعز : « ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من ديارِكم ما فعلوهُ إلاّ قليلٌ منهم » .

فقرض الضنّ بالأوطان إلى الضنّ بمهج النفوس .

وليس على ظهرها إنسان إلا وهو معجب بعقله لا يسرّه ، أن له بجميع ما له ما لغيره .

واولا ذلك لماتوا كمداً ، ولذابوا حسداً ، ولكن كل إنسان وإن كان يرى أنه حاسد فى شىء فهو يرى أنه محسود فى شىء .

ولولا اختلاف الأسباب لتنازعوا بلدة واحدة ، واسماً واحداً ، وكنية واحدة ، فقد صاروا كما ترى ، مع اختيار الأشياء المختلفة ، إلى الأسماء القبيحة ، والألقاب السمجة ، والأسماء مبذولة ، والصناعات مباحة ، والمتاجر مطلقة ، ووجوه الطرق مخلاة ، ولكنها مطلقة فى الظاهر ، مقسّمة فى الباطن ، وإن كانوا لا يشعرون بالذى دبرّه الحكيم من ذلك ولا بالمصلحة فيه .

فسبحان منْ حبّب إلى واحد أن يسمّيَ ابنه محمداً ، وحبّبَ إلى آخر أن يسميه شيطاناً ، وحبّب إلى آخر أن يسميه عبد الله ، وحبّب إلى آخر أن يسمّيه حماراً ، لأن الناس لو لم يخالف بين عللهم فى اختيار الأسماء ، وجاز أن يجتمعوا على شىء واحد كان فى ذلك بطلان العلامات وفساد المعاملات .

وأنت إذا رأيت ألوانهم وشمائلهم واختلاف صورهم ، وسمعت لغاتهم ونغمهم — علمت أن طبائعهم ، وعللهم المحجوبة الباطنة على حسب أمورهم الظاهرة .

وبعض الناس وإن كانوا مسخّرين للحياكة فليس بمسخّر

للفسق والخيانة والأحكام والصدق والأمانة .

وقد يسخّـر الملك لقوم بأسباب قديمة وأسباب حديثة فلا يزال ذلك الملك مقصوراً عليهم ما دامت تلك الأسباب قائمة ، فليس إذا كانوا للملك مسخّرين ، وكان الناس لم مسخرّين بالجبرية والنخوة والفظاظة والقسوة ، ولطول الا حتجاب والاستتار وسوء اللقاء والتضييع ، وقد يكون الإنسان مسخراً لأمر ومخيّراً فى آخر ، واولا الأمر والنهى لجاز التسخير فى دقيق الأمور وجليلها ، وخفيّها وظاهرها ، لأن بنى الإنسان إنما سخروا له إرادة العائدة عليهم ولم يسخروا للمعصية ، كما لم يسخروا للمفسدة . وقد تستوى الأسباب فى مواضع وتتفاوت فى مواضع ، كل ذلك ليجمع الله تعالى لهم مصالح الدنيا ومراشد الدين .

ألا ترى أن أمة قد اجتمعت على أن عيسى عليه السلام هو الله ، وأمة قد اجتمعت على أنه ابن الله ، وأمة اجتمعت على أن الآلهة ثلاثة : عيسى أحدها ، ومنهم مَنْ يتذبذب ، ومنهم مَنْ يتدهر ، ومنهم مَن يتحول نسطوريًّا بعد أن كان يعقوبيًّا ، ومنهم من أسلم بعد أن كان نصرانيًّا !

ولست واجداً هذه الأمة مع اختلاف مذاهبها وكثرة تنقلها ، انتقلت مرة واختلفت مرة متعمدة أو ناسية فى يوم واحد فجعلته وهو الجمعة يوم السبت ، ولم تخطب فى يوم جمعة يوم خميس ، ولا غلطت فى كانون الأول فجعلته كانون الآخر

ولا بين الصوم والإفطار ، لأن الباب الأول فى باب الإمكان وتعديل الأسباب والامتحان . والباب الثانى داخل فى باب الامتناع وتسخير النفوس وطرح الامتحان.

وقد زعم ناس من الجهال ، ونفر من الشكاك ممن يزعم أن الشك واجب فى كل شىء إلا فى العيان أن أهل المنصورة وافوا مصلاهم يوم خميس على أنه يوم جمعة فى زمن منصورى ، وأن أهل البحرين جلسوا عن مصلاهم يوم الجمعة على أنه يوم خميس فى زمن أبى جعفر ، فبعث إليهم وقوّمهم . وهذا لا يجوز ، ولا يمكن فى أهل الأمصار . ولا فى العدد الكثير من أهل القرى ، لأن الناس من بين صانع لا يأخذ أجرته ولا راحة له دون الجمعة ، وبين تجار قد اعتادوا الدعة فى الجمع والجلوس عن الأسواق . . ومن بين معلم كتاب لا يصرف غلمانه إلا فى الجمع . . ومن بين معنى بالجمع يتلاقى هناك مع المعارف والإخوان والجلساء ، وبين معنى بالجمع حرصاً على الصلاة ورغبة فى الثواب ، ومن رجل عليه موعد ينتظره ، ومن صيرفى يصرف ذلك اليوم سفاتجه وكتب أصحابه ، ومن جندى . . فهو يعرف بذلك نوبته ، وبعض كالسؤال والمساكين والقصاص الذين يمدّون أعناقهم للجمعة انتظاراً للصدقة والفائدة، وفى أمور كثيرة وأسباب مشهورة . ولو جاز ذلك فى أهل البحرين والمنصورة لجاز ذلك على أهل البصرة والكوفة ، ولو جاز ذلك فى الأيام لكان فى الشهور

أجوز ، ولو جاز ذلك فى الشهور لكان فى السنين أجوز ، وفى ذلك فساد الحج والصوم والصلاة والزكاة والأعياد . ولو كان ذلك جائزاً لجاز أن يتفق الشعراء على قصيدة واحدة ، والخطباء على خطبة واحدة ، والكتاب على رسالة واحدة ، بل جميع الناس على لفظة واحدة ، وإنما نزلت لك حالات الناس وخبرتك عن طبائعهم ، وفسرت لك عللهم لتعلم أن العدد الكثير لا يتفقون على تخرص الخبر الواحد فى المعنى الواحد فى الزمن الواحد على غير التشاعر فيكون باطلا .

وسأبين لك موضع اختلافهم واتفاقهم ، وأنه لم يخالف بينهم فى بعض الوجوه إلا إرهاصاً لمصلحتهم ولتصح أخبارهم .

ألا ترى أن أحداً لم يبع قط سلعه بدرهم إلا وهو يرى أن ذلك الدرهم خير له من سلعته ، ولم يشتر أحد قط سلعة بدرهم إلا وهو يرى أن تلك السلعة خير له من درهمه . ولو كان صاحب السلعة يرى فى سلعته ما يرى فيها صاحب الدرهم ، وكان صاحب الدرهم يرى فى الدرهم ما يرى فيه صاحب السلعة ما اتفق بينهما شراء أبداً ولا بيع أبداً . وفى هذا جميع المفسدة وغاية الهلكة ، فسبحان الذى حبب إلينا ما فى أيدى غيرنا وحبب إلى غيرنا ما فى أيدينا ليقع التبايع ، وإذا وقع التبايع وقع الترابح ، وإذا وقع الترابح وقع التعايش .

ويدلك أيضاً على اختلاف طبائعهم وأسبابهم أنك تجد الجماعة وبين أيديهم الفاكهة والرطب فلا تجد يدين تلتقيان

على رطابة بعينها ، وكل واحد من الجميع يرى ما حواه الطبق غير أن شهوته وقعت على واحدة غير التى آثرها صاحبه ، ولربما سبق الرجل إلى الواحدة وقد كان صاحبه يريدها فى نفسه غير أن ذلك لا يكون إلا فى الفرط ، ولو كانت شهواتهم ودواعيهم تتفق على واحدة بعينها لكان ذلك فى التمانع والتجاذب والمبادرة وسوء المخالطة والمؤاكلة .

وكذلك هو فى شهوة النساء والإماء والمراكب والكساء ، وهذا كثير والعلم به قليل ، وبأقل مما قلنا يعرف العاقل صواب مذهبنا .

والله تعالى نسأل التوفيق وهو الذى خالف بين طبائعهم وأسبابهم حتى لا يتفق على تخرص خبر واحد . لأن فى اتفاق طبائعهم وأسبابهم فى جهة الأخبار فساد أمورهم وقلة فوائدهم واعتبارهم ، وفى فساد أخبارهم فساد متاجرهم والعلم بما غاب عن أبصارهم ، وبطلان المعرفة بأنبيائهم ورسلهم عليهم السلام ووعدهم ووعيدهم ، وأمرهم ونهيهم ، وزجرهم ورغبتهم وحدودهم وقصاصهم الذى هو حياتهم ، والذى يعدّل طبائعهم ويسوّى أخلاقهم ويقوى أسبابهم ، والذى به يتمانعون من تواثب السباع وقلة احتراس البهائم وإضاعة الأعمار ، وبه تكثر خواطرهم وتفكيرهم وتحسن معرفتهم .

امتزاج الخير بالشر

اعلم أن المصلحة فى أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها ، امتزاجُ الخير بالشر ، والضار بالنافع ، والمكروه بالسارّ ، والضعة بالرفعة ، والكثرة بالقلة .

ولو كان الشرّ صرفاً هلك الخلق ، أو كان الخير محْضاً سقطت المحنة وتقطعت أسباب الفكرة . ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة ، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز ، ولم يكن للعالم تثبّتٌ وتوقّفٌ . وتعلّم . ولم يكن علم ، ولا يعرف باب التبيّن ، ولا دفع مضرة ، ولا اجتلاب منفعة ولا صبرٌ على مكروه ، ولا شكر على محبوب ، ولا تفاضلٌ في بيان ، ولا تنافس على درجة ؛ وبطلت فرحة الظفر وعزّ الغلبة ، ولم يكن على ظهرها محقٌ يجد عزّ الحق ، ومبطلٌ يجد ذلة الباطل ، وموقن يجد برْد اليقين ، وشاكٌ يجد نقصَ الحيرة وكربَ الوجوم ، ولم تكن للنفوس آمال ، ولم تتشعبها الأطماع .

ومن لم يعرف كيف الطمعُ لم يعرف اليأس ، ومن جهل اليأسَ جهلَ الأمن ، وعادت الحالة من الملائكة الذين هم صفوة الخلق ، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء ، إلى حال السبُع والبهيمة ، وإلى حال الغباوة والبلادة ، وإلى حال النجوم فى السّخرة ، فإنها أنقص من حال البهائم فى الرّتعة .

ومَنْ هذا الذى يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج ، أو برجاً من البروج ، أو قطعة من الغيم ، أو يكون المجرة بأسرها ، أو مكيالاً من الماء . أو مقداراً من الهواء ؟

وكل شيء فى العالم فإنما هو للإنسان ولكل مختبر ومختار ، ولأهل العقول والاستطاعة ، ولأهل التبين والروية .

وأين تقعُ لذّة البهيمة بالعلُوفة ، ولذة السبع بالطع الدم وأكل اللحم — من سرور الظفر بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان القرع ؟

وأين ذلك من شرور السؤدد ومن عز الرياسة ؟

وأين ذلك من حال النّبوة والخلافة ، ومن عزّهما وساطع نورهما ؟

وأين تقع لذّة درْك الحواس الذى هو ملاقاة المطعم والمشرب ، وملاقاة الصوت المطرب واللون المونق ، والملمسة اللينة ، من السرور بنفاذ الأمر والنهى ، وبجواز التوقيع ، وبما يوجب الخاتم من الطاعة ويلزم من الحجة ؟ !

ولو استوت الأمور بطل التمييز ، وإذا لم تكن كلفةٌ لم تكن مثوبة . ولو كان ذلك لبطلتْ ثمرة التوكل على الله تعالى ، واليقين بأنه الوزَرُ والحافظ ، والكالئ والدافع ، وإن الذى يحاسبك أجودُ الأجودين ، وأرحم الراحمين . وإنه هو الذى يقبلُ اليسيرَ ويهبُ الكثير ، ولا يهلك عليه إلا هالك ، ولو كان الأمر على ما يشتهيه الغرير والجاهلُ بعواقب الأمور ،

لبطل النظر ، وما يشحذ عليه ، وما يدعو إليه ، ولتعطلت الأرواح من معانيها ، والعقول من ثمارها ولعَدِمت الأشياءُ حظوظها وحقوقها .

فسبحان من جعل منافعها نعمةً ، ومضارها ترجع إلى أعظم المنافع ، وقسمها بين مُلذّ ومؤلم ، وبين مُؤنس وموحش ، وبين صغير حقير وجليل كبير ، وبين عدوّ يرصُدُك ، وبين عقل يحرسك ، وبين مُسالم يَمْنَعُك ، وبين معين يعضُدك ، وجعل فى الجميع تمام المصلحة ، وباجتماعها تتمّ النعمة ، وفى بطلان واحدٍ منها بُطلان الجميع ، قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً .

فإن الجميع إنما هو واحدٌ ضُمّ إلى واحد ، وواحدٌ ضُمّ إليهما ، ولأن الكل أبعاض ، ولأن كل ّ جثة فمن أجزاء ، فإذا جوّزت رفعَ واحد والآخرُ مثلُه فى الوزن وله مثلُ علته وحظه ونصيبه ، فإذا جوّزَت رفع الجميع ، لأنه ليس الأولُ بأحقّ من الثانى فى الوقت الذى رجوتَ فيه إبطال الأول ، والثانى كذلك والثالث والرابع ، حتى تأتى على الكل وتستفرغ الجميع ، كذلك الأمور المضمّنة والأسباب المقيّدة .

ألا ترى أن الجبلَ ليس بأدلّ على الله تعالى من الحصاة .

وليس الطاووسُ المستحسنُ بأدلّ على الله تعالى من الخنزير المستقبح .

والنار والثلج وإن اختلفا فى جهة البرودة والسخونة ،

فإنهما لم يختلفا فى جهة البرهان والدلالة .
وأظنّك ممن يرى أن الطاووسَ أكرمُ على الله تعالى من الغراب ، وأن التَّدْرُجَ أعز على الله تعالى من الحدَأة ، وأن الغزال أحبّ إلى الله تعالى من الذئب ، فإنما هذه أمورٌ فرقها الله تعالى فى عيون الناس ، وميّزها فى طبائع العباد ، فجعل بعضَها بهم أقرب شبهاً ، وجعل بعضها إنسيّاً ، وجعل بعضها وحشيّاً ، وبعضها عاديًّا ، وبعضها قاتلاً ، وكذلك الدرةَ والخرزة والتمرة والجمرة ، فلا تذهب إلى ما تريك العين واذهب إلى ما يريك العقل .

غرور الإنسان

وليس فى الأرض إنسانٌ إلا وهو يطرّب من صوت نفسه، ويعتريه الغَلَطُ فى شعره وفى ولده .
إلا أن الناسَ فى ذلك على طبقات من الغلط : فمنهم الغرق المغمور ، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ ، ومنهم منْ يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه ، فما أحسنَ حاله ما لم يُمْتَحَنْ بالكشف. ولذلك احتاج العاقل فى العجب بولده ، وفى استحسان كتبه وشعره ، من التحفظ والتوقّى ، ومن إعادة النظر والتّهمة إلى أضعاف ما يحتاج إليه فى سائر ذلك .

حبّ الرئيس لقومه

متى أحب السيّدُ الجامع، والرئيس الكامل قومه أشدّ الحب، وحاطهم على حسب حبه لهم كان بُغْضُ أعدائهم له على حسبَ حبِّ قومه له، هذا إذا لم يتوثب إليه، ولم يعترض عليه من بني عمّه وإخوته من قد أطمعتْه الحال باللحاق به، وحَسَدُ الأقارب أشدّ، وعدواتهم على حسب حسدهم.

وقد قال الأولون: رضا الناس شيء لا ينال

وقد قيل لبعض العرب: مَنِ السيّدُ فيكم؟ قال الذى إذا أقبل هبناه، وإذا أدبر اغتبناه.

وقد قال الأول: بَغْضَاء السّوَق[1] موصولة بالملوك والسادة. وتجرى فى الحاشية مجرى الملوك.

ضع نفسك حيث هى

وأنا أزعم أن الناس يحتاجون بَديًّا إلى طبيعة ثم إلى معرفة ثم إلى إنصاف. وأول ما ينبغي أن يبتدئ به صاحبَ الإنصاف أمرَه ألا يعطىَ نفسه فوق حقها، وألا يضعها دون مكانها، وأن يتحفظ من شيئين، فإن نجاته لا تتم إلا بالتحفظ منهما:

---

(١) السوق: جمع سوقة، والسوقة: الرعية.

أحدهما « تُهمة الإلف » ، والآخر « تُهمة السّابق إلى القلب » ، والله الموفق .

الشك واليقين

اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له ، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له .

وتعلّم الشك فى المشكوك فيه تعلّماً. فلو لم يكن فى ذلك إلا تعرّفُ التوقف ، ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه.

ثم اعلم أن الشك فى طبقات عند جميعهم ، ولم يجمعوا على أن اليقين طبقاتٌ فى القوة والضعف .

ولما قال أبو الجهم للمكىّ : أنا لا أكاد أشك ! قال المكى : وأنا لا أكاد أوقن !

ففخر عليه المكىّ بالشك فى مواضع الشك . . كما فخر عليه ابن الجهم باليقين فى مواضع اليقين .

منهجه فى تأليف كتاب « الحيوان »

. . . وما أكثر ما يعرض فى وقت إكبابى على هذا الكتاب ، وإطالتى الكلام ، وإطنابى فى القول . . بيت ابن هَرْمة حيث يقول :

إن الحديثَ تعزّ القومَ خلوتُه
حتى يلجّ بهم رعىٌ وإكثار

وقولهم في المثل: «كل مُجْرٍ في الخلاء يُسَرّ[١]»
وأنا أعوذُ بالله أن أُغَرّ من نفسي، عند غيبة خصمي، وتصفح العلماء لكلامي، فأنا أعلم أن فتنةَ اللسان والقلم، أشدّ من فتنة النساء والحرص على المال.

وقد صادف هذا الكتابُ مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه.

أوّلُ ذلك: العلة الشديدة. والثانية: قلة الأعوان، والثالثة: طول الكتابَ، والرابعة: أني لو تكلفت كتاباً في طوله، وعددَ ألفاظه ومعانيه، ثم كان من كُتُب العَرَض والجوهر، والطفرة[٢]، والتولّد[٣]، والمداخلة[٤] والغرائز[٥] والتماس[٦]— لكان أسهلَ وأقصَرَ أياماً، وأسرع فراغاً،

(١) وأصله أن الرجل يجرى فرسه في المكان الخالى لا مسابق له فيه، فهو مسرور بما يرى من فرسه، يضرب مثلا للرجل تكون فيه الخلة يحمدها من نفسه، ولا يشعر بما في النفس من الفضائل.

(٢) الطفرة: مسألة كلامية تنسب إلى إبراهيم النظام وهي قوله: إن المار على سطح الجسم يسير من مكان إلى مكان بينهما أماكن لم يقطعها هذا المار، ولامر عليها. ولا حل فيها.

(٣) التولد: مبحث كلامى. وذلك أنهم اختلفوا في من رمى سهما فجرح به إنساناً، أو غيره وفي حرق النار. وتبريد الثلج، وسائر الآثار الظاهرة من =

لأنى كنت لا أفزع فيه إلى تلقّط الأشعار ، وتتبّع الأمثال ، واستخراج الآى من القرآن ، والحجج من الرواية ، مع تفرق هذه الأمور فى الكتب ، وتباعد ما بين الأشكال ، فإن وجدت فيه خللاً مع اضطراب لفظ ، ومن سوء تأليف ، أو من تقطيع نظام ، ومن وقوع الشىء فى غير موضعه — فلا تنكره ، بعد أن صورتُ لك حالى التى ابتدأت عليها كتابى .

ولولا ما أرجو من عوْن الله على إتمامه ، إذ كنتُ لم ألتمسْ به إلا إفهامك مواقع الحجج لله ، وتصاريفَ تدبيره ، والذى أودع أصنافَ خلقه من أصناف حكمته — لما تعرّضتُ لهذا المكروه .

فإذا نظرت فى هذا الكتاب فانظرْ فيه نظر منْ يلتمس لصاحبه المخارج ، ولا يذهبُ مذاهبَ التعنّت ، ومذهبَ منْ إذا رأى خيراً كتمه ، وإذا رأى شرًّا أذاعه .

الجمادات . فقالت طائفة : ما تولد من ذلك إنسان أو حى ، فهو فعل الإنسان والحى . واختلفوا فيما تولد من غير حى . فقالت طائفة هو فعل الله . وقالت طائفة هو فعل الطبيعة . وقال آخرون : كل ذلك فعل الله .

(٤) المداخلة : مقالة كلامية لقوم زعموا أن الألوان والطعوم والروائح والأصوات والخواطر أجسام . وأن تلك الأجسام بزعمهم تتداخل فى حيز واحد .

(٥) الغرائز أى الطباع الموجودة فى الأشياء كالحر للنار والبرد للثلج والإسكار للخمر . أثبت ذلك قوم ونفاه آخرون من الأشاعرة .

(٦) والتماس . ويقال أيضاً المجاورة : باب من الكلام يبحث فى اتصال الأجسام بعضها ببعض كالماء باللبن والدقيق بالماء . والزيت بالخل .

من كلماته

« احذَرْ مَنْ تأمَنْ كأنك حَذِرٌ ممّن تخافُ » .

« إذا سمعتَ الرجلَ يقول : ما ترك الأولُ للآخر شيئاً ، فاعلم أنه ما يُريد أن يُفلح » .

« إن تهيأ لك فى الشاعر أن تبرّه وترضيه وإلا فاقتله » .

« عقلُ المنشئ مشغول ، وعقل المتصفّح فارغ » .

« قال لرجل آذاه : أنت والله أحوجُ إلى هوانٍ من كريم إلى إكرام ، ومن علم إلى عمل ، ومن قدرة إلى عفو ، ومن نعمة إلى شكر » .

« ليس فى الأرض عملٌ أكدّ لأهله من سياسة العوام » .

« لا ترى مسجوناً ولا مضروباً عند السلطان إلا وهو يقول : إنى مظلوم » .

« ليس فى الأرض خصمان يتنازعان إلى حاكم ، إلا كل واحد منهما يدّعى عدم الإنصاف والظلم على صاحبه » .

« إنى رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة والأغانى الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها . وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفلة » .

« اللهمَّ جَنِّبنا فُضولَ القول ، والثقةُ بما عندنا ، ولا تجعلنا من المتكلفين » .

« لا ينبغي لمن قلَّ علمه أن يدَع تعليم مَنْ هو أقلّ منه علماً » .

الخلال الأربع المذمومة

واعلم أن الحكماء لم تذم شيئاً ذمها أربع خلال :

١ ــ الكذب : فإنه جماع كل شرّ ، وقد قالوا : لم يكذب أحد قطّ إلا لصغر قدر نفسه عنده .

٢ ــ والغضب : فإنه لؤمٌ وسوء مقدرة ، وذلك أن الغضب ثمرةٌ لخلاف ما تهوى النفس ، فإن جاء الإنسان خلافُ ما يهوى ممّن فوقه أغضى وسمّى ذلك حُزناً ، وإن جاءه ذلك ممّن دونه حمله لؤم النفس وسوء الطباع على الاستطالة بالغضب والمقدرة بالبسطة .

٣ ــ والجزعَ عند المصيبة التي لا ارتجاع لها ، فإنهم لم يجعلوا لصاحب الجزع في مثل هذا عذراً ، لما يتعجّل من غم الجزع ، مع علمه بفوت المجزوع عليه ، وزعموا أن ذلك من إفراط الشره ، وأن أصل الشره والحسد واحد وإن افترق فرعاهما ، وذمّوا :

٤ ــ الحسد كذمّهم الجزع ، لما يتعجّل صاحبُه من ثقل الاغتمام وكلفة مقاساة الاهتمام من غير أن يكون عليه

فى ذلك شيء ، فالحسد اغتمام ، والغدر لؤم ، وقال بعض الحكماء: الحسد خلقٌ دنيء ، ومن دناءته أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب .

وزعموا أنه لم يعذر عاذر قطّ إلاّ لصغر همته عن الوفاء ، وخمول قدره عن احتمال المكاره فى جنب نيل المكارم .

الخلال الأربع المحمودة

وبقدر ما ذمّت الحكماء هذه الأخلاق الأربعة ، فكذلك حَمِدتْ أضدادها من الأخلاق ، فأكثرتْ فى تفصيلها الأقاويل ، وضربتْ فيها الأمثال ، وزعمت أنها أصل لكل كرم ، وجماع لكل خير ، وأن بها تنال جسام الأمور فى الدنيا والدين ، فاجعل هذه الأخلاق إماماً لك ، ومثلاً بين عينيك ، ورُضْ عليها نفسك ، وحكّمها فى أمرك ، تفز بالراحة فى العاجل ، والكرامة فى الأجل .

١ ــ والصبر صبران : فأعلاهما أن تصبر على ما ترجو فيه الغنم فى العاقبة .

٢ ــ والحلم حلمان : فأشرفهما حامك عمّنْ هو دونك .

٣ ــ والصدق صدقان : أعظمهما صدقك فيما يضرك .

٤ ــ والوفاء وفاءان : أسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه.

فإن من عرف بالصدق صار الناس له أتباعاً ، ومن نسب إلى الحلم ألبس ثوب الوقار والهيبة وأبهة الجلالة؛ ومَنْ عُرف بالوفاء استنامتْ إلى الثقة به الجماعات، ومَنِ استعزّ بالصبر نال جسيمات الأمور .

فالصدق والوفاء توءمان .

والصبر والحلم توأمان

فهنّ تمام كل دين ، وصلاح كلّ دنيا ، وأضدادهنّ سببُ كل فرقة وأصل كل فساد .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

أكتوبر ١٩٦١

الثمن ٣٠ مليماً
٣٠ قرشاً سورياً

اقرأ

أحمد مختار

الإنسان والمرض

دار المعارف بمصر

الإنسان والمرض

أحمد مختار

الإنسان والمرض

اقرأ ٢٢٧

دار المعارف بمصر

إقرأ ٢٢٧ – نوفمبر ١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

الإهداء

إلى

الدكتور فوزى منصور

مقدمة

الناس هم نتاج المجتمع الذى يعيشون فيه . فلو عشت فى بلد يعترف بنظام الرق والعبيد أو فى مستعمرة يستغل أبناؤها لصالح المستعمر فلن تستطيع أن تعامل الناس بالمساواة ولن تعامل بها . قد تكون سيداً فى مثل هذه الظروف ، وقد تكون إنساناً مقهوراً على أمره . والمصرى الحديث لا يمكنه أن يتصرف كأحد قدماء المصريين . فشخصية الإنسان تتأثر بالنظام الاجتماعى الذى نما فيه إلى أن يتخذ مكاناً داخل هذا النظام حتى يستقر كجزء منه كيفما كان وأينما يكون .

والحضارة دائماً تتقدم بفضل أناس لا ينسجمون تماماً مع الظروف والأوضاع الاجتماعية التى تسود فى عصورهم . ولهذا فهم يحاولون إضافة شىء جديد أو تصحيح وضع خاطئ . هذا إذا كانت لديهم الأفكار التى تستطيع أن تخلق مجتمعاً أفضل والقدرة على تنفيذ هذه الأفكار أو بعضها .

وهذا لا ينطبق على شىء بقدر ما ينطبق على العلاقة بين الفرد والمجتمع فى مجال الصحة والمرض .

وكما أنك لا تستطيع أن تضمن لنفسك حياة سعيدة فى مجتمع لا يتوفر لجميع أفراده قسط من السعادة . يستحيل عليك

أن تتمتع بحياة صحية فى مجتمع يعانى من الأمراض . والناس ينسون هذه الحقائق دائماً ولكنهم يتذكرونها جيداً إذا ما اجتاحهم وباء أو إذا أطل عليهم شبحه ، عندئذ تقفز هذه الحقيقة إلى أذهانهم ، ولكن سرعان ما ينسونها عندما تنحسر موجته ويشعرون بالأمان .

ولكنه أمان يقوم على أوهام . إن رجلا واحداً توجد فى رئته بؤرة مفتوحة لميكروب السل يمكن أن يبصق فى يوم واحد أكثر من ألف مليون جرثومة من جراثيم السل . ومن الممكن (نظرياً) أن تصاب أنت بالسل لو أصابتك جرثومة واحدة من هذه الملايين . وإذا كنت تظن أنك تعيش بين أفراد لا يمكن أن يكون أحدهم مصاباً بهذا المرض لأنهم يجدون الغذاء الجيد والمسكن النظيف والرعاية الصحية فدعنى أقول لك إن فراش مكتبك أو خادمك أو بواب منزلك قد يكون جسمه مرتعاً لميكروبات السل زمناً طويلا قبل أن يشكو من شىء . ودعنى أزعجك فأذكر لك أن جراثيم السل تعيش فى البصاق الجاف لعدة شهور . وحين تهب نسمة من الهواء حاملة معها بعضاً من هذا البصاق — أينما كنت وأينما ذهبت — فلا تخدعك نشوة النسيم .

إننى لا أريد أن أثير اشمئزازك أو أبث فى نفسك المخاوف والقلق ، ولكنى فقط أذكر لك الحقائق . وهذا الحقائق تؤكد

---

(١) Joseph Bigger: A Handbook of Bacteriology

أنه يستحيل على أى إنسان أن يضع سياجاً بينه وبين مرض يعانى منه المجتمع الذى يعيش فيه . وفى اعتقادى أيها القارئ أن الخطر كل الخطر هو كتمان هذه الحقائق عنك حرصاً على شعورك ومجاملة لإحساساتك .

وفى بلدنا حيث تكون الطفيليات أخطر مشكلة يواجهها الطب فى مصر — يصعب عليك أن تحتفظ بنفسك بعيداً عنها مهما كنت وأينما سكنت حتى ولو كنت طبيباً . قد تستطيع يا سيدى أن تتجنب البلهارسيا والأنكلستوما — هذا صحيح ، ولكنك لن تستطيع أن تنجو من الأسكارس والأميبا نجاة مطلقة .

* * *

صدقنى — أنا لا أريد أن أزعجك وأجعلك ترتاب فى الهواء الذى تستنشقه والماء الذى تشربه والطعام الذى تأكله — فقط أريد أن أوجه نظرك إلى الخطر الذى يحدق بك إذا كان جارك مريضاً ، أقصد بجارك أن يكون منزله قريباً منك ، لأن الذباب والمواصلات تهدم حصن المسافة إذا كنت تظنها حصناً يحميك من جارك ومن مواطنيك .

وللأسف الشديد لم يستطع الجنس البشرى بعد أن يدرك أن بقاء قلة من المحظوظين فى صحة دائمة أمر يستحيل ضمانه فى مجتمع يسمح للمرض بأن يرعى بين الغالبية العظمى ، والطب

نفسه لم يستطع أن يحقق تقدماً ملحوظاً عندما كانت المهنة الطبية تقصر جل اهتمامها على الأثرياء الذين يكونون قطاعاً صغيراً من المجتمع . وعندما بدأ التقدم الطبى الحقيقى ، كان أعظم انتصارات له فى مجال الأمراض التى من طبيعتها أن تعوق الحياة الاقتصادية للمجتمع بأكمله . إذ كان يستحيل أن تتقدم العلوم الطبية طالما أن خدماتها قاصرة على فئة قليلة من الناس . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن التزاوج العلمى لم يكن ممكناً . إلى أن ظهرت طبقة من أنصاف المتعلمين والزراع الأحرار وحصلت على نفوذ اجتماعى، وهكذا تهيأت الفرصة للعلوم النظرية أن تلتقى بالتطبيق العملى على أيدى أفراد هذه الطبقة . ونحن نعلم أن من المستحيل للحضارة أن تزدهر ما لم تلتق الأفكار النظرية مع المهارة اليدوية . وكان التقاؤهما قبل ظهور هذه الطبقة أمراً مستحيلا . ومن هنا فإن الأساس الاجتماعى لمعركة الإنسان مع المرض والجوع يجب البحث عنه وراء العوامل التى مدت خدمات الرعاية الطبية إلى الجماعة كلها وجعلت من دراسة الطب مظهراً من مظاهر الحضارة .

والمفهوم الحديث للمرض لم يمكن التوصل إليه إلا بعد قرون من الأخطاء والأفكار المبهمة التى تتصور المرض على أنه شىء قائم بذاته أو حقيقة مستقلة عن حقائق العالم المادى ، وهو رأى ما زال سائداً فى كثير من الأوساط . وهو أيضاً ذلك الرأى الذى يفسر اعتقادين يبدوان مختلفين ولكنهما فى حقيقة

الأمر متقاربان تماماً : الأول يعزو المرض إلى غضب الآلهة واستياء الأجداد والأسلاف ، والثانى يعزوه إلى قوى الطبيعة المعادية متمثلة فى الجراثيم .

وبينما كان جالينوس وتلاميذه لا يرون فى الجسم البشرى إلا الكمال كل الكمال ، نجد أن طبيب العصر الحديث يكتشف الكثير من عدم الانسجام والتناسق ؛ فالزاوية العقلية التى ينظر منها الإنسان هى التى تحدد وتعين ما يمكن أن يراه . وما إن جاء عصر النهضة حتى كان نفوذ جالينوس قد انتهى أو أوشك وانقضت بذلك فكرة أن الجسم البشرى كامل كل الكمال ، ولو أنه معرض للاضطراب والإفساد . وفى القرون التى تلت ذلك كان التفكير فى كمال التركيب البشرى يقل بقدر ما كان البحث فى مظاهر نقصه واضطرابه يزداد . ومن ذلك أمكن التوصل إلى معلومات هامة عن المرض وأسبابه .

ومع ذلك فلم يمكن تفهم طبيعة المرض كما يؤثر فى الإنسان إلا فى المائة سنة الأخيرة . ولم يعد كمال التركيب البشرى أو مظاهر نقصه محلا للجدال لأن كلا هذين الرأيين يفترض جسداً لا يتغير فى بيئة دائمة التغير . ويدرك الأطباء فى يومنا هذا أن من المستحيل فهم حقائق الصحة والمرض إلا إذا تصورنا الجسم البشرى على أنه نظام ديناميكى يتأثر ويستجيب . باستمرار لمختلف العوامل الخارجية . ولهذا السبب فإن دراسة

الطب يجب أن تمتد إلى كل شيء يتصل بسعادة الإنسان وصحته . وبدلا من أن تقتصر على علاج أمراضه يجب أن تمتد إلى دراسة العالم المحيط به من الخارج جنباً إلى جنب مع دراسة تركيبه الداخلى :

إن الثالوث الجديد للطب الحديث هو : الإنسان — المرض — المجتمع . ويستحيل فصل أى منهما عن الآخر إذا أراد الطب أن يؤدى واجبه على وجه أكمل . وهذا الثالوث يكون وحدة متكاملة لا غموض فيها ولا إبهام . والطبيب الذى يظن أن الجسد ليس إلا تمثالا منحوتاً إنما يدخل الوثنية فى الطب . وهدف هذا الكتاب هو أن يوضح هذه الحقيقة وأن يشرح العلاقة بين هذه العوامل الثلاثة .

الفصل الأول

تطور فكرة المرض

عالم الجماعات البدائية :

إن عالم الجماعات البدائية عالم درامى ، كل شيء يحدث فيه على غير حسبان ، لأن الارتباط السببى بين الظواهر المختلفة لا يتوصل إليه إلا التفكير المنطقى . وبالنسبة للعقل البدائى يبدو المرض شيئاً غير متوقع يأتى على حين غفلة .

وبافتقار الإنسان البدائى إلى فهم سليم للوظائف الطبيعية نراه ينظر إلى المرض – كأى شىء ضار آخر – كدليل على خبث أعدائه وشرورهم . ولا يهم هنا أن يكون العدو فرداً من أفراد القبيلة أو سلفاً من أسلافه أو آلهة غضبى أو حتى القمر السارى أو العاصفة المقبلة . وعلى أساس هذا المنطق البدائى يبدو المرض كقوة خارجية يجب إلحاق الهزيمة بها أو الخضوع لها ومحاولة استرضائها .

ثم كانت الخطوة التالية . فقد رأى الإنسان البدائى أنه يستطيع أن يلحق الضرر بغيره وأن يحق غيره الضرر به بواسطة الآلات الحادة التى كان يستعملها فى حياته اليومية وعندئذ يشعر المصاب بآلام مَرَضية (بفتح الميم والراء) . وبناء على ذلك فهو إذا أحس بأى آلام أخرى اعتقد أنها لابد أن تكون نتيجة لإصابة تلحقها به مخلوقات مثله بآلات كالتى كان يستعملها . ولذلك فهو يرجع المرض إما إلى دخول أشياء غريبة إلى جسمه بفعل سحرى أو شيطانى أو إلى التسمم عن طريق مخلوق شرير أو إلى قوى خفية تكمن فى أفعال أشخاص آخرين .

وكانت هذه النظرية البسيطة محاولة بداثية للربط بين الظواهر المحيطة بالإنسان على أساس استخدام المنطق والقياس .

الطب : حقائق وسحر :

« قد نخطئ إذا ظننا أن الإيمان بالسحر — وما إليه من الأشياء التى ينكرها العقل ويعدها من الخرافات — نبت فى ذهن الإنسان نتيجة للصدفة والارتجال[١] » وأغلب الظن أنه كان محاولة من جانب الإنسان لتفسير الظواهر المادية التى كان عاجزاً عن تفسيرها تفسيراً منطقياً معقولا ، ومحاولة لإيجاد حلول لمواقف كان يصعب على الإنسان بحكم ضعفه أن يتحكم فيها عن طريق لمنطق والعقل . وهكذا تسلل السحر إلى ميدان الطب فكان أسلوباً من أساليب العلاج كما كان سبباً من أسباب الكوارث والمرض .

وخلال العصور التى لم يستطع العقل الإنسانى فيها أن يدرس العلاقة السببية بين الظواهر المادية المحيطة به ، تطورت الملاحظة العابرة والتقاليد المتوارثة إلى ما يسمى بالحقائق التجريبية وكثيراً ما كانت هذه الحقائق تتغلف فى رداء من السحر والشعوذة . بل إن هذه الحقائق هى التى كانت تمد السحر بالقوة والحياة . وتضفى عليه طابعاً من الواقعية وتجعل منه أحد العوامل الفعالة التى تخضع لها الطبيعة .

وأغلب الظن أن الوسائل العلاجية الناجحة كان نجاحها يفسر على أنه أثر من آثار السحر ونتيجة من نتائجه ومع ذلك

(١) طب وسحر — للأستاذ الدكتور بول غليونجى .

فإن تراكم الملاحظات التجريبية أدى فى النهاية إلى إعادة النظر فى السحر كأحد القوى التى تعمل فى هذا الوجود .

الطب عند قدماء المصريين :

كان الطب عند قدماء المصريين من اختصاص الكهنة . إما لأن مجاله كان غامضاً كغموض المعتقدات الدينية أو لأن الكهنة كانوا يستغلون معلوماتهم الطبية للتأثير على الناس والسيطرة على عقولهم ، أو لهذين السببين معاً . وقد تراكمت لدى الكهنة على مر الزمن معلومات قيمة . وعلى العموم يتصف طب قدماء المصريين بالاهتمام بالناحية الوقائية وتنظيم الغذاء . وإلى جانب ذلك فقد كانت المقيئات والمسهلات معروفة لهم . واستخدموا أيضاً المراهم واللبخات . ويحتوى دستور الأدوية لديهم على عدد من الزيوت والعسل وسلفات النحاس والشب والمخ والكبد والقلب ومختلف الأعشاب . وقد تجمعت لدى قدماء المصريين معلومات قيمة فى التشريح اكتسبوها خلال عمليات التحنيط على أن أهم سمات الطب المصرى القديم هى البعد عن النظريات والاكتفاء بوصف الأعراض والاهتمام بالناحية الأخلاقية اهتماماً بالغاً ، وقد كان لهذه الناحية أثر عميق على الطب الإغريقى .

عندما تغزو الفلسفة ميدان الطب :

إن الطب يدين للإغريق بمنهج للبحث وبفلسفة خرافية . أما المنهج فما يزال سارياً . أما الفلسفة فقد عفى عليها الزمن وفاقتها فلسفات أخرى بازدياد العلم والمعرفة .

كان المنهج يتلخص فى الملاحظة الإكلينيكية لحقائق المرض بنفس الشعور المحايد الذى تدرس به كافة الظواهر الطبيعية ومحاولة إدراك الحقائق المتجمعة على أساس منطقى سليم . عندئذ توقف المرض عن أن يكون شيئاً خارجاً عن نطاق الطبيعة ، فمن خلال هذه النظرة الواقعية يصبح من الممكن تجميع الملاحظات الإكلينيكية لكل مرض على حدة ، ومع ذلك فلم يكن فى الإمكان بالطبع الوصول إلى تفسير سليم لطبيعة المرض من مجرد جمع الملاحظات الإكلينيكية .

وفى القرون التالية وجدنا الجانب السيئ من حضارة الإغريق — وهى الفلسفة — وجدناها تطغى على عقول الناس وتؤثر فى أفكارهم أكثر مما فعلت ملاحظاتهم ومناهجهم التجريبى السليم . والواقع أن أسلوبهم هذا قد فقد تماماً فى الإمبراطورية الرومانية المتحللة إلى أن أحياه العرب فترة من الزمان ثم انتقل إلى أوربا عن طريق مناطق الاحتكاك فى إسبانيا وصقلية وشمال أفريقيا .

ومع ذلك فقد أحرز الإغريق تقدماً باهراً فى الطب

لاهتمامهم بالناحية الإكلينيكية وملاحظة تطور المرض ، وقد كان الطب هو الفرع الوحيد من فروع المعرفة لديهم الذى التقت فيه الأفكار النظرية إلى جانب الخبرة العملية ، ولذلك فقد بلغوا بالطب مرتبة رفيعة خاصة وأنهم استفادوا من التراث الذى تركه قدماء المصريين والبابليين والهنود .

الطب عند العرب :

وجاء العرب لتكون حضارتهم امتداداً لحضارة العالم القديم . وبدأوا أولا بالانتفاع بمعلومات من سبقهم عن الطب والعلاج . فاهتموا بترجمة الكتب الطبية عن الإغريق واستعانوا فى ذلك بأساتذة جندى سابور التى كانت مركزاً طبياً وعلمياً هاماً .

ولم يرتق علم التشريح على أيدى العرب ويندر منهم من مارسه ، ولذلك لم ينبغ فى الجراحة بين العرب إلا القليلون . ومع ذلك فقد اهتم الأطباء العرب بوصف تاريخ المرض وتطوره وتسجيل صورة أمينة لأعراضه الإكلينيكية وتحرروا من خرافات التعاويذ والتمائم التى كانت تطغى على الطب قبلهم . هذا فى الوقت الذى كانت الكنيسة فى أوربا تحرم فيه مزاولة الطب على أساس أن الشفاء يأتى عن طريق الطقوس الدينية لأن المرض عقاب من الله ولأن المريض شخص مذنب ولا أمل له فى الشفاء إلا بالتوبة على يد الكنيسة .

وبالرغم من أن الأطباء العرب أحرزوا انتصارات طبية هامة فإن علم الصحة العامة لم يجد اهتماماً كافياً بدليل أن أكثر من أربعين وباء اجتاحت البلاد العربية فى فترة تقع بين القرن السابع والقرن الثانى عشر ، ربما لأن الطب العربى كان أرستقراطياً منذ البداية . وعلى كلٍ فهذا لا يعكس مستوى التقدم الطبى بقدر ما يعكس مستوى المعيشة والظروف الاجتماعية . إذ لا يمكننا أن نلوم الطب العربى لأنه لم يستطع أن يتجنب هذه الأوبئة إلا بقدر ما نلوم الطب الحديث لأنه لم ينجح فى القضاء على أمراض سوء التغذية ، هذا مع الفارق ، لأن الطب الحديث يمكنه – نظرياً – أن يقضى على أخطر الأمراض التى تهدد البشرية ومع ذلك فهو عاجز من القضاء عليها عملياً .

وعن طريق مناطق الاحتكاك بين العرب والأوربيين فى إسبانيا وصقلية وشمال أفريقيا انتقلت العلوم العربية إلى أوربا ، وكانت حركة الترجمة والنقل من المؤلفات العربية إلى اللغات الأوربية واللاتينية من أهم أسباب النهضة الأوربية . وإذا كان بعض المؤرخين ينكرون فضل الحضارة العربية على النهضة الأوربية فإن الكاتب الإنجليزى الشهير هـ . ج. ويلز (١) يعترف بأن العرب هم المؤسسون الحقيقيون

(١) The Outline of History

للأسلوب العلمى فى التفكير ، وأن المدنية الحديثة قد استمدت نورها وقوتها من الحضارة العربية ، وليس من الحضارة اليونانية ويقرر البروفسور لكى Lecky[١] أن النهضة الفكرية فى أوربا لم تبدأ إلا بعد أن انتقل التعليم من الأديرة إلى الجامعات . وإلا بعد أن حطمت العلوم العربية والأفكار اليونانية والاستقلال الصناعى سلطان الكنيسة .

وجاءت النهضة الأوربية بشىء جديد ، ألا وهو دراسة الجسم السليم على أسس طبيعية بدلا من الاقتصار على دراسة الحالات المرضية .

وبتطور التشريح وعلم وظائف الأعضاء ، أمكن فى النهاية ربط الملاحظات الإكلينيكية بأعضاء معينة وأدت الاحتياجات النظرية التى برزت بسرعة من خلال هذه الملاحظات إلى نهضة علم التشريح .

ولم تعد دراسة المظاهر الإكلينيكية تتم فى فراغ ، معزولة عن كل شىء ، وإنما فى إطار من التغيرات العضوية التى تحدث أثناء الحياة ، والتى يمكن الوقوف عليها بتشريح الجثة بعد الوفاة .

إرتقاء علم التشريح :

لو نظرنا إلى الوراء فإننا نرى لرجل الطب فى العصور

---

(١) قصة الفلسفة : للأستاذين أحمد أمين وزكى نجيب محمود .

الوسطى . فلم يكن لديه من الأدوية الفعالة إلا القليل . فالمقيئات والمسهلات والأعشاب المضادة للسخونة كانت هى كل ما يمكن للطبيب أن يصفه لمريضه ولم يستخدم الزئبق لعلاج الزهرى إلا فى القرن السادس عشر . وربما كانت الجراحة هى الميدان الوحيد الذى كان يسترشد فيه الطبيب ببناء من من المعلومات الشاملة التى تستحق إطلاق كلمة العلم عليها .

فإصلاح الكسور ووقف النزيف من الجروح يتطلب معرفة تفصيلية بالهيكل العظمى للجسم وبالأوعية الدموية، هذا إلى جانب معرفة عامة بالأماكن النسبية لأعضاء الجسم المختلفة . وكان أعظم من برع من الزومان فى التشريح هو جالينوس الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى . وكما وصل بطليموس بعلم الفلك السكندرى إلى الذروة ، فقد وصل الطب السكندرى على يد جالينوس إلى القمة . ومثلما كان المجسطى مرجع الفلكيين والجغرافيين عشرات القرون كان « تشريح جالينوس » مرجع الأطباء لفترة مماثلة وقد وصل هذا الكتاب إلى مدارس الطب الأوربية فى العصور الوسطى عن طريق مراكز الحضارة العربية فى الغرب .

وكان طلبة الطب فى العصور القديمة يعتمدون فى دراسة التشريح على جثث الكلاب وغيرها من الحيوانات إلى جانب الاستماع إلى كتابات جالينوس إلى أن ظهر فى عام ١٥٤٣

كتاب جرىء عنوانه : « تركيب الجسم البشرى : De Fabrica Humani Corporis صحح فيه مؤلفه الكثير من الأخطاء الطبوغرافية التى كانت موجودة فى كتب جالينوس ، ومنذ ذلك الحين حدث تغير شامل فى دراسة علم التشريح .

كان مؤلف هذا الكتاب عالماً شاباً يدعى أندرياس ڤيسالياس Visalius ومنذ أن كان طالباً ، كان ڤيزالياس يشعر بضيق صدره لخضوع الدراسات الطبية وخاصة علم التشريح لنفوذ جالينوس الذى كان قد مضى على موته مئات من السنين ، وبمجرد أن واتته الفرصة سافر إلى إيطاليا حيث كان تشريح الجسم البشرى مسموحاً به وهناك استطاع أن يرى بعينيه ويلمس بيديه تفاصيل التركيب التشريحى للجسم البشرى .

وكان من المتعارف عليه فى ذلك الوقت أن حواء قد خلقت من أحد ضلوع آدم فلا بد إذن أن الرجال ينقصهم ضلع فى أحد جنبيهم وكان هذا أمراً مسلماً به . وكان يقال أيضاً إن هناك فى الجسم عظمة أطلقوا عليها اسم : عظمة البعث Resurrection Bone يبعث منها الجسد بعد الموت يوم الحساب . فشل ڤيزالياس فى الحصول على أى دليل يؤيد هذه المعتقدات وكان لديه من الذكاء والشجاعة ما جعله يجرؤ على معارضة هذه الخرافات . ومع ذلك فقد كان نفوذ الكنيسة ما يزال قوياً ، وكان على ڤيزالياس أن يخوض معركة حامية حول أبحاثه منذ أن

نشر كتابه الذى أشرنا إليه إلى أن مات فى سنة ١٥٦٤ .

وكان من الطبيعى أن تؤدى الدراسات التشريحية التى ظلت تتقدم بخطوات واسعة منذ عهد ڤيزالياس إلى البحث فى وظائف الأعضاء التى يكشف التشريح عنها النقاب، وأدى ذلك إلى ظهور علم الفسيولوجيا ، أو علم وظائف الأعضاء . ويجب أن نلاحظ أن تطور هذين العلمين- التشريح والفسيولوجيا - هما أساس كل تقدم حدث بعد ذلك فى علم الأمراض - لأن من المستحيل أن يدرك الطبيب أن ما يراه هو حالة مرضية ما لم يكن على دراية تامة بالأوضاع الطبيعية للجسم من حيث التركيب والوظيفة .

الفسيولوجيا - أو علم وظائف الأعضاء : Physiology

بدأت الدراسة الموضوعية لهذا العلم بمشكلة جراحية هامة هى : كيف يحدث النزيف ؟ وتصادف اكتشافه الإجابة على هذا السؤال الوصول إلى اختراعات جديدة ، فقد اخترعت المضخة فى الوقت الذى أدرك فيه الأطباء أن القلب ما هو إلا مضخة تدفع الدم إلى جميع أنحاء الجسم .

وعندما نرجع إلى ڤيزالياس وأسلافه نجد أن الدم - فى رأيهم - كان يروح ويجىء فى الشرايين والأوردة ، ولم يكن الميكروسكوب قد جاء بعد ليجعل من الممكن رؤية الدم وهو

يجرى من خلال الأنابيب الشعرية التى تخترق أنسجة الجسم جميعها . وبالرغم من أن ڤيزالياس كان قد عبر عن شكوكه فى وجود شعيرات دموية دقيقة تصل بين الأوردة والشرايين ؛ فإن ذلك يستحيل إثباته بالتشريح وحده ومن ثم لم تكن هناك فكرة واضحة عن علاقة القلب والأوعية الدموية بالدم إلى أن جاء ويليام هارڤى (١٥٧٨ ـ ١٦٥٧) . كان هارڤى أكبر إخوته فى عائلة تتكون من سبعة إخوة وأختين . وقد تعلم فى مدرسة كانتربرى ثم فى جامعات كامبردج وپادوا . وفى هذا الوقت كانت الجامعات الإيطالية العظيمة مثل پولونيا وپادوا وپيزا وپاڤيا فى أوج شهرتها . وفى پادوا كان طبيبنا الشاب يتتلمذ على يد ڤابريكياس ، خليفة ڤيزالياس وزميل جاليليو . وكان ڤابريكياس مهتماً بدراسة صمامات الأوردة ، ولكنه لم يستطع أن يعرف وظائفها على وجه الدقة . وكان لهذا أثر خطير فيما بعد على أبحاث ويليام هارڤى .

نشرت أبحاث ويليام هارڤى فى كتابه De Motu Cordis سنة ١٦٢٨ ولكنه كان قد أذاعها فى محاضراته قبل ذلك باثنى عشر عاماً .

أثبت هارڤى بمجموعة من التجارب أن الدم لابد وأن يمر خلال الرئة ليصل من الجزء الأيمن للقلب إلى الجزء الأيسر منه ، ولكن لم يمكن إثبات وجود الشعيرات الدموية فى الرئة على يد

مالبيجى – أستاذ الطب بجامعة پولونيا – إلا بعد وفاة هارڤى بخمس سنوات .

كان اكتشاف الدورة الدموية حادثاً خطيراً ، وليس الإكتشاف فى حد ذاته سبب شهرة هارڤى وإنما الوسيلة التى تم بها الاكتشاف . فقد كان هارڤى من الرواد الأوائل للتجربة العلمية .

فبمختلف التجارب التى شمل بعضها تعريض القلب بقطع الضلوع ، استطاع هارڤى أن يحصل على براهين مباشرة على أن الدم يسير فى دورة مستمرة فالأذينان ينقبضان فيطردان الدم الذى بهما ويدفعانه إلى البطينين ثم ينقبض البطينان ويدفعان الدم خلال الشرايين المختلفة . ومن حججه أيضاً أنه إذا قطع شريان نجد أن النزيف يحدث من الجانب القريب من القلب فقط ، أما إذا قطع وريد فإن النزيف يحدث من الجانب البعيد عن القلب . وهكذا يبدو أن الدورة منظمة على أساس مرور الدم من البطين الأيمن إلى الرئتين إلى الأذين الأيسر فالبطين الأيسر ، إلى الشريان الأبهر ثم الشرايين الفرعية ثم الشعيرات الدموية إلى الأوردة الدقيقة فالأوردة الكبيرة إلى الأذين الأيمن ومنه إلى البطين الأيمن .

وربما لو كان هارڤى قد عاش فى عصر آخر لما استرعت اكتشافاته أى انتباه . وأبسط دليل على ذلك أن الأطباء

الصينيين القدامى كانوا على علم بهذه الحقيقة بل إنه ليقال إنهم حاولوا تعيين معدل مرور الدم . ويقال إن تسون — تسى قال فى القرن السادس قبل الميلاد :

« إن الدم يجرى بصفة مستمرة كتيار النهر أو كالشمس أو كالقمر فى مداريهما — ويمكن مقارنته بدائرة لا بداية لها ولا نهاية »[١] .

والمهم فى اكتشاف هارفى أنه جاء فى وقت كان القوم مهتمين فيه بنوع آخر من المشاكل كالمضخة الميكانيكية .

وفى ذلك الوقت بدأت المشاكل الصحية لعمال المناجم والحوادث التى تحدث لهم تجذب انتباه الأطباء نحو التهوية ومشاكل التنفس الفسيولوجية ، ثم جاء مالبيجى بعد هارفى ليضع الحلقة المفقودة فى مكانها السليم . باكتشافه للشعيرات الدموية ، فقد رأى الدم يمر خلالها فى اتجاه واحد .

وكان من نتائج التجارب التى أجراها هارفى ما يأتى : يفقد الدم لونه الأحمر القانى فى الشعيرات الدقيقة داخل الأنسجة ويكتسب لوناً أرجوانياً ثم يستعيد اللون الأحمر الباهر مرة أخرى فى الشعيرات الدموية الموجودة فى جدران الأكياس الهوائية بالرئتين . وقد أثبت مالبيجى بوضوح تام أن هذه الشعيرات تجاور الهواء الذى يدخل الأكياس الهوائية عن طريق الشعب

---

(١) Lancelot Hogben: Science for the Citizen

الرئوية ولا يفصلهما إلا غشاء رقيق يسمح بتبادل الغازات بينهما ، أى بين الهواء وبين الدم وأثبتت تجارب هوك ومايو فيما بعد أن الحيوان يموت ما لم يصل إلى رئتيه الهواء النقى وأن هذا الهواء ضرورى لمختلف وظائف الجسم . وهكذا تبع أعمال هارفى فهم جديد لوظائف الرئة والتقدم الذى تلى دراسة عملية التنفس يؤكد لنا أهمية الدافع العملى الذى كان نتيجة البحث فى الأمراض المهنية والتى لم تثر أى اهتمام قبل ذلك طالما كانت العناية الطبية قاصرة على الطبقات المترفة . وبعد أبحاث بريستلى لم يكن هناك أى تقدم فى فهم العلاقة بين وظائف الرئة والقلب حتى نهاية الجزء الأخير من القرن التاسع عشر . ثم تآمرت عدة عوامل داخل الحياة الاجتماعية لتحرك الاهتمام بدراسة التنفس دراسة أكثر عمقاً . فبناء الأنابيب تحت الماء واستخدام الغواصين فى بناء الكبارى وإقامة كابلات التلغراف ، عرّض هؤلاء العمال لأخطار جديدة . وإلى جانب ذلك ازدادت أخطار العمل فى المناجم نظراً لازدياد العمق الذى يعمل فيه العمال ازديادا مضطرداً .

وكانت أفكار الأطباء عن عملية التنفس — حتى منتصف القرن السابع عشر — غامضة مشوهة . فالمعرفة بتركيب الهواء لم تكن تامة حتى ذلك الوقت وكنتيجة لذلك كانت كيمائية التنفس غير واضحة على الإطلاق .

وفى سنة ١٦٦٧ أثبت روبرت هووك فى اجتماع للجمعية الملكية البريطانية أن أى حيوان لا يمكنه الاستمرار فى الحياة دون إمدادات متجددة من الهواء . فقد صنع هووك مخلخلة للهواء تمتص الهواء من إناء مغلق يوضع فيه الحيوان فلوحظ أنه لا يلبث أن يموت .

أما چون مايو فقد خطا خطوة أبعد . فقد أعلن إيمانه بأن الهواء يحوى شيئاً ، ما يجعل ناراً ضعيفة تتقد داخل الحيوانات تمكنها من الحياة . ولم يعرف كنه هذا الشيء ولكنه أيقن أنه ضرورى للحياة ، وأعتقد أنه يمر إلى الدم وأن عملية الاحتراق تتم فى الدم والعضلات .

ثم اكتشف جوزيف بلاك غاز ثانى أكسيد الكربون وأثبت أنه يخرج فى هواء الزفير وأنه يتولد أيضاً من احتراق الفحم ،

وكانت الخطوة التالية فى دراسة عملية التنفس هى اكتشاف الأكسجين على يد چوزيف پريستلى سنة ١٧٧٤ ولو أن كلمة الأكسجين كانت من وضع صديقه لافوازييه .

وكان من نتائج التقدم الذى أحرزته الكيمياء والفسيولوجيا فى القرن الثامن عشر ظهور النظرية الميكانيكية التى ترمى إلى تفسير كافة الظواهر الحيوية بتعبيرات طبيعية وكيميائية . فقد أثبت هارفى — لدهشة الكثيرين — أن دورة الدم عملية ميكانيكية بحتة تلعب فيها الأنابيب والسوائل والمضخة القلبية

نفس الدور الذى تلعبه أجزاء مماثلة فى أى جهاز ميكانيكى آخر ، والآن أصبحت عملية التنفس — تلك العملية الحيوية الجوهرية — أصبحت تفسر فى تعبيرات كيميائية كأى تفاعل كيميائى آخر وزاد على ذلك أن سپالانزانى أثبت بنجاح أن الطعام يمكن هضمه خارج جسم الحيوان بواسطة العصارات الهضمية التى تستخرج من المعدة وسلبت بذلك عملية الهضم من بعض الغموض الذى كان يحيط بها .

الميكروسكوب يفتح آفاقاً جديدة أمام الإنسان :

إن الذين استعملوا الميكروسكوب يدركون تماماً مدى سحر العالـم الآخر الذى يطلون عليه من عدسته — ذلك العالـم الذى لم يكن يخطر ببال أحد قبل اختراعه — ويبدو أن استعمال الميكروسكوب وانتشاره بين الهواة فى فجر القرن السابع عشر لم يكن بغرض البحث العلمى بقدر ما كان وسيلة لإشباع الفضول الإنسانى ، ويرتبط اختراع الميكروسكوب باسم الهولندى أنتونى ڤان لى ڤن هويك .

ولد فى هولندا سنة ١٦٣٢ — وكان هاوياً بحاثاً بالرغم من أنه لم يكتسب سابق تدريب علمى . ففحص كل شىء وصلت إليه يداه تحت عدسة ميكرسكوبه البسيط . وقد اكتسب ڤان هويك مهارة فائقة فى صناعة العدسات ولكنه أبقى على طريقة صناعتها غطاء من الكتمان . وقد أمكنه أن يلاحظ تحت

الميكرسكوب حركة الدم فى الشعيرات الدموية لأبى ذنيبة كما لاحظ شكل كرات الدم الحمراء لمختلف الحيوانات واكتشف وجود كائنات حية دقيقة تسبح فى المياه القذرة التى تتكون من سقوط الأمطار — وفى سنة ١٦٨٧ سجل اكتشافه للبكتريا .

وظهر فى عام ١٦٦٥ كتاب فى إنجلترا عنوانه «ميكروجرافيا» ومؤلفه هو روبرت هوك ، والكتاب كما يتضح من عنوانه يحتوى على رسومات ميكروسكوبية تصور مظهر الأنسجة النباتية وشرائح من الفلين عندما ترى تحت الميكروسكوب . وقيمة هذا الكتاب ترجع إلى ما أثاره من اهتمام العلماء بمتابعة الدراسات الميكرسكوبية للأجسام الحيوانية والنباتية .

واستطاع مارسللومالپيجى بعد ذلك (١٦٧٧) أن يسجل ملاحظات ميكروسكوبية على جانب خطير من الأهمية . ولا يزال عدد كبير من التراكيب الميكروسكوبية تحمل اسمه فى عالم التشريح والطب .

وكنتيجة لأبحاث هؤلاء الرواد الأوائل اتضحت صورة الكائنات لا على أنها كتلة من المادة الحية وإنما هى بناء مدهش جميل .

لقد جاء الميكروسكوب ليحدث ثورة فى عالم الحياة وليقفز بالخيال الإنسانى إلى أبعد مما كان مستطاعاً . فقد كشف عن عالم لانهائى من المخلوقات وكان هذا شيئاً عجيباً لمن لاحظوا هذا

أول الأمر إذ هل يمكن أن يكمن عنصر الحياة داخل هذه المخلوقات الحقيرة التافهة ؟ لقد بدا ذلك كما لو كان من سخرية الأقدار أن تشارك الإنسان فى صفات الحياة والوجود الحيوى مثل هذه المخلوقات . ولكن الحقائق أثبتت وجودها . وجاءت هذه الاكتشافات كما لو كانت امتداداً للثورة التى أعلنها جاليليو ونيوتن على عالم بطليموس الضيق الصغير . فمن ناحية جعل الميكروسكوب الإنسان يدرك وجود مخلوقات متناهية فى الصغر لم تكن يوماً من الأيام فى الحسبان ، ومن ناحية أخرى أطلق التلسكوب والإسبكتروسكوب خيال الإنسان من عقاله ليسبح فى الفضاء اللانهائى الذى لاتحده حدود ولا تعرف له نهاية .

* * *

أوضح هوك (١٦٦٥) ومالپيجى وجرو أن الأنسجة النباتية والحيوانية تتكون من وحدات صغيرة متلاصقة ذات عدد كبير . وسمى هوك هذه الوحدات : خلايا .

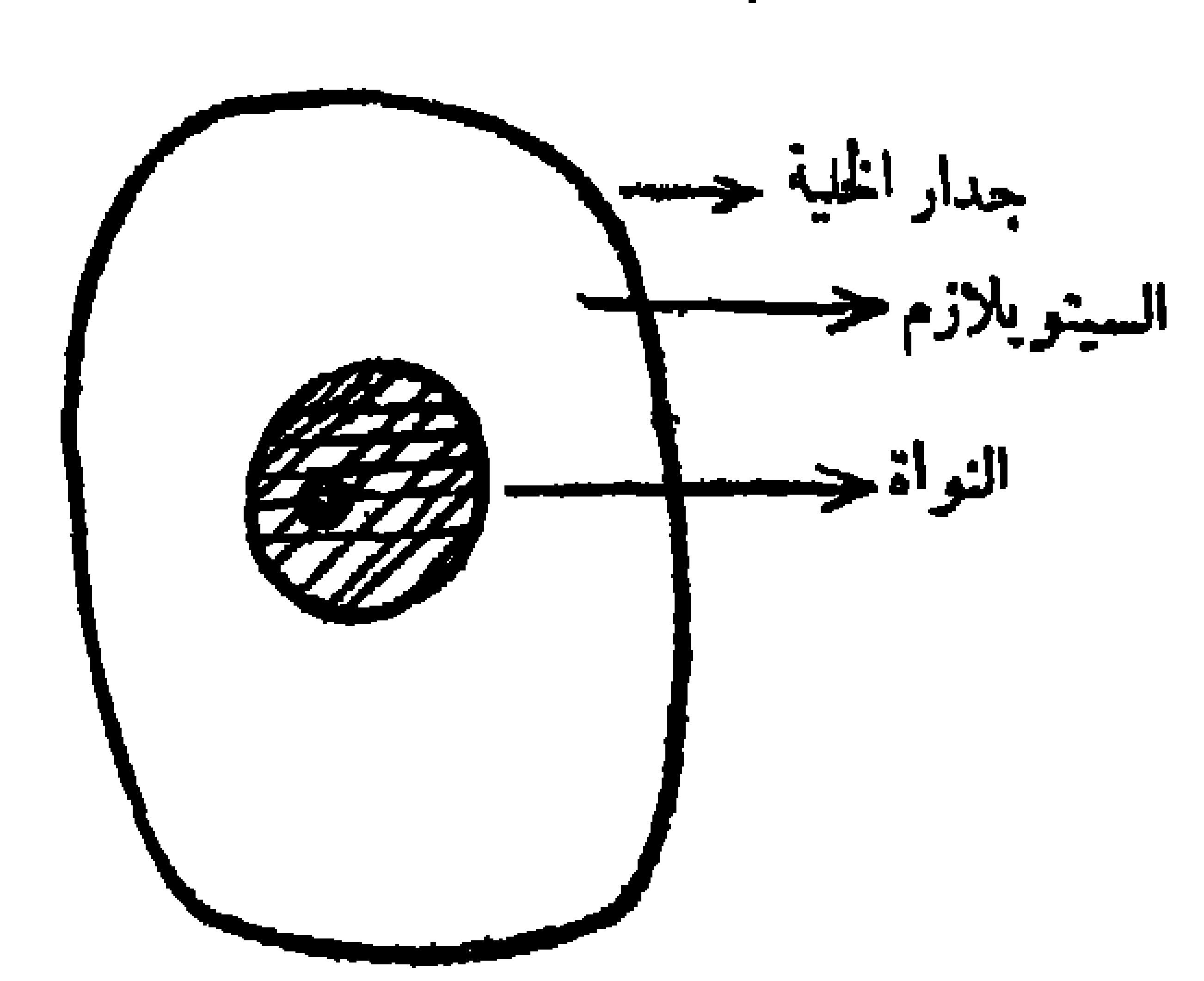
ومع ذلك فإن أحداً لم يدرك أهمية الخلية كلبنة أساسية فى بناء جميع أنسجة الكائن الحى قبل شوان (١٨٠٤ — ١٨٨١) وشليدن (١٨١٠ — ١٨٨٢) . فقد وضع هذان العالمان الألمانيان ما يعرف بنظرية الخلية . وهى النظرية التى تقول بأن أنسجة الجسم تتكون من وحدات صغيرة متشابهة يمكن رؤيتها

تحت الميكروسكوب هى الخلايا . ويمكن أن ندرك أهمية هذه النظرية إذا علمنا أنها تحتل بين العلوم البيولوجية نفس المكانة التى تحتلها النظرية الذرية بين العلوم الكيميائية .

وتتكون الخلية من مادة هلامية يسمونها البروتوبلازم ويفصل كل خلية عما يجاورها جدار رقيق يضفى عليها استقلالها وشخصيتها ويحفظ لها شكلا خاصاً بها . ولو أنه يسمح لها بالتعامل مع العالم الكيميائى الذى يحيط بها من الخارج . وداخل كل خلية يوجد جسم صغير هو النواة وهى مركز القيادة العليا داخل الخلية لأنها تسيطر على جميع الوظائف الحيوية، بحيث لو انتزعناها من الخلية لشاع فيها الاضطراب والفوضى وانهدم البنيان الرائع للخلية .

وفى كثير من الأحيان تتكون الكائنات الحية من وحدات وحيدة تمثل الخلية التى تدخل فى تكوين الكائنات المعقدة . ونحن جميعاً نبدأ حياتنا كإحدى هذه الوحدات أى كخلية واحدة وبتكاثر هذه الخلية وتماسك الخلايا الناتجة عن هذا التكاثر يصل كل منا فى النهاية إلى ما هو عليه من شكل وحجم. نحن جميعاً لسنا إلا خلايا متجمعة وكل منا يتكون مما يقرب من ١٥ ألف مليون خلية . وقد تكون الخلايا صغيرة أو كبيرة مستديرة أو بيضاوية . وقد تكون قرصية كالقرص أو نجمية كالنجوم أو عنكبوتية كالعنكبوت . وبالرغم من الاختلافات

العظمية فى الشكل والحجم فإنها جميعاً مبنية على نظام واحد مشترك بحيث يمكننا أن نوضح فى الرسم التالى ما يمكن تسميته بالخلية المجردة التى تجمع بين الصفات المشتركة بجميع الخلايا .



سبالانزانى وباستير :

كلاهما كان يعمل فى فرنسا ، يفصلهما ثلاثة أرباع قرن من الزمن ، وكان الإخفاق الذى حالف الأول والنجاح الذى حالف الأخير انعكاس للدين الهائل الذى يدين به العباقرة الموهوبون لبيئتهم الاجتماعية .

فمنذ محاولات الإنسان الأولى للتخلص من مضايقات المطر والطين وتراكم القاذورات والفضلات برزت محاولات عديدة لتفسير ظهور الكائنات الحية الدقيقة فى هذه الأماكن . فظهر الرأى القائل بتواجدها تلقائياً ، واكتسب مع الزمن قدسية

الحقائق التى لا تقبل جدالا أو نقاشاً . وفى القرن السادس عشر وصف ڤان هلمونت طريقة لصنع الفئران من المواد العضوية ، ولهذا فليس غريباً أن يؤمن الجميع بأن الذباب يتواجد تلقائياً فى اللحوم المتعفنة وإنما الغريب حقاً أن يشك فرانسسكوردى فى ذلك . بدأ هذا الطبيب الإيطالى فى سنة ١٦٦٨ دراسة هذا الموضوع بطريقة علمية فوضع اللحوم فى أوان ترك بعضها معرضاً للذباب والهواء والبعض الآخر مغطى بإحكام . وأثبت أن الديدان لم تظهر إلا فى الأوانى التى استطاع الذباب أن يضع بيضه فيها على اللحوم . وكان من أثر هذه التجربة البسيطة أنه ثبت أن الذباب أو أحد أطواره الأخرى لا تنتج من اللحوم تلقائياً ولكن من تكاثر ذباب آخر . وعلى الرغم من ذلك لم ينته الجدال فى ذلك الموضوع ، لأن ڤان هويك سجل وجود حيوانات دقيقة يبدو أنها خلقت ذاتياً فى المواد العضوية ، وبالرغم من أن تجارب ردى كانت مقنعة فى موضوع الذباب إلا أنها لم تفسر وجود هذه الكائنات التى كانت تتواجد بطريقة غامضة فى المواد العضوية .

وكان هناك الكثير من الجدال حول طبيعة هذه الكائنات فحتى النصف الأول من القرن الثامن عشر لم يكن الباحثون قد أدركوا بعد أنها كائنات حية حقاً ، ولم ينته الخلاف إلا عندما جاء سپالانزانى — العالم الإيطالى — وأثبت فى سلسلة

هامة من التجارب : أن الكائنات الميكروسكوبية الدقيقة تموت في درجات الحرارة العالية تماماً كالضفادع والسحالى وكأية مخلوقات حية أخرى ، وأنها تلتهم المواد الغذائية الصلبة وتحيلها إلى مادة جسمها وأنها تموت عندما تتعرض للمواد الضارة التى تفتك بالكائنات الحية الأخرى .

وفى ذلك الوقت تقريباً كان يعاصر سپالانزانى قس جيزويتى يدعى نيدهام وكان هذا الرجل ذى ميول قوية لآراء أرسطو الخاصة بظهور الكائنات الحية وظل يسعى لوضع مذهب الخلق الذاتى على أساس متين بإثبات أن الكائنات الدقيقة تظهر فى منقوع النباتات الخضراء التى غليت لقتل ما بها من كائنات حية ثم أغلق عليها بسدادات تمنع دخول أى كائنات إليها . والعيوب التى توجه إلى تجارب نيدهام هى :

١ ــ الحرارة التى استعملها لم تكن كافية والوقت الذى تعرضت فيه مادة التجربة لم يكن كافياً .

٢ ــ لم يجر نيدهام فحصاً ميكروسكوبيًّا لمادة التجربة ليعرف ما إذا كانت هناك كائنات احتملت درجة الحرارة المستعملة وظلت حية أم ماتت جميعها .

٣ ــ السدادات المستعملة كانت من الفلين وهذه تسمح بمرور الكائنات الدقيقة خلالها وبناء على تجربة واحدة معيبة كهذه تسرع بافون ــ العالم الفرنسى ــ إلى تشييد بناء ضخم من

النتائج والتقارير الخاطئة التى ظلت مسيطرة على الدراسات العلمية لقرن كامل بعد ذلك .

ولم يكن بد من أن يصطدم سپالانزانى مع كل من نيد هام وبافون . ويقول سپالانزانى عن تجربة نيدهام « لقد أعدت تلك التجربة واستعملت أوانى محكمة وتركتها لمدة ساعة كاملة فى ماء يغلى وبعد أن فتحتها وفحصت محتوياتها بعد فترة مناسبة من الزمن لم أجد أقل أثر لكائنات حية علماً بأننى فحصت بالميكروسكوب محتويات تسعة عشر آنية » .

وبالرغم من ذلك ظلت آراء بافون سائدة لمائة عام أخرى . . ومن آراء بافون التى أذاعها أن هناك أجزاء مشتركة بين الحيوانات والنباتات . وهذه الأجزاء أو الجزئيات تشكل نفسها فى أشكال تميز مختلف المخلوقات بعضها عن بعض . وعندما تموت الحيوانات أو النباتات وتتحلل تنطلق الجزئيات العضوية وتصبح حرة نشطة ثم تتجمع مع بعضها لتكون كائنات جديدة .

وبمرور الزمن ظهر الرأى القائل بظهور المرض أيضاً ظهوراً ذاتياً ، ولاقى إجماعاً تاماً . وبالرغم من أن الميكروسكوب البسيط أدى إلى اكتشاف الميكروبات والكائنات الحية الدقيقة فإن أهميتها كمسببات للمرض لم تخطر على بال أحد إلى أن أمكن التوصل إلى صنع ميكروسكوبات أفضل ذات قوة تكبير عظيمة مما شجع دراسة هذه الكائنات دراسة أكثر دقة .

وبين عامى ١٨٦٠ و ١٨٦٤ عاد موضوع الخلق الذاتى ليحتل مكان الصدارة فى المناقشات بين العلماء . وكان الجدال على أشده بين پاستير من ناحية ، وبين بوشيه وجولى وموسيه من ناحية أخرى. ولكن پاستير تمكن بسهولة من إفحام معارضيه. وذلك بإجراء عدة تجارب بسيطة كالتى سبق أن أجراها سپالانزانى . والواقع أننا لا نستطيع أن نفهم بسهولة سبب إهمال آراء سپالانزانى إلا إذا تذكرنا أنها لم تكن ذات أثر مباشر على المجتمع الذى عاش فيه ، بينما كانت تجارب پاستير وأبحاثه على التخمر والتعفن وليدة مشاكل الصناعة الفرنسية . سنة ١٨٤٠ إنتشر وباء فى دودة الحرير كاد يقضى على صناعة الحرير فى فرنسا فطلبت الحكومة الفرنسية رسمياً من پاستير أن يبحث الأمر، فنجح فى معرفة الميكروب المسبب لهذا الوباء ووصف طريقة عملية للتعرف على الديدان المصابة بالميكروسكوب وقد جذبت هذه التجربة انتباه پاستير . وحولت اهتمامه إلى البحث فى جراثيم الأمراض التى تصيب الإنسان . وكانت قد تجمعت فى ذلك الوقت أدلة عديدة على أن وجود الجراثيم يرتبط بأمراض معينة ووضعت أبحاث پاستير على ديدان الحرير مثلا على ذلك . وأثبت كوخ أنه لو أخذت عينة من دم حيوان مريض بالحمى الفحمية وحقن بها حيوان آخر سليم فسرعان ما تظهر أعراض هذا المرض وعلاماته على الحيوان الأخير . هناك إذن « شىء ما » يوجد فى دم الحيوان المريض بالحمى الفحمية يمكنه أن يسبب ذات

المرض لو حقن به حيوان سليم . ثم أثبتت الأبحاث الميكرسكوبية والإكلينيكية علاقة الميكروبات بالمرض . بما لا يدع مجالا للشك فى ذلك . وبالرغم من هذا فلم يحدث أى تقدم جدى لفهم الطريقة التى تتكاثر بها البكتريا . ولم يمكن الحصول على سلالات نقية منها إلى أن تمكن كوخ ــ العالم الألمانى ــ من اختراع طريقة لزرع البكتريا . فقد وجد كوخ أن الميكروبات الموجودة فى دم ضحايا الحمى الفحمية تتكاثر بسرعة فى السائل المستخلص من الغرفة الداخلية للعين ثم تمكن هو وغيره من العلماء من اكتشاف طرق أخرى لزرع الميكروبات . وكان ذلك نقطة تحول خطيرة فى الدراسات البكتربولوجية لأنها مكنت العلماء من الحصول على سلالات نقية لكل ميكروب؛ فالمعروف أن لكل مرض ميكروب معين خاص به فميكروب السل مثلا يختلف عن ميكروب التيفود وكانت المعايير التى اتخذها كل من كوخ وپاستير على أن مرضاً ما هو نتيجة لميكروب معين هى :

١ ــ أن يكتشف الميكروب فى الأشخاص المصابين بالفحص الميكروسكوبى .

٢ ــ أن تستحضر مزرعة جديدة نقية للميكروب المتهم من أنسجة هؤلاء المرضى .

٣ ــ أن ينقل المرض نفسه إلى حيوانات التجارب بحقنها بالميكروب المزروع .

ثم لاحظ كوخ أنه عندما تُربىّ ميكروبات الحمى الفحمية على مزارع معينة فإنها تستطيل ثم تتكور فى بعض أجزائها مكونة ما يمكن أن يسمى بذوراً : Spores ومثل هذه البذور تقاوم الجفاف والحرارة بحيث لوزرعت فيما بعد على وسط مناسب فإنها تعطى مستعمرات من الجراثيم .

وكان اكتشاف هذه البذور خطوة هامة فى التقدم الطبى ، فقد هدمت الاعتراضات التى أقامها بعض الأطباء نتيجة فشلهم فى العثور على جراثيم الحمى الفحمية والذين انتهوا لهذا السبب إلى أن وجود هذه الجراثيم ليس له علاقة بالمرض . وألقى هذا الإكتشاف أيضاً الضوء على إحدى طرق انتشار الأمراض المعدية . فقد وُجِدَ أن بذور بعض أنواع الجراثيم — فليس لكل الجراثيم بذور — أكثر قدرة على احتمال الظروف القاسية . فمثلا سرعان ما تموت جراثيم الحمى الفحمية فى الأكسجين المضغوط ، وهى تموت أيضاً بسرعة عندما تتعرض لدرجة حرارة ٨٠°م ، أما بذور هذه الجراثيم فهى لا تموت فى الأكسجين وهى تحتمل درجة حرارة تصل إلى ٨٠°م لعدة ساعات ، لذلك كان اكتشاف البذور الجرثومية خطوة هامة فى تطور الاحتياطات التعقيمية ، ولهذا السبب فإن الأدوات الجراحية توضع قبل استعمالها فى درجة حرارة أعلى من درجة غليان الماء لعدة ساعات .

النظرية الخلوية للمرض :

ثم كانت الخطوة التالية دراسة قوى الالتئام والمقاومة التى تساعد الجسم فى معركته مع المرض . ونتيجة لاستخدام الميكروسكوب أصاب الطب تقدماً عظيماً فى فهم ودراسة التغيرات المرضية التى تحدث فى الأعضاء والأنسجة والخلايا . وهكذا أصبحت الدراسة الميكروسكوبية أكثر أهمية من الدراسة التشريحية — التى تعتمد على العين المجردة — للتغيرات المرضية . وأمكن بفضل الميكروسكوب دراسة الآثار الضارة للمرض جنباً إلى جنب مع محاولات الالتئام والمقاومة داخل الخلية . وأصبح علم الأمراض علماً يسجل تطور المعركة بين العوامل التى تسبب المرض من ناحية وبين العوامل التى تحد من انتشاره أو تقضى عليه من ناحية أخرى .

وبينما كان مورجاجنى يرى المرض على صورة تغيرات تحدث فى الأعضاء . ويراه بيشات على صورة تغيرات تحدث فى الأنسجة ، جاء فيركوف ليرى أن الأسرار كلها تقبع داخل الخلية .

وهكذا أصبحت النظرية الخلوية للمرض أمتن أساس لتقسيم الحالات المرضية . فالتغيرات التى تحدث فى الخلايا تمكننا من التمييز الدقيق بين مختلف المظاهر المرضية (بفتح الميم والراء) مما يستحيل تحقيقه بالعين المجردة فى معظم الأحوال .

فقد يكون الكبد المتضخم قرمزياً أو أصفر اللون وإذا تحسسته قد تجده صلباً أو لبناً ولكن الفحص الميكروسكوبى سيحدد تماماً الموقع الطبوغرافى للإصابة المرضية : The lesion ويدلنا إن كان ذلك فى نسيج الكبد ذاته أو فى أوعيته الدموية أو فى الهيكل الليفى الذى يتخلله . وإلى جانب ذلك فإن التغيرات التى نراها فى الخلايا المصابة سوف تحدد علاقة الاضطراب المرضى بالتغيرات الميكروسكوبية المشابهة التى تحدث فى الجسم . فوجود خلايا سرطانية فى الكبد يقودنا إلى البحث عن إصابات سرطانية فى أماكن أخرى من الجسم .

والتنوع الهائل فى التغيرات المرضية التى تلاحظ فى الخلايا يؤدى إلى دراسة العوامل المختلفة التى تحدث هذه الصور المتباينة . فالأسباب التى تحدث تضخماً فى الكبد قد تختلف عن تلك التى تحدث تليفاً وانكماشاً .

وتراكم الدهون فى الكبد يقودنا إلى دراسة الدور الذى تلعبه هذه المواد فى عمليات الهدم والبناء التى تحدث داخل الجسم ، واكتشاف نوع معين من هذه الدهون فى خلايا الكبد لشخص ما قد يعنى مرضاً لا أمل فى الشفاء منه ليس فقط بالنسبة للمريض الذى تمت دراسة حالته وتشخيصها وإنما أيضاً بالنسبة لبعض أقاربه لأنه مرض عائلى ، أى يصيب مجموعة من الأفراد تنتمى إلى عائلة واحدة ، بينما اكتشاف أنواع غيرها من الدهنيات

قد لا يعنى شيئاً ذى بال .

هذا بينما نقطة واحدة من الدم يتم فحصها فى المعمل قد تعنى حكماً بالموت أو تضع الطريق السليم أمام الطبيب ليختار العلاج المناسب .

واكتشاف أن ورماً معيناً ليس من الأورام الخبيثة يعنى علاجاً يختلف كل الاختلاف عما لو كان هذا الورم سرطاناً .

ليس هناك أمراض وإنما هناك مرضى :

كانت أبحاث پاستير مرحلة مزهرة من مراحل التطور الطبى . فقد مكنتنا لأول مرة من أن نفهم طبيعة المرض فهماً سليماً . ولم يكن پاستير طبيباً منذ بداية حياته العملية فقد كانت أولى أعماله تتصل بمشاكل الصناعة وكانت مشكلة الساعة فى عصره هى المشكلة الكيميائية : أيكون التخمر تفاعلا كيميائياً أم حيوياً ؟ . كما كانت هناك مشاكل بيولوجية خطيرة كمشكلة الخلق الذاتى التى بحثناها من قبل.

أثبت پاستير أن البكتريا ليست من نواتج عملية التخمر والتعفن ولكنها السبب المباشر لهاتين العمليتين كما أثبت أنها لا تخلق خلقاً ذاتياً . ثم استدار پاستير ليطبق اكتشافاته فى ميدان المرض . ولأول مرة فى تاريخ البشر زال الغموض والإبهام الذى كان يحيط بالمرض . فانتقال العدوى إلى الكائن الحى

بواسطة ميكروب معين يمكن زرعه يؤدى دائماً إلى سلسلة معينة من الإضطرا بات . ويمكن دائماً عزل الميكروب المسبب للمرض بين الحيوان المصاب ولو نقلناه إلى حيوان آخر لأصابه نفس الإصابة ولأحدث نفس الاضطرابات المرضية التى أحدثها فى الحيوان الأول .

وما دام الإنسان قد توصل إلى أسباب المرض فقد تفتحت أمامه الطرق للقضاء عليها والتخلص منها فضلا عن وقف آ ثارها وعلاجها . كانت هذه هى أحلام الأطباء فى القرن الماضى . ثم فى أوائل القرن الحالى .

ولم يكن النجاح بطيئاً فى مجيئه . فالجمرة وداء الكلب أمكن علاجهما وتطورت أساليب جديدة فى الطب لم تكن معروفة من قبل فقد أمكن إنتاج الأمصال التى تحوى أجساماً مضادة للميكروبات وسمومها .

وعندما اكتشف كوخ Kooh جرثومة السل كان التخلص من هذا المرض هدفاً يظن أنه قر يب المنال .

ولكن سرعان ما بدا كل شىء شاذًّا مشوهاً . فقد نسوا أن الميكروب شىء ، وأن المرض شىء آخر . وتجاهلوا أو جهلوا أن المرض تفاعل بين الميكروب وبين الشخص المصاب ، وأنه علاقة بين هذين الطرفين تؤدى إلى حالة اضطراب مرضى . ونسوا أيضاً أن الشخص المصاب ليس عاملا سلبيًّا فى هذه

العلاقة . فليس كل الذين يتعرضون للعدوى يقعون فريسة للإصابة بالمرض . وهذا يتضح تماماً أثناء الأوبئة .

وكان هناك شيء آخر سبب الكثير من الحيرة والألم فقد فشل العلماء فى العثور على الميكروبات كسبب لبعض الأمراض (مثل السرطان وبعض أمراض الأوعية الدموية والجهاز العصبي والغدد) وكان من الممكن افتراض أن التقدم الفنى والعلمى سوف يؤدى فى النهاية إلى اكتشاف ميكروبات تسبب هذه الأمراض . ولكن سرعان ما تعين التخلى عن هذه الآمال وانهار البناء الذى كان القوم يحلمون بإقامته على أساس نظرية توحيدية للمرض توضع فيها الميكروبات وحدها موضع الاتهام عندما تحققوا أن الاضطراب الذى ينبع من داخل الإنسان يمكن أن يؤدى إلى أمراض ليست أقل شدة وعنفاً مما تحدثه الجراثيم .

فقد لوحظ أن الأطفال الذين يولدون بلهاء تكون غددهم الدرقية فى حالة غير سليمة ، وأن هذه الغدد لها وظائف على جانب خطير من الأهمية ، وأنه فى حالات البله وحالات الميكسديما فإن التغذى على الغدد الدرقية النيئة للحيوانات سرعان ما يشفى المريض .

وفى منتصف القرن التاسع عشر اتضح دور الوراثة فى المرض وهكذا أكدت هذه الاكتشافات أهمية الجانب الآخر

فى عملية المرض وأعنى به الإنسان .

وفى يومنا هذا أصبح من الضرورى أن يدرك الطبيب أن المرض ليس شيئاً قائماً بذاته يمكن التغلب عليه بدواء سحرى كحجر الفلاسفة مثلا ، ولكنه سلسلة من التفاعلات ليست إلا محصلة لمجموعة من الاضطرابات الداخلية والخارجية .

الأمراض إذن ليست قوى أولية ، إنها نتائج لتلاعب عدة عوامل والتقائها جميعاً فى وقت واحد . والأدلة على ذلك لا نهاية لها . فالاضطرابات العاطفية والعقلية تزداد انتشاراً فى وقت الشدة . والأوبئة لها علاقة وثيقة بسوء التغذية والظروف غير الصحية والأمراض المزمنة بما يصحبها من أزمات حادة هى من نصيب الذين يحاولون الحياة فى ظروف لا تلائم الحياة .

ليستوالظروف الجغرافية لها أيضاًدور تلعبه. فالرطوبة تساعد على ظهور أمراض كالبرد . والأنفلونزا والروماتزم وهى أمراض ليست منتشرة فى المناطق الجافة . واختفاء أمراض كانت الأجيال السابقة تعانى منها وظهور أمراض لم تكن معروفة من قبل دليل على أن المرض ليس صورة جامدة أو حقيقة من حقائق الطبيعة التى لا تتغير ، أو قانوناً من قوانينها ، وإنما هو مظهر من مظاهر الحياة فى ظل ظروف معينة .

وهناك حكمة فرنسية تقول : « ليس هناك أمراض وإنما هناك مرضى »[1] أطلقها طبيب فرنسى عظيم كصيحة احتجاج

(١) Boyd : Tex tbook of pathology

على الأساليب العلاجية التى تهمل دور الظروف المحيطة بالمريض .

الفصل الثانى

تطور أساليب العلاج

المنطق سلاح ذو حدين :

يستعمل الإنسان قواه العقلية بطريقة خاطئة تثير الدهشة والعجب . فى بعض العلوم نجد أن نتائج المعرفة التى يتوصل إليها العلماء تبحث بحزم وثقة ، ولكن فى مجالات أخرى أهمها العلاج الطبى يوجد تردد شنيع فى تطبيق الوسائل العلمية . وكثيراً ما يؤدى ذلك إلى تناقضات تبلغ غاية فى الحمق . فروبرت بويل — مثلا — أعظم كيميائى القرن السابع عشر ومؤلف كتاب : الكيميائى المتشكك . The Sceptical Chemist (١٦٦١) والذى ساهم به فى وضع أسس الكيمياء الحديثة والذى تميز بشجاعة علمية فائقة نجده فى كتاب آخر : مجموعة من الأدوية المختارة : A Collection of Choice Remedies (١٦٩٢) يذكر خليطاً غريباً من المواد تشمل مختلف الديدان وروث الخيل وبول الإنسان ومزيجاً من جمجمة شخص ميت كعلاج مفضل لأمراض معينة . هذا هو عالمنا الكبير نجده فى مجال

معين من أجرأ من عرفه تاريخ البحث العلمى وفى مجال آخر نجده يتوقف عن مجرد التفكير ويكتفى بأن يكون جامعاً لوصفات طبية عتيقة .

ومن صفات الإنسان أنه فى وقت الأزمات يهرول إلى العمل أكثر مما يجنح إلى تفهم الموقف فى تأن وصبر . ولذلك فمحاولات الإنسان للبحث عن العلاج أقدم من أية دراسة جدية للمرض . وفى محاولاته هذه كان الإنسان يعتمد على الملاحظات العابرة بينما قدرته على التفكير العقلى هى سبب الاتجاهات المنطقية والتجريبية التى تركتها لنا الحضارات القديمة . واستفاد الإنسان من تراكم الملاحظات العابرة والخبرة المتوارثة أكثر مما استفاد من محاولاته فى استخدام المنطق والقياس وتطبيقهما فى مشاكل العلاج والمرض . فلم يكن المنطق القديم أكثر عقماً وضرراً عند تطبيقه فى ميادين العلاج عنه فى أى ميدان آخر . فقد ألبس ثوب العقل أفكاراً خرافية، وهذه نتيجة حتمية لأن أساس هذا المنطق كان من البداية بناء غير منطقى ، وهكذا خلع المنطق صفة التقديس على طقوس إخراج الشياطين بضرب الطبول أو بواسطة التمائم والتعاويذ السحرية بافتراض أن المرض نتيجة دخول روح شريرة جسم المريض .

وبالمثل كان المنطق مسئولا عن سلسلة من الأساليب العلاجية المفزعة كانت مؤسسة على قبول فروض معينة والتسليم بها تسليماً مطلقاً . وهكذا كان فصد الدم . بطرق بشعة قائماً

على أساس المنطق والاستنتاج العقلى . فالمرض فى رأى الإغريق كان يكمن فى الدم ، إذن فلنرق دم المريض ليتخلص من المرض . وبالرغم من بشاعة هذه الطرق العلاجية فهى تبدو بريئة ساذجة بالمقارنة إلى ما حدث بعد ذلك بعشرين قرنا من الزمان . فقد ظهر فى القرن الثامن عشر منطق جديد ليبرر فصد الدم على أساس فلسفة ترى أن المرض مظهر من مظاهر اضطراب محلى يعالج بوسائل تضعف المريض . وفى عام واحد (١٨٢٧) استوردت فرنسا ٣٢ مليونا من الديدان البحرية التى تمتص الدماء[١]. ومن الصعب أن نقدر مدى الأضرار التى حدثت قبل أن تتوقف هذه المجزرة وقتاً طويلا بعد أن تبين الجميع عدم جدواها .

والمنطق سلاح ذو حدين ومنطق الجنون متكامل لنفس الدرجة التى يبدو بها مرعباً مخيفاً . والانتصارات التى حققها الإنسان باستخدام المنطق المبنى على فروض سليمة لها ما يقابلها من الهزائم التى تحققت باستخدام المنطق المبنى على فروض خاطئة كان الجميع يؤمن بها .

وجوهر الأسلوب العلمى يكمن — ليس فى استخدام المنطق فى حد ذاته — وإنما فى ربطه كوحدة متماسكة مع الظواهر الطبيعية التى نشاهدها فى عالمنا . ويتضمن ذلك افتراضنا لوجود عالم مادى وإيمان منا أن أعضاءنا الحسية تنقل إلينا معلومات

---

(١) العلق الطبى .

نافعة مفيدة . أما الذهاب فيما وراء ذلك والأخذ باعتبارات مثالية فمعناه أن نسلم انتصارات الإنسان إلى أكثر قوى هذا الوجود انحلالا ، ألا وهو الخيال الذى لا تحده حقائق الوجود .

والأسلوب العلمى يعترف بأهمية الحقائق التجريبية المؤسسة على مجموعة من الملاحظات يمكن اختصارها إلى صيغة موجزة ؛ فالعقل يمكنه أن ينظم الحقائق التجريبية ويستخلص منها تعميمات تؤدى إلى نتائج منطقية معقولة . وكثيراً ما يحدث أن تتراكم مع الزمن ملاحظات يصعب تفسيرها وإدراجها ضمن التيار العام . والأسلوب العلمى لا يتجاهل مثل هذه الملاحظات أو يغمض الطرف عنها فكثيراً ما يؤدى تجمع مثل هذه الملاحظات إلى إعادة تقدير شامل لنظرية حازت القبول والتأييد زمناً طويلا . والأدلة على ذلك يمكن الحصول عليها من دراسة تاريخ أى علم من العلوم . فنى علم الطبيعة مثلا لم يكن فى الإمكان أن تظهر نظرية النسبية إلا بعد تجمع حقائق يصعب انسجامها مع النظرية النيوتونية عن العالم والفضاء . وبمجرد أن اكتشفت علاقة الميكروبات ببعض الأمراض ساد اعتقاد بين الأطباء أن الميكروبات هى سبب جميع الأمراض ولكن لم يلبث الشك أن أحاط بهذا الاعتقاد نتيجة لتجمع حقائق يصعب انسجامها مع هذه النظرية نتيجة لتقدم أبحاث الوراثة والتغذية والهرمونات .

ومع ذلك فإن الطب الحديث يعترف بامتنان بأهمية الحقائق التجريبية التى توصل إليها الإنسان خلال معاركه الطويلة مع المرض ، بالرغم مما كانت تئن تحته هذه الحقائق من طقوس وشعارات . فالمسهلات والحقن الشرجية التى عرفها قدماء المصريين كان تعاطيها يتم وسط طقوس دينية مقدسة وتعاويذ سحرية عجيبة ولكن بالرغم من ذلك كله لم يستطع الزمن أن يقضى على الجوانب المفيدة أو النتائج القيمة التى برزت من خلال التجارب الطويلة . ومجموع ما أمكن استخلاصه من بين أنياب هذه الخرافات يعد جزءاً لا يتجزء من وسائل العلاج الحديث . فقد وجد الكثير منه مكاناً مناسباً جنباً إلى جنب مع ما أمكن التوصل إليه لا عن طريق الصدفة ولكن عن طريق البحث الإرادى الواعى . والبعض منه أمكن تفسيره والبعض الآخر لم يصل العلم إلى تعليله ؛ ولكنه ما زال محتفظاً بمكان هيأه له النجاح تلو النجاح .

فاستعمال الإيحاء فى العلاج ليس إلا وليد الطقوس السحرية وله فائدة لاشك فيها فى دائرة ضيقة من الاضطرابات العقلية الخفيفة . والطب الحديث يدين للأسلوب التجريبى بالشىء الكثير فى مجال التخلص من أعراض المرض أو التخفيف منها . فاستعمال الأفيون « المورفين » ومشتقاته فى علاج الآلام المبرحة لم يكن من السهل التوصل إليه عن طريق التجربة العلمية الواعية ، وأبسط دليل على ذلك أن المورفين ما زال إلى يومنا هذا أنجح

عقار يمكن استخدامه فى حالات الألم الشديد . ويرجع ذلك ببساطة إلى أن ميكانيكية الألم ما زالت غامضة ، ومعلوماتنا عنه ما تزال ناقصة لا تسمح لنا بالتحكم فيه . وكل العقاقير المستعملة حالياً لإزالة الألم ليست إلا نتيجة لتطبيق مبدأ التجربة والخطأ "Trial and error" فالإسبرين وغيره من مشتقات صناعة البترول كانت تصنع فى البداية لا للتخلص من الألم ولكن لأغراض أخرى ، وكان اكتشاف خواصها فى إزالة الألم حادثاً عرضياً . والكثير من المقيئات الحديثة تم اكتشافه بنفس الطريقة . والمواد المستعملة حديثاً فى التخدير قبل إجراء العمليات الجراحية كانت نتيجة تجارب ومحاولات كيميائية معقدة وذلك لأن التنبؤ بخواصها من مجرد معرفة تركيبها الكيميائى كان أمراً مستحيلا . والديجتالا ما زال أقوى عقار فى علاج أمراض قلبية معينة ، ومشتقاته الحديثة ليست إلا تطبيقاً مباشراً لمعرفة توصل إليها الإنسان بطريق التجربة والخطأ . وقبل معرفة الجراثيم المسببة للملاريا والزهرى بل قبل أن يعرف أحد أن هذه الأمراض أو غيرها نتيجة لجراثيم كان الكينين والزئبق يستعملان بنجاح فى علاجهما دون أن يدرى الأطباء شيئاً عن قدرة هاتين المادتين على إهلاك الجراثيم .

وجاء إدراك الأطباء لأهمية الغذاء قبل أى محاولات علمية لتفهم الدور الحقيقى الذى يلعبه الغذاء ، والعناصر التى يتكون منها ، فى فسيولوجية الجسم .

السلطة تقيد العقل الإنسانى :

لم يكن لدى الإنسان حتى منتصف القرن الماضى فكرة محددة عن المرض . كانت هناك نظريات متضاربة ليس لها أساس سليم من الواقع بل مجرد تأملات وخيالات كان العقل الإنسانى يرضى بها عجزه عن إيجاد التفسير السليم لحقائق المرض . وعلم العقاقير (الدراسة التجريبية والإكلينيكية لتأثير العقاقير فى الأجسام الحية) كان ما يزال فى المهد . والكيمياء العضوية لم تكن بعد قد شاركت فى إنتاج العقاقير . فلم يكن هناك إلا القليل من الأدوية التى يمكن الاعتماد عليها . وإنما كانت هناك مخاليط عجيبة كخاطة التيرياكا المشهورة — التى كانت تحوى ٧٨ مادة — وكانت موصوفة فى الأصل لإمبراطور رومانى وظل استعمالها مستمراً حتى القرن التاسع عشر — وغيرها من المخاليط التى كانت تحوى الكثير من الفضلات الحيوانية . وقد أدى ذلك فى القرن الثامن عشر إلى ثورة التجانسيين [١] Homeopathists الذين وقعوا فى سخافات لا تقل سخفاً عما ثاروا عليه .

ويمكن حقاً أن يقال إن علم المعالجة لم يتأثر بدرجة محسوسة بالتقدم العلمى حتى منتصف القرن التاسع عشر . فى هذا الوقت

(١) فريق من الأطباء كانوا يعالجون المرضى بإعطائهم أدوية (فى جرعات صغيرة) تحدث للشخص السليم أعراضاً تشبه أعراض المرض المراد علاجه .

كان ڤيركوف محقاً فى قوله : « إن أساليب المعالجة فى مرحلتها الحالية لن ترقى إلى مرتبة العلم إلا إذا تضافرت واتحدت مع علم وظائف الأعضاء» ذلك أنه لكى نفهم أثر أى علاج أو دواء على الجسم المريض يجب أن نفهم أولا وظائف الجسم السليم وإلى حد ما أيضاً الطريقة التى يؤثر بها المرض على هذه الوظائف. وكان الشعور بأن الموت والمرض ظواهر شبه مقدسة لا تصلح الأساليب العلمية فى دراستها عقبة فى سبيل تقدم الأساليب العلاجية السليمة ، هذا إلى جانب ما اكتسبته التقاليد القديمة والمصادر الطبية أو ما يسمونه باللغات الأوربية : السلطة Authority من تقديس . ومعظم هذه المصادر كانت مؤسسة على ترجمات ضعيفة لأعمال جالينوس الذى ظل مسيطراً على الطب الأوربى حتى عصر النهضة . ولنضرب لذلك مثلا ، فقد واجه استعمال الأنتيمون فى العلاج الطبى فى القرن السادس عشر معارضة شديدة لا لأن معارضيه وجدوه ضاراً أو عديم الفائدة ولكن لأن جالينوس لم يذكره !

وأدى الاعتماد المطلق على السلطة والتقاليد إلى نتائج غاية فى الغرابة ، لأن أى طبيب استطاع أن يبنى لنفسه شهرة كافية كان الجميع يتبعونه ويطيعون تعاليمه طاعة عمياء .

وتاريخ علاج الملاريا يعطينا مثلا واضحاً عن الطريقة التى يمكن أن تتقيد بها أساليب العلاج الطبى فى سبيل إطاعة

التقاليد والسلطة بكل ما يتضمنه ذلك من تحد لما قد يكون واضحا كالشمس وثابتاً ثبوت الحقائق . فبعد اكتشاف السنكونا بارك (خشب السنكونا) : Cinchona Bark فى القرن السابع عشر سرعان ما تبينت فائدته فى علاج الحميات المتقطعة . وفى سنة ١٧٦٥ وضع لند Lind العلاج الصحيح للملاريا وذلك بإعطاء المريض خشب السنكونا فى جرعات مناسبة حالما يتم تشخيص المرض . ومع ذلك ففى سنة ١٨٠٤ جاء طبيب يدعى جيمس جونسون James Johnson ليقرر أن من الخطورة إعطاء المريض هذا الدواء قبل أن تنخفض درجة حرارته . ونصح بإعطائه الكالومل Calomel بدلا منه . وكان هذا العلاج مؤسساً على خبرة أسابيع معدودة قضاها جونسون فى الهند . ولكنه كان يتمشى مع الخطوط العامة للتقاليد الإكلينيكية المعترف بها فى ذلك الوقت . ومع ذلك فبالرغم من أن نتائج هذه الطريقة كانت مخفقة وأدت إلى كوارث لا حصر لها فإنها استمرت متبعة حتى سنة ١٨٤٧ عندما استطاع هير Hare أن يعيد استعمال الطريقة القديمة بالرغم من المعارضة المريرة التى واجهها .

الطب التغايرى : Allopathy

وكانت هناك فى القرن الثامن عشر محاولات متكررة لإدخال الأساليب العقلية فى علم المعالجة . ولما لم تكن هناك معلومات كافية عن وظائف الأعضاء أو علم الأمراض لتكون

أساساً متيناً لمثل هذه الأساليب فإن هذه المحاولات أدت فى الواقع إلى نتائج أكثر ضرراً مما أدى إليه الارتكان إلى ما يأتى به الحظ عن طريق التجربة والخطأ . وساعد جيمس جريجورى James Gregory (١٧٣٥–١٨٢١) بما كان له من شخصية طاغية على نشر نظام انتحارى للعلاج الظاهرى يقوم على أساس تغيير الصورة الإكلينيكية للمرض . وكانت أساليبه العلاجية تشمل : الفصد – المقيئات – المسهلات وغيرها . وهذه الأساليب والأدوية كانت تستعمل إلى أن تتغير أعراض المرض الأصلى . فالملاريا والدوسنطاريا كانت تعالج بجرعات يتكون كل منها من ٢٠ جراما من الكالومل إلى أن يعانى المريض هبوطاً تاماً قد لا يفصله عن حافة الموت إلا خيط رفيع . وبما أن فصد الدم كان يتم بطريقة وحشية فكثيراً ما كان الهبوط يتبعه الموت مباشرة وفى مثل هذه الحالات كان الطبيب يبتسم قائلا : لقد مات المريض حقاً . ولكن . . . بعد أن شفى من مرضه !

الطب التجانسى : Homeopathy

ثار هاهنمان Hahnemann ضد هذا الأسلوب الفاشل فى بداية القرن التاسع عشر وإليه يرجع الفضل فى إدخال الأسلوب التجريبى فى دراسة العقاقير وملاحظة آثارها على الأشخاص

الطبيعيين . ولكنه للأسف الشديد استنتج من خبرته مبدأين خاطئين هما :

١ ـ المِثْل يعالج المِثْل : Like cures like

٢ ـ يزداد فعل العقاقير كلما ازدادت درجة تخفيفها .

ويقول لودر برنتون إن هاهنمان استنتج المبدأ الأول من تجربة فردية أجراها على نفسه . فقد أحدث له تناول جرعات كبيرة من خشب السنكونا أعراضاً تشبه الأعراض التى يشكو بها مريض الملاريا . وهكذا خدعته الاضطرابات المعدية التى أحدثتها السنكونا وجعلته يخلص إلى المبدأ الأول .

وكان أساس المبدأ الثانى هو أن طحن الزئبق إلى مسحوق دقيق يزيد من فعاليته[١] .

ثم كان أن تحول هذا الأسلوب إلى مجرد خرافات وشعوذة وحماقات لا حصر لها . فنراه منذ سنة ١٨٢٩ ينصح بتناول الأدوية بعد تخفيفها إلى درجة تعادل جزءاً واحداً من العقار فى $١٠^{٦٠}$ جزء من الماء . وهذا يمكن مقارنته بجزئ كيميائى واحد من العقار فى كرة يبلغ محيطها مثل مدار نبتون .

* * *

وهكذا نرى أن الطب التجانسى والتغايرى كان كلاهما يفتقدان إلى أى أساس علمى . ولكن يجب ألا ننسى أن

---

(١) ذلك لأن عملية الطحن هذه تؤدى إلى أكسدة الزئبق أولا إلى أكسيد الزئبقور ثم إلى أكسيد الزئبقيك .

الأسلوب الأول لم يؤد إلى ضرر بالغ كالذى أدى إليه الأسلوب الثانى . فالأساليب التجانسية أعطت الفرصة لقوى الدفاع التى يمتلكها الجسم بأن تحارب مع المريض فى معركته ضد المرض . بينما كانت الأساليب التغايرية الكلاسيكية تكفى وحدها لقتل المريض دون حاجة إلى مساعدة المرض أصلا . ومع ذلك فقد استفاد علم المعالجة الحديث من الأساليب التغايرية معلومات هامة عن بعض العقاقير المفيدة ومن الأساليب التجانسية إدراكاً عميقاً لوسائل المقاومة والدفاع التى يمتلكها الإنسان إذا تهيأت له الفرصة لاستخدامها .

الاستفادة من قوى الدفاع الذاتية :

سادت فى الأوساط الطبية فى منتصف ونهاية القرن الماضى موجة من اليأس والتشاؤم . حقاً لقد بدأ الأطباء يفهمون الكثير عن التغيرات التشريحية ــ المرضية التى تحدث أثناء المرض . وخطا علم التشريح خطوات واسعة ، وبدأ علم وظائف الأعضاء يساهم من جانبه فى فهم طبيعة العمليات الفسيولوجية التى تحدث داخل الجسم . ولكن ما جدوى كل ذلك إذا ما ظل الطب عاجزاً عن إيجاد العلاج السليم للأمراض والأوبئة التى تجىء وتروح والأطباء لا يملكون إلا دراسة مظاهرها ومحاولة فهم أسبابها ؟

وجعل الإخفاق الذى منى به الطب العلاجى ــ فى الفترة

السابقة ـ جعل الأطباء متحفظين أشد التحفظ . فقد علمتهم تجارب التخايريين والتجانسيين كم دفعت الإنسانية ثمناً باهظاً لهذه الأساليب . ولهذا كان موقفهم من العلاج موقف التحفظ والحرص فلم يسمحوا باستخدام شيء إلا ما أثبتت السنون والتجارب فائدته الحقيقية ، كالقليل من المعادن والقليل من الأعشاب والتطعيم ضد الجدرى . وهكذا جردت الأساليب العلاجية من ثيابها البراقة التى لم تكن فى الواقع إلا قشوراً وأشواكاً .

وفى خضم اليأس الذى كان يخيم على هذا الموقف كان الطب يشهد مولد علم جديد : علم البكتريا . فنى سنة ١٨٧٨ أعلن پاستير النظرية العامة التى تقول بأن العدوى والأمراض المعدية تنتشر بواسطة الجراثيم . وتصادف أن كان هناك فى ذلك الوقت موجة من وباء الكوليرا التى تصيب الكتاكيت فاستغاث به أحد الأطباء البيطريين . وكانت طريقة التعرف على البكتريا وزرعها قد أصبحت مسألة روتينية سهلة . ولكن كان من نتائج الأبحاث التى تضمنتها هذه التجارب نتائج على جانب خطير من الأهمية فقد كانت مفتاحاً لاكتشاف من أعظم الاكتشافات التى توصل إليها الإنسان .

استطاع پاستير أن يعزل ميكروب الكوليرا فى مزارع نقية ، ووجد أنه لو حقنت الكتاكيت بميكروبات هذه المزارع فإنها لا تلبث أن تصاب بالكوليرا وتموت . ولكى يحتفظ

البكتريولوجيون بمزارع لميكروب معين فإنهم ينقلون هذا الميكروب من مزرعة إلى أخرى لأن مستعمراتها لو بقيت كما هى سرعان ما تتحلل وتموت ، لذلك فهم يلجأون إلى نقلها باستمرار من طبق لآخر فى فترات معينة . وقد لاحظ پاستير فى خلال بحثه على كوليرا الكتاكيت أن الجراثيم التى تنقلت على عدة مزارع قد فقدت قدرتها على إحداث العدوى ، أى أصبحت ضعيفة وكثيراً ما كانت تنجو الكتاكيت التى تحقن بها من هذا المرض بل وتكتسب مناعة دائمة ضده أى أنها لو حقنت مرة أخرى بالجراثيم الأصلية لم تظهر عليها أعراض المرض إطلاقاً .

وبهذه الطريقة عثر پاستير على التفسير النظرى لعملية التطعيم ضد الجدرى التى كان يمارسها الإنسان منذ زمن بعيد دون أن يفهم حقيقتها .

فى القرن الثامن عشر كان الجدرى أحد الأمراض الفتاكة المنتشرة . وفى كثير من البلاد كان جميع السكان يصابون به فى فترة أو أخرى من حياتهم . ومنذ زمن طويل كان الناس يعلمون أن من يصاب بالجدرى مرة واحدة لا يصاب به بعد ذلك مطلقاً ، وكان من المعروف أيضاً أن هذا المرض لا يحدث دائماً بنفس العنف والشدة ، فى كل الحالات فهناك مرضى يصابون به ومع ذلك لا يعانون من الآلام والمخاطر ما يعانى غيرهم منه . ومع ذلك يكتسبون بهذه العدوى مناعة مستديمة . ولاحظ القوم أن من يتعرض للعدوى من هذه

الحالات الخفيفة فإنه لايقاسى من المخاطر كمن يتعرض للعدوى من الحالات الشديدة الوطأة . ولما كان من النادر ألا يصاب به أى فرد فى فترة أو أخرى من عمره فقد كان الناس يتعمدون تعريض أنفسهم للعدوى من الحالات المعتدلة للمرض . وانتقلت هذه الفكرة من بلاد الشرق إلى أوربا . وفى سنة ١٧٩٨ أعلن جنر Genner الطبيب الإنجليزى اكتشافه أن الجدرى البقرى (ويصاب به البقر والإنسان على السواء وهو مرض أخف كثير من النوع الذى يصيب الإنسان فقط) يكسب المصاب به مناعة ضد الجدرى الوبائى الذى يصيب الإنسان . وبالرغم من أن هذه الحقيقة كانت معروفة للفلاحين منذ زمن بعيد فإن فضل جنر يرجع إلى استغلاله هذه العلاقة بين الجدرى البقرى والجدرى الذى يصيب الإنسان فى تحصين الأفراد على نطاق واسع . فقد لاحظ جنر أن الفلاحات الإنجليزيات لا يُصَبْن مطلقاً بالجدرى حتى فى أشد الأوبئة عنفاً وقسوة . وهذه الملاحظة كانت الخطوة الأولى فى تفكيره ، ثم كانت الخطوة التالية هو أنه لاحظ علامات على أيدى هؤلاء الفلاحات تشبه تلك التى يتركها الجدرى على وجه المصابين به واستنتج من ذلك أنهن يصبن بالعدوى من الأبقار أثناء حلبهن اللبن لأن الجدرى البقرى غالباً ما يصيب ضروع البقر . وتوصل من ذلك إلى أن الإصابة بجدرى الأبقار وهو مرض تافه إذا قورن بالجدرى العادى يكسب المصاب به مناعة دائمة ضد الجدرى الوبائى .

ومنذ ذلك الوقت انتشرت فكرة التحصين ، وذلك بوضع بعض البثور والصديد المستخلص من الأبقار المصابة بالجدرى على سطح الجلد ، فاختفى الجدرى من إنجلترا فى خلال قرن واحد بعد ذلك .

وأصبح هذا الاكتشاف أحد الانتصارات الهائلة التى أحرزها الإنسان لأنه أدخل طريقة لمقاومة مرض كان ضحاياه يعدون بالملايين قرناً بعد قرن . وظل التطعيم ضد الجدرى انتصاراً وحيداً إلى أن جاء عصر البكتريا ، وأظهرت أبحاث پاستير على كوليرا الكتاكيت أنه مثل لمجموعة عامة من التفاعلات التى يجابه بها الجسم عدوى الجراثيم والسموم التى تفرزها وأنه يمكن الاستفادة من نفس المبدأ وتطبيقه فى مقاومة أمراض أخرى وذلك بإحداث عدوى خداعية تؤدى إلى إنتاج أجسام مضادة للجراثيم .

ولكى يعرف پاستير ما إذا كان من الممكن اكتساب المناعة ضد الحمى الفحمية بدأ يزرع جراثيم هذا المرض ثم ينقلها من مزرعة إلى أخرى وبين الحين والآخر كان يفحص الجراثيم ليعرف هل ظهر جيل منها قليل الضراوة أم لا ؟ وكان أن رأى بشائر الأمل فى التجارب التى أجراها فى معمله بينما لم يقتنع بها زملاؤه الآخرون ، وحميت المناقشات بينه وبينهم ولم يجد بدأ من أن يجرى تجربة عامة يشاهدها الجميع فحقن أمام مجموعة من الأطباء والعلماء ٢٥ خروفاً بالطعم الذى

استحضره ثم حقنها بجراثيم الحمى الفحمية المعتادة . وحقن هذه الجراثيم نفسها فى ٢٥ خروفاً آخر لم يتم تطعيمها . والذى حدث هو أن خرفان المجموعة الأولى نجت جميعاً من الموت بينما نفقت خرفان المجموعة الثانية . مثل هذه التجربة لو أعيدت فى يومنا هذا فلن نحصل على نتائج ١٠٠٪ كنتائج پاستير فى هذه التجربة لأن الطعم المضاد للحمى الفحمية لا ينجح مائة فى المائة فى تحصين الخرفان ضد هذا المرض ولكنه حظ پاستير . . .

كانت آخر أعمال پاستير هى الأبحاث التى أجراها على مرض الكلب – وكان هذا المرض منتشراً نوعاً ما وخاصة بين كلاب الرعاة ، ولم يكن له علاج على الإطلاق . وجاءت فترة كان أقارب المريض الذى يصاب بهذا المرض يقتلونه شفقة ورحمة به من الأهوال التى يقاسيها . والمعروف أن هذا المرض قاتل ١٠٠٪ ولا يمكن أن ينجو من الموت من تظهر عليه أعراضه . وعادة تتراوح الفترة التى تمضى بين عضة الحيوان وبين ظهور أعراض هذا المرض بين شهرين وسنة وقد تصل أحياناً إلى أكثر من ذلك . وفى خلال هذه الفترة « أى قبل ظهور الأعراض » يمكن إحداث ما يسمى بالمناعة الإيجابية : فقد استطاع باستير أن يستخلص طعماً يحقن به الأفراد – من أمخاخ الأرانب التى نقلت إليها العدوى – دون أن يصابوا بالمرض وفى نفس الوقت يكتسبون مناعة مستديمة . ومنذ أن توصل پاستير إلى هذه الطريقة عم استخدامها فى جميع أنحاء العالم .

والتطعيم ضد التيفود والدفتريا يعتمد على نفس المبدأ وحيث يتم التطعيم ضد الدفتريا على نطاق واسع وبطريقة إجبارية نجد أن هذا المرض الرهيب قد اختفى تماماً والحالات التى تحدث بالرغم من التحصين تأخذ صورة هينة .

وهكذا أحكم الحصار حول أمراض كالحمى الفحمية والتتانوس والدفتريا وخضعت هذه الأمراض لسيطرة الأطباء وأساس هذه الطريقة هو أن سموم البكتريا تحرك فى الجسم أجهزة خاصة تعمل على إنتاج أجسام مضادة لهذه السموم وتبقى هذه الأجسام المضادة فى الدم بعد الشفاء من المرض زمناً طويلا . والمصل[1] المأخوذ من المريض لو أعطى لمريض آخر بنفس المرض فإنه يعمل كما لو كان دواء يعالج المرض لأنه يحتوى على كميات كبيرة من هذه الأجسام المضادة وبذلك سرعان ما يشفى المريض . وتحضر الأمصال المحتوية على مضادات السموم بإحداث العدوى فى حيوانات كالخيل مثلا تحت ظروف تخضع لإشراف دقيق .

ولم يتحقق الأمل فى إمكان تحضير أمصال لجميع الأمراض الميكروبية ، ذلك الأمل الذى كان يراود عقول الأطباء فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر لدرجة جعلت الكثيرين منهم يرون أن مستقبل العلاج هو فى تحسين

---

(١) أى الدم ناقصاً كرات الدم الحمراء والبيضاء والصفائح الدموية .

وسائل تحضير الأمصال . ففي بعض الأحيان لا يمكن الحصول على حيوانات مناسبة ، ولكن الأهم من ذلك هو أن الأمصال تصلح فقط لتلك الأمراض المعدية التي يكون فيها السم الميكروبي أهم من الميكروب نفسه كالدفتريا مثلاً . وهذا يضع الأمصال في دائرة ضيقة ويجعل فائدتها قاصرة على أمراض تعتبر بصفة جوهرية تسمماً في الدم كالدفتريا مثلا . على أن ذلك لا يعني أن الأمصال غير ذات فائدة في الحالات التي توجد فيها الجراثيم في الدم ولكن فائدتها عندئذ ضيقة النطاق .

وفي أمراض كثيرة كالجدري والحمى الصفراء والتيفود نجد أن إصابة واحدة تكسب المريض مناعة مستديمة بحيث لا يصاب بذات المرض مرة أخرى ، لأن الجسم يتمكن من إنشاء مراكز دفاعية تهاجم الميكروبات .

ويمكن أن نفترض — في حالة الأمراض المعدية الشائعة كالإنفلونزا مثلا — أن الأفراد الذين لديهم مقاومة كافية لا يعانون إلا من إصابة خفيفة معتدلة ربما قد لا يلاحظها المريض نفسه . وغرض التطعيم هو إحداث مثل هذه الإصابات الخفيفة في الأفراد المعرضين .

فلتحصين الأطفال ضد الدفتريا فإنهم يحقنون على ثلاث دفعات بجرعات متدرجة من سم الدفتريا الذي يستحضر بطريقة خاصة تقلل من آثاره الضارة إلى أقصى حد ممكن ولذا يسمى

سمم Toxoid . وتسمى هذه الطريقة بطريقة التحصين الإيجابى : Active immunisation وبذلك بدلا من أن يكون هؤلاء الأطفال معرضين للعدوى بالدفتريا يصبحون فى أمان منها.

وكان نجاح التحصين ضد الجدرى فاتحة أمل فى إمكان بناء مناعة إيجابية داخل جسم الإنسان ضد مختلف الأمراض وهذا يتلخص فى حقن الأفراد :

١ ـ بميكروبات سبق إضعافها والإقلال من ضراوتها Attenuated أو

٢ ـ بجرعات صغيرة متدرجة من سمومها .

وبذلك يعرض المريض فى الواقع إلى عدوى خفيفة فى ظروف يمكن التحكم فيها ، وهكذا يمكن تجنب مخاطر العدوى الحقيقية لأن هذه العدوى الإصطناعية تحرك فى الجسم أجهزة الدفاع والمقاومة وتجعلها على أتم استعداد بحيث لو حدثت العدوى الحقيقية أمكن للجسم أن يتغلب عليها . أى أن هذه الطريقة تعتمد على الاستفادة من القوى الدفاعية الطبيعية بإحداث ما يمكن تسميته هجوماً خداعياً . ونجاح هذه الطريقة معروف للجميع . ومع ذلك فاستعمال طرق التطعيم هذه محدود الفائدة . وعلى العموم أثبتت هذه الوسائل عظم فائدتها فى تنبيه مراكز المقاومة وجعلها على استعداد لملاقاة الأعداء . ولكنها تكاد تكون عديمة الفائدة إذا حدثت العدوى فعلا[١] .

---

(١) باستثناء مرض الكلب .

ولكن نبرهن على أهمية التطعيم ضد مرض كالتيفود مثلا نسوق الآتى : أثناء الحرب العالمية الأخيرة لم يطعم الجنود الفرنسيون ضد التيفود قبل مضى ١٦ شهرا من بداية الحرب وكان أن أصيب ٩٦ ألف جندى فرنسى بالتيفود مات منهم ١٢ ألف بينما طعم جميع الجنود الإنجليز فكان أن أصيب ٢٦٨٩ جندى لم يمت منهم سوى ١٧٠ جندياً فقط .

القذيفة السحرية :

تعمل قوى الدفاع التى يمتلكها الجسم ببطء شديد . ولذا يصعب الاستفادة من هذه القوى أثناء حدوث عدوى حادة . وعلى ذلك فإن طرق التحصين هنا عديمة الجدوى. وتعين على الأطباء عندما أدركوا ذلك أن يفكروا فى أسلوب جديد للقضاء على هذه الأمراض. وإلى پول اهرليتش Paul Ehrlich يرجع الفضل فى فتح طريق جديد أمام الإنسان لمقاومة الجراثيم. فبمجرد أن اكتشفت علاقة الجراثيم بالأمراض بدأت المعركة على محورين الأول يرمى إلى معادلة سمومها، وقد حقق نجاحاً باهراً . والثانى يرمى إلى تدميرها والقضاء عليها . وكان پاستير وكوخ يقودان المعركة بنجاح على المحور الأول ثم جاء پول اهرليتش ليقودها على المحور الثانى . فقد وجد عالمنا العظيم أن البكتريا تمتص صبغات الأنيلين وغيرها من الصبغات وهداه تفكيره إلى البحث عن تلك الصبغات التى تلتصق بالبكتريا وتفتك بها .وعندما نجح فى ذلك استسلم

اهرليتش لحلم قضى عمره فى محاولة تحقيقه ألا وهو العثور على ما تعارف الأطباء على تسميته بالقذيفة السحرية : Magic Bullet تلك المادة التى تنطلق لتفتك بالجراثيم هنا وهناك دون أن تصيب خلايا الجسم وأنسجته بأية أضرار . وبدأ اهرليتش عملا تحف به المصاعب من كل جانب . فى التجارب التى تجرى فى أنابيب الاختبار يسهل العثور على الصبغات التى تقتل البكتريا ولكن هذا لا يعنى أنها لا تؤذى الإنسان أو حيوانات التجارب وحتى تلك الصبغات التى لها تأثير قاتل قوى على الميكروبات داخل أنابيب الاختبار وفى نفس الوقت ليس لها إلا آثار سامة ضعيفة على حيوانات التجارب وجد أنها غير ذات تأثير على الميكروبات داخل جسم الحيوانات وبتعبير آخر تختلف خواص المواد فى تأثيرها القاتل على البكتريا داخل أنابيب الاختبار عنها داخل أجسام الحيوانات ويرجع ذلك إلى أن الميكروب عندما يكون فى دم الإنسان أو الحيوان أو فى داخل أنسجته يختلف تماماً عنه عندما يكون معروضاً لأثر الصبغة القاتل تعرضاً مباشراً فى أنابيب الاختبار .

وتمكن اهرليتش فى النهاية ، بعد أبحاث صبورة وتجارب عديدة ، من اكتشاف التريبان رد : Trypan red وهو عقار تتوافر فيه الشروط التى وضعها وبحث عنها فهذا العقار يقضى على التريبانوسومز التى تسبب مرض النوم[1] وفى الوقت نفسه

(١) مرض من أخطر أمراض المناطق الاستوائية .

فخواصه السمية ضئيلة لدرجة يمكن تجاهلها . وبعد ذلك بثلاث سنوات (سنة ١٩١٠) طلع اهرليتش على العالم بعقار عظيم عرف باسم العقار ٦٠٦ أو سالفرسان — « أى الخلاص » — وهو عقار يقضى على ميكروب الزهرى دون أن يسبب آثاراً سامة لمن يتعاطاه وكان اكتشاف السالفرسان حدثاً هاماً فى تاريخ البشرية فقد بدأت بهذا الاكتشاف هزيمة الميكروبات . إلا أن النجاح الذى تلا ذلك مباشرة اقتصر على القضاء على أفراد مجموعتى الجراثيم التى تنتمى إليهما كل من التريباسونومز وميكروبات الزهرى بحيث ظهر رأى فى الأوساط الطبية يعتقد أن الكيمياء العلاجية — كما تصورها اهرليتش — لا أمل فيها فى القضاء على الأمراض الحادة المعدية الناتجة عن ميكروبات من أنواع أخرى . فقد ظلت عدوى الدم بالميكروبات العنقودية والمكورات السبحية وحمى النفاس تذهب بأرواح الآلاف من المرضى عاماً بعد عام . ولكن سرعان ما تغير كل ذلك بين عشية وضحاها بعد خمسة وعشرين عاماً فقط من اكتشاف العقار ٦٠٦ ، وبعد وفاة اهرليتش بعشرين سنة ، عندما أوضحت ملاحظة عابرة أن صبغة حمراء من مجموعة الداى—آزو: Di-Azo نجحت فى علاج حيوانات أصيبت بأشد الميكروبات فتكاً وهو المكور السبحى الدموى Streptococcus haemolytious— فما تنبأ به اهرليتش ولكن عجز عن تحقيقه كلية أصبح قريب المنال . وأوشك الأمل الغامض الذى كان يداعب جفون

الحالمين حقيقة قريبة المنال .

وأمكن فيما بعد استبدال هذه الصبغة الحمراء بمركبات لا لون لها (كالسلفانيلاميد وغيرها) . وأصبحت مجموعة كبيرة من الأمراض المعدية تحت سيطرة الطب . فالالتهاب الرئوى — الذى كان مرضاً قاتلا فتاكاً — أصبح علاجه سهلا ميسوراً . وجردت أمراض أخرى من البشاعة التى كانت تتصف بها كالسيلان وحمى النفاس . ولم يقتصر الأمر على علاج الأمراض الخطيرة التى تحدث فيها نسبة كبيرة من الوفاة ، فالتهابات الحلق التى تصيب الأطفال كثيراً ما كان يتبعها التهاب الأذن الوسطى بماله من نتائج سيئة قد تؤدى فى النهاية إلى فقدان السمع كلية أو جزئية فأصبحت هذه المضاعفات نادرة الحدوث .

* * *

كان معروفاً منذ أكثر من خمسين عام مضت أن بعض الكائنات الحية تنتج مواداً تمنع نمو غيرها من الكائنات الميكروسكوبية . ومثل هذه المواد تسمى : مضادات الحيوية Anti-biotics والپنسلين هو الاسم الذى أطلقه السير ألكسندر فلمنج فى سنة ١٩٢٩ على مادة مضادة للحيوية ينتجها الفطر المسمى بنيسيليام نوتيتم Penicillium notatum ففى سنة ١٩٢٨ كان فلمنج يجرى بعض الأبحاث البكتريولوجية على نوع معين من الجراثيم (المكورات العنقودية) ، فلاحظ ذات مرة أن أحد

المزارع التي زرعها لم تنم نمواً طبيعياً . كما لاحظ مظاهر التحلل تبدو على مستعمرات هذه الجراثيم . وكان يمكن ألايعير فلمنج ذلك أى اهتمام ولكنه فحص المزرعة جيداً فلاحظ وجود فطر معين فيها . فعزل هذا الفطر فى وسط خاص واستحضر منه مزرعة نقية ثم أجرى عليه سلسلة من من التجارب لاحظ خلالها أنه عند زرع أنواع معينة من البكتريا بالقرب من إحدى مستعمرات هذا الفطر فإن بعض أنواع البكتريا كانت تنمو وتنمو إلى أن تتوقف عند حافة مستعمرة الفطر بينما كان البعض الآخر يتوقف نموه عند مسافة معينة من الفطر . ووجد أنواعاً أخرى من البكتريا لم تستطع النمو حتى على بعد مسافة كبيرة من هذا الفطر . واستنتج فلمنج من ذلك أن فطر البنيسيليام ينتج مادة تنتشر خلال الوسط الزرعى وتمنع نمو ميكروبات معينة . وأوضح فلمنج بعد ذلك أن المادة المضادة للبكتريا لم تمنع فقط نمو كثير من الميكروبات الضارة ولكن لها أيضاً خواص قاتلة على تلك التى تم نموها فعلا . وفى ذلك الوقت لم يكن لدى فلمنج الإمكانيات الفنية اللازمة لإنتاج هذه المادة فى صورة نقية ، ومع ذلك فقد تنبأ بأنها ستكون ذات قيمة علاجية عظيمة . وحاول بالفعل استعمالها كعلاج موضعى لبعض الجروح المتقيحة ولكن واجهته صعوبة كبيرة فى عزل هذه المادة فى صورة نقية ، ذلك لأنها غير ثابتة كيميائياً . إذ سرعان ما تفسد وتصبح عديمة الفائدة . ولكنه مع

ذلك أدرك أن أعظم ميزاتها هى أن آثارها السمية ضعيفة جداً بحيث أن الجرعة القاتلة للميكروبات يجب مضاعفتها ربع مليون مرة لتؤثر تاثيراً ضاراً على كرات الدم البيضاء . ولم تحل مشاكل إنتاج البنيسلين للاستعمال الطبى قبل عام ١٩٤٠ بفضل أبحاث فلورى وتشين وزملائهم فى جامعة أكسفورد .

هذا عقار قلب تاريخ الأمراض رأساً على عقب وأحدث ثورة فاقت ما أحدثه إدخال السلفا فى عالم العلاج ، وكان إنتاجه يتوقف على ملاحظة واحدة أبداها السير فلمنج . وهذا هو الفرق بين العالم الذى يخلص للأسلوب العلمى وبين أى شخص آخر . فمن المؤكد أن مئات من الباحثين صادفتهم نفس التجربة التى صادفت فلمنج ، ومن المؤكد أن أطباقاً كثيرة تلوثت بهذا الفطر ولكنها كانت لا تسترعى أى انتباه وأغلب الظن أنها كانت تلقى فى سلال المهملات .

وقد تكون قمة العمل الذى بدأه اهرليتش منذ ستين عام مضت أن تركن الأمراض الحادة المعدية — فى المستقبل القريب إلى عالم النسيان جنبا إلى جنب مع الأحلام المفزعة التى عاشتها الإنسانية فى الأزمان القديمة .

تطور علم الأدوية والمعالجة :

إن أساليب المعالجة القائمة على أساس عقلى لم تبدأ إلا منذ ثلاثة أجيال فقط عندما بدأت دراسة هذا العلم دراسة علمية

بالتحليل التجريبي لطريقة فعل الأدوية وأثرها على وظائف الجسم المختلفة . وعادة تكون المعتقدات الشعبية متأخرة عن التقدم العلمي بمثل هذا الزمن . ولهذا السبب فإننا نجد الكثير من الخرافات ما تزال مرتبطة بهذا العلم فى أذهان العامة من الناس . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن الأمراض الخطيرة تدعو دائماً إلى خلق الخرافات — فالمريض يريد العلاج السريع ليتخلص من مرضه وآلامه ومخاوفه . وما لم يستطع العلم أن يحقق له ذلك تراه يتحول بكل إخلاص وأمل إلى أى شخص آخر يعده بتحقيق معجزة من أجله .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بدأت الكيمياء العضوية تخطو خطوات سريعة نحو التقدم . وكان ذلك أهم العوامل التى أدت إلى ارتقاء علم المعالجة . فقبل ذلك كانت المواد المستعملة فى العلاج هى تلك التى تصادف وجودها فى الطبيعة . أما فى يومنا هذا فإن عدد المواد العضوية المعروفة لا يمكن حصره والبحث ما يزال جارياً لاكتشاف مركبات جديدة تقابل الاحتياجات العلاجية للبشر .

وكان أول الأدوية العضوية المؤلفة : Synthesised هى المواد التى استعملت فى التخدير أثناء إجراء العمليات الجراحية ثم تلتها المواد المطهرة وفى سنة ١٨٦٠ دخل الكلورال هايدريت عالم التخدير فأحدث ثورة فى الجراحة يصعب تقدير مداها إلا إذا تصورنا الآلام الهائلة التى كان يعانيها المرضى أثناء إجراء

العمليات الجراحية لهم .

وكان السالفرسان Salvarsan أول المواد الكيميائية العلاجية المؤلفة . وكان إنتاجه على يد اهرليتش أعظم خدمة أدتها الكيمياء العضوية للبشرية . ثم توالت بعد ذلك انتصارات عظيمة فى عالم الكيمياء العلاجية وخاصة تلك التى تعالج الأمراض التى تتسبب البكتريا والبروتوزوا [١] فى إحداثها . وتم تحقيق نجاح لا يقل أهمية عن ذلك فى إنتاج الأدوية التى تعالج أعراض المرض وتخفف من آلامه وشدته كالمخدرات والمنومات والمهدئات إلى جانب مجموعة كبيرة من العقاقير التى تعمل على الجهاز العصبى اللاإرادى والجهاز الدورى مما لا يمكن مقارنته بالعدد الضئيل من الأدوية الهزيلة التى كانت معروفة منذ خمسين عام مضت .

وقد أمكن بفضل التحليل الواعى الدقيق لفعل العقاقير دراسة طبيعة عمليات المرض دراسة أكثر دقة عما كان ممكناً من قبل . واستعمال المواد المضادة للهستامين [٢] فى الوقاية من وعلاج

---

(١) مجموعة من الكائنات الحية يتكون أفرادها من خلية واحدة وتختلف عن البكتريا فى أن لها نواة وجراثيم الملاريا والدوسنطاريا الأميبية ومرض النوم وغيرها تنتسب إلى هذه المجموعة .

(٢) يفترض الأطباء أنه فى أمراض الحساسية تفرز الأنسجة مادة الهستامين أو مادة مشابهة لها Histamine-like substance تتسبب فى الأعراض المختلفة التى يشكو منها المريض .

أمراض الحساسية مثَل من أمثلة التطبيق العملى للأبحاث العقاقيرية .

وهكذا حقق علم المعالجة والعقاقير فى الأعوام التى مضت انتصارات باهرة . وقد يتمكن العلماء فى المستقبل من الوقوف على العلاقة بين فعل العقار وبين تركيبهالكيميائى وبذلك يمكن إنتاج عقاقير لها صفات معينة . ولكن للأسف لم تحقق هذه الدراسة تقدماً ملحوظاً حتى الآن .

التجربة والخطأ :

من النادر أن يسيطر الإنسان على موقف يعجز عن فهمه . ولم يكن فشل العلاج الكلاسيكى إلا لهذا السبب . ولم تكن انتصارات الطب الحديث إلا نتيجة لإدراك هذه الحقيقة . فعندما فهمت فسيولوجية الجهاز الدورى فهماً سليماً ودرست العوامل التى تؤثر على مختلف أعضاء هذا الجهاز جاء اكتشاف العقاقير المؤثرة عليها فى سياق هذه الدراسة أو كنتيجة لها . وما يقال عن الجهاز الدورى يقال أيضاً عن الجهاز الهضمى والإخراجى . فالأتروبين والفيزوستجمين والأستيل كولين والبروستجمين والأدرينالين وعدد كبير من العقاقير الأخرى إنما ظهر بفضل التجارب الفسيولوجية التى تهدف إلى معرفة أثر المواد المختلفة على وظائف عضو معين أو جهاز معين .

وبمجرد أن يعرف العلماء بطريق التجربة والخطأ أن مادة

ذات تركيب كيميائى معين لها تأثير فسيولوجى خاص ، تكون الخطوة التالية هى محاولة إدخال تعديلات على المجموعات الكيميائية للعقار بغرض الحصول على صفات معينة . وهذا أساس كثير من الأبحاث العقاقيرية فى الوقت الحاضر . ولكن كثيراً ما يحدث أن يتصف العقار الجديد بصفات غير متوقعة . وحتى الآن لم يحقق هذا الأسلوب نتائج مشجعة والكثير من الاكتشافات الهامة تقوم على أساس التجربة والخطأ أكثر مما تقوم على هذا الأسلوب العلمى . وما زالت الكيمياء العضوية أكثر نجاحاً فى التخلص من الآثار السامة أو المضاعفات الغير مرغوب فيها للأدوية التى تم اكتشافها فعلا بطريق الصدفة أو التجربة عنها فى إنتاج أدوية ذات صفات معلومة مقدماً بناء على نتائج الدراسات التى تحاول الربط بين التركيب الكيميائى والخواص العلاجية .

والتعثر وراء الحقيقة مع الكثير من الفشل فى الوصول إليها حتى عندما تكون وجهاً لوجه أمامنا ، والتردد فى تجنب أنصاف الحقائق التى تهوى بالأعمال العلمية إلى آ بار الفشل والخيبة كل هذا يميز الطريق الملتوى الذى يسلكه أسلوب البحث القائم على التجريب والاختبار . ومع هذا فالطريقة التجريبية يجب أن تبقى أحد الأساليب الرئيسية فى البحث العلمى ما دامت معرفة الإنسان بأسرار الحياة ما تزال فى بدايتها كما هى الحال فى يومنا هذا . فالكثير من الوسائل العلاجية الحديثة يدين إلى

هذا الأسلوب يسانده فى ذلك التفكير العلمى السليم كما هى الحال فى ميدان العلاج الكيميائى . بل إنه تحققت أساليب علاجية على جانب خطير من الأهمية بدون الاستعانة بأى تفكير علمى منظم وإنما جاءت بفضل الطريقة التجريبية فقط . فتأثير أشعة إكس والراديوم على خلايا السرطان لم يتم إلا بفضل هذا الأسلوب . والعلاج بالصدمات وذلك بحقن المريض بمواد بروتينية غريبة عن جسمه (كبروتينات اللبن) مثلا أحد الأساليب العلاجية المفيدة فى كثير من الإلتهابات . ولم يكن التوصل إليه قائماً على أى أسس علمية معروفة . وهناك إلى جانب ذلك أمثلة كثيرة نذكر منها إحداث السخونة المصطنعة فى علاج حالات الشلل الجنونى العام G.P.I وإحداث تقلصات عضلية بواسطة العقاقير والصدمات الكهربية كعلاج لبعض الاضطرابات العقلية . ثم الأنيميا الخبيثة[1] التى كانت من قبل مرضاً قاتلا يسهل الآن علاجها بتعاطى كميات كبيرة من الكبد أو المعدة أو حقن فيتامين ب ١٢ وكل ذلك لم يكن التوصل إليه عن طريق البحث الواعى بقدر ما كان عن طريق الصدفة والتجربة .

التعقيم فى خدمة الجراحة الحديثة :

لاحظ الدكتور سميلوايز فى سنة ١٨٤٢ وهو طبيب

---

(١) مرض نادر الحدوث فى مصر ولكنه منتشر فى أوروبا .

مجرى كان يعمل فى مستشفى ڤينا أن حمى النفاس[1] أكثر انتشاراً فى القاعات التى يحضرها الطلبة عنها فى القاعات التى يمنع الطلبة من دخولها . والذى كان يحدث فى ذلك الوقت أنه عندما تصل إحدى السيدات إلى المستشفى وتقترب مرحلة الوضع يقرع الجرس فى جميع أنحاء المستشفى لتنبيه الطلبة أن هناك حالة وضع ليحضروا العملية . وكان يحدث أن يغادر الطلبة قاعات دروسهم جرياً إلى حجرة الولادة سواء كانوا فى المشرحة أو فى أى مكان آخر فيدخلون ملوثين . ولاحظ سميلويز أن التسمم التقيحى الذى كان يحدث للأطباء إذا جرحوا أثناء فحص الجثث بعد الوفاة يعطى صورة پاثولوجية تشبه تماماً ما يحدث فى حمى النفاس . واستنتج من ذلك أن هذا المرض ينتشر بنواتج التعفن وأنه يمكن الوقاية منه بالإغتسال بمادة كماء الجير الكلورى التى تزيل رائحة التعفن وبذلك لا تحدث العدوى للمرضى ما دام الجميع قد اغتسل بهذه المادة . وهكذا أدخل سميلويز نظاماً صارماً أوجب به على كل من يحضر قاعات الولادة أن يطهر يديه جيداً . وكانت النتيجة هبوط معدل الوفيات بدرجة ملحوظة فى القاعات التى يشرف عليها ، هذا فى الوقت الذى كانت السخرية المرة توجه إليه من جراء

---

(١) مرض يعقب الولادة كان منتشراً جداً قبل استخدام طرق التعقيم وكثيراً ما كان يؤدى إلى الوفاة .

هذا النظام : فلم يكن قد عرف بعد أن كل المواد العضوية المتعفنة تحتوى على ميكروبات وأن الجروح المتقيحة والصديد تحتوى كذلك عليها ، وأن قتل هذه الميكروبات يمنع تعفن المواد العضوية أو تقيح الجروح .

وبدأ جراح فرنسى آخر هو لوفورت يتبع احتياطات مماثلة قبل إجراء العمليات واستطاع بذلك أن يخفض معدلات الوفاة بعد عمليات الجراحة إلى أقل من الربع .

واستخدم ألفونس جيرين أسلوباً جديداً لمعالجة الجروح فى مستشفى سان لوى فى سنة ١٨٧١ فقد رأى أن هناك احتمال بأن تكون العدوى الصديدية نتيجة جراثيم كالتى اكتشف پاستير وجودها فى الهواء ، وهكذا قرر غسل جميع الجروح بمحلول الكاربوليك أو الكحول الكافورى ثم وضع طبقات رقيقة من القطن وأربطة قوية من التيل . وكم كانت دهشة باقى الجراحين عندما سمعوا أن معظم مرضاه عاشوا بعد إجراء عمليات خطيرة لهم .

واستفاد جيرين من تعاون پاستير معه ، الذى ساهم إيجابياً فى السياسة الجديدة لمستشفى سان لوى . ومع ذلك فلم يكن التقدم فى فرنسا سريعاً كما كان فى غيرها . فقبل أن يتبنى جيرين الفكرة التى نبتت من أعمال پاستير وصل چوزيف ليستر إلى نفس النتيجة ، ومع ذلك فقد اعترف بدين پاستير عليه . ففى القاعات التى كان يشرف عليها ليستر كان الهواء يرش

بمحلول الكاربوليك أثناء العمليات وكانت الجروح تغسل به وتغطى بالشاش المغموس فى محلول مطهر ، واستطاع ليستر بين عامى ١٨٦٧ ، ١٨٦٩ أن يهبط بمعدلات الوفاة فى عمليات البتر إلى ١٥٪ وهى نسبة قد تبدو مرعبة فى الوقت الحاضر ولكنها فى زمن ليستر كانت نجاحاً فائقاً .

ثم نصح پاستير بعد ذلك بتعقيم الآلات الجراحية والأدوات التى تستخدم أثناء العمليات وبذلك يتفادى الجراحون استعمال المواد المطهرة وغسل الجروح بها إذ قد تقتل هذه المواد بعض الأنسجة الحية مثلما تقتل البكتريا .

قصة التخدير :

كان يحدث فى الحفلات العامة التى كانت تقام فى القرن التاسع عشر (فى بنيسلفانيا) أن يحاول بعض الشبان استنشاق الإيثير لمجرد التسلية . وكثيراً ما كان الدكتور كروافورد ويليامسون لونج يحضر مثل هذه الحفلات فكان يلاحظ أن بعض هؤلاء الشبان يفقد وعيه لفترة من الزمن . وفى الشهور الأولى من عام ١٨٤٢ جاء إلى عيادته شاب كان يعانى من ورم فى قفاه وكان الرعب يملأ قلبه خوفاً من العملية الجراحية اللازمة لإزالة هذا الورم . فنصحه الدكتور لونج بأن يستنشق بعض الإيثير واستطاع بذلك أن يستخلص الورم دون أن يحس المريض ألماً . ثم استأصل الدكتور لونج ورماً آخر من قفا هذا

الشاب . وقطع إصبعين من يد محروقة لأحد الأطفال : الأصبع الأول بدون إيثير والثانى تحت تأثير هذا المخدر .

وفى ذات الوقت كان هناك باحث آخر فى ماساشوستس يحاول معرفة أثر الإيثير فى وقف الألم وهو الدكتور توماس جرين مورتون فقد شاهد محاولات طبيب أسنان يدعى الدكتور هوراس ويلز لاستعمال غاز أكسيد النيتروز لوقف الألم أثناء خلع الأسنان وفشلت هذه المحاولات الأولى . وقد حدثت فضيحة كبيرة فى ماساشوستس عند إجراء أحد هذه المحاولات الفاشلة فى المستشفى العام بهذه المدينة ولم يعد أحد يؤمن بغاز أكسيد النيتروز . ثم طلب الدكتور مورتون من العالم الكيميائى الشهير الدكتور تشارلس جاكسون أن يدله على مادة لها أثر قوى فى تسكين الألم ، فنصحه بأن يجرب الإيثير الكبريتى وفى ٣٠ سبتمبر ١٨٤٦ خلع الدكتور مورتون ضرساً لأحد مرضاه دون أن يحس بأى ألم ذلك لأنه كان قد استنشق بعض الإيثير قبل العملية . وأحدث نجاح مورتون دوياً كبيراً فطلب منه الدكتور كولنز وارن أن يخدر له أحد مرضاه فى المستشفى العمومى بماساشوستس .

نحن الآن فى مستشفى ماساشوستس — التاريخ هو ١٦ أكتوبر سنة ١٨٤٦ والمسرح هنا هو حجرة العمليات — فى تلك الأيام كان لكل جراح رداء أبيض يرتديه دائماً فى كل عملياته بحيث يبدو من كثرة بقع الدم المتاثرة كأحد القصابين

وبالقرب من منضدة العمليات كان يقف بضعة رجال أشداء كانوا يستخدمون فى تقييد حركات المريض أثناء العملية . بينما كان بعض الطلبة والأطباء ينتظرون على أحر من الجمر مشاهدة هذا الموقف المثير .

ولأمر ما تأخر الدكتور مورتون .

وفجأة دخل الدكتور مورتون – لاهثاً – حجرة العمليات– لقد كان يحاول تصميم جهاز للإستنشاق . وعندما دخل الدكتور مورتون فاجأه الدكتور وارن قائلا : « إن المريض مستعد يا دكتور مورتون » .

ثم بدأ الدكتور مورتون وضع الإيثير من خلال الجهاز الجديد الذى اخترعه وما لبث المريض أن بدأ يتنفس بعمق وفقد وعيه وعندئذ تحول الدكتور مورتون قائلا : « فلتجر جراحتك يا دكتور وارن – إن المريض مستعد . . . » ، ثم استمرت العملية وساد الحجرة سكون تام وكان من الواضح أن المريض لا يعانى أية آلام . وبعد إتمام العملية ثم استيقاظ المريض استدار الدكتور وارن إلى الحاضرين قائلا : « أيها السادة – إن ما رأيتموه ليس خداعاً أو احتيالا . . . »

والواقع أنه لم يكن من الممكن أن تصل الجراحة إلى ما هى عليه فى يومنا هذا إلا بعد التوصل إلى استخدام طرق التخدير والتعقيم . فبدون التخدير كانت العمليات الجراحية التى يمكن إجراؤها محدودة لا تتعدى عملية بتر سريعة أو استخلاص حصوة

من المثانة . وكانت الصفات الشخصية التى تتطلبها مهنة الجراحة منذ مائة عام تشبه تلك الصفات اللازمة لشخص يتولى تنفيذ أحكام الإعدام . وكثيراً ما كان مبضع الجراح يؤدى نفس العمل الذى يؤديه حبل المشنقة بل كان الموت بعد هذه العمليات أشد قسوة وألما لأنه يعقب تقيح الجروح بما كان يصحبها من مآس وآلام . ولم يكن من الممكن أن تحقق الجراحة أى تقدم ملموس إلى أن أدرك الأطباء أن تقيح الجروح كان نتيجة لتلوثها بالجراثيم .

وتطورت أساليب التخدير فى المائة عام الأخيرة بحيث أصبحت فناً راقياً فأكسيد النيتروز والإيثير والكلوروفورم وهى أقدم العقاقير التى استخدمت فى التخدير ما تزال تستعمل إلى يومنا هذا فى كثير من العمليات ولكن يوجد إلى جانبها عدد كبير يمكن استعماله عن طريق الحقن بدلا من الإستنشاق وأمكن إلى جانب ذلك استحضار عقاقير تلغى الإحساس بالألم وحده دون أن يفقد المرء وعيه ولم يقتصر الأمر على ذلك فإن مخاوف المريض قبل العملية يمكن التغلب عليها بإعطائه بعض المواد المسكنة التى تجلب له نوماً سعيداً وهكذا يتفرغ الجراح لعمله فيحصر كل انتباهه فى جسم المريض بينما كان زميله من قبل يقوم بعملياته وسط رعشة المريض وتحت تأثير الخوف من أن تمتد غيبوبة التخدير لتصبح غيبوبة الموت .

والغرض من إجراءات التعقيم المعقدة هو عزل المريض عن

الميكروبات لأن أى عملية جراحية تتضمن إحداث جرح يعرض أعضاء داخلية كانت تحميها من قبل الأنسجة المخاطية أو الجلد وقد أمكن بفضل التعقيم أن تصل يد الجراح إلى الأعضاء الداخلية فيصلح ما يمكن إصلاحه ، ويستأصل الأجزاء التالفة ، وهكذا فتحت الجراحة ميداناً جديداً فى الطب هو دراسة تطور التغيرات المرضية كما تحدث أثناء الحياة .

الصحة العامة كمظهر من مظاهر التضامن الاجتماعى :

من بين الكوارث التى تصيب البشر لا يوجد ما هو أشد قسوة من الأوبئة التى تجتاح الجماعات الإنسانية فتعصف بها وقد تؤدى فى بعض الأحيان إلى تغيير شامل للوضع الإجتماعى السائد . وأدى الرعب الذى كانت تبثه هذه الأوبئة إلى الإحساس بضرورة العناية بالصحة العامة والتنظيم الإجتماعى للعلاج . وكان من الطبيعى أن يبحث الناس عن شىء يوجهون إليه إصبع الإتهام كسبب لهذه الأوبئة التى تروح وتجئ وتخلف وراءها ملايينا من المآسى . فظهرت فكرة تقول بأن الأوبئة ليست إلا نتيجة الهواء الفاسد وكانت كثرة المستنقعات وأكوام القاذورات التى تنتشر فى كل مكان مبرراً قوياً لانتشار هذا الرأى . ولم يكن دور المريض فى نقل العدوى إلى غيره واضحاً تماماً . فكان الناس والمرضى يهرعون هرباً وجرياً من المناطق الموبوءة ، ومع ذلك فقد كان الموت يدركهم أينما ذهبوا .

وكلمة الملاريا وهى تعنى الهواء الفاسد ليست إلا بقايا لتلك الفكرة القديمة . وظلت هذه الفكرة مسيطرة على التفكير الطبى إلى أن أثبتت الأبحاث العلمية صلة البكتريا بالمرض . وبين الحين والآخر كان الأطباء يدركون أهمية الإنتشار المباشر للمرض بواسطة الأشخاص المصابين ؛ ولكن ذلك لم يؤد إلى اتخاذ احتياطات فعالة . ولكنه أدى إلى سلوك هروبى قاس يتمثل فى رفض زيارة المريض أو من كان على حافة الموت وإغلاق المنازل التى بها أشخاص مصابين وكانت هناك بعض المبررات لأن يسلك الطب مثل هذا المسلك ولكن ذلك على أى حال لم يكن أكثر جدوى من رش الشوارع بالعطور للتغلب على فساد الهواء المزعوم .

ومع ذلك فإن هذه الخرافة أدت فى النهاية إلى إتخاذ إجراءات صحية سليمة . فالقذارة الشنيعة التى كانت تتميز بها مدن أوروبا فى العصور الوسطى بدأت تختفى رويداً رويداً . فقد كانت مدن العصور الوسطى ذات روائح تزكم الأنوف ولكن الأحوال كانت تتغير ببطء تحت تأثير فكرة الهواء الفاسد كسبب للأوبئة . فمثلا صدر فى باريس قانون يمنع الجراحين وحلاقى الصحة من التخلص من الدماء — التى كانت تسيل أثناء العمليات الجراحية — فى نهر السين داخل المدينة . بينما حرم على جميع المواطنين إلقاء الفضلات من النوافذ وذلك أثناء الطاعون الذى اجتاح هذه المدينة فى القرن السادس عشر .

وقد استتبع تحسن وسائل المواصلات فى القرن التاسع عشر سرعة انتشار الأوبئة مما دعى إلى المزيد من التدابير الصحية . وأيا كانت الدوافع الحقيقية التى اضطرت القوم فى العصور الوسطى إلى بناء المستشفيات فقد كان ذلك تحت ضغط الحاجة الاضطرارية ، وربما لعبت مشاعر الإحسان والشهامة دوراً فى ذلك ولكنها كانت نتيجة لإدراك هؤلاء المحسنين أن ما يصيب الغير يمكن أن ينالهم ولو كانوا فى بروج مشيدة . فقد كان منظر القوم البائسين الذين يفترشون الطرق يدعو إلى اشمئزاز الوجهاء والنبلاء مما دعاهم إلى التسابق فى بناء المستشفيات لا رحمة وشفقة بهم ولكن خوفاً من عدواهم . ذلك الخوف الذى لم يكن قائماً على أساس علمى ولكن بناء على شعور غامض مبهم بأنهم قد يكونون مصدر الأذى والبلاء . فلم تكن الأوبئة تعرف الفرق بين ملك وصعلوك أو بين نبيل من النبلاء وفقير من الفقراء . كانت تدخل القصر مثلما كانت تدخل الكوخ الحقير وتقتل هنا وتفتك هناك . كانت وسيلتها الحشرات كالقمل والبراغيث لتنشر الرعب فى كل مكان ، وقد يتساءل البعض كيف تصل هذه الحشرات إلى قصور الملوك والنبلاء ؟ والجواب على ذلك سهل هين فالقصر العظيم كانت دائماً تجاوره الأكواخ الحقيرة والذين يعملون فى إمرة النبلاء والملوك وتحت خدمتهم كانوا يتكفلون بإيصال العدوى إليهم لأن من الصعب بل من المستحيل على هؤلاء الأفراد أن يتجنبوا الإحتكاك بمن

يعملون تحت أقدامهم . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى كانت الفئران دائماً تلعب دوراً رئيسياً فى نقل البراغيث التى تحمل الجراثيم – وبالطبع لم يكن من الصعب على هذه الحيوانات أن تتخطى الأسوار والحواجز التى وإن صعب على البؤساء والمعدمين أن يتخطوها فإن الفئران لم تكن لتجد نفس الصعوبة فى اجتيازها لتخلق نوعاً من المساواة بين الجميع فى المرض والبلاء ما دام القوم يرفضون المساواة فى نواح أخرى من الحياة .

وما إن جاء منتصف القرن الماضى حتى أصبح هناك مجموعة لا بأس بها من التدابير الصحية كإجراءات العزل مثلا ، وإقامة خدمات طبية منتظمة بما فيها المستشفيات العامة والخاصة ، وأدت مشروعات تعميم المياه النقية فى بلد كإنجلترا مثلا إلى القضاء على الكوليرا والتيفود قبل أن يثبت علمياً الدور الذى تلعبه المياه الملوثة فى نقل هذين المرضين . كما أدت التدابير الصحية إلى التخلص من التيفوس فى بعض البلاد قبل أن يدرك العلماء أنه ينتقل بواسطة القمل . وانتهى عهد الطاعون قبل أن يصل الأطباء إلى أن جراثيمه تنتقل بواسطة البراغيث . وذلك فى البلاد التى أمكنها بفضل ارتفاع مستوى معيشة سكانها أن تتخلص من الظروف الإجتماعية السيئة ، كالازدحام والقذارة والفقر ، التى تؤدى إلى انتشار هذه الأوبئة ، والأمراض .

ولكن هذا كله كان مشكوكاً فيه من الناحية العلمية

الأكاديمية إلى أن استطاعت الأبحاث الميكروسكوبية أن تكتشف الجراثيم المسببة لهذه الأوبئة والأمراض . ولم يعد الأمر بعد ذلك مسألة تدابير صحية عامة وكفى . فتاريخ حياة الميكروب أصبح مفهوماً ، كما أن طرق انتشار هذه الأمراض قد عرفت سواء كان ذلك عن طريق الإختلاط المباشر أو بواسطة الهواء أو الطعام الملوث أو بواسطة الحشرات كالقمل والبراغيث والبعوض . وبعد أن كان الإنسان يتعثر فى طريقه ، مرة يصيب ومرات يخطئ ، أصبح الطريق واضحاً . وبدلا من التقدم فى شك وحذر أصبح الإنسان يحارب معركته فى ثقة وأمان . فقد اتضحت أمامه معالم الطريق .

ولم تعد أوبئة التيفود والتيفوس والكوليرا والحمى الصفراء وغيرها من الأمراض المعدية جزءاً من الحياة الطبيعية للمجتمعات المتحضرة . وقد تحدث فى ظروف استثنائية أوبئة محدودة هنا وهناك بين وقت وآخر ، ولكن سرعان ما تسد الثغرة المسئولة عن ذلك قبل أن يتخذ الوباء شكلا جدياً .

ومشكلة التخلص من الأوبئة تنحصر فى القضاء على العوامل التى تؤدى إلى العدوى . ففى حالة التيفود ينتقل الميكروب من مريض لآخر عن طريق الفضلات كالبراز والبول التى تلوث الطعام ومياه الشرب . وهكذا تنقسم مشكلة التخلص من التيفود إلى شقين : الأول تنفيذ إجراءات صحية ترمى إلى التخلص من الفضلات ويتلخص الشق الثانى فى إمداد المساكن بالماء

النى . وبصفة عامة لا توجد صعوبة كبيرة فى التحكم فى الأمراض المعدية التى تنتقل عن طريق الماء أو الطعام الملوث اللهم إلا السل البقرى الذى ينتقل من الأبقار إلى الإنسان عن طريق اللبن الملوث الذى لم يتم تعقيمه بعناية وغالباً ما يصيب الأطفال .

والمشكلة الصعبة حقاً هى السيطرة على الأمراض المعدية التى تنتقل بواسطة ميكروبات تصل الجسم عن طريق حشرات أو كائنات حية أخرى . فالقضاء على الملاريا يعنى أحد أمرين : إما القضاء على الطفيل نفسه أو القضاء على البعوض . وقد وجد عملياً أن القضاء على البعوض بتصريف المياه وردم البرك والمستنقعات أنسب طرق المقاومة . وكان للحمى الصفراء نفس المشكلة ولو أنها أبسط إلى حدما — حيث تنتقل العدوى من مريض لآخر بواسطة البعوض الذى يعمل كحامل لفيروسات المرض . ولولا أن تم القضاء على البعوض لما أمكن حفر قناة بناما .

وتاريخ التيفوس كثيراً ما يوصف على أنه تاريخ لمأساة الإنسان لأن التيفوس مثل بارز لمجموعة من الأمراض المعدية تنتشر حيثما يكون الفقر فى أبشع صوره . فهذا المرض ينتقل بواسطة القمل الذى ينقل الجراثيم من شخص لآخر . والأمراض التى ينقلها القمل أو يتسبب فيها سيان كانت أوبئة فتاكة أو أمراضاً يسهل علاجها ستظل عبرة للإنسان تؤكد له أن شيئاً لن يحميه من هذه الأمراض إذا استطاع أن يهزم الدنيا بأسرها

ما لم يتخلص من عيوب تنظيمه الإجتماعى .

ومشكلة الأمراض التى تنتقل عن طريق الهواء والتى تنتشر بالعطس والسعال أكثر تعقيداً وصعوبة من تلك التى تنتقل بوسائل يمكن التحكم فيها . فالسل والدفتريا والحمى القرمزية والحصبة والأنفلونزا كلها يمكن أن تنتشر بواسطة الهواء . وهذا هو السبب فى أن معظم الأمراض المنتشرة فى أيامنا هذه تنتقل بهذه الطريقة ، لأن التدابير الصحية الكلاسيكية تعجز عن مقاومة هذه الأمراض .

والنجاح الذى تم تحقيقه فى مقاومة الأمراض المعدية لم يكن نتيجة إبادة مطلقة للميكروبات المسببة لهذه الأمراض ولكن كان نتيجة التحكم فى العوامل التى تصل العدوى إلى الإنسان عن طريقها — كالماء والطعام أو كالذباب والبعوض . وحيث لا يمكن التغلب على هذه العوامل عن طريق الإجراءات الصحية الكلاسيكية كما فى حالات الأمراض التى تنتقل بواسطة الهواء فإننا نسعى إلى رفع درجة مقاومة الأفراد بالتطعيم والتحقين وبغير ذلك من الوسائل .

فالسل مثلا يمكن الحد من انتشاره بطريقة فعالة لو طبق نظام إجبارى دقيق يرمى إلى تعقيم الألبان . وتستطيع التدابير الوقائية أن تلعب دوراً هاماً فى التغلب على طريقة انتشار هذا المرض بواسطة الهواء كعزل المرضى ومعالجتهم ، وفحص صدور أكبر عدد ممكن من السكان بالأشعة بصفة دورية ، ولحسن

الحظ أمكن فى السنوات الأخيرة الحصول على عقاقير لو أجيد استخدامها بطريقة علمية لأمكن علاج هذا المرض علاجاً تاماً . هذا وقد أمكن أيضاً التوصل إلى طريقة للتحصين كلفت العلماء أعواماً طوالا حتى توصلوا إليها وهو الطعم المعروف باسم : بى . سى . جى (B.C.G.)[١] الذى استعمل على نطاق واسع فى فرنسا وبلاد الشمال وأتى بنتائج ناجحة فى حماية الأطفال من هذا المرض .

عندما يكون الاضطراب من الداخل :

كانت الغدد إلى وقت قريب تعتبر بقايا أثرية Vestigial remains لعملية التطور داخل الرحم . ولم يكن أحد يدرك أن لها وظائف معينة . وخلال النصف الثانى من القرن الماضى أصبح من الأمور المفهومة أن اضطرابات هذه الغدد تؤدى إلى أمراض عنيفة تشمل الجسم كله . فعرف أن مرض أديسون وما يصحبه من ضعف مريع ونهاية محتومة هو نتيجة إصابة مرضية فى الغدد فوق الكلوية ، بينما اتضح أن المكسديما والجوتر الجحوظى ينتجان عن اضطراب فى الغدة الدرقية . وكان المظنون أن هذه الأمراض تحدث بسبب إفرازات شاذة أو غير طبيعية . ولكن ثبت فيما بعد أن هذه الأمراض ليست نتيجة إفرازات غريبة وإنما هى نتيجة اضطراب نسبى فى الإنتاج المتوازن لهذه الغدد

---

(١) Bacillus Calmette Guerin

من الهرمونات . فمرض أديسون مثلا يسببه انقطاع إفرازات قشرة الغدد فوق الكلوية . بينما المكسديما Myxoedema ، والكريتنزم Cretinism بما يتميز به من بلاهة وضعف عقلى ، يرجعان إلى نقص فى إفرازات الغدة الدرقية ، أما الجوتر الجحوظى فسببه ازدياد إفرازات هذه الغدة عن المستوى الطبيعى ومرض البول السكرى يرجع إلى فشل البنكرياس فى إنتاج كمية كافية من الإنسيولين . وتوجد أشكال مختلفة من النمو الشاذ ترجع إلى اضطرابات فى كمية إفرازات الغدة النخامية : The pituitary gland أو الدرقية أو الخصية أو المبيض . ومعظم العمالقة يعانون من الأكروميجالى Acromegaly (غلظ العظام) وتبدو عليهم أعراض ازدياد إفرازات الجزء الأمامى من الغدة النخامية بينما بعض أنواع السمنة لها أصل هرمونى .

وإفرازات هذه الغدد جميعها متوازنة ومتكاملة مع بعضها عن طريق الغدة النخامية — مايسترو الأوركسترا الهرمونية — والإضطراب فى وظائف إحدى هذه الغدد له آثار مباشرة على الجسم عموماً (كهبوط نشاط الجسم فى غياب كمية مناسبة من هرمون الغدة الدرقية — كما فى حالات المكسديما) وبالإضافة إلى ذلك فله آثار غير مباشرة على وظائف الغدد الأخرى . وبعض الأمراض الهرمونية العنيفة — كمرض كوشنج مثلا ترجع إلى اضطرابات تشمل أكثر من غدة واحدة .

وقد كان الكشف عن عالم الهرمونات ، أحد الإنتصارات

التى حققتها الكيمياء الحيوية : لا يقل روعة عما حققته الكيمياء العضوية فى عالم العلاج الكيميائى . وقد بدأ أول علاج هرمونى ناجح فى عام ١٨٩١ عندما عالج مورى Murray حالات المكسديما والكريتنزم بتناول الغدة الدرقية للخنزير فى حالة نيئة وقد تم هذا النجاح فى حمية النشوة التى أوجدتها الإنتصارات المتتالية فى عالم البكتريا فى الربع الأخير من القرن الماضى ثم اكتشف كثير من الهرمونات فى الثلاثين سنة التى تلت ذلك ولكن لم يكن لهذه الإكتشافات أهمية علاجية تضاهى ما سبق اكتشافه عن الغدة الدرقية إلى أن تمكن بانتنج وبست Banting & Best أن يستخلصا هرمون الإنسيلوين ويستعملانه فى علاج البول السكرى . وكان ذلك نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الطب فقد أصبح مرضى السكر قادرين على الحياة حياة عادية بدلا من أن يتحولوا إلى أشباح هزيلة تقع فريسة لأمراض قاتلة . وقد تلى ذلك انتصارات سريعة متتالية فى عالم الهرمونات : فاكتشف البتوترين والأدرينالين والإسترين والكوريتزون فأنقذت ملايين المرضى بمختلف العلل والأمراض كان بعضها ينتهى نهاية مميتة على وجه التأكيد واليقين .

والأمراض الناشئة عن اضطرابات الغدد الصماء ليست هى الأمثلة الوحيدة لما يمكن أن يكون نتيجة اضطراب فى تكامل الوظائف الفسيولوجية لمختلف الأنسجة والأعضاء فأمراض الحساسية مثلا ليست إلا نتيجة استجابة مبالغة للمؤثرات

الطبيعية بينما فى السرطان نجد أن الحياة الجماعية للخلايا تضطرب تحت تأثير تمرد نوع من الخلايا وخروجه على أنظمة الجسم وقوانين النمو. وبينما استطاع الطب أن يجد علاجاً لأمراض الحساسية فهو ما يزال عاجزاً عن مواجهة السرطان وهناك نوع آخر من الإضطرابات الداخلية كالتى تصيب الجهاز العصبى. وهنا أيضاً لم يستطع العلاج الطبى بعد أن يكون سيد الموقف.

الفصل الثالث

المرض كظاهرة اجتماعية

سباق الموت :

تختلف نسب الوفيات بصورة قاطعة بين مختلف أقسام السكان. وبصفة عامة، كلما كان المستوى الإقتصادى أكثر هبوطاً كلما كانت نسب الوفاة أكثر ارتفاعاً. وتنطبق هذه الحقيقة على جميع فئات الأعمار. هناك حقاً نسبة عالية من مرضى السكر بين الطبقات الغنية ومع ذلك فبينما نجد أن هذه الطبقات تصاب عادة بعدد محدود من الأمراض — التى تحدث فى سن متأخرة — يسميها بعض الأطباء أمراض الرفاهية نجد أن معظم أمراض الجهاز التنفسى — وهى عادة أمراض خطيرة —

تحدث بين أفراد الطبقة الفقيرة وخلال جميع فترات العمر .

وارتفاع معدلات الأمراض والوفيات بين الطبقات الفقيرة يرجع إلى سبب بسيط هو أن هذه الطبقات تعانى من أمراض معينة تسمى أمراض الفقر Diseases of Poverty كالسل والحمى الروماتيزمية التى تصيب القلب بأبلغ الأضرار وقد تقضى على المريض فى أوج شبابه . وسوء التغذية والازدحام يؤدى فى قطيع من حيوانات التجارب إلى نفس المظاهر المرضية (بفتح الميم والراء) التى تصورها الإحصائيات عن أمراض بنى الإنسان عندما يعيشون فى ظروف مماثلة .

فلو أبقيت قطعان من فئران التجارب على غذاء كغذاء الفقراء لتعرضت لأمراض قاتلة تصيب جهازها تصيب جهازها التنفسى . وإحصائيات الوفيات فى الهند تؤكد أهمية الدور الذى يلعبه الغذاء فى الصحة والمرض ففى بعض مناطق الهند حيث تنتشر أمراض سوء التغذية على نطاق واسع توجد أعلى نسب للوفيات فى العالم ، حيث عوامل المرض والموت وأعنى بها الفقر والإزدحام والقذارة تدور فى دائرة مفرغة تطحن فى طريقهاالا أرواح الأطفال والشباب .

وتأثير الأحوال الاجتماعية على نسب الوفاة يتضح تماماً من فحص إحصائيات وفيات الأطفال الذين لم يتجاوزوا السنة الأولى من عمرهم . ففى إنجلترا كان معدل وفيات الأطفال بالنسبة لجميع طبقات السكان فى سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ هو ٦٢ فى

الألف أى أن من بين كل ألف طفل يولد كان يموت منهم ٦٢ طفل قبل أن يتموا العام الأول من عمرهم وهذا الرقم يمثل المتوسط بلجميع فئات السكان[١] ، بينما كان معدل وفيات أطفال الطبقة الأولى (أعلى الطبقات من حيث المستوى الاقتصادى) هو ٣٣ فى الألف وكان هذا المعدل ٥٨ فى الألف بين أطفال العمال المهرة (الطبقة الثالثة) أما فى أطفال العمال اليدويين (الطبقة الخامسة — أفقر الطبقات) فكان معدل الوفاة هو ٧٧ من بين كل ألف طفل يولد .

والإهتمام بمعدلات الوفاة بين الأطفال يرجع إلى أنها مقياس دقيق حساس لمدى صلاحية البيئة التى نعيش فيها . ولدراسة هذه المعدلات تفصيلياً يقسم الأطفال إلى مجموعتين :

الأولى : تشمل الأطفال الذين لم يتعدوا السنة الأولى من عمرهم .

والثانية : تشمل الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين سنة وخمس سنوات .

ومعدلات الوفاة بين أطفال المجموعة الأولى فى مصر تبلغ ٢٠٠ فى الألف تقريباً [٢] بينما تتراوح هذه المعدلات فى الوقت

---

(١) يقسمون السكان فى إنجلترا إلى خمس فئات تبعاً للوضع الاقتصادى فالفئة الأولى تمثل طبقة الأغنياء والأخيرة تمثل أفقر الطبقات وما بينهما يمثل الطبقات المتوسطة وهذه تقسم أيضاً إلى ثلاث فئات كل حسب مستواها الاقتصادى

(٢) محاضرات الأستاذ الدكتور كمال شوقى بكلية طب جامعة عين شمس .

الحاضر بين ٢٠ – ٣٥ فى البلاد الأوربية[1] ويصل معدل الوفاة بين أطفال المجموعة الثانية فى مصر إلى ٥٠ فى الألف أما فى السويد فهو ٢ فى الألف .

وحتى تصبح هذه الأرقام صورة حية فى ذهن القارئ : أنقل إليه وصف الدكتور لطفى الصاوى[2] لذلك السباق الرهيب بين أطفال الريف . . . سباق الموت :

« أمامنا الآن ٢٠٠ فارس ، والفارس هنا عبارة عن جنين لايزال فى بطن أمه من حوالى شهر فقط . أى أمامنا ٢٠٠ جنين عند بدء السباق . ولم يكد السباق يبدأ حتى سقط فارس . مسكين إنه يحمل جرثومة الزهرى فلم يستطع أن يستمر طويلا السباق مستمر ، ١٠ يسقطون ، معذورون فإن إمهاتهم يجهدن أنفسهن بالعمل المضنى ولا ينلن شيئاً من الراحة ولا الغذاء الكافى . اللعبة تستمر بنجاح . الجميع يتقدمون . لقد اقتربنا من المرحلة الحرجة فى هذا السباق – مرحلة الانتقال من بطون الأمهات إلى الحياة . إنى أعلم أنها مرحلة شاقة فظروف الولادة سيئة للغاية. حسناً . الفرسان الذين لم يجتازوا هذه النقطة الحرجة بنجاح ٦ فقط . هيا فليتقدم البقية . ما هذا الخمول ؟ لماذا لا يتقدم هؤلاء . . آه يا لسوء حظهم ٢٥ يسقطون لأنهم ولدوا

---

(١) معدل الوفيات بين الأطفال الذين لم يتجاوزوا السنة الأولى من عمرهم فى السويد هو ٢٠ فى الألف .

(٢) مشاكل الطب فى الريف المصرى – الأستاذ الدكتور لطفى الصاوى

ضعافاً من أبوين ضعيفين . لا ... لا تتركونى وتهربوا من الملعب ... لابد وأن تشاهدوا لعبة الموت حتى نهاية العام على الأقل .

الجو كئيب . الظروف حرجة . الحواجز بالغة القسوة . النزلات المعوية تتصيد ٣٠ طفلا . النزلات الشعبية والرئوية تسقط ٢٠ آخرين ... الحصبة ٥ ... الدفتريا ١ ... الأمراض الدرنية ١ ... لين العظام ١. انتهى العام الأول وسقط ١٠٠ فارس وبقى ١٠٠ دعوهم يواصلوا السباق المضنى ودعونا نبحث عن تفاصيل المهزلة[1] » .

وتصور لنا هذه الأرقام المسئولية الخطيرة الملقاة على عاتقنا جميعاً تجاه أطفالنا .

السل فى إنجلترا :

توضح لنا معدلات الوفاة من السل بين الإناث فى إنجلترا العلاقة المتشابكة بين مختلف عوامل الصحة والمرض . فعلى

---

(١) يلاحظ أن الدكتور لطفى الصاوى أورد معدلا لوفيات الأطفال فى الريف المصرى يبلغ ٥٠٠ فى الألف وهذا لا يتناقض كثيراً مع الرقم الذى سبق أن ذكرناه وهو ٢٠٠ فى الألف للأسباب الآتية :

١ — أرقام الدكتور لطفى الصاوى تشمل حالات السقوط والولادة قبل الأوان وهذه لا تدخل فى حساب الرقم الذى ذكرناه (٢٠٠ فى الألف) .

٢ — أرقام الدكتور لطفى الصاوى تنطبق على بعض المناطق الريفية ومعدلات الوفاة فى هذه المناطق أعلى بكثير منها فى المدن . أما الرقم الذى ذكرناه فهو يمثل المتوسط فى جميع أنحاء القطر .

النقيض من انخفاض معدلات الوفاة من هذا المرض بين قطاعات المجتمع الأخرى بقيت معدلات الوفاة بين الإناث على مستوى ثابت تقريباً[١] خصوصاً فى المدن وعواصم الريف وبالذات فى المناطق الأكثر ازدحاماً والسبب فى ذلك يرجع ببساطة إلى ازدياد عدد العاملات فى الصناعة . فبعد أن كان الرجال وحدهم يتعرضون للظروف السيئة التى تهئ للإصابة بهذا المرض كالإزدحام والعمل فى مناجم معينة إلى جانب الإرهاق وسوء التغذية أصبحت النساء يتعرضن لظروف مماثلة . والزيادة النسبية فى معدلات الوفاة بين النساء من السل الذى يصيبهن فى مقتبل العمر يبرهن على أن التحسن الذى طرأ على معدلات الوفاة عموماً يرجع إلى التخلص من عوامل نوعية ضارة . واتخاذ تدابير صحيحة عامة بينما تركت الظروف الإجتماعية التى تتضافر لتعمل على انتشار هذا المرض دون أن تمس أو خلقت من جديد ، وهذه لا يمكن تجنب نتائجها من مجرد تحسين وسائل الصحة العامة .

وأهمية السل فى الرفاء القومى تتضح من أنه حتى فى بلد تقل

(١) ينطبق هذا الكلام على إحصائيات ما قبل عام ١٩٥٠ – ذلك لأنه بدأ فى هذا العام إنخفاض جدى فى معدلات الإصابة بالسل والوفاة منه نتيجة استخدام الأدوية الحديثة بين جميع قطاعات المجتمع – وهذا بالطبع لا ينقص من أهمية النتائج التى تشير إليها هذه الإحصاءات خصوصاً بالنظر إلى الظروف التى تمر بها بلادنا فى الوقت الحاضر من انتشار الصناعة وازدياد عدد العمال والعاملات .

فيه نسبة الإصابة به كإنجلترا مثلا ، فإن هذا المرض يتصدر قائمة أسباب الوفاة بين الأعمار من ١٠ — ٤٠ سنة . ودور الفقر فى هذه المذبحة واضح لاشك فيه . فنى سنى المجاعة أثناء وبعد الحرب الأخيرة كان السل أكثر انتشاراً فى أوروبا عنه فى سنوات ما قبل الحرب . فنى برلين ارتفعت معدلات الوفاة من السل بنسبة ٦٥٪ عن معدلات ما بين عامى ١٩١٤ ، ١٩١٨٧ . وارتفعت أيضاً معدلات هذا المرض فى مدينتين صناعتين احتلهما الألمان بنسبة ١٠١٪ ، ١٨٥٪ على التوالى . وفى الجزر البريطانية نجد أن الإصابة بالسل تتمشى تماماً مع الفروق الإجتماعية التى تؤثر أيضاً على معدلات الوفاة بين الأطفال .

وبالإضافة إلى التغذية ، فإن السكنى عامل هام . فنى سنة ١٩٣٢ وجد أن نسبة الوفاة من السل فى جلاسجو تبلغ :

١,٤ فى الألف بين من يسكنون حجرة واحدة

١,١ فى الألف بين من يسكنون فى حجرتين

٠,٧٢ فى الألف بين من يسكنون فى ثلاث حجرات

٠,٤٦ فى الألف بين من يسكنون فى أربع حجرات

التغذية والمرض :

سادت فى فترة من الفترات فكرة أن الجسم الإنسانى ما هو إلا آلة كأى آلة أخرى . واعتبر الغذاء مجرد وقود ، وكانت

هذه النظرة الضيقة تعبر عن عواطف الطبقة الرأسمالية فى المرحلة الأولى من مراحل الثورة الصناعية عندما كان العامل يسمى « يدا » والعمال يسمون « أيد عاملة » . وإلى وقت قريب كان المعتقد أن الأقسام الثلاثة للمواد الغذائية وهى الكربوهيدرات والدهنيات والبروتينات إلى جانب قليل من الأملاح المعدنية تشمل كل ما يلزم الجسم للإحتفاظ بصحة جيدة .

وتقدمت المعرفة بعلم وظائف الأعضاء فلم يصبح الإنسان مجرد آلة ولم يعد العمال مجرد أيد عاملة . وفى ضوء هذه المعرفة أصبح من الممكن أن تدرس احتياجات الإنسان الغذائية « كإنسان » لا كمجرد « آلة » تعمل فى المصنع .

وفى العقد الأول من القرن الحالى تقدمت دراسة كيميائية المواد الغذائية بحيث أصبح من الممكن إجراء تجارب دقيقة بتغذية حيوانات التجارب مواد نقية مستخلصة كيميائياً كالبروتينات والدهنيات والكربوهيدرات . فلوحظ أن الحيوانات التى تربى على هذا الغذاء الكيميائى تعجز عن النمو ؛ ولو أنها تنمو لو أضيفت إلى هذا الغذاء كميات صغيرة من الأطعمة العادية وأثبتت الأبحاث التالية أن كثيراً من أعراض الإضطرابات التى تحدث نتيجة التغذى على هذه الأغذية النقية يمكن التخلص منها بإضافة كميات قليلة من الأطعمة الطبيعية ، وهكذا أصبح من الممكن تمييز مختلف العناصر الغذائية المساعدة التى يؤدى غياب أى منها إلى ظهور أعراض معينة .

وما إن جاء عام ١٩١٢ حتى كان قد عرف أن مرضاً كالبرى برى ولين العظام يتسبب عن نقص شىء ما فى الغذاء . ففى هذا العام نشر الدكتور هوبكنز تقريراً عن تجربة وضع فيها مجموعتين من فئران التجارب تحت الملاحظة ، أبقى إحداها على غذاء مكون من بروتينات وكربوهيدرات نقية مستخلصة كيميائياً إلى جانب الماء والأملاح . أما فئران المجموعة الأخرى فقد أعطاها غذاء مماثلا لهذا بالإضافة إلى قليل من اللبن . فوجد أن فئران المجموعة الأولى بدأت تفقد وزنها بالتدريج بينما نمت فئران المجموعة الثانية كالمعتاد . وبعد ١٨ يوماً عكس الظروف بحيث جعل فئران المجموعة الأولى تعيش على طعام المجموعة الثانية . وفئران المجموعة الثانية تعيش على غذاء المجموعة الأولى . فوجد عندئذ أن الفئران التى كانت تنمو أولا ابتدأت تتوقف عن النمو ثم تفقد وزنها بينما بدأت فئران المجموعة الأخرى تنمو بسرعة ، واتضح بذلك أن اللبن يحتوى على عناصر ومكونات ضرورية للحياة ليست موجودة فى البروتينات والدهنيات والكربوهيدرات ، المستخلصة كيميائياً . وسميت هذه العناصر المساعدة بالفيتامينات Vitamins وهى مجموعة من المواد لا تربطها صفات طبيعية أو كيميائياً مشتركة كما هى الحال مثلا بين مختلف البروتينات أو بين مختلف الدهنيات ، وتتميز بأن احتياجات الجسم منها صغيرة جداً وأنها جميعاً مركبات عضوية ، ولم يكن تركيبها الكيميائى معروفاً فى البداية ، أما الآن فإن

تركيب الغالبية العظمى من هذه المواد معروف كيميائياً ؛ ولذلك يمكن تأليفها فى المعمل . وقد شجع تقدم أبحاث الفيتامينات ما لوحظ أثناء الحرب العالمية الأولى من انتشار أمراض كالأسقربوط ولين العظام كنتيجة لنقص المواد الغذائية وعدم كفايتها .

فالأسقربوط ينتج عن نقص مادة معينة فى الغذاء هى حامض الأسكوربيك Ascorbic Acid وقبل أن يعرف تركيبه الكيميائى كان يسمى فيتامين C ويكثر فى الفواكه الطازجة وكثير من الخضروات والبرتقال والليمون والطماطم ويتسبب عن نقص هذا الفيتامين نزيف من الأوعية الدموية والشعرية تحت الجلد مع اضطراد مستمر فى الضعف والإحساس بالألم وقد خسر فاسكو دى جاما مائة رجل من ١٦٠ فى رحلته حول رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ ، وكانت هذه الخسارة الهائلة تحدث دائماً فى الرحلات البحرية الطويلة المدى وكانت بصفة عامة نتيجة للأسقربوط .

والكالسيفرول هو أحد الأشكال الكيميائية المعروفة لفيتامين D . وتتولد هذه المادة نتيجة فعل الأشعة فوق البنفسجية على مادة كحولية أخرى موجودة تحت الجلد هى الإرجوسترول . والإرجوسترول له نفس الصيغة الكيميائية إلا أن البناء الداخلى للذرات يختلف فى هذه المادة عنه فى فيتامين D . وهناك أشكال كيميائية أخرى لفيتامين D توجد فى زيوت الأسماك ونقص هذا

الفيتامين يؤدى إلى ظهور أعراض مرض لين العظام أو الكساح وهو مرض ما يزال منتشراً بين أطفالنا بشكل لا مثيل له فى أى بلد آخر . وهو أمر قد يبدو محيراً لأن الشمس فى بلادنا لا تكاد تغيب أكثر من عدة أيام قليلة فى السنة وهناك رأيان لتفسير ذلك أحدهما يرى أن كمية الأشعة فوق البنفسجية التى تصلنا قليلة نتيجة للأتربة التى تمنع وصولها إلى أجسام الأطفال . هذا إلى جانب انتشار عادة إثقال الأطفال بالملابس مما يحرمهم فرصة التعرض للشمس ، والرأى الثانى يرى أن كمية هذه الأشعة مهما كانت كافية فهى تعجز عن مواجهة النقص الشديد فى غذاء هؤلاء الأطفال . ويمكن طبعاً علاج هذا المرض بإعطاء كميات كبيرة من فيتامين D للأطفال . وعادة يكون الأطفال معرضين لهذا المرض فى ظروف الإزدحام الشديد حيث لا توجد لديهم الفرصة للتعرض لأشعة الشمس ما لم يعوض هذا بغذاء يحتوى على كميات مناسبة من فيتامين D كالبيض واللبن والزبد وزيت السمك .

ومرض البرى برى بما يتميز به من ضعف شديد ينتج عن نقص أحد مكونات فيتامين B المركب (B_1) ويتسبب عن نقصه التهابات بالأعصاب وإصابات خطيرة فى القلب قد تؤدى إلى الموت ، هذا إلى جانب الإمساك والصداع والأوذعا.

وفيتامين A موجود عادة مع فيتامين D فى الزبد وصفار البيض وزيت كبد الحوت وتركيبه الكيميائى له علاقة وثيقة

بالتركيب الكيميائى لمادة الكاروتين الموجودة فى النباتات الملونة إذ يستطيع الجسم الحيوانى أن يحول هذه المادة الأخيرة إلى فيتامينA . وإذا كان الغذاء ناقصاً فى هذا الفيتامين أو فى مادة الكاروتين فإن مقاومة الأنسجة المخاطية لغزو الميكروبات تصبح ضعيفة ، ويصبح الإنسان معرضاً لأمراض الجهاز التنفسى كالبرد والإنفلونزا إلى جانب اضطرابات أخرى فى العين كالعمى الليلى والكراتوماليشيا مما قد يؤدى فى النهاية إلى فقد الأبصار .

ونقص الحامض النيكوتينى Nicotinic Acid الذى يوجد فى اللحوم والكبد يؤدى إلى البلاجرا وهو مرض يصيب الجلد والجهاز الهضمى وينتشر فى الريف بشكل مؤلم . وعادة يبتدئ على شكل مرض جلدى فى الأجزاء المعرضة للشمس مصحوبة باضطرابات معوية وضعف عام خاصة فى القوى العقلية قد ينتهى بالمريض إلى العته أو البله .

ويتضح مما سبق أن هذه العناصر الغذائية الهامة موجودة كلها فى اللحوم والبيض والزبد واللبن والخضروات والفواكه وكلها من إنتاج الريف ومع ذلك فقد تمضى شهور دون أن يأكل الفلاح لحماً أو بيضاً أو سمكاً ولذلك فهو « فريسة ضعيفة هزيلة لكافة الأمراض الوبائية . ولو كان فلاحونا يتمتعون بغذاء جيد لما فقدنا عشرات الألوف فى أوبئة الملاريا والحمى الراجعة والكوليرا — تلك الأوبئة التى اجتاحت بلادنا فى الحرب العالمية

الثانية ، وكان معظم ضحاياها من الفلاحين المعدمين المصابين بأمراض نقص التغذية [١] « وأنت « إذا عشت بعض الوقت فى إحدى القرى ستلاحظ حتما عدة مظاهر ترتسم على الفلاحين — سترى الأجساد الهزيلة وسترى الوجوه الصفراء — وسترى وجوهاً رسم عليها بلون أغبر فراشة كبيرة جناحيها فوق الخدين وجسمها فوق الأنف . ستلاحظ أطفالا كثيرون بلغوا الثالثة من عمرهم ولا زالوا يزحفون . سترى عدداً من البله وأنصاف المعاتيه .

هنالك سبب واحد يفسر كل هذه الظواهر : نقص الغذاء . وهذا الذى عرضته سابقاً ما هو إلا أعراض مجموعة من الأمراض لا تتسبب عن ميكروب معين ولا تتسبب عن اختلال فى وظائف الجسم ولكنها نتيجة نقص التغذية » [٢] .

فالتغذية السليمة أساس أى بناء سليم للجسم . نحن لا ننكر أهمية الوراثة ولكن فى معظم الأمثلة نجد أن الجسم الضعيف البنية ينتج عن ظروف البيئة التى يمكن التحقق منها جيداً .

فى نيوكاسل بإنجلترا أثبتت إحدى الدراسات أن أهم عامل يؤثر فى أطوال وأوزان الأطفال هو الوضع الإجتماعى لأسراتهم . وقد وجد فى إحدى المدارس الصناعية أن التلاميذ

---

(١) ، (٢) مشاكل الطب فى الريف المصرى للأستاذ الدكتور لطفى الصاوى .

الذين يتناولون طعاماً مدرسياً عادياً يزداد طولهم بنسبة ٤,٦ سم فى العام الواحد بينما وجد أن التلاميذ الذين يتناولون اللبن بالإضافة إلى هذا الطعام يزداد طولهم بنسبة ٦,٥ سم فى السنة ولوحظ فى إحدى التجارب الواسعة النطاق باسكتلنده أن معدل نمو الأطفال الذين يتناولون كميات أكبر من اللبن يزيد بنسبة ٢٠٪ عن معدل نمو الأطفال الذين يتناولون كميات محدودة منه .

ويوجد تقرير بريطانى رسمى عن جلاسجو يقرر ما يلى : «متوسط أطوال وأوزان الأطفال يحمل علاقة مباشرة إلى حجم المنازل التى تعيش فيها أسر هؤلاء الأطفال بمعنى أن الأطفال صغار الحجم يأتون من بيوت صغيرة الحجم أيضاً والأطفال كبار الحجم يأتون من منازل كبيرة الحجم » وحجم المنزل ليس بالطبع هو العامل المباشر الذى يؤثر على نمو الأطفال ولكنه يصور لنا بدقة كبيرة الظروف الاقتصادية لأسر هؤلاء الأطفال .

ونوع الغذاء يفسر لنا العلاقة الوثيقة بين الظروف الاجتماعية وبين المرض . لأن التغذية — نوعاً وكماً — تؤثر على ميكانيكية المناعة ، ونقصها كما أو نوعاً — إلى جانب ما يؤدى إليه من أمراض نوعية كالبلاجرا والأسقربوط مثلا — يؤثر بصفة عامة على معدل حدوث جميع الأمراض . فى مصر نجد أن النزلات المعدية — المعوية التى تصيب الأطفال تسبب ٣٥٪ من مجموع الوفيات الكلية لجميع الأعمار . والواقع أن دور الالتهابات المعدية — المعوية دور شكلى فقط لأن الجذور العميقة هى سوء

التغذية . فهذه الإلتهابات عادة لا تصيب الأطفال الذين يتمتعون بغذاء جيد . وإذا أصابتهم فسرعان ما يبرءون منها .

وكثيراً ما تؤدى المشروعات التى تقام بنية حسنة إلى نتائج أسوء من الأحوال التى يراد تحسينها . وذلك نتيجة جهل المشرفين عليها . ففى بلدة ستكتون بإنجلترا أقامت الحكومة الإنجليزية مساكن شعبية وأزالت الخرابات والعشش التى كان السكان يعيشون فيها . وعندما عملت دراسة مقارنة بين الإحصائيات التى جمعت قبل انتقال هؤلاء المساكين إلى هذه المساكن وبعد انتقالهم إليها وجد أن نسبة المرض والوفاة ارتفعت بشكل ملحوظ على العكس مما كان متوقعاً لها من الهبوط . وذلك لسبب بسيط جداً ، فهؤلاء السكان لم يكونوا يدفعون أجوراً للمساكن الحقيرة التى كانوا يسكنونها والآن يجدون أنفسهم مضطرين إلى دفع إيجارات كانت تبدو للمسئولين الجالسين على مكاتبهم أنها مناسبة بل فيها تضحية من جانب الحكومة ، دون أن يدركوا أنها باهظة بالنسبة لهؤلاء الناس . وهكذا اضطروا لاقتطاع إيجارات هذه المساكن من ميزانية الطعام . وهذا مثل يؤكد لنا أن الفقر — كأى حقيقة أخرى — لا يمكن تجزئته .

الطب ليس علماً بيطرياً :

ومعدلات المرض والوفاة لا تتأثر فقط بالوضع الإقتصادى للأفراد . وإنما تتأثر أيضاً بالأعمال المهنية التى يمارسونها .

فبعض المهن تتضمن أخطاراً جسيمة على صحة المشتغلين بها . ففى صناعات الصوف نجد أن نسبة الوفاة أعلى فى بعض أقسامها بنسبة ٤٨ ٪ عنها فى الأقسام الأخرى . وذلك تبعاً لكمية التراب التى يستنشقها العمال وليست المهن المتربة فقط هى التى تتضمن أخطاراً على حالة العاملين بها . فالمهن التى يتعرض فيها العمال لدرجات عالية من الحرارة لها أخطارها أيضا فالسل والسرطان مثلاأعلى بنسبة ٢٥٠ ٪ بين عمال الزجاج عن المتوسط العام . وفى عمال المناجم نجد أن معدلات الوفاة تختلف بعمق المكان الذى يعمل فيه العامل . فالتهابات الشعب والرئة الحادة أعلى بنسبة ٤٥ ٪ بين العمال الذين يعملون فى أماكن عميقة عنها بين العمال الذين يعملون فى أماكن سطحية نسبياً .

ومن الصعب أن نتبين مدى ما تعنيه معدلات الوفاة هذه . فقبل أن يكمل عزرائيل مهمته لابد وأن تفترض شهوراً وأعواماً من عذاب المرض وآلامه بكل ما يتضمنه ذلك من بطالة وفقر .

ومعدلات الوفيات المهنية لا ترتبط فقط بنوع العمل الذى يقوم به الأفراد . ولكنها تتأثر بعوامل أخرى كعدد ساعات العمل وصحة العامل وتكوينه الجسمانى وبيئته المنزلية والدافع له على العمل والظروف التى يتم فيها العمل نفسه . فكثير من العمال يعملون لساعات طويلة فى اليوم الواحد ويلعب التعب

والإرهاق دوراً خطيراً فى إحداث بعض الأمراض وأبرز الأمثلة على ذلك هو السل والحمى الروماتزمية وشلل الأطفال وهو مرض يصيب الكبار أيضاً) ولاشك أن الإرهاق سبب من أسباب انتشار السل والحمى الروماتزمية بين الفئات الفقيرة من السكان التى تبذل مجهوداً يفوق طاقتها لتحصل على لقمة العيش .

وفى خلال الحرب العالمية الأخيرة كان عمال الصناعات الحربية فى بعض البلدان يشتغلون ضعف ساعات العمل اليومى المعتاد ليحصلوا على ضعف الأجر . ومع ذلك فإن نسبة حدوث السل بينهم كانت أعلى عنها بين زملائهم فى الصناعات الأخرى بالرغم من ارتفاع أجورهم وبالتالى ازدياد فرصهم فى الحصول على الغذاء الجيد . وعلى ذلك فازدياد نسبة الإصابة بالسل بين هذه المجموعة من العمال إنما تؤكد أهمية الإرهاق كأحد العوامل التى تهىء للإصابة بهذا المرض .

وقد ابتدأ الغموض الذى يحيط بالسرطان فى الإنحسار شيئاً فشيئاً واستطاع العلماء أن يوجهوا إصبع الإتهام فى كثير من الإصابات السرطانية إلى أسباب معينة . فسرطان الجلد أكثر انتشاراً بين العمال المشتغلين فى صناعة القار والمواد الكيميائية . وسرطان المثانة ينتشر بين العمال المشتغلين فى صبغات الأنيلين ومن جهة أخرى فإن سرطان الرحم فى النساء وسرطان الرئة فى الرجال لهما علاقة وثيقة بالفقر ، فهما أكثر انتشاراً بصفة قاطعة بين الطبقات الفقيرة . ونقص مواد معينة من الغذاء

(كالكولين) يسبب السرطان فى حيوانات التجارب . وقد ثبتت علاقة سرطان الكبد (وهو من السرطانات النادرة الحدوث) بنقص التغذية . وهذا السرطان يكاد يكون محصوراً فى بعض القبائل التى تعانى من نقص الفيتامينات «كقبائل البانتو والجافانيز» . ومن السرطانات المنتشرة فى مصر سرطان المثانة وذلك بسبب انتشار البلهارسيا .

وكان سرطان الرئة يعد من الأمراض النادرة ولكنه أصبح فى خلال الثلاثين عاماً الأخيرة من أكثر إن لم يكن أكثر السرطانات انتشاراً وعلى الأخص بين الرجال ويعزو البعض هذه الزيادة إلى تحسن فى طرق التشخيص أى أنها مجرد زيادة ظاهرية بينما يؤكد البعض الآخر أنها زيادة حقيقية نتيجة انتشار عادة التدخين وينتشر هذا المرض بين عمال مناجم الكوبالت واليورانيوم والأسبستوس . وتحاول شركات التبغ بكل إمكانياتها أن تضلل الناس وتنفى صلة التدخين بسرطان الرئة بالرغم من أن ذلك قد ثبت علمياً بما لا يقبل الشك أو الجدال . وهذا مثل يوضح لنا كيف تستطيع الدعاية المغرضة أن تسوق الناس إلى الهلاك فى سبيل مصلحة مجموعة من الشركات الإحتكارية . فقد وجد ويندر وجراهام أن ٥١ ٪ من المرضى من بين ٦٠٥ حالات سرطان فى الرئة يدخنون أكثر من ٢٠ سيجارة فى اليوم الواحد بينما كان ١٫٣ ٪ من هؤلاء المرضى لا يدخنون على الإطلاق . وتتمشى الزيادة فى استهلاك السجائر مع نفس

الزيادة فى الإصابة بسرطان الرئة فى الولايات المتحدة الأمريكية ويقرر اثنان ممن بحثوا هذا الموضوع بحثاً علمياً دقيقاً (Doll & Hill) أن احتمال الإصابة بسرطان الرئة بعد سن الخامسة والأربعين أكثر بخمسين مرة بين من يدخنون ٢٥ سيجارة (أو أكثر) فى اليوم الواحد لعدة سنين عنه بين من لا يدخنون على الإطلاق[١] .

وما دام المجتمع الإنسانى مريضاً يعانى من الفوضى والحروب سيظل الإنسان فريسة سهلة للمرض . فأمراض الإنسان لا يمكن فصلها عن أمراض المجتمع . والمجتمع الذى تسوده الحروب لا يمكن أن يتمتع فيه الأفراد بعمر مديد . وما دام العامل هو أرخص عناصر الصناعة ويمكن استبداله فى أى لحظة بغيره من العمال فلن تكون صحته أول اعتبار يؤخذ فى نظر المشرفين على الصناعة وسيستمر تشييد المصانع وحفر المناجم وإنتاج القنابل وأسلحة الموت والدمار لتخدم أغراضاً أخرى غير الأمراض التى تتطلبها رفاهية الإنسان وإنتاج الطعام والبضائع سوف يستمر لغرض آخر غير استهلاكها بواسطة من ينتجونها وإنما للحصول على الربح ، وما دام الربح هو الدافع الوحيد على نشاط الأفراد سيستمر جنون حرق الطعام ، وتقييد كميات الإنتاج ، كما هى الحال فى أمريكا ، بينما الحاجة وسوء التغذية تهدد المجتمع الإنسانى .

---

(١) انظر : Boyd : Textbook of Pathology

والوفيات والأمراض الناتجة بصفة مباشرة عن سوء التغذية والفقر والفوضى الإجتماعية فى مجتمع يمكنه علمياً أن يحل مشاكل الإنتاج لا تضع أمام الطب مشكلة ، ولكنها تمثل فضيحة كبرى ووصمة عار فى جبين الإنسان ، لأن الطب ليس علماً بيطرياً يهتم بعلاج الحالات الناشئة عن سوء معاملة قطيع الآدميين .

كلمات السير جون سيمون :

وفى المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية حيث يقف الفقر كشبح رهيب نجد أن سوء التغذية هى القاعدة العامة . والمجاعة شبح يتهدد الناس فى كل وقت وحين . وهنا نجد الدائرة المفرغة التى يدور فيها الفقر والمرض فى أبشع صورها . فانخفاض مستوى المعيشة يعنى أسقاماً لا حصر لها وهذه بالتالى تؤدى إلى الفشل فى تحسين وسائل الحياة . وحيث لا يستطيع الإنسان أن يجد ما يسد رمقه تجد الحشرات كالبعوض والقمل والبراغيث فى جسم الإنسان مرتعاً خصيباً .

ويسكن هذه المناطق ما يقرب من ١٦٠٠ مليون من البشر ولا يمكن حصر مدى الأسقام أو نسبة الوفيات بينهم . وهى مفزعة حتى فى تلك المناطق التى وصلت إلى درجة عالية من التطور كالهند مثلا . فنسبة الوفيات الكلية فى الهند ضعف مثيلتها فى إنجلترا . أما وفيات الأطفال فهى ثلاثة أضعافها .

وتعزى ٦٠٪ من الوفيات إلى الحميات كالملاريا والكوليرا والجدرى والطاعون والدوسنطاريا ، تلك الأمراض التى اختفت من أوروبا منذ أكثر من خمسين عام . وهذا يصور لنا مدى عجز التدابير الصحية فى هذه المناطق . والواقع أن التخلص من هذه الأمراض فى الوقت الحاضر ليس مشكلة طبية على الإطلاق . بل هو مشكلة إقتصادية أولا وقبل كل شيء . ويلخص لنا أحد الأطباء الإنجليز فلسفة الصحة العامة عندما يقول : « إن الصحة العامة لأى بلد تعنى صحة الجماهير ، ولن تكون الجماهير فى صحة جيدة ما لم تكن — فى أقل مجموعاتها ثراء — فى مستوى إقتصادى معقول » هذه هى كلمات السير جون سيمون أوردها فى تقريره السادس سنة ١٨٦٤ عن مشاكل الصحة العامة فى إنجلترا . وكما كان ذلك صحيحاً منذ قرن مضى فهو صحيح فى يومنا هذا .

لا تلوموا الأطباء وحدهم :

هناك علاقة وثيقة بين المرض وبين العادات الصحية للأفراد والجماعات . ويجب أن نلاحظ أن هذه العادات إنما تأصلت نتيجة للوضع الاجتماعى للفرد أو الجماعة ليس فقط فى الجيل الحاضر وإنما خلال الأجيال السابقة أيضاً . ومن الصعب جداً تغيير عادات الأفراد الصحية لأنها عادة تكون ثابتة قوية متأصلة من نفوسهم لدرجة أن تغييرها قد يتطلب

تغيير الجيل بأكمله . والتحسن الوقتى فى الظروف الاجتماعية والاقتصادية ليس كافياً لتغيير هذه العادات[١]. وهذه حقيقة هامة لأن البعض قد يبنون آمالا عريضة على دور الإذاعة والدعاية فى تغيير العادات الصحية بين يوم وليلة .

والتعليم أيضاً يحتاج إلى وقت طويل لتغيير العادات الصحية للفرد . فالذى يحدد تصرفاتنا وسلوكنا ليس فقط هو درجة تعليمنا إنها الطبقة الإجتماعية التى ننتمى إليها . والتعليم كعامل فى تغيير العادات الصحية للأفراد إنما يحقق دوره بطريق غير مباشر وذلك بزحزحة الفرد من وضع اجتماعى معين إلى وضع اجتماعى آخر . ويتضح ذلك من دراسة العادات الإجتماعية والصحية للطبقات الدنيا من المجتمع . فالظروف التى يعيش فيها الفقراء تجعلهم يفقدون أى رغبة فى تغيير أحوالهم ، كأنما أسكرهم الفقر عن هذه الدنيا وما فيها ، فليس لديهم أى حماس أو رغبة فى تغيير أحوالهم . وهذه الحالة النفسية عائق هام فى ميدان الصحة العامة فهم راضون قانعون بالأحوال التى يعيشون فى ظلها . والكثيرون منا يلومونهم على ذلك والواقع أن هذا تأثير مرضى (بفتح الميم والراء) للفقر . أو هو أثر من آثار الفقر المرضية ، إذ كيف يفكر الشخص المعدم فى نظافة طفله إذا كان كل همه فى الحياة أن يفكر فى الوسيلة التى يحصل بها على

---

(١) محاضرات الأستاذ الدكتور كمال شوقى بكلية الطب – جامعة عين شمس .

لقمة العيش في الوجبة القادمة . إنه يفكر لا للمستقبل ولا حتى لليوم الذى يعيش فيه بل لذات اللحظة التى يعيش فيها . وهكذا تمضى به الحياة لا يستطيع أن يمده نظره أو تفكيره لأبعد من اللحظة التى يواجهها فى معركته للحصول على الغذاء . وعلى ذلك فلنجاح أى مشروع من مشاريع الصحة العامة يجب تغيير المستوى الإقتصادى قبل أى شىء ويمكنك أن تفعل ما تشاء وتعظ ما تشاء وتذيع ما تشاء ولكنك لن تصل إلى نتيجة إيجابية إذا ظلت الظروف الاقتصادية والاجتماعية كما هى .

إن الذين يعتقدون أن مشاكل الطب فى مصر تقع على عاتق الأطباء وحدهم يخطئون أشد الخطأ ، لأن المرض ليس حقيقة معزولة كحقائق الكيمياء والرياضة ، إنه إنعكاس لظروف المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان . فمهما أنشأنا من المستشفيات وعممنا الخدمات الصحية والعلاجية فى كل مكان فلن يجدى ذلك فتيلا إذا ظلت المشاكل الاقتصادية والاجتماعية بدون حلول إيجابية .

إن الأطباء يؤمنون أن مشاكل الصحة فى بلدنا تقع على عاتق المصلحين الاجتماعيين وخبراء الإقتصاد أكثر مما تقع على عاتقهم وحدهم .

الفصل الرابع

المستقبل

المستشفى الحديث :

كانت المستشفيات فى العصور الوسطى ذات وظيفة سهلة ، كانت طريقاً للموت ، وعلى أحسن الفروض كانت مكاناً لموت هادئ مريح ، بل كثيراً ما كانت مستودعاً تقذف فيه الإنسانية بالمرضى ، حيث يسلبون من كل أمل باهت فى الحياة ويتركون للغرق فى تيه اليأس المميت .

أما اليوم فالموت حادث عرضى بالنسبة للمستشفى الحديث وهو إذا وقع فذلك استثناء وليس القاعدة فقد أصبحت المستشفى مأوى للمريض وآلة تسجل ذبذبات الصحة العامة ومكاناً للبحث والدراسة ، وفوق ذلك كله فهى معمل كبير تجرى فيه مختلف التحاليل لمساعدة المريض على الشفاء . وهى جامعة تدرس فيها أسباب المرض من أجل الأصحاء والمرضى على السواء فهى المكان الوحيد الذى تتجمع فيه وسائل الدراسات المتكاملة ، المختلفة الجوانب والأساليب ، من جانب مختلف العقول ، لعوامل المرض وأسبابه . هى الآن أبعد ما يمكن عن أن تكون باباً للموت ، إنها نافذة تطل على حياة مشرقة سعيدة .

وقد يكون أبرز واجبات المستشفى الحديث هو التشخيص المبكر الدقيق القائم على دراسة تحليلية كما ونوعاً لمختلف سوائل الجسم وإفرازاته وكفاءة أعضائه . وخطورة التشخيص المبكر — أى فى المرحلة التى لم تكتمل فيها صورة المرض الإكلينيكية المعتادة — تكمن فى توسيع حدود معرفتنا عن تلك الحافة المهزوزة التى تفصل المريض من السليم — والتشخيص المبكر لا يعنى فقط معرفة أعمق بالعوامل التى تسبب اضطراب الصحة ولكنه يعنى أيضاً العلاج السريع المناسب قبل أن تحدث تغيرات مرضية قد لا يمكن إصلاحها فيما بعد .

ولم تعد آلام المريض الدافع الوحيد على تطور الطب ، حقاً لقد كانت أهم أسباب نموه فى الماضى أما الآن فإن التخطيط والسياسة الموجهة هى التى تتطور بالطب من عمل فردى محدود إلى وظيفة من وظائف المجتمع لا تحدها حدود .

وليس من المبالغة أن نقول أن الإنسان لديه فى الوقت الحاضر من الإمكانيات والوسائل ما يكفى لهزيمة الأمراض المعدية . ولست أقصد بذلك القضاء على كل جرثومة أو ميكروب فى هذا الوجود ، فهذا أمر مستحيل ، وإنما أعنى بذلك أن تجد هذه الجراثيم الطريق إلى جسم الإنسان مغلقاً بحيث لا تستطيع أن تصل إليه دون أن تجتاز عدة حواجز يكفى كل منها لإلحاق الهزيمة بها . وحتى لو أمكنها أن تغزو أنسجة الجسم ، وجدت من وسائل الدفاع والمقاومة ما يقضى عليها قبل

أن تصيب هذه الأنسجة بأية أضرار إما إذا حدثت العدوى فعلا واستطاع الميكروب بالرغم من كل ذلك أن يثبت قدمه فى جسم المريض سارع الطبيب إلى استخدام أسلحته الكيميائية الفعالة .

كل هذا يمكن أن يتحقق فى الجيل الحاضر الذى نعيش فيه . بل كان من الممكن أن يتحقق قبل ذلك لو كان المجتمع الإنسانى يتطور بنفس المعدل الذى يتطور به البحث العلمى ولهذا السبب فالأمراض الميكروبية ما تزال منتشرة بالرغم من أن وسائل القضاء عليها واضحة ومعروفة ، ولم يعد الإنسان يتخبط وراء خرافات وأوهام ليبرر عجزه عن مقاومتها ، وهنا تتضح لنا مدى العلاقة الوثيقة بين الطب والمجتمع فالطب قد أدى واجبه نحو هذه الأمراض . لقد بحث أسباب انتشارها وطرق مقاومتها وتجنبها . وتوصل إلى نتائج نظرية تكاد تسمو إلى مرتبة الحقائق ، وبقى على المجتمع أن يؤدى دوره هو الآخر : أن يستفيد من النتائج النظرية التى توصل العلم إلى اكتشافها ، فإذا استطاع الطبيب مثلا أن يكتشف علاقة الملاريا بالبعوض وعلاقة البعوض بالمستنقعات فهنا ينتهى واجب الطبيب ليبدأ واجب المجتمع وهو التخلص من المستنقعات ، وإذا استطاع الطبيب أن يكتشف علاقة مرض السل بسوء التغذية والازدحام والفقر فهنا أيضاً ينتهى دوره وهنا أيضاً يبدأ

دور المجتمع ، فيتحتم عليه أن يعيد تنظيم نفسه بحيث يتخلص من هذه الأوضاع الضارة .

ومع ذلك ، فإذا كان من الممكن فى المستقبل القريب القضاء التام على الأمراض المعدية ، فإن هذا لا ينطبق على مرضين آخرين هما السرطان وأمراض الجهاز الدورى (القلب والأوعية الدموية) فالسرطان ما يزال بعيداً عن سيطرة الأطباء اللهم إلا فى المراحل الأولى منه ، وأهميته تتضح إذا علمنا أنه يسبب ما يقرب من ١٥٪ من مجموع الوفيات فى البلاد المتقدمة ، وله نتائج اجتماعية خطيرة لأنه نصيب الأفراد أكثر ما يصيبهم فى فترة من العمر تقع بين ٤٥ و ٦٥ سنة وهذه المجموعة من المواطنين لها مركز خطير فى المجتمع ، وإذا اقتصرنا على هذه الفترة لوجدنا أن السرطان يسبب وفاة فرد واحد من بين كل أربعة أفراد تقريباً (٢٢,٥ ٪) .

أما أمراض الجهاز الدورى فتشمل مجموعة من أمراض مختلفة كهبوط القلب عندما تتقدم بنا السن ، أو روماتزم القلب الذى يبدأ فى سن الطفولة ، وتصلب الشرايين وتجلط الشرايين التاجية التى تغذى عضلة القلب ، وقد لوحظ أن معدل حدوث المرض الأخير يزداد عاماً بعد عام خصوصاً بين الأفراد الذين لا يتمتعون بالاستقرار وهدوء البال كما هى الحال بين الأطباء عموماً والجراحين بصفة خاصة ، فالتوتر الذى يعانيه الأطباء نتيجة القلق على حياة مرضاهم أو على لنتائج علاجهم تجعلهم

معرضين أكثر من أى فئة أخرى لتجلط الشرايين التاجية . والتوتر وعدم الاستقرار الذى تتميز به الحياة فى المجتمع الأمريكى يفسر لنا أيضاً انتشار هذا المرض فى الولايات المتحدة أكثر من أى بلد آخر .

هذان هما الممران الوعران اللذين يسقط فيهما الأفراد فى أواسط عمرهم ،

يجب على طب المستقبل أن يتخلص منهما . وبالرغم من صعوبة التنبؤ فى موضوع كموضوع السرطان فإن الكثير من الأطباء يؤمنون أنه لن تمضى أكثر من عشرة سنوات إلا ويكون السرطان مرضاً قابلا للعلاج ، وإذا كان هناك من يلام على عجز الطب عن مواجهة هذا المرض فى الوقت الحاضر فهو المجتمع ، ونظرة واحدة لما ينفق على إنتاج أسلحة الدمار والفناء وما ينفق على أبحاث السرطان لا تدع مجالا للشك فى ذلك .

نظرة إلى الأفق :

والخطوة التالية بعد نجاح الطب فى تصحيح الإضطرابات الهرمونية التى تؤدى إلى أمراض مختلفة هى التحكم فى وظائف الغدد وعملها بحيث يمكن خلق صفات عقلية وجسمانية جديدة فى الأفراد البالغين أو فى الأجنة .

وفى اللحظة التى يغادر فيها الطفل بطن أمه تكون الطبيعة قد فرغت من إعداده ليستقبل الحياة بحلوها ومرها . وقد استطاع الطب أن يجنب هذا الوليد أمراضاً مثل الكرينتزم : Cretinism أى البله الناشئ عن نقص إفرازات الغدة الدرقية وذلك بإمداد الأم بكميات كافية من عنصر اليود . ومثل الزهرى الخلقى وذلك بمعالجة الأم المصابة خلال فترة الحمل . والخطوة التالية لذلك هى أن يتمكن الطب من بناء شخصية معينة للطفل وهو ما يزال جنيناً فى بطن أمه . بالتحكم فى بيئته وفى غدده الصماء .

وقد تطورت طرق زراعة الأنسجة إلى مرحلة تجعل من الممكن الاحتفاظ بأعضاء كاملة بما فيها الرحم الذى يوجد جنين بداخله ــ خارج الجسم ، مما يجعل الأطباء يأملون فى إمكان دراسة تأثير الأدوية والكيمياثيات على الحياة الجنينية فى المستقبل القريب ومراقبتها بطريقة مباشرة والظروف التى يعيش فيها الجنين بعيداً عن التأثيرات الخارجية قد يمكن استبدالها فى المستقبل القريب بظروف يمكن التحكم فيها علمياً .

وقد مكنت تجارب زراعة الأعضاء والأنسجة العلماء من أن يدرسوا هذه الأعضاء فى ظروف يملكون القدرة على تغييرها وتمكنوا بذلك من تسجيل مختلف التغيرات الطبيعية والكيمياثية . الفسيولوجية والمرضية (بفتح الميم والراء) التى تصيب هذه الأعضاء فى ظروف معينة يمكن السيطرة عليها وقياسها مثل كمية

الدم التى تغذى العضو ودرجة القلوية ونوع الهرمونات أو كمية الأملاح المعدنية التى تؤثر على وظيفة العضو أو حيويته وغير ذلك من العوامل . وقد يثبت أن الظروف المثلى للشفاء من مرض معين يمكن توفيرها بسهولة أكثر عند عزل العضو المصاب من جسم الشخص المريض . وقد تنبأ ألكسس كارل بالوقت الذى تؤخذ فيه الكلية المصابة بالدرن مثلا بعملية جراحية وتوضع فى جناح خاص بها فى إحدى المستشفيات تتوفر فيه الظروف المثلى للعلاج بينما يوضع المريض فى جناح آخر تتوفر فيه الإمكانيات والوسائل التى تعوضه عن العضو المنزوع منه إلى أن يتم شفاؤه ثم بعملية أخرى يعيد الجراح هذا العضو إلى مكانه الطبيعى .

وعمليات ترقيع الجلد وترقيع القرنية قد تكون مجرد بداية متواضعة لفرع جديد من فروع الجراحة يختص باستبدال الأعضاء التالفة بأعضاء أخرى سليمة . فعندما يموت أى منا لا تموت كل خلاياه أو أعضاؤه فى لحظة واحدة بل تبقى بعض الأنسجة والأعضاء حية لفترة معينة بعد الوفاة . وهذه يمكن الاحتفاظ بها إلى حين الحاجة إليها .

وقد يصبح تناول عقاقير معينة أحد مظاهر الحياة العادية فى المستقبل ، غير أنها لن تكون إدماناً بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة فى يومنا هذا . فالإدمان يعنى أن يقع الشخص فريسة للعقار الذى يتناوله بحيث لا يمكنه أن يتخلى عنه ولو حرم منه بالقوة ظهرت عليه أعراض اضطرابات مرضية عنيفة يصعب

احتمالها . والمحاولات تجرى الآن على قدم وساق لإنتاج عقار منبه ليست له صفة الإدمان أو إحداث آثار جانبية ضارة . وهكذا تخدم الكيمياء الناس فى حياتهم العادية كما تخدمهم الكيمياء العلاجية فى أوقات مرضهم .

ويذهب علم الوراثة الحديث إلى مدى يجعلنا ندرك أن الصفات الوراثية قابلة للطفرة ويفتح بذلك الطريق أمام آمال وأحلام فى تغيير الصفات الوراثية للإنسان عن طريق التحكم فى البيئة المحيطة ، فالأمراض الوراثية – التى وصل الطب إلى علاج بعضها فى يومنا هذا – قد تصبح كلها أو أغلبها فى المستقبل القريب تحت السيطرة التامة للعلماء ، وأكثر من ذلك فإن الأمل كبير فى إمكان تحسين النسل الإنسانى لخلق جيل من الآدميين ذوى صفات ممتازة .

هل يمكن إطالة عمر الإنسان :

لم تكن الحياة فى المجتمعات البدائية متوحشة قذرة كئيبة وفقط ، بل كانت قصيرة أيضاً . فمن دراسة الآثار الرومانية يقدر العلماء متوسط عمر الأفراد فى هذه العصور بما يقرب من ٢٠ إلى ٣٠ سنة وكان هذا المتوسط فى السويد ٣٤,٥ سنة فى القرن الثامن عشر وارتفع إلى ٤١,٥ سنة فى القرن التاسع عشر ثم أصبح ٦٢,٣ سنة فى الفترة ما بين سنتى ١٩٢٥ ، ١٩٣٠

وهو أعلى من ذلك فى الوقت الحاضر . وفى البلاد الصناعية الأخرى كان هناك نفس الاتجاه . فقد ارتفع متوسط أعمار الأفراد بأكثر من عشرين سنة فى الفترة الواقعة بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين فى معظم بلدان أوروبا (من ٤٠ سنة تقريباً إلى ٦٣ سنة فى الوقت الحاضر[1]) .

وترجع هذه الزيادة فى متوسط الأعمار إلى هبوط معدلات الوفاة بين الأطفال لأن معدل ارتفاع متوسط الأعمار غير الأطفال لم يكن عاليا بنفس الدرجة وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن الطب ما يزال عاجزاً عن إيجاد علاج حاسم للسرطان وأمراض الأوعية الدموية ، تلك الأمراض التى تصيب الأفراد فى أعمار متقدمة من حياتهم .

وتعتبر مشكلة إطالة العمر فى الوقت الحاضر هى مشكلة القضاء على أسباب الموت التى يمكن تجنبها بما فيها الدرن والزهرى وأمراض الصناعات والحوادث وغير ذلك من الأسباب التى تسبب نسبة كبيرة من أسباب الوفاة بين الأفراد فى أواسط عمرهم . ولا شك أن أعظم تطور يمكن توقعه فى ميدان الطب لن يتأتى إلا ببناء مجتمع إنسانى مستقر ذى مستوى اقتصادى مرتفع . وبالقضاء على أسباب الموت التى يمكن تجنبها أو علاجها

---

(١) متوسط عمر الأفراد فى مصر والهند يتراوح بين ٣٠ و ٤٠ سنة فى الوقت الحاضر .

فى الجيل الحاضر أو القادم كالسرطان وأمراض الجهاز الدورى سيكون متوسط عمر الإنسان يقرب من مائة سنة وعلى أى حال فالموت ليس حقيقة مطلقة فالخلايا الجنسية « كالبويضات والحيوانات المنوية » خالدة لا تموت كذلك أيضاً أفراد المخلوقات ذات الخلية الواحدة والأميبا التى تعيش فى يومنا هذا كانت تعيش أيضاً منذ آلاف السنين .

(١) المراجع العربية

- الطب عند قدماء المصريين
  للأستاذ الدكتور بول غليونجي
- طب وسحر
  للأستاذ الدكتور بول غليونجي
- مشاكل الطب فى الريف المصرى
  للأستاذ الدكتور لطفى الصاوى

(٢) المراجع الإفرنجية

Bacon, J.S.D.	The chemistry of Life
Best and Taylor	The Physiological Basis of Medical Practice.
Bigger, Joseph	A Handbook of Bacteriology
Boyd, William	A Textbook of Pathology
Bramewell, Crighton	A Clinical Introduction to Heart Disease
Burnet, F.M.	Viruses and Man
Draper	Human Constitution
Farrington, B	Greek Science
Goher, M.A.	A Handbook of Bacteriology
Groove & Newel	Animal Biology

Hell & Joseph	The Arab Civilisation
Hitti, Phillip	History of the Arabs
Hogben, Lancelot	Science for the citizen
Major & Delp	Physical Diagnosis
Morris, F.	Frontiers of Medicine
Ridely, G.N.	Man Studies Life
Singer, Charles	The Evolution of Anatomy
Sorsby, Arnold	Medicine and Mankind
Wilson & Schield	Clarke's Applied Pharmacology
Youmans, J.B.	Nutritional Deficiencies

فهرس

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

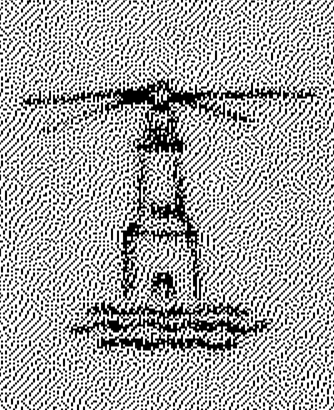
نوفمبر ١٩٦١

الثمن ٣٠ مليماً
٣٠ قرشاً سورياً

اقرأ

الدكتور حسن الأشموني

التعبئة الروحية في بناء المجتمع



دار المعارف بمصر

التعبئة الروحية في بناء المجتمع

الدكتور حسن الأشموني

التعبئة الروحية في بناء المجتمع

اقرأ ٢٢٨

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٢٨ – ديسمبر سنة ١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

« نحن العرب . . . نحن المسلمين والمسيحيين فى هذه المنطقة من العالم » .

« نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » .

« ونؤمن بأن لكل عامل جزاء عمله » .

« وألا تزر وازرة وزر أخرى » .

« ونؤمن بأن لكل فرد فى كل جماعة كياناً فى ذاته ، وكياناً فى أهله ، وكياناً فى قوميته العامة وفى بلده . . . »

« ونؤمن إلى كل ذلك بالأخوة الإنسانية وبالتكافل الاجتماعى وبالإيثار القائم على الاختبار لتوثيق الروابط الإنسانية » .

« ونؤمن بأن لكل فرد فى الدولة حقّاً — وعليه واجباً يكافئ هذا الحق » .

« وأن على الدولة لكل فرد فيها واجباً، ولها عليه حقّاً يكافئ هذا الواجب » .

« فهى تبعات متبادلة بين الحكام والمحكومين ، ليس فيها قهر ولا إذلال ولا تسلط ولا طبقات قليلة العدد من السادة وطبقة ضخمة من العبيد . . . »

« إننا نؤكد إيماننا بديننا الذى ندين الله عليه . ونترسم دستوره فيما نعمل بأنفسنا ولقومنا » .

« جمال عبد الناصر »

١

تمهيد

ثار الجدل حيناً — ولا يزال يثور — حول قيمة الفلسفة ، وما عسى أن تؤديه للعالم الذى لم يصبح فيه مجال إلا للعلم بكل ما ينطوى عليه من قدرات وكل ما يستطيع أن يقدمه للبشرية من وسائل تمكنها من السيطرة على قوى الطبيعة واستغلالها لفائدتها ، وتوجيهها الوجهة التى تخدم مصالحها وتحقق لها الرفاهية والقوة والرخاء . . .

ماذا تستطيع أن تقدمه الفلسفة للبشرية التى لم تعد تؤمن إلا بالنظريات التى لا تحتمل الجدل ، والتى ترى فى نتائجها مزيداً من القوة ومزيداً من الجاه والنفوذ . . . فى حين أن الفلاسفة لم يتفقوا على رأى إلا عادوا فناقضوه ، ولم يخرجوا نظرية إلا ونهض أفراد من بينهم ليعارضوها ، ويأتوا بغيرها . . . وهم فى كل الأحوال لم يقدموا أو يؤخروا فى سير الأمور ، ولم تؤد أفكارهم إلى اكتشاف مادة جديدة أو اختراع آلة أو إطلاق صاروخ يجوب أجواز الفضاء أو إضافة حجر جديد — أيّاً كان نوعه — فى صرح الأوطان . . .

ووقف الفلاسفة فى وجه التيارات التى تقلل من شأنهم ، والتى تكاد تقضى على كل خفقة خفقها تفكيرهم خلال القرون

الطويلة بمعارضتها لمناهجهم فى البحث والتفكير ، وتهوينها من قيمة النتائج التى يصلون إليها ، ونعيها عليهم اختلافهم وجدلهم . . . الأمر الذى جعلهم يظهرون كما لو كانوا يعيشون فى حلقة مفرغة لا يصلون منها إلى هدف أو يبلغون غاية .

وكان ردهم أن المعرفة ليست وسيلة لاكتساب القدرة فحسب ، وليست غاية للسيطرة على الموجودات فقط ، وإلا لتحولت الدنيا إلى آلة كبيرة تهدد بالأنانية والجشع والقلق ، ولكن المعرفة أولا وقبل كل شىء وسيلة للنمو الداخلى . . . ووسيلة لغرس القيم وخلق الرجال ، وهو الدور الذى تقوم به الفلسفة منذ وجدت . إنها بمعنى آخر احتجاج العقل ضد تيار المدنية الجارف ، تحمل فى طياتها خفقات الضمير الإنسانى الذى تراكم عليه صدأ المدنية الجوفاء ، وتقوم فى هذا العالم المضطرب مقام صمام الأمن الذى يقيه من الانفجار . . .

وإذا كان هذا هو موقف الفلسفة ، فما أحرى التصوف أن يكون احتجاجاً على المادة وعلى العقل معاً ! !

إن لغته ليست وليدة المادة . . . ووسيلته ليست قوى العقل . . . ولكنه نزعة روحية خالصة لا تهدف شيئاً إلا الوصول إلى الله . . . إنه مناجاة القلب الذى صفا من كل الشوائب ، ومحادثة النفس التى دقت ، وتخلصت من كل ما يربطها بالدنيا ومظاهرها ، فأصبحت طيفاً رقيقاً ، يسبح بأجنحة من نور فى سماء اليقين . . . فلا رجس ولا دنس ولا

إثم ولا خطيئة ، ولا رغبة ولا هوى . . . بل لا شيء هناك غير التأمل العميق في قدرة الخالق . . . والهيام في حب الله . . . والتحليق بالروح — وقد صفت ودقت — في عالم الفيض والإلهام ، حيث النور والملائكة . . .

وهذه الغاية تنطوى على صراع بين الجسم والنفس . . . صراع يجب أن تكون الغلبة فيه للنفس دائماً . . . فلا سبيل إلى مناجاة القلب ومحادثة الروح إلا بالتغلب على شهوات البدن... وتخليصه من أدران اللذات والأهواء . . . فإن الشر كله قد جعل في بيت . . . وجعل مفتاحه الرغبة في الدنيا . وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا ، فالأنس بالله صفاء القلب مع الله ، والتفرد بالله الانقطاع من كل شيء سوى الله . ولا ينال أحد درجة الصالحين حتى يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة ، ويغلق باب العز ويفتح باب الذل ، ويغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد ، ويغلق باب النوم ويفتح باب السهر ، ويغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر ، ويغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت .

انظر إلى بشر الحافى — أحد الصوفيين — ، وقد رأى شيخاً من شيوخ الصوفية يرتعد من البرد في يوم بارد فقال : —

قطع الليالى مع الأيام فى خلق   والنوم تحت رواق الهم والقلق
أحرى وأجدر بى من أن يقال غداً :   إنى التمست الغنى من كف مختلق

قالوا : رضيت بذا؟ قلت القنوع غنى ليس الغنى كثرة الأموال والورق
رضيت بالله فى عسري وفى يسرى فاست أسلك إلا واضح الطرق

فالتصوف إذن ينطوى على ناحية عملية ، تدفع إلى نوع معين من السلوك هو السبيل إلى الله . هذه الناحية العملية تبدو فيما يأخذ به الصوفيون أنفسهم من زهد وتقشف وترفع عن كل الدنايا .

ويخطر للقارئ المدقق هنا سؤال :

ـ ألا يستطيع العقل أن يصل إلى هذه الغاية ؟

وتحضرنا هذه القصة . . .

التقى ابن رشد[1] بمحيي الدين بن عربى[2] فى مطلع

---

(١) ابن رشد الفيلسوف الأندلسى الكبير (١١٩٢ م) كرس حياته للدفاع عن الفلسفة ، وتفنيد تهمة اختلافها مع أصول الإسلام . ويطلق عليه اسم « الشارح العظيم » لما بذله من جهد فى شرح كتب أرسطو وتنقيتها مما دخل عليها من تحريف . وقد رد على النقد المرير الذى وجهه الغزالى إلى الفلسفة فى كتابه « تهافت الفلاسفة » بكتاب آخر هو « تهافت التهافت » .

ومن أشهر كتبه « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » وكتاب « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة » . وتعتبر التر جمات اللاتينية لكتبه من أهم مصادرنا فى معرفة هذه الكتب ، إذ أن معظم الأصول العربية لمؤلفاته قد أبيدت عن آخرها .

(٢) محمد بن على الحاتمى ، ويلقب بمحيي الدين . ولد بالأندلس (٥٦٠ هـ) وتوفى بدمشق سنة (٦٣٨ هـ) . تعرف فى حياته بكثير من الرجال=

شبابه، فسأله ابن رشد : — هل القمة التى وصل إليها الفلاسفة بالعقل والفكر هى القمة التى وصل إليها المتصوفة بالتصوف والتجرد والذكر ؟

فقال محيي الدين بن عربى : — نعم ، ولا ، وبين نعم ولا تطير الأرواح . نعم لأن العقل قد يهدى إلى الله ، ويدرك ويلمس أسرار الكون وعجائبه وآياته . . . ولكن العقل المجرد مع وصوله إلى تلك القمة ينحدر وينزلق ويضل فى المتشابهات وفى تفهم ذات الله سبحانه . والعقل المجرد ليس له من القيود ما يعصمه من شطحاته التى تنبثق حول المعارف ، فتصيب حيناً ، وتخطئ أحياناً .

لذلك ، فإن بين نعم ولا — كما قال محيي الدين بن عربى — تطير الأرواح . ! !

وعلى الرغم من أن الفلسفة لها تأثيرها الواضح الذى لا يمكن إنكاره أو التقليل من شأنه فى المعارف الإنسانية والعلوم النظرية ، إلا أنها لم تستطع أن تصل إلى اليقين فى الإلٰهيات . . . لأن ما وراء الطبيعة فوق مدارك العقل ولا سبيل إلى إدراكه إلا بالوحى والإلهام .

= وقف على كثير من الآراء والأفكار بما كان له أكبر الأثر فى آرائه فى الفقه والتصوف . قضى عمره كله فى محاورة العقل ومناجاة الروح وله أشعار كثيرة فى الحب الإلهى . ومن أهم مؤلفاته : شرح ترجمان الأشواق ، والفتوحات .

ويؤيد الكثيرون من المفكرين المحدثين والمعاصرين — حتى الماديين منهم — هذه الحقيقة . . .

ولعل من الغريب أن نجد عالماً كإنشتين يقول : « إن عقيدتى هى إعجاب كبير بالروح السامية غير المحدودة التى تعبر عن نفسها فى الجزئيات البسيطة والتى لا نستطيع أن ندركها عن طريق عقولنا الضعيفة الواهنة . »

وقد ذهب « باسكال[1] » إلى مثل هذا حين قال بأن للقلب عقولا لا يعرفها العقل . وإلى مثل هذا ذهب أيضاً « برجسون » حين قال بأن هناك طريقين للمعرفة مختلفين جداً : الأول عبارة عن الإحاطة بالموضوع ، والثانى عبارة عن النفاذ إلى صميمه . والمعرفة الأولى تقف عند النسبى ، وأداتها العقل ، أما المعرفة « الثانية » فهى تصل إلى المطلق وأداتها القلب .

ويقول « هكسلى » إن من يغفل الروح وما تفيض به من إلهامات ، ملقياً كل الأهمية على العقل وحده ، إنما — على الرغم مما قد يكون له من حصافة الرأى وجلال العلم — يعيش فى حظيرة واحدة مع غيره من أنواع الحيوان . وذهب « فرويد » إلى

---

(١) باسكال عبقرى فرنسى نادر تعشق العلوم إلى حد الهيام والوله — وقد تمكن وهو فى الثانية عشرة من استنباط قضايا « دقليدس » الهندسية — كما استنبط قواعد طبيعية أخرى واخترع آلة حسابية وعمره ثمانية عشرة عاماً — عمل على نشر محاسن المسيحية وهاجم اليسوعيين و « الجانسنيت » الذين أنكروا الاختيار بالقضاء والقدر .

أن هناك معرفة تنشأ عن غيبة وعى العقل ، فحين يغيب العقل الواعى يكون هناك مجال لعمل قوة أخرى ليست هى العقل المستيقظ .

ويقول « أوليفر لودج » : إن ارتباط الإنسان بالمادة ليس هو الجوهر ، فإن صلته بالروح هى الأساس . . . ومن يظن غير ذلك فإنه يسىء إلى نفسه ، ويخطئ فى حق الله ، وفى حق الروح البشرية . إن الناس جميعاً بلا شك مخلوقات روحية طمست المادة من أمام أعينهم نور الحقيقة الوهاج . ولكن . . . كيف السبيل إلى تقييم إدراكات الروح ، وفيوضات القلب ؟... وما هو الضمان الذى يجعلنا نتحقق من صحتها كما هو الحال فى شتى ضروب المعرفة الأخرى حسية كانت أم عقلية ؟ . . .

ولعل من الإنصاف أن نقول إن هذا النوع من المعرفة قد يكون غير يقينى . . . أو قد يعز على الأقل إثباته بالبراهين القطعية التى يتقبلها الآخرون . . . إلا أنه على أية حال مبعث طمأنينة وهدوء . . .

ذلك لأنه معرفة شخصية مباشرة . . . والكلام إذا خرج من القلب وصل إلى القلب .

وكم يجهد الإنسان نفسه فى صوغ الأقيسة وإقامة البراهين لإثبات أمر ما ، دون أن ينعم بالهدوء والسكون اللذين يحس بهما حين يناجيه قلبه وتخاطبه روحه . . .[1]

---

(١) فى الفلسفة الإسلامية للدكتور إبراهيم مدكور ص ٣١ .

ويعبر الصوفيون عن ذلك فى عبارات تفيض رضاً وسكينة . . . فيقول عبد الله بن محمد الخراز الرازى . « أحسن العبيد حالا من أبصر نعم الله عليه بأن أهـّله لمعرفته ، وأذن له فى قربه ، وأباح له سبيل مناجاته ، وخاطبه على لسان أعز السفراء محمد صلى الله عليه وسلم ، وعرف تقصيره عن القيام بمواجب أداء شكره ، إذ شكره يستوجب شكراً إلى ما لا نهاية . . . »

ويقول أبو حمزة الخراسانى : « من خصه الله تعالى بنظرة شفقة فإن تلك النظرة تنزله منازل أهل السعادة ، وتزينه بالصدق ظاهراً وباطناً . . . »

فالتجربة الصوفية تجربة شخصية لا تخضع لأى نوع من القياس أو البرهان ولا سبيل إلى وصفها فإن الحروف والألفاظ تعجز عن التعبير عنها وإيفائها حقها منَ الوضوح والبيان . وحسبها ما تشيعه فى كيان أصحابها من رضا وسعادة ، وما تنزله على نفوسهم من طمأنينة وسكينة . وهى وإن كانت تقف وسط مظاهر التقدم العلمى والفكرى كنقطة احتجاج على ارتماء الناس فى كل مكان بين أحضان المادة إلا أنها يمكن بشىء من التطوير فى مفهومها أن تكون أهم عوامل تكتيل القوى نحو المحبة والسلام ، ونشر ألوية العدالة والمساواة بين كافة الشعوب ، بل نحن لا نجانب الصدق إن قلنا إن التصوف يستطيع أن يكون قوة دفع تخدم جميع أهداف المجتمع حتى المادية منها . فليس

من شك فى أن بناء المجتمع بناءً قويًّا متيناً عزيز الجانب يرجع إلى مدى ما يكون لأفراده من صفاء النفوس ، ومتانة الخلق ، واستعداد للتضحية وإنكار الذات . . . وهى كلها صفات يتصف بها الصوفية ويأخذون أنفسهم بها ويروضون مريديهم عليها . وهكذا تستطيع الحياة الروحية أن تسلك طريقها إلى المشاركة فى مطالب الحياة اليومية ، فتؤدى إلى تدعيم أركان المجتمع . . . وتحقيق خيره ، بدلا من أن تكون دافعاً إلى العزلة والعزوف عن الدنيا . . . فإذا راض كل فرد من أفراد المجتمع نفسه على أن يخلد فى تصرفاته إلى الواقع والحقيقة ، وأن يقف فكره لخير المجتمع الذى يعيش فيه مستهدفاً فى ذلك المثل العليا على أساس من شخصيته وعلى أساس ما تلقاه من الآباء والأجداد من الفضائل ، ونبذ ما خلفه الماضى من العواصف والترهات . . . كان له فى سلوكه على هذا النحو معيناً لا ينضب وينبوعاً لا ينفد يستطيع أن يزود مجتمعه بالقوى المعنوية التى تسرى فى نفوس الناس وقلوبهم بالإيمان الثابت والعقيدة الراسخة .

ومن هنا يبرز دور الشباب بالنسبة للمجتمع العربى الكبير . . . فإن أول واجباتهم أن يكونوا بالروح والنفس عرباً فى دخيلة أنفسهم ، وأن يتخذوا مثلهم العليا من آداب العرب وسياستهم الدنيوية . . . فإنهم متى تحلوا بهذه الفضائل جميعاً ، كانوا أحراراً . . . شعارهم فى الحياة المحبة والإخلاص للعروبة ،

والتفانى فى الدفاع عن الحرية والسلام فى كل مكان .

ألا . . . ما أروع شوقى حين قال يصف دور الشباب فى المجتمع . . .

وتلك الأواعى بإيمانهم	حقائب فيها الغد المختبى
ففيها الذى إن يقم لا يعد	من الناس أو يمض لا يحسب
وفيها اللواء وفيها المنار	وفيها التبيع وفيها النبى
وفيها المؤخر خلف الزحام	وفيها المقدم فى الموكب

وكل نهضة فى الوجود تستهدف النمو والاستقرار ، ولكنها لكى تخلف آثاراً بعيدة المدى تؤتى ثماراً صالحة للإنتاج قابلة للبقاء ، لا بد لها أن تتفاعل بين أصولها ، وتتشابك ، فنمو النهضات وازدهارها كان على مر العصور رهناً بمدى ما يجرى من التفاعل والتشابك بين الأصول والفروع .

وقد عنيت الثورة حق العناية منذ قيامها فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بنواح وأغراض إصلاحية لازمتها وتفرعت منها حتى أثمرت ثمرات يانعة لمسناها فى كافة ميادين الحياة ، فلم يكن نشاط الثورة قاصراً على الكفاح السياسى ومنحصراً فيه وحده ، بل إنها قد وجهته إلى الإصلاح فى كل ما رأت أنه فى حاجة إلى الإصلاح ، فأدى هذا بدوره إلى تبدل سيكولوجى ملحوظ فى نفسية الشعب ، فلقد كان القعود النفسى الذى ولده الجمود السياسى فى عهود ما قبل الثورة مثبطاً للهمم مضعفاً للإقدام ومزعزعاً للثقة ، دافعاً نفوس الشباب إلى الشك

فى قيمة التضامن والتعاون وشتى القيم الأخرى . ثم لم يلبث الوعى أن تنبه فى النفوس بعد بزوغ الفجر الجديد . . . فأصبح المواطن متفائلا شديد الرغبة فى العمل المشترك لا ينقصه الإقدام ولا تعوزه المغامرة بقلب مؤمن وعزيمة ثابتة . . . وتبين له أنه لا محل للشك فى معنى القيم الروحية وقدرتها على الصمود أمام مطالب الحياة الحاضرة .

ويصح لنا أن نسائل أنفسنا بعد هذه العجالة . . . كيف تشعبت هذه النهضة إلى النواحى الاجتماعية والثقافية . . . وهل كان لها فى هذه النواحى الإصلاحية من الأثر ما يعادل ما بلغته فى الميادين الأخرى ؟

والواقع أن يد الإصلاح إذا كانت قد امتدت فأنشأت الصناعات المختلفة وضاعفت الدخل القومى ، واهتمت بالعلوم والفنون ، وحققت أسباب العدالة الاجتماعية ، فهى قد أعادت فى نفس الوقت للشعب روحه وثقته بنفسه ، وقدرته على تحقيق هذه الأهداف . . . وليس هذا كله فى نهاية الأمر إلا مظاهر حية للحرية . . .

فالفن مثلاً فى حقيقة أمره مظهر من مظاهر الحرية ، إنه انطلاقة الإنسان الحر لاستكشاف نفسه . . . وجمال التفكير الحر أمام العالم الذى يقترب رويداً من الحقيقة الكبرى ، يتحول بهذه الحقيقة ذاتها إلى طاقة حافزة نحو مزيد من التفكير الحر . . . وهكذا يصبح العلم السلاح الأكبر فى معركة الحرية

الاقتصادية والاجتماعية ، من أجل خلق المجتمع الجديد الحر ...
وفى المقدمة يسير العلماء فى المعمل والمصنع والحقل والمنجم يبحثون
عن الحل للمشاكل المستعصية ويجدون الوسائل للغايات الكبرى
ويقودون المجتمع الجديد إلى الآفاق التى طالما تطلعنا إليها . . .

ولم ينس المجتمع فى زحفه المقدس إلى هذه الآفاق ، أهمية
الفرد فى ذاته . . . بل إنه أولى بناء الأفراد الصالحين ، وخلقهم
على نحو يجعلهم عوامل خلق وبناء ، أهمية قصوى ، على أساس
أنهم اللبنات التى يأخذ المجتمع منها خصائصه من حيث القوة
أو الضعف ، الإقدام أو النكوص ، التحفز أو التخاذل . . .
وهذا هو ما عبر عنه السيد الرئيس جمال عبد الناصر بقوله
إن إقامة مصنع كبير أسهل كثيراً من خلق فرد صالح . . .

ولقد يسر القراء أن يعلموا أن الحركة الثورية قد مضت فى
مشروعاتها الكبرى كما سبقت الإشارة وسارت فيها مراحل بعيدة
المدى أحس بها المجتمع فيما هو مشاهد فى الجمهورية العربية
من مظاهر المدنية العالمية والرقى الإنسانى الذى بدا فى مجتمعنا
الجديد بذلك المظهر المحسوس والأعمال التى تتكلم عن نفسها .
ومفاد ذلك لم يكن قاصراً على أن تظل الأمور فى هذه الحدود
بل كان للمشاكل الاجتماعية قسط كبير من العناية والتفكير
لا يقل عما بذل فى النواحى الأخرى فانصرفت جهود الدولة فى
دائرة الإصلاح العام على أساس أن الشعوب لا ترقى إلا بغنى
أفرادها وأخلاقهم وثقافتهم وعلى أساس أن تدعيم الاستقلال

وتثبيت بنيانه لا يمكن أن تقوم له قائمة إلا على تنظيم الحياة القومية ورفع مستواها فى جميع نواحى الرقى القومى والتقدم الوطنى .

ويحاو لى أن أكرر مرة أخرى أنه لما كان الغرض الأساسى كما بينا هو رفع شأن البلاد وزيادة تماثلها حتى تتواءم أحوالها الاجتماعية فتصبح متفقة فى الحقيقة مع المظاهر السياسية والإدارية والاقتصـــادية كان من الطبيعى أن تعمل الثورة جاهدة على العناية بأحوال الأسرة والشباب من حيث إنه يمثل القوة والحمية والجهد والكفاءة . . . .

ولتحقيق هذه الغاية التى تعتبر حجراً فى بناء الاستقلال لم تنصرف الجهود عن إشعار الفرد بأنه عضو غير منفصل عن المجتمع باعتباره الخلية الأولى والتنبيه إلى أن مصلحته الشخصية يصعب تحقيقها إلا عن طريق خدمة هذا المجتمع بالإضافة إلى توجيه النظر إلى أن من أوجب الواجبات على الشباب هو أن يشترك فى تطوير المجتمع بشتى الصور بعيداً عن روح الأنانية والفردية والانعزالية التى كانت تستولى عليه وتتملك مشاعره فيما مضى من الأيام، على أنه يحق لنا بعد المقارنة أن ندعى أن بلادنا ولله الحمد قد استيقظت وبلغت من الإصلاح الاجتماعى مبلغاً محموداً .

ولقد كان من أبلغ آثار الحركة القومية أن اتخذت الدولة لهذه الدعوة فضلا عما سبق لنا بيانه كافة الوسائل كالإذاعات بالراديو والتليفزيون وكالنشر فى الصحف وكالوعظ فى المساجد

مما يسرى فى النفوس ويكسبها الرقة والحنان والرحمة والبعد عن الشرور والإقبال على العمل . . . وتنفيذاً لتلك السياسة الاجتماعية أخذت أجهزة الدولة وعلى الأخص أجهزة الحكم المحلى فى العمل على توجيه الشباب توجيهاً صالحاً يدفعه إلى استخدام طاقاته ويحفز فيه القدرة على العمل المثمر بصورة إيجابية من شأنها أن تزيد فى تنمية شخصيته وأن تخلق فيه روح الاعتماد على النفس والإخلاص وقوة الإرادة فى ميادين العمل العام .

وليس من شك فى أن هذه الخطط الجديدة قد انطوت على تقوية الصلة بين المجتمع والشباب الذى تهيأت له أسباب الإقبال على اعتناق العنصر الروحى فى حياته والاستمساك به وهو ما تعتبره الشرائع السماوية من أكبر عناصر النجاح . . . على أنه مما يزيدنا طمأنينة فى مستقبل البلاد أن هذا الشعور سرعان ما نما بين مختلف طبقات الشعب حتى أصبح الشباب يؤمن فى قرارة نفسه بأن التعاليم الدينية تدعو إلى الحياة الروحية أساس السعادة والهناء ودعامة العمل والكفاح فى سبيل الوطن بما تبثه فيه من روح التقرب من الله . . .

إن الدولة الموحدة المنيعة الجانب لا تبنى إلا على الشباب وتكوين الأسرة الموحدة ، ومجتمعنا الجديد فى حاجة أشد الحاجة إلى عقلية عربية متشابهة فى سموها مع التعاليم الطيبة التى رسمتها الأديان والتى كان الشرق أسبق من الغرب فى التعرف عليها

والعمل بها والتى لا شك فى أن اتباع ما أوصت به هو خير كفيل بأن يرد للمجتمع العربى السعادة والرفاهية وأن يعيد لنفوسنا الطمأنينة والقوة الروحية . . .

وما أحرانا أن نحتفظ بشبابنا هؤلاء فهم رأس مال لنا ورصيد ضخم ، ولو قدر لواحد من كل ألف أن ينبغ لكان ذلك للوطن ربحاً وفيراً وعدة للمستقبل وعنصراً هاماً من عناصر ثروتنا القومية . . .

ووسط هذا الخلق المرجو لأفراد المجتمع . . . تبرز التعبئة الروحية كعامل مهم من عوامله . وتتفرع عن التعبئة الروحية بكل وسائلها المعروفة . . . التربية الدينية . . . فليس من شك فى أن حضارة العالم مهما بلغت من قوة وازدهار ، لا تكون أكثر من قصور مشادة فوق الرمال ما لم تقم على احترام للقيم الروحية التى أتت بها الأديان، وحملها أنبياء شهدت لهم العصور بالسمو والعظمة ورجاحة الرأى . . .

إن الحضارة ، أياً كانت تصبح زيفاً بدون الأخـذ بهذه القيم . . . فإنها لم تحمل إلى الناس عبثاً . . . بل هى قد حملت إليهم لتسعد دنياهم وأخراهم . . . وليس عجباً بعد ذلك أن نرى أشقى الناس هم من بلغوا الذروة من حيث التقدم الحضارى وداسوا بالأقدام كل المثل والقيم . . .

إن القيم الروحية هى التى تستطيع وحدها أن تحفظ للإنسان سعادته وهدوء نفسه . . . وهى أيضاً التى تستطيع أن تحفزه على

العمل وأن تجعله يستشعر لذة هذا العمل ، ويدرك غايته ومرماه . . . فبالحياة الروحية السليمة والترويض عليها يستطيع المجتمع أن يخلق أفراداً نافعين يسهمون فى بنائه ويدفعون عجلة تقدمه .

وليس معنى أن يعيش الفرد حياة روحية ، أن يقبع فى عزلة عن مجتمعه أو ينظر إلى الدنيا نظرة عداء واحتقار . . . فهذه كلها رواسب ليس لها أساس فى الدين الذى يدعو الناس إلى أخذ نصيبهم من الدنيا ، والسعى فى مناكبها . . . وقد جاءت التشريعات الأخيرة التى تستهدف إخراج الأزهر من عزلته ، وإشراكه فى الحياة العملية ، متمشية مع أصول الدين الحنيف الذى يدعو إلى العمل ، ويمجد السعى من خلال التمسك بالقيم والأخذ بالفضائل . . .

وقد رأينا أن نقدم فى هذا الكتاب صورة من صور الحياة الروحية وهى التصوف الذى كان له أبعد الأثر فى إيجاد حياة تقوم أصلا على مجاهدة النفس ، والتسامى بها ، ومغالبة شهوات البدن وقمعها ، وتدعو إلى الإخاء والمساواة والسلام ، وتستهدف الوصول إلى المعرفة اليقينية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، والسعادة الحقيقية التى لا ترقى إليها صنوف السعادة الأخرى . . .

وقد يرى القارئ فى هذه الصورة نوعاً من التطرف الذى يبدو فى الانقطاع التام ، والقعود . . . ولكنه سيجد نفسه فى

النهاية وقد خرج بمزيد من معانى الحق والخير والجمال ، وشحنة هائلة من المثل والمبادئ التى اختص بها الصوفية وميزتهم على مر العصور . . .

تلك المعانى ، وهذه المثل ، هى ما ندعو أفراد المجتمع إلى أخذ أنفسهم بها . . . وترويض أبنائهم عليها . . . حتى يتحقق لنا مجتمع قوى خير تمتد جذوره إلى الأعماق . . .

٢

التصوف

لعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن كلمة « تصوف » تعتبر من أكثر الكلمات التى دار حول أصلها النقاش ، وكثرت المجادلات . فقد تعرضت هذه الكلمة للكثير من الجدل ، ووضعت لبيان مصدرها الذى اشتقت منه فروض شتى تحاول كل منها أن تتكهن بأصل الكلمة . وقد كثرت هذه الفروض بحيث بدا بعضها قريباً من روح التصوف وأكثر تمشياً مع أحواله ومراميه ، بينما بدا البعض الآخر أمام العقل المنصف ضرباً من ضروب الإغراب والتمادى فى فرض الفروض دون أن يكون ثمة رباط قوى يربطها بموضوعها . بل إن من هذه الفروض ما لا تستقيم نسبته لغويا إلى التصوف .

وقد افترض بعض علماء الصوفية والمؤرخين أن الكلمة

قد اشتقت من كلمة « سوفيا » وهى لفظ يونانى معناه الحكمة ، ومنه اشتقت كلمة « فيلوسوفيا » أى حب الحكمة ، فيصبح الفيلسوف هو الشخص المحب للحكمة .

وليس من شك فى أن الحكمة من حيث اهتمامها بالموضوعات البعيدة العميقة التى ليست فى متناول التفكير العادى ، تعتبر أرفع ضروب المعرفة لأن قوامها النظر السليم إلى الأمور ، وغايتها إماطة اللثام عما غمض فهمه على سائر الناس . . . وهى ليست سهلة المنال ، وليس فى مقدور كل الناس أن يتوصلوا إليها ، فإن تحصيلها يتطلب بذل الكثير من الجهد ، وقد يبذل طالبها جل عمره دون أن يروى ظمأه منها . ومن هنا كان من الدقة بمكان أن نقول مع « فيثاغورث»[1] الفيلسوف اليونانى إن الحكيم الذى دانت له الحكمة الكاملة لا وجود له . فالحكمة ليست من الأمور التى يستطيع إنسان أن يدركها إدراكاً

---

(١) فيلسوف إغريقى – اتخذ مذهب المتصوفة وأطلق على نفسه لقب محب الحكمة بدلا من لقب العاقل – قام برحلات عديدة فى سبيل العلم وأحاط بالكثير منها وعلى الأخص الرياضية والفلكية والموسيقى وغيرها – أقام فى مصر مدة من الزمن تعرف فيها أسرار « باكوس » و « أورف » – وأسس كثيراً من المعاهد العلمية ودعا فيها إلى معرفة الواقع والحقيقة فى الحياة – كان يقول بأن الله هو الوحدة المطلقة الأولية وحدة الوحدات وأن الروح عدد يتحرك من ذاته والعالم كل منسجم منظم مركزه الشمس؛ تتحرك حولها الأجرام السماوية الأخرى بنظام موسيقى آلهى وينادى بأن الخير هو الوحدة والشر هو التنوع وأن العدل هو المساواة .

كاملا أو يسبر غورها . بل هي غاية يأخذ منها محبوها بمقدار . ويتوقف حظهم منها على ما وهبهم الله من دقة فى التفكير وبعد فى النظر . وتفسير ذلك أنه ليس هناك حكماء . . . بل هناك أفراد يحبون الحكمة ويسعون إلى الوصول إليها ، وهذا هو التعريف السليم لكلمة « فيلسوف » .

ولكن ليس هناك ما يدلنا على أن التصوف فى بدايته قد تأثر بالفلسفة اليونانية بالقدر الذى يجعلنا ننسبه إلى كلمة « سوفيا » اليونانية .

فإن الفلسفة اليونانية لم تؤثر إلا فى جماعة من الصوفيين يطلق عليهم اسم « الصوفيون الإلهيون المتفلسفون » أمثال محيي الدين بن عربى ، وابن الفارض ،وهؤلاء ظهروا فى القرن السادس الهجرى . فكأن الفلسفة اليونانية لم تؤثر فى التصوف الإسلامى إلا منذ هذا القرن ، وكان ذلك بعد أن عرف المسلمون التصوف ، وسموه باسمه ، وقطعوا فيه شوطاً كبيراً .

وهناك فرض آخر يفترض أن كلمة تصوف مشتقة من « صوفة » وهو اسم شخص كان يعكف على ذكر الله وعبادته عند البيت الحرام ، فكأن كل من يعكف على ذكر الله وينقطع إلى عبادته إنما يشبه هذا الرجل .

ومن الكلمات التي قيل إن التصوف قد اشتق منها مالا تستقيم نسبته إليها لغوياً ، مثل كلمة « صوفان » التى افترضت على اعتبار أنها تبين ما يمتاز به الصوفيون من زهو فى المأكل ،

ولكن تهافت هذا الرأى يبدو لنا إذا ما عرفنا أن الصفة من صوفان هى صوفانى وليست صوفى .

وثمة تفسير آخر يرجع الكلمة إلى الصفاء . . . وفى ذلك يقول أبو الفتح البستى :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا
فيه وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى
صافى فصوفى حتى لقب الصوفى

وقال أبو حمزة الخراسانى : الصوفى من صفى من كل درن فلم يبق فيه وسخ المخالفات بحال ، ويرد القشيرى على هذا الفرض فيقول : « من قال إنه من الصفاء ، فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة »[١] .

ويذهب البعض إلى أن الكلمة مشتقة من « الصف » على اعتبار أن أولياء الله الخاشعين القانتين الزاهدين سيكونون يوم القيامة فى الصف الأول بين يدى الله . ولكن هذا الفرض أيضاً غير صحيح من جهة اللغة .

ولعل أصح نسب لهذه الكلمة هو « الصوف » ، فقد كان لبس الصوف من دلائل الزهد والتقشف وإهمال المظهر . وقد أقر هذا الرأى الكثيرون من الصوفية والمؤرخين أمثال زكريا

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٦٥ .

الأنصاري ، والسراج الطوسي ، وابن خلدون . فمما أثر عن الأنبياء أنهم كانوا يفضلون لبس الصوف . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يركب الحمار ويلبس الصوف .
وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يوم كلم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جبة من صوف . وسراويل من صوف وكساء من صوف » .

وروى ابن قتيبة أن عيسى عليه السلام خرج على أصحابه وعليه جبة من صوف وكساء وسروال قصير ، حافياً مجزوز الرأس والشاربين ، باكياً شعثاً مصفر اللون من الجوع ، يابس الشفتين من العطش ، طويل شعر الصدر والذراعين والساقين ، فقال : السلام عليكم يا بني إسرائيل . . . أنا الذي أنزلت الدنيا منزلها ، ولا عجب ولا فخر ، أتدرون أين بيتي ؟

فقالوا : أين بيتك يا روح الله ؟

قال : بيتي المساجد ، وطيبي الماء وإدامي الجوع ، ودابتي رجلي ، وسراجي بالليل القمر ، وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس ، وطعامي ما تيسر ، وفاكهتي وريحاني بقول الأرض ، ولباسي الصوف وشعاري الخوف ، وجلسائي الزمنى والمساكين . أصبح وليس لي شيء ، وأمسي وليس لي شيء . . . وأنا طيب النفس غني مكثر ، فمن أغنى وأربح مني ؟[1] »

---

(١) الدكتور زكي مبارك : التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ص ٥٢ ، ٦١ .

وقد سئل إبراهيم ابن أدهم عن بدء أمره فى التصوف ، كيف كان ، فقال :

« كان أبى من ملوك خراسان ، وكنت شاباً ، فركبت إلى الصيد فخرجت يوماً على دابة لى ومعى كلب ، فأثرت أرنباً وثعلباً . فبينا أنا أطلبه إذ هتف بى هاتف لا أراه : يا إبرهيم ، ألهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ ففزعت ووقفت ، ثم عدت فركضت الثانية ، ففعل بى مثل ذلك ثلاث مرات ، ثم هتف بى هاتف من قربوس (مقدمة) السرج : والله ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت » قال : « فنزلت فصادفت راعياً يرعى الغنم لأبى فأخذت جبته الصوف فلبستها ، ودفعت إليه الفرس وما كان معى وتوجهت إلى مكة[1] » .

على أنه ليس هناك ما يدعونا إلى الجزم بأن الكلمة قد اشتقت من هنا أو من هناك . . . والأمر لا يعدو فى حد ذاته أن يكون ضرباً من محاولة التمهيد أو إلقاء الضوء على موضوع ليس بالمألوف أمره بين الناس . فإن من اهتموا بالأمر قد اختلفوا حتى فى أبسط الأدلة التى أوردناها فى هذه العجالة . ومن ذلك ما أورده المؤرخ ابن خلدون فى مقدمته المعروفة نقلا عن القشيرى فقد قال :

« ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ،

---

(١) طبقات الصوفية ص ١٢ .

والظاهر أنه لقب ، وأما القول باشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوى . وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه » .

وعلق ابن خلدون على هذا بقوله « قلت — والأظهر أن قيل بالاشتقاق إنه من الصوف ، وهم فى الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف [١] » .

٣

معنى التصوف

ومهما يكن من أمر اختلاف الصوفية والمؤرخين فى تحديد الأصل الذى اشتقت منه كلمة تصوف . . . فإن الحقيقة التى لا يستطيع أن يختلف فيها منصفان أن التصوف ينطوى على نزعات أخلاقية ووجدانية جديرة بالدراسة والتأمل . . . وهو أيضاً وسيلة لمعرفة تسمو على كل ما عداها من المعارف . . .

وقد ذخرت كتب الصوفية بالكثير من العبارات التى تشرح معنى التصوف وتوضح مفهومه وغايته ومنهجه . . . ومن هذه العبارات يستطيع القارئ الفطن أن يتبين أن التصوف

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٨ .

الصحيح عبارة عن منهج يوصل إلى غاية . . . هذا المنهج يتمثل فى أنواع من السلوك والرياضات والمجاهدات يأخذ الصوفية بها أنفسهم فيصلون إلى غايتهم القصوى ألا وهى التحقق بمعرفة الله عز وجل وإدراكه إدراكاً مباشراً ... ولعمرى هل هناك ما يطمع فيه مخلوق بعد ذلك ؟ . . .

ونحن إذا استعرضنا بعضاً من هذه التعاريف رأينا الدليل على صدق ما نزعمه . . . قال أبو القاسم النصراباذى : أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلق ، وحسن صحبة الرفقاء والقيام بخدمتهم ، واستعمال الأخلاق الجميلة ، والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب الرخص والتأويلات ، وما ضل أحد فى هذا السبيل إلا بفساد الابتداء فإن فساد الابتداء يؤثر فى الانتهاء .

وسئل أبو الحسن النورى عن التصوف فقال إنه ترك كل حظ للنفس ، فليس التصوف رسوماً ولا علوماً ولكنه أخلاق . . .

وقال الجنيد : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات لأن التصوف هو صفة المعاملة مع الله تعالى ، وأصله التعزف عن الدنيا.

وسئل طاهر المقدسى لم سميت الصوفية بهذا الاسم ، فقال لاستتارها عن الخلق بلوائح الوجد ، وانكشافها بشمائل القصد . . .

وقال أبو بكر الشبلى : التصوف ضبط حواسك ومراعاة

أنفاسك ، وهو أيضاً التآلف والتعاطف . . .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : التصوف تصفية القلب عن موافقة البشرية ، ومفارقة أخلاق الطبيعة وإخماد صفات البشرية ومجانبة دواعى النفسانية ، ومنازلة صفات الروحانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة ، واستعمال ما هو أولى على السرمدية ، والنصح لجميع الأمة والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فى الشريعة . . .

وذهب أبو الحسن البوشنجى إلى أن التصوف هو الحرية والفتوة وترك التكلف فى السخاء والتظرف فى الأخلاق . . .

وقال جعفر الخلدى : التصوف هو العلو إلى كل خلق شريف والعدول عن كل خلق دنىء . . .

وكما حدد الصوفية معالم التصوف ورسموا طريقه ، فقد حددوا أيضاً معالم شخصية الصوفى ، ورسموا أحواله . . .

قال الغزالى : التصوف أمر باطن لا يطلع عايه ، ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العرف فى إطلاق اسم الصوفى . والضابط الكلى أن كل من هو بصفة إذا نزل فى خانقاه الصوفية لم يكن نزوله فيها واختلاطه بهم منكراً عندهم فهو داخل فى غمارهم . والتفصيل أن يلاحظ فيه خمس صفات : الصلاح والفقر وزى الصوفية ، وألا يكون مشتغلا بحرفة وأن يكون مخالطاً لهم بطريق المساكنة .

وذهب آخر إلى أن الصوفى هو الخارج عن النعوت

والرسوم ، وصفاء الصوفى عن النعوت والرسوم ألزمه اسم التصوف فصفى عن ممازجة الأكوان كلها بمصافاة من صافاه فى الأزل بالأنوار والمبادر .

وقال الحلاج : الصوفى هو الرامى بقصده إلى الله عزوجل فلا يعرج حتى يصل وسئل بنان بن محمد الحمال عن أجل أحوال الصوفية فقال : الثقة بالمضمون والقيام بالأوامر ومراعاة السر والتخلى عن الكونين بالتشبث بالحق .

وقال أبو محمد الراسبى : لا يكون الصوفى صوفياً حتى لا تقله أرض ، ولا تظله سماء ، ولا يكون له قبول عند الخلق ، ويكون مرجعه فى كل أحواله إلى الحق عز وجل . . .

وقال أبو العباس الدينورى : إن لله تعالى فى خلقه رياضات ليتجلى لهم بربوبيته ، يراضون لهم فى مشاهدات الأشياء ليتحققوا بحقيقة الأشياء كما راض إبراهيم خليله صلوات الله عليه حين رأى النجوم ، فقال فى بدايته : « هذا ربى » . . . وإنما هى عين الجمع من فرط البلاء وغلبة الشوق وحصول الجمع فى الجمع من فرط البلاء وغلبة الشوق وحصول الجمع فى الجمع ، من حيث ما ورد عليه من الحق للحق حتى قال : « هذا ربى» راضه ليحوله إلى ما هو من ورائه . ألم تسمع إلى قوله : « فلما أفل قال لا أحب الآفلين ».

وحدد أبو عمر الدمشقى خصال الصوفى فى أربعة أشياء هى السياسة ، والرياضة ، والحراسة ، والرعاية . فالسياسة والرياضة ظاهران ،

والحراسة والرعاية باطنان ، فبالسياسة يصل العبد إلى التطهير ، وبالرياضة يصل إلى التحقيق ، والسياسة حفظ النفس ومعرفتها ، والرياضة مخالفة النفس ومعاداتها ، والحراسة معاينة بر الله فى الضمائر ، والرعاية مراعاة حقوق المولى بالسرائر وميراث السياسة القيام على وفاء العبودية ، وميراث الرياضة الرضا عند الحكم وميراث الحراسة الصفوة والمشاهدة ، وميراث الرعاية المحبة والهيبة ثم الوفاء متصل بالصفاء ، والرضا متصل بالمحبة ، علمه من علمه ، وجهله من جهله . وقال أبو بكر الدقى : علامة الصوفى أن يكون مشغولا بكل ما هو أولى به من غيره ويكون معصوماً عن المذمومات . . .

فالتصوف طريق له آدابه وأحكامه . . . ولا بد لسالكه أن يتزود بما يعينه على السير فيه ، وليس اجتيازه فى مقدور كل الناس ، إنما تجتازه الصفوة التى حباها الله بفضل من عنده . . . فأمدها بمزيد من القوة لتحارب أهواء النفس ، وتصارع وساوس الشيطان ، ونفخ فيها من روحه فصبرت وزهدت وعرفت الله حق معرفته وعبدته بإخلاص وآوت إليه بالشوق والمحبة . . . واتبعت السنة قولا وعملا ، وعزماً وعقداً ونية ، فجانبت البدع واتبعت ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام ، وتباعدت عن مجالس الكلام وأهله ولزمت طريق الاقتداء والاتباع . . . وكرهت نفوسها الدنيا فأحبها أهل الأرض . . . وعافت قلوبها الدنيا فأحبها أهل السماء . . .

سابعا

الطريق الصوفي

يحتاج الصوفي في طريقه الروحي الطويل الذي يؤدي به إلى الفناء في الله والاتحاد به إلى عدد من المقامات يختلف عليه ويتدرج فيها بالأحوال. وقد اختلف الصوفيون في أنواعها وعددها فذهب الغزالي في ربع المنجيات من إحياء علوم الدين إلى أن المقامات تسعة هي: التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والفقر والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة. ويضيف إلى المقام الأخير ثلاثة توابع هي الشوق والأنس والرضا. ويفرض على سالك الطريق أربعة فروض عامة هي السنة والصدق والإخلاص، ثم المراقبة والمحاسبة ثم التفكر في ذكر الموت زهدا بالدنيا وتأهبا للآخرة.

وفي كتاب «اللمع» يذهب السراج الطوسي إلى أن هذه المقامات سبعة هي التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا. أما الأحوال فهي المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين.

والمقام كما يعرفه السراج الطوسي هو مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله تبارك [illegible]

خاف المقام [illegible] وخاف [illegible].

أما الحال [illegible] فهو أيضاً بعبارة [illegible] عبارات الطوسي نازلة

تنزل بالقلوب فلا تدوم. وهو كما يعرفه الجرجاني معنى يرد على

القلب من غير تصنع ولا اجتلاب. ولا اكتساب من طرب أو

حزن أو قبض أو بسط أو هيئة. ويزول بظهور صفات النفس

سواء يعقبه المثل أو لا. فإذا دام وصار ملكاً يسمى مقاماً. [illegible]

فالمقامات [illegible] الصوفي [illegible] بمجهوده الشخصي [illegible] أما الأحوال

فهي أحاسيس [illegible] ومشاعر [illegible] نتيجة [illegible]

أو بمعنى آخر يمكن القول بأن المقامات [illegible] معالم [illegible] الطريق

وتبين [illegible] ما يجتازه الصوفي [illegible] اجتاز الصوفي

مقاماً بمجهوده الشخصي ومغالبته لجسده كلما خطا خطوة في

طريقه [illegible] وكلما [illegible] من [illegible] وناله في مقابل

ذلك [illegible] عاجلاً يبعث في نفسه الطمأنينة والأمل والرجاء والرضا

هذا [illegible] هو الأحوال التي تختلف [illegible] فعلى [illegible] المقامات

التي يتطلبها ويحققها [illegible] بمجهوده [illegible] في الطريق

فالأحوال [illegible] والمقامات مكاسب [illegible] والأحوال تأتي [illegible]

[illegible] الجود والمقامات تحصل ببذل المجهود [illegible]

[illegible] الصوفية على اختلاف [illegible] في ماهية المقامات [illegible]

يتفقون [illegible] أن التوبة هي بداية الطريق [illegible] انتباه القلب

عن رقدة الغفلة [illegible] الحالة [illegible]

فإذا فكر بقلبه في سوء ما يصنع [illegible]

الأفعال ، سنح فى قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح المعاملة . وشرط التوبة حتى تصح ثلاثة أشياء : الندم على ما عمل من المخالفات ، وترك الزلة فى الحال ، والعزم على ألا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصى » .

وقد حدد صاحب « قوت القلوب» عشرة شروط يجب توفرها فى التائب وهى ألا يعصى الله تعالى وألا يصر إذا ابتلى بمعصية ، والتوبة إلى الله تعالى منها ، والندم على ما فرط منه ، وعقد العزم على الطاعة إلى الموت ، وخوف العقوبة ، ورجاء المغفرة ، والاعتراف بالذنب ، واعتقاد أن الله قدر عليه ذلك وأنه عدل عنه ، والمتابعة بالعمل الصالح ليكفر عمّا تقدم من سيئات .

ومن أهم الوسائل التى تمكن الصوفى من المضى قدماً فى طريق النور أن ينسى آثامه ، وما مضى من خطايا ، فالصوفيون يصدرون التوبة كما لو كانت باباً مكتوباً عليه : « أيها الداخلون دعوا أنفسكم وراءكم » . ومعنى ذلك أن على الصوفى الذى تاب ألا يكدر نفسه بالتذكر الدائم لآثامه التى اقترفها قبل دخوله من باب التوبة ، فإن هذا التذكر من شأنه أن يعرقل جهوده للوصول إلى غايته فإن « التائب حبيب الله ، وحبيب الله فى الشهود ، ومن العيب أن تتذكر الآثام فى الشهود ، لأن تذكر الإثم حجاب بين الله وبين من يشهده » و « نسيان الذنوب طريق العارفين وحال المحبين » .

وبعد أن يتأكد السالك من صدق توبته يتخذ شيخاً يهديه سواء الطريق . . . والشيخ هنا هو المنظم لجهود مريديه ، وهو الذى يرسم لهم معالم الطريق فهم يدينون له بالولاء المطلق ، وسلطته الروحية عليهم لا تفوقها أية سلطة أخرى . ويخضع الشيخ مريديه عدة أعوام للرياضة والمجاهدة ، تكون بمثابة اختيار لصدق نيتهم ، وتقييماً لمدى تحملهم المضى فى الطريق ، بحيث لا يكون هناك مجال لعابث أو ضعيف الإرادة خائر العزيمة .

تاب أبو بكر الشبلى فى مجلس واحد من الصوفية يدعى « خير النساج » ، ولما أراد أن يتخذ له شيخاً دلوه على الجنيد ، فذهب إليه وقال له : « لقد حدثونى أن عندك جوهرة العلم الربانى ، فإما أن تمنحنيها أو تبيعنيها » .

فقال الجنيد : « لا أستطيع أن أبيعكها ، فما عندك ثمنها ، وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها . إلق بنفسك غير هياب — فى عباب المحيط مثلما فعلت ، لعلك إن صبرت أن تظفر بها » .

فسأله الشبلى عما يفعل فقال الجنيد : « اذهب بع الناس كبريتاً » .

وفى ختام العام قال له : « لقد شهرتك هذه التجارة بين الناس ، فكن درويشاً لا تشغل نفسك بغير السؤال » . وفى خلال العام كان الشبلى يجوس شوارع بغداد يسأل المارة

[illegible] أن تتبعد [illegible] الشبلي راجع إلى الجنيد، فقال له أرأيت الآن؟ [illegible] الناس [illegible]. فلا تصير [illegible] فكيف إليهم [illegible] ولا [illegible] كتبت على [illegible] يا [illegible] [illegible] [illegible] الأسواق [illegible] [illegible] إليهم [illegible] »

[illegible] الشبلي [illegible] ينهب [illegible] [illegible] من [illegible] عليه . فقال الجنيد حين عاد إليه : « لا يزال فيك . [illegible] [illegible] آخر [illegible] . [illegible] يوم [illegible] الشبلي [illegible] الصدقات التي أعطيت له . للجنيد [illegible] فيفرقها [illegible] ، طعام إلى الصباح القادم .

فلما انقضى العام على « [illegible] » [illegible] من [illegible] أنه [illegible] فلما انقضت [illegible] العام [illegible] . [illegible] نفسك الآن [illegible] الشبلي [illegible] [illegible] فقال [illegible] الآن توثق إيمانك » . . .

[illegible] الصوفية [illegible] ولكنها قلة الرغبة في المال . سأل رجل من الصوفية « بشراً الحافى » [illegible] : [illegible] لإقامة [illegible] « [illegible] متحققاً بالزهد [illegible] عن الدنيا [illegible] أقبلهم [illegible] [illegible] ما [illegible]

ولكن يعتقد المتوكل أنه يأخذ قوته من الغيب . [illegible]
أصحاب بشر ، فقال بشر : اسمع أيها الرجل . [illegible]!
[illegible] لا يسأل ، وإن أعطى [illegible] . . .
فذاك من الروحانيين إذا سأل الله أعطاه ، وإن [illegible]
[illegible] . [illegible] إن أعطي قبل [illegible] فذلك [illegible] أوسط
[illegible] إلى الله تعالى [illegible]
[illegible]
[illegible] طريقة [illegible] إلى [illegible]
[illegible] السؤال [illegible] الرجل [illegible]
« [illegible] »

[illegible] الجنيد : [illegible] السقطي [illegible] طريقاً
مختصراً قصداً إلى الحق [illegible] الجنيد [illegible]
السقطي [illegible] لا تسأل أحداً [illegible] ولا تأخذ من أحد [illegible]
ولا يكن معك شيء تعطي منه أحداً [illegible]!

والصوفيون [illegible]
[illegible] إلى الله [illegible] . [illegible] يعرف
[illegible] الله تعالى [illegible]
[illegible]
[illegible] الصحة [illegible]
[illegible] في الدنيا [illegible] الآخرة [illegible]
[illegible] أعظم [illegible]

خرج منها كان فى فرحين : فرح فى الدنيا وفرح فى الآخرة » .

وسئل البلخى أيضاً : « بأى شىء يعرف بأن العبد اختار الفقر على الغنى ؟ » .

فقال : « يخاف أن يصير غنياً فيحفظ الفقر بالخوف ، كما كان من قبل يخشى أن يصير فقيراً فيحفظ الغنى بالخوف ، وإن حفظ الفقر أن ترى الفقر منة من الله عليك ، حيث لم يضمنك رزق غيرك ، ولم ينقصك مما قسم لك . » وقال : « أبو حفص النيسابورى » ما أعز الفقر إلى الله ، وأذل الفقر إلى الأشكال وما أحسن الاستغناء بالله ، وأقبح الاستغناء باللئام ...

والفقر عند الصوفية له أحكامه وآدابه ، سئل النيسابورى أيضاً عن ذلك فقال : « حفظ حرمات المشايخ ، وحسن العشرة مع الإخوان ، والنصيحة للأصاغر ، وترك الخصومات فى الأرزاق ، وملازمة الإيثار ، ومجانبة الادخار وترك صحبة من ليس من طبقتهم ، والمعاونة فى أمور الدين والدنيا » .

ولا يصح أن يؤدى فقر الصوفى إلى تكبره ، فإن جمال الفقير كما يقول « حمدون القصار » فى تواضعه ، فإذا تكبر بفقره فقد أربى على الأغنياء فى التكبر . كما لا يصح أيضاً أن يكون فى عزوف الفقير عن الدنيا ما يصبغه بالتكلف ، أو يكون فقره دافعاً إلى الشكوى وإظهار البلوى . . . قال : « أبو الحسن الصيرفى » ليس الفقير من يظهره فقره ، إنما الفقير من

يكتم فقره ويأنس به ويفرح .

وقال : « أبو بكر الدق : « الفقير هو الذى عدم الأسباب من ظاهره وعدم طلب الأسباب من باطنه .

وفقر الصوفى أرفع درجات الغنى ، لأنه يقوده إلى اليقين ... قال « أبو العباس القاسم السيارى» : الأغنياء أربعة . . . غنى بالله ، وغنى بغنى الله ، قال النبى صلى الله عليه وسلم: «الغنى غنى القلب » وغنى باليقين ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كفى باليقين غنى » ، وغنى لا يذكر غنى ولا فقراً ، لما ورد على سره من هيبة القدرة .

وسئل : « أبو على بن الكاتب» : إلى أى الجنبتين أنت أميل : إلى الفقر أم الغنى ؟ فقال : إلى أعلاهما رتبة وأسناهما قدراً ، ثم أنشأ يقول :

ولست بنظار إلى جانب الغنى
إذا كانت العليـــاء فى جانب الفقر
وإنى لصـــبار على ما ينوبنى
وحسبك أن الله أثنى على الصبر

ومن مقامات الصوفية كما أسلفنا ، الزهد . . . وهو يقوم على أساس أن فى الإنسان عنصر شر هو جسده . . . وأعوان الجسد الدنيا والشيطان ، وهى جميعاً تمثل أخطر العقبات التى تقف حائلا بين الإنسان ومعرفة الله ، لذلك فإن رياضة النفس ومجاهدتها ، واستئصال عوامل الشر منها هى أهم ما يقوم به

الصوفي في طريقه الروحي . . . .

[illegible] : [illegible] يروض المريد
نفسه ؟ وكيف يروضها ؟

... [illegible] على [illegible] وصحبة
الصالحين [illegible] « [illegible] » [illegible]
[illegible] » نفسه [illegible]
: [illegible] « [illegible]
[illegible] »

وما النفس إلا حيث يجعلها [illegible]
[illegible] « [illegible] » : [illegible]
[illegible] الأيام [illegible] :

فلما رأت عزمي على [illegible]

والزهد [illegible] من [illegible] الطوسي [illegible] أساس
الأحوال الرضية والمراتب السنية [illegible] وهو أول [illegible] القاصدين إلى
الله عز وجل والمنقطعين إلى الله والراضين [illegible] الله والمتوكلين على
الله تعالى . فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده ،
[illegible] حب الدنيا [illegible] ، [illegible] كل
[illegible] طاعة

[illegible] الله [illegible]
[illegible]
[illegible]

قال أبو سعيد بن الأعرابي : اشتغالك بنفسك يقطعك عن عبادة ربك ، واشتغالك بهموم الدنيا يقطعك عن هموم الآخرة .

والصوفيون في صراعهم مع شهوات الجسد ، وهموم الدنيا يرون أن الأرواح قد خلقت من النور ، وأسكنت ظلم الهياكل ، فإذا قوي الروح جانس العقل ، وتواترت الأنوار ، وأزالت عن الهياكل ظلمتها ، فصارت الهياكل روحانية بأنوار الروح والعقل ، فانقادت ولزمت طريقها ، ورجعت الأرواح إلى معدنها من الغيب تطالع مجاري الأقدار . وما أقساها من معركة يخوضها العبد كل يوم ، فهو إذا أصبح كان مطالبا من الله بالطاعة ، ومن نفسه بالشهوة ، ومن الشيطان بالمعصية ، لكن الله تعالى رفق به حيث أمره في ابتداء صباحه بأمر ، وبعث إليه مناديا يناديه ، ويندبه إلى أمر الله ، وهم المؤذنون يؤذنون ويكبرون في أذانهم ، تكبيرات مكررات . « الله أكبر . . الله أكبر . . » فيكبر في قلبه أمر سيده فيبادر إلى طاعته ، ويخالف هوى نفسه وشيطانه ، فإن بادر إليه أكرمه الله بالظفر على نفسه ، وغلبته لشهوته ، وأعانه على عدوه بقطع الوساوس من قلبه ، فكل من بادر إلى الله بلبه ودخل في الحرية صار غالباً لا مغلوبا .

ويقارن « أبو بكر بن يزدانيار » بين الروح والنفس

والجسد مقارنة لطيفة فيقول : « الروح هى مزرعة الخير لأنها معدن الرحمة ، والنفس ، والجسد مزرعة الشر لأنهما معدن الشهوة ، والروح مطبوعة بإرادة الخير والنفس مطبوعة بإرادة الشر ، والهوى مدبر الجسد ، والعقل مدبر الروح ، والمعرفة حائرة فيما بين العقل والهوى ، والمعرفة فى القلب ، والهوى والعقل يتنازعان ويتحاربان ، والهوى صاحب جيش النفس ، والعقل صاحب جيش القلب ، والتوفيق من الله مدد العقل ، والخذلان مدد الهوى ، والظفر لمن أراد الله سعادته ، والخذلان لمن أراد الله الله شقاوته » .

والنفس إذا استولت على عبد صار أسيراً فى حكم الشهوات محصوراً فى سجن الهوى ، وحرم الله على قلبه الفوائد ، فلا يستلذ كلامه ولا يستحليه ، وإن كثر ترداده على لسانه ، لأن الله تعالى يقول : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » فهم لأنهم تكبروا بأحوال النفس والخلق والدنيا ، صرف الله عن قلوبهم فهم مخاطباته ، وأغلق عليهم سبيل فهم كتابه ، وسلبهم الانتفاع بالمواعظ ، وحبسهم فى عقولهم وآرائهم فلا يعرفون طريق الحق ، ولا يسلكون سبيله . . .

فلا سبيل إلى الخلاص من شهوات الجسد إلا بالزهد فيها ، ولا سبيل إلى التخلص من وساوس النفس إلا باستئصال أهوائها وإماتة رغباتها حتى تدق وتصفو ، وتنفض عن كاهلها

ما يربطها بالأرض ، وتنطلق مغردة فى سماء الفيض والإلهام . . .

وإذا كان الزهد معناه قتل كل رغبة للنفس والجسد أحلها الله أو حرمها . . . فإن التوكل يقوم أساساً على استئصال كل إرادة شخصية للفرد . . . وهم يذهبون إلى أن التوكل فريضة ، ويستشهدون بقوله تعالى : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » . ومن يتوكل على الله أسكن الله قلبه نور الحكمة وكفاه كل هم ، وأوصله إلى كل محبوب ، فإنه عز وجل يقول : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » . والتوكل عند الصوفية أرفع مقاماً من الكسب . . .

سأل رجل « أبا عبد الله بن سالم البصرى » : أنحن مستعبدون بالكسب أم بالتوكل ؟

فقال : التوكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والكسب سنته ، وإنما أستن الكسب لمن ضعف عن حال التوكل ، وسقط عن درجة الكمال التى هى حاله صلى الله عليه وسلم ، فمن أطاق التوكل فالكسب غير مباح له بحال ، إلا كسب معاونة لا كسب اعتماد عليه . ومن ضعف عن حال التوكل التى هى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبيح له طلب المعاش والكسب ، لئلا يسقط عن درجة سنته حيث سقط عن درجة حاله .

والصوفيون يطبقون مبدأ التوكل فى كل شىء ، فهم

لا يشتغلون إلا بطلب القوت ، والذين يعملون ليأكلوا الحلال بأجر عملهم ، ولا يمارسون تجارة ، ولا يعترفون بفائدة [illegible] [illegible] أن تفقدهم تماماً لعناية الله . [illegible]

سأل مستفسر أبا عبد الله بن الجلاء : عما تقول في الرجل يدخل البادية بلا زاد ؟

فأجاب : هذا من فعل رجال الله عز وجل . فإن [illegible] بالموت [illegible]

فسأله السائل يقول : فإن مات ؟

فكانت الإجابة : الدية على القاتل .

وقال رجل « لمعروف الكرخي » : أوصني

فقال معروف : توكل على الله حتى يكون هو معلمك ومؤنسك وموضع شكواك ، فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك .

ويروى أن علة لحقت أبا الحسين النوري ، ولحقت الجنيد في نفس الوقت علة أخرى ، فأخبر الجنيد عن وجده ، وكتم النوري علته ، فسئل النوري : لم لم تخبر كما أخبر صاحبك ؟ فقال : ما كنا لنبتلى ببلوى فنوقع عليها اسم الشكوى ، ثم أنشأ يقول :

إن كنت للسقم أهلاً فأنت للشكر أهلا
عذب فلم يبق قلب يقول للسقم مهلا

فأعيد ذلك على الجنيد ، فقال : ما كنا شاكين ولكنا أردنا أن نكشف عن عين القدرة فينا ، ثم قال [illegible]

أجل ما منك يبدو لأنه عن الملاحظ جلالة
ولكن تيا في أنسنا يقطعنى أجل بهجة أنت تجلا
أفنيتني عن جميع كلى فكيف أرعى لهم الجلا ؟

فبلغ ذلك الشبلي فقال :

محتى إلى فيك أني إلا ، أرحل إلى محتى
يا شفاني من القلم إن كنت علي

وليس هناك أبلغ من التوكل الذي تروية هذه القصة :

سقط درويش في نهر دجلة ، فصاح به رجل على الشاطئ رآه لا يعرف السباحة . « أتريد أن أدعو بالناس ليخرجوك إلى الشاطئ ؟ » .

فقال له الدرويش : لا .

فقال له الرجل : « أفتريد أن تغرق هنا . . . هنا »

فقال له الدرويش : لا . . .

فقال الرجل : فماذا تريد إذن ؟

فقال : ما يفعل الله فيما يريد ما شأني بالإرادة ؟ . . .

والعمدة في طريق التصوف — كما يقول القشيري — دوام الذكر ، فهو ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى ، ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر .

ويذهب القشيري إلى أن الذكر على ضربين : ذكر اللسان وذكر القلب . فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب والتأثير لذكر القلب ، فإذا كان العبد ذاكراً بلسانه

وقلبه فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه . . .

ويحتم التصوف تلاوة القرآن وذكر الله فى كل وقت من أوقات النهار والليل . . . والأذكار لها قيمتها الكبرى عند الصوفية ، بل هم يرقون بها إلى مستوى الفرائض الحتمية . وأدنى الذكر — كما يقول أبو العباس الدينورى — أن ينسى الذاكر ما دونه ، ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر فى الذكر عن الذكر . . . ويستغرق بمذكوره عن الرجوع إلى مقام الذكر ... وهذا حال فناء الفناء . . .

ومهما حاولنا بيان أهمية الذكر فى الطريق الصوفى فلن نستطيع أن نبلغ دلالة الرواية التالية . . .

أمر سهل بن عبد الله واحداً من مريديه بأن يقضى نهاره فى ترويد « الله . . . الله » دون انقطاع . . . ولما اعتاد ذلك ، أمره أن يرددها فى ليله أيضاً . . . وأدى به ذلك إلى أنه كان يردد الكلمة وهو نائم ، حينئذ أمره سهل بأن يديم ذكر الله فى صمته . وظل هكذا حتى تشرب كيانه كله ذكر الله ودوام التفكير فى ذاته .

وذات يوم سقطت على رأسه كتلة من الخشب ، فشج رأسه ، وانبثق الدم منه وسال على الأرض كاتباً . . . الله . . . الله . . .»

وبعد أن يجتاز السالك هذه المعالم . . . تثبت قدمه فى الطريق ، ويثق شيخه فى قدرته على المضى قدماً حتى يصل

إلى نبع النور والإلهام ، فيعطيه (المرقعة) التى تعتبر أول اعتراف من شيخه به . . .

وللبس المرقعه مغزاه ومدلوله عند الصوفية . . . فقد سأل رجل أبا عبد الله بن السجزى : لم لاتلبس المرقعة ؟

فقال : من النفاق أن تلبس لباس الفتيان ولا تدخل فى حمل أثقال الفتوة . . .

إنما يلبس لباس الفتيان من يصبر على حمل أثقال الفتوة . . .

فقيل له : ما الفتوة؟ فقال: رؤية أعذار الخلق وتقصيرك، وتمامهم ونقصانك ، والشفقة على الخلق كلهم برهم وفاجرهم . وكمال الفتوة هو ألا يشغلك الخلق عن الله عز وجل . . .

٥

الفناء

يعتبر الفناء أرقى مقامات النفس وأرفع أحوالها بما يهيئه للصوفى من اتحاد بالله فيصبح فى حالة من السعادة والانشراح لا يمكن التعبير عنها لما يراه ويسمعه مما لا يستطيع إنسان أن يتصوره . إنها السعادة بأجلى معانيها وأسمى درجاتها . . . سعادة من وصل إلى غاية لا يستطيع غيره من البشر أن يدركها ،

فدانت له الحقائق وتهتكت أمامه الستر ، وفتحت له أبواب الأسرار السامية على مصراعيها فصعد هانئاً منتشياً إلى عالم النور والملائكة .

وقد كان أبو اليزيد البسطامى الصوفى الفارسى المتوفى سنة ٢٦١ ﻫ أول من قال بالفناء ، وله فى ذلك عبارات مشهورة تعبر عما يشعر به الصوفى وهو فان فى الله متحد به . ومن هذه العبارات قوله :

« أنا عرش الله ، واللوح المحفوظ والقلم التى بها يخلق الله الخلق ، وأنا إبرهيم وموسى، وعيسى. وجبريل وميكائيل وإسرافيل . . .

وقوله : « إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى » .

وقد سئل أبو على الجوزجانى عن أبى اليزيد البسطامى ، وهذه العبارات التى تحكى عنه ، فقال : رحم الله أبا اليزيد ! له حاله وما نطق به ، ولعله تكلم بها على حد الغلبة أو حال السكر ، كلامه له ولمن تكلم عليه ، وليس لمن يحكى عنه فالزم أنت يا أخى أولا مجاهدة أبى يزيد ، وتقطعه ومعاملاته . ولا ترتق إلى المقام الذى بلغ به بعد تلك المجاهدات ، فإن بلغ بك إلى شىء من ذلك ، فاحك إذ ذاك كلامه ، فليس بعاقل من ضيع الأدنى من المقامات ، وادعى الأعلى منها .

ويذهب « نيكلسون » إلى أن الفناء مقتبس من التعاليم البوذية ، وكانت هذه التعاليم شائعة فى بلاد الفرس حيث ولد

أبو اليزيد البسطامى وترعرع . ومما يؤيد هذا الرأى أن فكرة الفناء عند الصوفية تشبه إلى حد بعيد فكرة « النرفانا » الهندية التى تقول بفناء الروح الجزئية فى عالم الأرواح . وعلى أية حال فإن هذه الفكرة أياً كان مصدرها قد لقيت تأييداً كبيراً من صوفية المسلمين ، فراحوا يعبرون عنها بالنثر حيناً وبالشعر حيناً ، ومن ذلك قول الحسين ابن منصور الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحـان حللنا بدنا
فإذا أبصـرتنى أبصـرته
وإذا أبصـرته أبصـرتنـا

وقوله : « إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى .

وكان يصيح وهو فى حالة الفناء قائلا : ليس فى الجبة غير الله .

فرماه الفقهاء بالكفر ، وأهدروا دمه على اعتبار أن تعاليمه من شأنها أن تقود إلى فوضى اجتماعية ودينية . . .

وعند ما سيق إلى حتفه قال :

« وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى تعصباً لدينك وتقرباً إليك ، فاغفر لهم ، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لى لما فعلوا ما فعلوا . ولو سترت عنى ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت . فلك الحمد فيما تفعل ، ولك الحمد فيما تريد . . . »

والفناء مرادف لكلمة جذب ، وقد جاء ذكر هذه الكلمة

فى كتابات كثير من الصوفية كحالة تعرض للصوفى فى طريقه الطويل إلى المعرفة الحقة ، والجذب يهيئ الأسباب التى تتصل بها الروح مباشرة بالله، وتتحد به، ويقول السراج الطوسى صاحب اللمع موضحاً معنى الفناء :

« ومعنى الفناء والبقاء فى أوائله فناء الجهل ببقاء العلم ، وفناء المعصية ببقاء الطاعة ، وفناء الغفلة ببقاء الذكر ، وفناء رؤيا حركات العبد لبقاء رؤيا عناية الله تعالى فى سابق العلم » .

ومن الكلمات التى تستخدم أيضاً لتؤدى معنى الفناء ، كلمة « ذهاب » ، فالفناء كما يقول السراج الطوسى أيضاً ذهاب القلب عن حس المحسوسات بمشاهدة ما شاهد ثم يذهب عن ذهابه ، والذهاب عن الذهاب ، هذا ما لا نهاية له .

والفناء عملية تحصل تدريجاً على مراحل خمس فيما يذهب السراج ، فأول علامة الفانى ذهاب حظه من الدنيا والآخرة بورود ذكر الله تعالى ، ثم ذهاب حظه من ذكر الله تعالى عند حظه بذكر الله تعالى له . ثم تفنى رؤية ذكر الله تعالى له حتى يبقى حظه بالله ، ثم ذهاب حظه من الله تعالى برؤية حظه . ثم ذهاب حظه برؤية حظه لفناء الفناء وبقاء البقاء .

وقد شرح القشيرى الفناء في رسالته فجعله علي ثلاث

مراحل : الأولى الفناء عن النفس وصفاتها بالبقاء بصفات الحق والثانية الفناء عن صفات الحق بشهود الحق ، والثالثة الفناء عن شهود الحق بالاستهلاك فى وجود الحق . ومعنى الاستهلاك فى وجود الحق ، فناء الصوفى عن فكره وإرادته والتأمل فى وجود الحق واستهلاكه فى ذلك استهلاكاً لا وعى فيه .

وكثيراً ما يكون الفناء مصحوباً بحالة يفقد فيها الصوفى إحساسه ، وإن كان ذلك ليس بالأمر العام فيما بينهم .

وفى هذا يقول السرى السقطى أحد صوفية القرن الثالث الهجرى : إن الصوفى فى حالة الفناء لو ضرب وجهه بالسيف لما أحس به .

ويشرح ابن الفارض معالم الطريق الذى يجتازه الصوفى حتى يصل إلى حالة الفناء التام فيحدد هذه المعالم بثلاثة أحوال ، الأولى هى حالة الشعور أو الوعى وهى حالة يشارك الصوفى فيها غيره من الناس ، فالناس جميعاً يتمتعون بها أثناء يقظتهم . والحالة الثانية هى فقدان ذلك الوعى أثناء الوجد الصوفى وهى تسمى أيضاً بحالة السكر . أما الثالثة فهى حالة وعى ثان ، يرتفع فيها الوجد الصوفى إلى أعلى مراتبه .

والواقع أننا إذا حاولنا أن نعرف حالة الفناء تعريفاً كاملا ، لما استطعنا أن نبلغ هذا التعريف ، ولما استطعنا أن نجد فى كتابات الصوفيين ما يشفى غليلنا لأنها حالة لا يمكن تعريفها داخل إطار الألفاظ المألوفة . وقد ذهب الصوفيون أنفسهم

إلى أنه لا يمكن القول بأن تعريفاً بعينه يمكن أن ينطبق تمام الانطباق على هذه الحالة ويعبر عنها تعبيراً واضحاً . فالفناء معاناة جوانية ، وهو فى حد ذاته تجربة عميقة لا يدرك معناها إلا من يعيشها . . . تجربة أقرب إلى أن تكون هبة من الله سبحانه وتعالى ، بل هى كذلك بلا شك . . . فهى لا تعترف بمنطق. ولا بقانون ، ولا بوساطة ولا بأية مفاهيم بشرية أخرى ، إنما هى كما يذكر الغزالى فى الرسالة اللدنية :

« كالضوء من سراج الغيب ، يقع على قلب صاف

فارغ لطيف ، ذلك بأنه حينما يرتبط الفانى بالخالد لا يبقى للفانى وجود ، ولست ترى أو تسمع سوى الله عند ما تبلغ درجة هذا اليقين ، وهو يقينك بأن ما من موجود بحق سوى الله . فإذا عرفت نفسك فأنت هو وأنت متحد به وليس سواه بموجود . »

فمن شروط الفناء تلاشى شخصية الإنسان وانعدام شعوره بوجوده . . . ويعبر أحد الصوفية عن ذلك فى قوله :

« دعنى أتلاشى وأفنى ، فإن الفناء يصيح بى بأننا إليه نعود

ويقول جلال الدين الرومى فى رباعياته :

« لم تكن روحانا فى الأصل سوى روح واحدة ، كذا كان ظهورى وظهورك ، فمن الخطل الكلام عنى وعنك ، فقد بطل فيما بيننا كلمة أنا وأنت »

ويقول أيضاً :

« لست أنا ولست أنت ، كما أنك لست أنا ، فإنى أنا وأنت فى وقت واحد ، كما أنك أنت وأنا معاً . وبسببك أيا جلاّل . . . أشعر بضيق وحيرة ، لا أدرى إذا كنت أنا أو إذا كنت أنت» .

وعندا هذه التجربة العميقة يلتقى كل المتصوفة الذين يهبهم الله فرصة بلوغ هذه الغاية السامية . . . دون اعتبار لدين أو مكان أو زمان . . .

وهذه القديسة تريزا تعبر عن هذه الحالة فتقول :

« فى الفترة التى تتحد الروح ، تتجرد الروح من كل شعور ، وإذا استطاعت أن تشعر فهى لا تشعر بشىء معين ، فلا حاجة بها إلى حيلة لحجز العقل عن التفكير لأنها تظل مأخوذة فى سكينتها حتى لتجهل ما تحب وما تريد أو هى بالإيجاز فى حكم الميتة بالنظر إلى أشياء هذه الدنيا ولا تعيش إلا فى الله » .

وتقول كريستيان شلدرب فى وصف الحالة نفسها :

« هى السعادة بغير مشاغل ولا علاقة ، فى انسجام مطلق لا تفكير فيه ، لست نفساً فردية بل أنا إذا مشيت مشيت ولا شىء غير مجرد المشى هناك ، لا رغبة ولا حاجة فى كل ما هناك ، وإنما هو شعور واضح بأنك أنت شىء واحد مع كل شىء ، فأنا فى تلك الحالة لست إلا كل شىء . . . أنا

النور ، أنا الثلج ، أنا ما أسمع وما أرى»[1] .

ولكن . . . إلى أى حد تتمشى فكرة الفناء مع تعاليم الإسلام ؟ . . . الواقع أنه لا يمكن القول أن فى القرآن أو فى الحديث ما يعبر صراحة عن هذه الحالة ، أو ما يشير إلى أن فرداً من الناس يستطيع أن يفنى فى الله ويتحد به . غير أن الصوفيين قد تعلقوا ببعض الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية وحملوها المعنى الذى يخدم فكرتهم ، ومن ذلك قوله تعالى:

« ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

وقوله : « وهو معكم أينما كنتم » .

وقول النبي عليه الصلاة والسلام فى الحديث القدسى :

« ما تقرب إلىّ المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب إلىّ بالنوافل حتى يحبنى وأحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً ، وبصراً ، فبي يبصر وبي يسمع » .

فقد اتخذ الصوفيون من هذه الآيات والأحاديث ما يؤيد رأيهم فى الفناء . وما يدعم غايتهم فى الاتحاد بالله والفناء فيه .

---

(١) استقينا هذين المثالين من كتاب « الله » للأستاذ عباس العقاد ص ٢٠٩ .

٦

المعرفة الصوفية

بعد هذا الطريق الطويل يصبح الصوفى متأهباً لأن يستقبل فى قلبه نور الحق . . . وهذا النور — كما يقول الغزالى — فى أول أمره غير مستقر كالقبضة من الضوء تجىء وتذهب ، ولعلها فى بعض الأحيان أن تتخلف . . . فإن عادت فهى حيناً مقيمة وحيناً لا تكاد . . . فإن أقامت فهى حيناً طويلة اللبث وحيناً قصيرته . . .

وقال أبو الحسين بن هند الفارسى : القلوب أوعية وظروف . . . وكل وعاء وظرف يصلح لنوع من المحمولات . . . فقلوب الأولياء أوعية المعرفة ، وقلوب العارفين أوعية المحبة ، وقلوب المحبين أوعية الشوق ، وقلوب المشتاقين أوعية الأنس . . . ولكل من هذه الأحوال آداب من لم يستعملها فى أوقاتها هلك من حيث يرجو النجاة . . .

والكمال فى الفيض والهبات لمن يثبت على الطريق . . . فهذا يصل إلى الغاية القصوى التى يتطلع إليها كل صوفى . . . ألا وهى التحقق بمعرفة الله . . .

قال إبراهيم القصار : المعرفة إثبات الرب عز وجل خارجاً

عن كل موهوم .

وقال إبراهيم بن يزدانياد : المعرفة هى صحة العلم بالله ، واليقين النظر بعين القلب إلى ما عند الله مما وعده وادخره . . .

وسئل أبو الحسين المزين عن المعرفة فقال : أن تعرف الله تعالى بكمال الربوبية وتعرف نفسك بالعبودية ، وتعلم أن الله تعالى أول كل شيء وبه يقوم كل شيء وإليه مصير كل شيء وعليه رزق كل شيء . . .

والمعرفة الصوفية بعبارة أخرى من عبارات الغزالى هى معرفة الحضرة الربوبية المحيطة بكل الموجودات ، إذ ليس فى الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله . والكون كله من أفعاله . وما يتجلى للقلب من المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وصفاته الباقيات وأفعاله وحكمته فى خلق الدنيا والآخرة هو الجنة عند قوم ، وسبب استحقاق الجنة عند أهل الحق ، وعلى قدر ما تتسع معرفة الإنسان بذلك كله تكون سعة نصيبه من الجنة .

وللعارف علامات ، وله أحوال لا يشاركه فيها غيره . . .

قال ذو النون المصرى : العارف كل يوم أخشع ، لأنه كل ساعة أقرب .

وقال أيضاً : العارف لا يلزمه حالة واحدة إنما يلزم ربه فى الحالات كلها .

وسئل شقيق البلخى : بأى شيء يعرف بأن العبد واثق بربه ؟ فقال :

يعرف بأنه إذا فاته شيء من الدنيا يحسبه غنيمة وإذا أبطأ عليه شيء من الدنيا يكون أحب إليه من أن يأتيه . . .

وسئل أبو اليزيد البسطامى : ما علامة العارف ؟ فقال : ألا يغتر من ذكره ولا يمل من حقه ولا يستأنس بغيره . . .

وقال أيضاً : العارف همه ما يأمله . . .

وقال معروف الكرخي : ليس للعارف نعمة وهو فى كل نعمة . . .

وقال يحيى بن معاذ الرازى : أهل المعرفة وحسن الله فى الأرض ، لا يأنسون إلى أحد . . .

وقال منصور بن عمار : إن الحكمة تنطق فى قلوب العارفين بلسان التصديق . . .

وسئل الجنيد عن العارف فقال : من لم يأسره لحظه ولا لفظه . . .

وشغل العارف — كما يقول شاه الكرمانى — بثلاثة أشياء : بالنظر إلى معبوده مستأنساً به ، والملاحظة لمننه وفوائده شاكراً له ، والتذكر لذنبه معترفاً به ومنيباً تائباً إليه . . .

وقال محمد بن الفضل البلخى : العارف يدافع عيشه يوماً بيوم ، ويأخذ من عيشه يوماً ليوم . . .

ومعرفة الله تؤدى بالعارف إلى تعظيم كل من يعرف ربه ... قال أبو جعفر بن سنان : لا يعظم حرمات الله إلا من عظم الله ولا يعظم الله إلا من عرفه ، ومن عرفه خضع له وانقاد فى

خضوعه ، وخضوعه يتولد من تعظيمه لربه . فإذا عظمه صغر كل ما سواه عنده ، فيتولد له من ذلك تعظيم حرمات المؤمنين . . . وذلك لعظيم حرمة الله فى قلبه أن يعظم كل من يطيع ربه أو يعرفه . . .

وأهل المعرفة كما يقول إبراهيم بن شيبان : لا يغيبون عنه قياماً ولا قعوداً ولا نائمين ولا منتبهين ، ولهم أحوال يشتمل عليهم أنوار قربه فيفرقون فيها ولا يتفرغون إلى الخلق وما هم فيه . . . وتلك أحوال الدهشة تراهم دهشين متحيرين ، غائبين حاضرين . . . غائبين بأسرارهم ، حاضرين بأبدانهم . . .

والله تعالى طيب الدنيا للعارفين — كما يقول أبو سعيد بن الأعرابى — بالخروج منها ، وطيب الجنة لأهلها بالخلود فيها . فلو قيل للعارف : إنك تبقى فى الدنيا لمات كمداً ، ولو قيل لأهل الجنة إنكم تخرجون منها لماتوا كمداً ، فطابت الدنيا بذكر الخروج منها ، وطابت الجنة بذكر الخلود فيها . . .

والصوفيون سعداء بمعرفتهم . . . سعداء بما تهتك أمامهم من حجب ، فشاهدوا ربهم شهوداً عينيًّا ، وأحاطوا بذاته إحاطة كاملة تندرج تحتها معرفتهم بكل الحقائق معرفة يقينية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . . .

ولكن . . . هل كل من سلك الطريق ، وجاهد نفسه وبلغ شتى المقامات ، يصل إلى هذه الغاية الجليلة ؟ ويتحقق بمعرفة الله ويحظى بالفيوضات والمكاشفات ؟

قال أبو بكر الطمستانى وقد طلب منه رجل أن يوصيه : الهمة . . . الهمة . . . فإنها مقدمة الأشياء وعليها مدارها وإليها رجوعها . . .

وقال محيي الدين بن عربى : إن الفتح على قدر الهمة . . .

ومعنى ذلك أن الطاقة الروحية للصوفى هى التى تحدد نصيبه من المعرفة . . .

وفى هذا يقول أبو عبد الله السترغبذى : إن الله وهب لكل عبد من معرفته مقداراً ، وحمله من البلاء على مقدار ما وهب له من المعرفة ، لتكون معرفته عوناً له على حمل بلائه . . .

فليس من شك فى أنه كما تختلف الطاقات الحسية ، والعقلية للناس ، فإن الطاقات الروحية لهم تختلف أيضاً . . . ويترتب على هذا الاختلاف تباين فى الإدراك والتفكير بالنسبة لسائر الناس . . . وتباين فى الكشف والإلهام بالنسبة للصوفية . .

والأمر متوقف قبل كل شىء على إرادة الله ، فهو الذى يمنحه لمن يشاء ويقبضه عمن يشاء . . .

سئل ذو النون المصرى : بم عرفت ربك ؟

فقال : عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى . . .

وصفوة القول أن الصوفية أصحاب نظرية فى المعرفة . . . ووسيلتهم فى بلوغ هذه المعرفة ليست الحواس وليست العقل ، ولكنها الكشف والإلهام ، « انظر في قلبك لأن ملكوت السموات

والأرض فيك » . وموضوع معرفتهم ليس العلم العادى الذى يحصله الناس بحواسهم وعقولهم . ولكنه كما يقول صاحب الرسالة القشيرية : « المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله تعالى فى معاملاته ، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم طال بالباب وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه فحظى من الله تعالى بجميل إقباله وصدق الله تعالى فى جميع أحواله وانقطع عنه هواجس نفسه ، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره ، فإذا صار من الخلق أجنبياً ومن آفات نفسه بريئاً ومن المساكنات والملاحظات نقياً ، وأدام فى السر مع الله تعالى مناجاته ، وحق فى كل لحظة إليه رجوعه وصار محدثاً من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره ، يسمى عند ذلك عارفاً وتسمى حالته معرفة ، وفى الجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه عز وجل » .[1]

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٨٣ – ١٨٤ .

٧
الغزالى

يرجع الفضل إلى « الغزالى » فى إقامة التصوف الإسلامى على دعائم فكرية واضحة وقد امتد تأثيره حتى شمل مفكرى المسيحية ومتصوفتها . . .

فقد كانت شخصيته من الجلال والقوة ، ومذهبه من العمق والدقة بحيث استوعبا عصره الذى عاش فيه ، وسيطرا على قلوب معاصريه ، وأثرا فيمن جاء بعده من أهل السنة ، حتى أصبح للتصوف خطره العظيم فى الحياة الروحية الإسلامية بعد أن كان الكثيرون قد أخذوا أنفسهم بالازورار عنه والنفور من أهله ، وتوجيه المطاعن إليه ، وإلقاء الشبهات على تعاليمه . . فقد كان ينظر إلى التصوف وقتئذ على أنه زندقة وخروج على تعاليم الكتاب والسنة . ولم تكن هذه النظرة ناشئة عما كان يدعو إليه الصوفية من بعض التعاليم المنطوية على التحرر من التقاليد وإسقاط التكاليف فحسب ، وإنما هى ناشئة أيضاً عما كان هنالك من امتزاج بين بعض التعاليم والمذاهب الصوفية وبين العقائد الشيعية والإسماعيلية الباطنة . وظل التصوف زمناً منظوراً إليه هذه النظرة حتى كان الغزالى ، فإذا هو يدعو الناس إلى الرجوع إلى دينهم الصحيح ، ويرغبهم فى التصوف ، ويبين

لهم أن هذا هو الطريق الحق الموصل إلى معرفة الحق . ولقد أعان الغزالى على أداء رسالته هذه ما كان يمتاز به من حرارة الإيمان وبلاغة البيان وبراعة الأسلوب وقوة الحجة[1] .

وقد ألف الغزالى نيفاً ومائة كتاب غطت كل المسائل الإسلامية ومن هذه المؤلفات . . . إحياء علوم الدين ، والوجيز والوسيط والبسيط فى الفقه الإسلامى ، والمستصفى فى قواعد علم الكلام ، ومقاصد الفلاسفة فى الفلسفة ، ومعيار العلم فى المنطق ، وتهافت الفلاسفة فى بيان قصور الفلسفة عن إدراك الحقائق ، والمنقذ من الضلال الذى شرح فيه أزمة الشك التى مر بها ، وكيف اهتدى إلى نور اليقين ، وفضائح الباطنية الذى ينعى فيه على إمعية التفكير .

وقد سبق الغزالى ، الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت فى شكه بنحو ألف عام ، فقد تعرض كما تعرض ديكارت من بعده لفترة من الشك المنهجى الذى يتخذ من الشك وسيلة للوصول إلى الحقيقة المطلقة ، فقد كان التعطش إلى إدراك الحقائق هدفه منذ صباه ، فشك فى قيمة العقل ، وفى قيمة الحواس وفيما عسى أن توصل إليه من معرفة ، وانتهى إلى أن المعرفة الحقة لا تأتى عن طريق المناقشات المنطقية أو عن طريق تطبيق الفقه الشكلى ، ولا بالمنظر العقلى للفلسفة ، إنما المعرفة شىء يصل إليه الفرد بعد جهد وطول عناء ، ورياضات

---

(١) دكتور مصطفى حلمي : الحياة الروحية في الإسلام ص ١٢١ .

للنفس حتى ترفع عن أدران الشهوات ، وتنقطع كل صلة لها بالمادة فتدق وتصفو وتتهيأ لها تجربة أشد ما تكون عمقاً ، وهى فى حالة من الوجد والانشراح . . . فيتحقق لها الكشف الإلهى ، وتحظى بنور المعرفة يقذفه الله فى القلب ، فيدرك السالك لهذا الطريق الطويل ، الآخذ نفسه بشتى ضروب الرياضات والمجاهدات ، الله إدراكاً مباشراً ، ويعرفه حق معرفته ، وتندرج تحت هذه المعرفة ، معرفته بجميع الحقائق الأخرى معرفة لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها . . .

وقد درس الغزالى مذاهب المتكلمين ، وهم فئة اهتمت بدراسة العقائد الإسلامية كالتوحيد والعدل الإلهى والجبر والاختيار ، ولكنه ألفاها ظاهرة التناقض والفساد ، فيمم شطر المذاهب الفلسفية المختلفة ، يتناولها بالدراسة والتعمق . . . ولكنها ظلت فى نظره قاصرة عن تحقيق ما كان يصبو إليه من كشف الحقيقة المطلقة ، والوصول إلى المعرفة اليقينية ، فهاجم الفلسفة فى كتابه المشهور « تهافت الفلاسفة » . . . ثم شيئاً فشيئاً راحت غمامة شكه تنقشع . . . ومع انقشاعها انتهى به الأمر إلى أن المعرفة الحقة هى معرفة الله وصفاته وأفعاله . . . والوسيلة إلى هذه المعرفة ليست الحواس وليست العقل ، إنما هى فى « التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال على الله بكنه الهمة » ، أى باتباع طريق الصوفية الذى يقوم على الفقر والزهد فى الدنيا وملذاتها وشهواتها ،

وفى صفاء النفس وإخضاعها بالمجاهدة والرياضة . . . فتنهتك الستر من أمام القلب ، وتزول عنه الحجب . . . فيشهد العبد ربه شهوداً عينياً مباشراً ويحيط بذاته العلية إحاطة كاملة . . .

ولم يكن شك الغزالى من النوع الهدام الذى يبتغى الشك لذاته . . . إنما كان شكه وسيلة إلى غاية هى اليقين . . . وهو فى شكه فى قيمة الحواس والعقل لم يلق إليها بالتهم جزافاً ، إنما كان اعتراضه على قدرتها فى الوصول إلى اليقين قائماً على الحجة والدليل فاستطاع أن يقلل من قيمتها وينال من مكانتها . . فهو يقول مثلا فى حديثه عن الحواس : « فانتهى بى طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات ، ومن أين الثقة بها ؟ ، وأقوى الحواس حاسة البصر وهى تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفى الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة بغتة بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف ، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً فى مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته »[1].

وبعد أن أصاب الغزالى الحواس فى الصميم . . . وجه ضرباته إلى علم الكلام . . . فحصله ، وطالع كتب المحققين

(١) المنقذ من الضلال ص ٧١ .

منهم ، وصنف فيه ما أراد أن يصنف ، فصادفه علماً وافياً بمقصوده غير واف بمقصوده هو ، ذلك لأن مقصود علم الكلام حفظ العقيدة على إنسان نشأ مسلماً ، ولقن عقيدته تلقيناً من أن يشوشها عليه المبتدعون والمخالفون بأن يرد عليهم كيدهم فى نحورهم ، ويلزمهم محالات وشناعات تشككهم فيما هم عليه . لذلك كان أكثر خوض علماء الكلام – كما يقول الغزالى – فى استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم . فأين العلم ؟ ؟ . . .

إن علم الكلام على هذه الصورة لا يعد علماً بالمعنى الصحيح ، لأنه لا يخلق حقيقة وعلماً يقينياً فى إنسان نشأ خالياً منهما أوشك فيهما . . . وهو لهذا – بعبارة الغزالى – « قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا ، فلم يكن الكلام فى حقى كافياً ، ولا لدائى شافياً ، فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة فى اختلاف الخلق ، ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيرى ، بل لست أشك فى حصول ذلك لطائفة ، لكن حصولا مشوباً بالتقليد فى الأمور التى ليست من الأوليات [1] » .

وبعد أن أبان الغزالى قصور علم الكلام عن بلوغ الغاية التى يرجوها . . . نظر إلى الفلسفة فنعى عليها عدم قدرتها على الوصول إلى اليقين فيما يتعلق بالإلهيات . . . فإن براهينها فى هذه

---

(١) المرجع السابق ص ٨١ .

الناحية ليس لها قوة البراهين الهندسية . لذلك فهو يقول : « ثم إنى لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتزييف ما يزيف منه ، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً عن جميع المعضلات [١] »

أين إذن طريق الخلاص من أزمة الشك الخانقة ؟ . . . وأين وسيلة المعرفة الحقة التى لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها ؟

لقد وجد الغزالى فى طريق الصوفية منقذه وهاديه فقال : « ابتدأت بتحصيل علومهم ، من حيث مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبى طالب المكى رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وأبى اليزيد البسطامى — قدس الله أرواحهم — وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالعلم والسماع [٢] » .

فماذا وجد الغزالى ؟ . . .

لقد ظهر له أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات . . . وكم من الفرق بين أن يعلم الإنسان حد الصحة ، وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن تكون صحيحاً وشبعان ، فكذلك فرق

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢١ .

بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا . . .

وعلم أيضاً أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصله ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم بل بالذوق والسلوك .

ونظر الغزالى إلى الأمر كله . فوجد أنه يقوم على قطع علاقة القلب عن الدنيا ، والتجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة ، وذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق . . .

فماذا بعد ؟ . . . لقد لاحظ الغزالى أحواله ، فإذا هو منغمس فى العلائق وقد أحدقت به من كل جانب . ولاحظ أعماله ، وأحسنها التدريس والتعليم ، فإذا هو مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة — كما يقول — فى طريق الآخرة ، ثم تفكر فى نيته فى التدريس فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت[١] . . .

كيف السبيل إلى الخلاص إذن من علائق البدن وأهواء النفس ؟

يقول الغزالى : « فلم أزل أتفكر فى الأمر مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً . وأقدم فيه رجلاً

(١) المرجع السابق ص ١٢٦ .

وأؤخر أخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليها جند الشهوة فيفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل . . . الرحيل . . . فلم يبق من العمر إلا قليل وبين يديك السفر الطويل . وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ . فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار . ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ، فإن أنت أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص .

والأمن المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ربما التفتت إليك نفسك ولا تتيسر لك المعاودة . فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إلى ؛ فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها البتة حتى أورثت هذه العقدة فى اللسان حزناً فى القلب بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لى ثريد ولا تنهضم لقمة ، وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء

طمعهم فى العلاج ، وقالوا هذا أمر نزل القلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج .

ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت إلى الله التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه والمال، والأولاد والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أريد فى نفسى سفر الشام حذار أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبداً ، واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينيًّا إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين . وكان ذلك مبلغهم من العلم .

ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات وظن من بعُد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ، وأما من قرب من الولاة وكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى والانكباب على وإعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون هذا أمر سماوى وليس له سبب إلا عين أصابت الإسلام وزمرة العلم ، ففارقت بغداد[١]» .

ولما عزف الغزالى عن الدنيا ، وأحب الخلوة والعزلة . . .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٦ .

ألقى الله نور الحقيقة فى قلبه ، فانتشى وحمد الله أن ألهمه طريق الصوفية فهم « السالكون لطريق الله تعالى خاصة : وسيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق » .

* * *

وبعد أن هدأت موجة الشك التى تعرض لها الغزالى . وطابت نفسه للطريق القويم الموصل إلى أسمى الغايات . . . راح يرسم للطرق الأخرى حدودها وغاياتها . . . « فالعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية وأخروية . فالدينوية كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات . والأخروية كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله . وهما علمان متباينان ، أعنى أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه ، قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر ، ولذلك ترى الأكياس فى أمور الدنيا وفى علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة ، جهالاً فى أكثر علوم الآخرة ، لأن قوة العقل لا تفى بالأمرين جميعاً فى الغالب ، فيكون أحدهما مانعاً من الكمال فى الثانى . . . فالجمع بين كمال الاستبصار فى مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عباده فى معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس ،

المستمدون من القوة الإلهية التى تتسع لجميع الأمور ولا تضيق بها.[١] »

ثم يفرق الغزالى بين علوم الأولياء والأنبياء وعلوم العلماء والحكماء فيقول : « للقلب بابان . . . باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ ، وعالم الملائكة ، وباب مفتوح إلى عالم الحواس الخمس ، المتمسكة بعالم الملك والشهادة ، وعالم الشهادة والملك أيضاً يحاكى عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة . فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك ، وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فيعلم علماً يقينيًّا بالتأمل فى عجائب الرؤيا واطلاع القلب فى النوم على ما سيكون فى المستقبل وكان فى الماضى من غير اقتباس من جهة الحواس . فإذن الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ، وبين علوم العلماء والحكماء هذا : وهو أن علومهم تأتى من داخل القلب من الباب المفتوح إلى عالم الملكوت ، وعلم الحكماء يأتى من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك[٢] » .

ولكن ، ما هو الضمان فى الوصول إلى معرفة حقائق الأمور ؟ يصرح الغزالى بأن كل قلب صالح بالفطرة لمعرفة الحقائق ،

---

(١) الجزء الثامن من إحياء علوم الدين ص ٣١ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٥ .

لأنه أمر ربانى شريف فارق سائر جواهر الموجودات بهذه الخاصية والشرف .

وقد صرح « ديكارت » بعد ذلك بحوالى ألف عام بما ذهب إليه الغزالى فقال بأن العقل الذى يوصل الإنسان إلى الحدس — أساس المعرفة عنده — هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس ! !

فإذا كان قلب كل آدمى مستعد للوصول إلى الحقائق فى الأصل ، فلم يصل البعض إليها ويقف الكثيرون دونها ؟ . . .

يقول الغزالى رداً على هذا السؤال : « القلب مرآة مستعدة لأن يتجلى فيها حقيقة الحق فى الأمور كلها ، وإنما خلت القلوب من العلوم التى خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة : نقصان فى ذاته ، كقلب الصبى فإنه لا تنجلى له المعلومات الناقصة . ولكدورة المعاصى والخبث الذى يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً » أى ، حصل فى قلبه كدورة لا يزول أثرها إذ غايته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لازداد لا محالة إشراق القلب ، فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة ، لكن عاد القلب إلى ما كان قبل السيئة ، ولم يزدد بها نوراً ، فهذا خسران مبين ونقصان لا حيلة فيه . فليست المرآة التى تتدنس

ثم تمسح بالمصقلة كالتي تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق. فالإقبال على طاعة الله. والإعراض عن مقتضى الشهوات، هو الذي يجلو القلب ويصفيه. ولذلك قال الله تعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا»، وقال صلى الله عليه وسلم: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

— وثالث هذه الأسباب — أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح، وإن كان صافياً فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق، لأنه ليس يطلب الحق؛ وليس محاذياً بمرآته شطر المطلوب، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكراً فيها أو مصالح المعيشة إن كان متفكراً فيها. وإذا كان تقييد الهم بالأعمال الصالحة؛ وتفصيل الطاعات مانعاً من انكشاف جلية الحق، فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها، فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي؟

— ورابع هذه العوائق — الحجاب، فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوباً عنه باعتقاد سبق إليه من الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن، فإن ذلك يحول بينه وبين

حقيقة الحق ، ويمنع من أن ينكشف فى قلبه خلاف ما تلقنه من ظاهر التقليد ، وهذا أيضاً ، حجاب عظيم حجب به أكثر المتكلمين والمتعصب للمذاهب ، بل أكثر الصالحين المفكرين فى ملكوت السموات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت فى نفوسهم ورسخت فى قلوبهم وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق .

— والسبب الخامس — الجهل بالجهة التى يقع منها العثور على المطلوب ، فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهود ، إلا بالتذكر للعلوم التى تناسب مطلوبه ، حتى إذا تذكرها ورتبها فى نفسه ترتيباً مخصوصاً ، يعرفه العلماء بطريق الاعتبار . فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتتجلى حقيقة المطلوب لقلبه ، فإن العلوم المطلوبة التى ليست نظرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة ، بل كل علم لا يحصل إلا من علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والأنثى . . . . . . فكذلك كل علم ، فله أصلان مخصوصان وبينهما طريق الازدواج ، يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب ، فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم[1] » .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢ .

وعلى هذا الأساس فإن الناس ليسوا سواسية فيما يجب أن يسعوا إلى تحصيله من معارف . . . فهناك ثلاثة مراتب لليقين : يقين العوام الذين لم يتخلصوا من قيود الحس ، ولم يألفوا الرياضات والمجاهدات ، ولم يعرفوا كيف يستغلون ملكة التفكير عندهم ، وهؤلاء يجب أن يقفوا عند نصوص الكتاب والحديث ، لا يؤولونها ، ولا يسبرون غورها .

أما اليقين الثانى فهو يقين العلماء والفلاسفة الذين يصلون إليه عن طريق الاستنباط . واليقين الثالث هو يقين العارفين وطريقهم ليس الحواس وليس العقل ، ولكنه التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال على الله بكنه الهمة ، وهذا هو طريق الصوفية . . .

وكما تتفاوت هذه المعارف من حيث الحدود ، فإن السعادة الناتجة منها تتفاوت أيضاً . . . وأسماها بلا شك ، وأعمقها بلا جدال ، هو السعادة المنبثقة من المعرفة الصوفية ، لأن موضوعها أسمى الموضوعات وأجلها شأناً وأخطرها قيمة ، وهذه السعادة أدوم وأبقى من غيرها ولا تبطل بالموت ، بل إنها فى الموت تكون أشد وأقوى ، إذ أن ما ينكشف للقلب من الأنوار فى الموت أكثر سناء ، وأوفر بهاء ، لأنه عندئذ يكون قد خرج من الظلمات إلى النور .

٨
التصوف والشريعة

لا يستطيع المفكر المنصف أن يجد خروجاً فى التصوف عن أحكام الشريعة . وهى كل ما يتعلق بالكتاب والسنة .

وعند ما نذكر التصوف فإنما نقصد به التصوف الصحيح خالياً من كل ما دخل عليه فى بعض العصور من أوهام وخرافات ليست من حقيقته فى شىء . . .

ونحن نجد فى كتب الصوفية ومأثوراتهم ما يؤيد هذا الكلام وما يدل دلالة قاطعة على أن الصوفيين يجلون الشريعة ويعتبرونها أساس رياضاتهم ومحور أفكارهم . . . فأصل التصوف ـ كما يقول واحد من الصوفية وهو أبو القاسم النصراباذى ـ ملازمة الكتاب والسنة . ويقول أبو بكر الطمستانى « الطريق واضح والكتاب والسنة بين أظهرنا » . . .

ويذهب عبد الوهاب الشعرانى إلى أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة ، فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنهما نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها .

ثم يقرر الشعرانى ، أن التصوف إنما هو لذلك زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة ، إذا خلا من عمله العلل وحظوظ النفس كما أن علم المعانى والبيان زبدة علم النحو فمن جعل علم التصوف عملا مستقلا صدق ومن جعله من عين أحكام الشريعة صدق ، كما أن من جعل علم المعانى والبيان عملاً مستقلا فقد صدق ، ومن جعله من جملة علم النحو فقد صدق ، لكنه لا يشرف على ذوق أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة إلا من تبحر فى علم الشريعة حتى بلغ إلى الغاية . . .

وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر فى طريق الله عز وجل إلا من تبحر فى علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها ، وتبحر فى لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك ، فكل صوفى فقيه ، ولا عكس .

وإذا كان التصوف عبارة عن منهج أساسه رياضة النفس ومجاهدتها ، وغاية تصبو إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، فإن السنة والفريضة تحققان منهج الصوفى وغايته ، فقد سئل أبو اليزيد البسطامى عن السنة والفريضة فقال : « السنة ترك الدنيا والفريضة الصحبة مع المولى ، والكتاب كله يدل على صحبة المولى ، فمن تعلم السنة والفريضة فقد كمل » .

وقال أحمد بن أبي الحوارى : « من عمل بلا اتباع السنة فباطل عمله » .

وقال أبو القاسم الجنيد : « الطريق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتبع سنته ولزم طريقته ، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه » .

وقال سهل بن عبد الله التسترى : « أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام والتوبة وأداء الحقوق » .

وسئل أبو على الجورجانى : كيف الطريق إلى الله ؟ فقال : الطرق إليه كثيرة ، وأصح الطرق وأعمرها وأبعدها عن الشبه اتباع السنة قولا وفعلا ، وعزماً وعقداً ونية ، لأن الله تعالى يقول : « وإن تطيعوه تهتدوا » ، فسأله السائل : كيف الطريق إلى اتباع السنة ؟ فقال : مجانبة البدع واتباع ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام ، والتباعد عن مجالس الكلام وأهله ، ولزوم طريق الاقتداء والاتباع ، بذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقوله عز وجل : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً » .

وقال أبو العباس بن عطاء الأدمى : « من ألزم نفسه آداب السنة نوّر الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم فى أوامره وأفعاله

وأخلاقه ، والتأدب بآدابه قولاً وفعلاً وعزماً وعقداً ونية » .

فالشريعة فى الطريق الصوفى هى الأساس ، وهى نقطة البدء التى ينطلق منها الصوفى نحو الغاية السامية التى يثاب على ما يتكبده فى سبيل الوصول إليها من مشاق بنيل الحقيقة ، وكسب المعرفة التى يعز اكتسابها على غيره من الناس .

ولكن الشريعة التى نقصدها هنا ليست القسم الذى اختص به الفقهاء، فدونوا فيه الأحكام الظاهرة التى استخلصوها من القرآن والحديث ... ولكن الشريعة التى اختص بها الصوفية ، تمثل القسم الباطن منها أى ما يعنى بأحوال القلب ، ويدل على الأعمال الباطنه ويبين الطريق إليها وكيفية التحقق بالكمال فيها ، فقد أحل الصوفية محل مذاهب الفقهاء والمتكلمين التعمق فى جوهر النفس ، وتحريرها من شوائب المادة وأدرانها مما ييسر لهم الإدراك المباشر لعين اليقين بتركيز فيوضاتهم الباطنية ومواهبهم اللدنية فى حقيقة الذات الإلهية المتفردة بالوجود .

ولذلك قال واحدمن الصوفية وهو رويم بن أحمد البغدادى :

« قعودك مع طبقة من الناس أسلم من قعودك مع الصوفية ، فإن كل الخلق قعدوا على الرسوم ، وهذه الطائفة قعدت على الحقائق ، وطالب الخلق أنفسهم بظواهر الشرع ، وطالبوا هم أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق . فمن قعد معهم وخالفهم فى شىء مما يتحققون فيه، نزع الله نور الإيمان من قلبه » .

ومعني ذلك أن الصوفية مع اعتمادهم علي الشريعة إلا

أنهم اهتموا بجوانيتها . . . ويبدو ذلك إذا ما عرفنا نظرتهم إلى بعض الفرائض كالصلاة والحج والصوم مثلا .

قال أبو عبد الله الروزبارى : « رأيت فى المنام كأن قائلا يقول لى : أى شىء أصح فى الصلاة ؟ فقلت : صحة القصد ، فسمعت هاتفاً يقول : رؤية المقصود بإسقاط رؤية القصد أتم » .

وقال رجل لأبى سليمان الدارانى : « صليت صلاة فى خلوة فوجدت فيها لذة ، فقال الدارانى : أى شىء لذك منها ؟ فقال : حيث لم يرنى أحد . فقال : إنك لضعيف حيث خطر بقلبك ذكر الخلق » .

وجاء رجل إلى الجنيد بعد أن أتم حجه ، فقال له الجنيد : « أرحلت عن جميع ذنبك حين رحلت عن دارك ؟ فقال : لا ، قال : فأنت لم ترحل . ثم قال : وبعد كل مرحلة نزلت حيث تتلبث الليل ، هل قطعت مرحلة إلى الله ؟ قال : لا ، فقال الجنيد: فأنت لم تقطع الطريق مرحلة مرحلة، ثم سأله : وحين لبست ثوب الإحرام فى موضعه ، هل خلعت صفات البشرية عنك وأنت تخلع ثيابك ؟ ، قال : لا ، فقال الجنيد : فأنت لم تحرم . ثم قال : وحين وقفت بعرفة . هل تأملت فى الله لحظة واحدة ؟ . قال : لا . فقال : فأنت لم تقف بعرفة » .

« ثم قال : وحين أفضت إلى المزدلفة وقضيت مناسكك، هل رفضت جميع الأغراض الجسدية ؟ . قال الرجل : لا ،

فقال الجنيد : فأنت لم تفض إلى المزدلفة . ثم قال : وحين طفت بالبيت ، هل أدركت الجمال الإلهى فى بيت الطهر ؟ . قال : لا ، قال : فأنت لم تطف بالبيت » .

« ثم قال : وحين سعيت بين الصفا والمروة ، هل أدركت الصفاء والمروءة ؟ . قال : لا ، قال الجنيد : فأنت لم تسع . . .

ثم قال : فلما جئت إلى منى ، هل ذهبت عنك جميع المنى ؟ . قال : لا ، قال : فأنت لم تزر منى . . . ثم قال له : فلما وصلت إلى المنحر ونحرت القربان ، هل نحرت أسباب الدنيا ؟ . قال : لا . قال : فأنت لم تنحر . . . »

« ثم قال له : فلما رميت الجمار ، هل رميت ما صحبك من أفكار جسدانية ؟ . قال : لا ، قال الجنيد : فأنت لم ترم الجمار ، بل ولم تؤد على ذلك حجاً ».

والصوم عند الصوفية ليس الامتناع عن الطعام والشراب وقضاء الشهوة فحسب ، فهذه كلها أمور ليست من جوهر الصوم بل هى من ظاهره . . . أما الصوم الصحيح فهو كما يعبر الغزالى فى الربع الأول من إحياء علوم الدين « صوم القلب عن الهمم الدنية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية » .

فحجر الزاوية فى صيام الصوفية هو محاسبة النفس ، وتطهيرها ، ومراقبة القلوب وتنقيتها . . . وترك الأكل والشرب

هو أهون ما فى الصوم ، فلا يستقيم لعبد صوم بمجرد تركهما ، بل لا بد له من أن يتبع بذلك غض البصر فلا ينظر إلى ما حرمه الله ، وحفظ اللسان فلا يلفظ إلا بذكر الله ، وآيات كتابه ، وأحاديث نبيه . . . وكف السمع فلا يصغى إلى القيل والقال ، وكف اليد ، فلا تتحرك إلا لمرضاة الله ، وكف الرجل فلا تسعى إلا للخير ، وكف العقل فلا يفكر إلا فى الله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، وكف القلب فلا يتردى فى مهاوى الزيغ ، ورغبات الدنيا ، فإن الحقيقة لا تنزل قلباً به ذرة من هم الغد . . .

فإذا كان هذا هو معنى الصوم عند الصوفية ، وهذه هى مقوماته فما أصدقهم حين ينشدون فى توديع شهر رمضان :

شهر الصيام لقد كرمت نزيلا
ونويت من بعد المقام رحيلا
وأقمت فينا ناصحاً ومؤدباً
وشفيت منا بالفؤاد غليلا
نبكيك يا شهر الصيام بأدمع
تجرى فتحكى فى الخدود سيولا
أسفاً على الأنس الذى عودتنا
وصنيع فعل لا يزال جميلا
شهر الأمانة والصيانة والتقى
والفوز فيه لمن أراد قبولا

تبكى المساجد حرة وتأسفاً
إذ عطلت من أنسه تعطيلا
فيه الجنان تفتحت لقدومه
وتزينت ولدانها تزيينا
وتفيأت أشجارها بظلالها
وقطوفها قد ذللت تذليلا

وهكذا يتضح لنا ، أن الصوفية يجلون الأحكام الشرعية ، إلا أنهم يتناولونها من حيث هى معان روحية يجب أن ينعكس أثرها فى القلوب ، ورياضات جوانية لا تقف عند مجرد المحسوسات بل تتعدى ذلك إلى تنقية النفس ، وتطهير الروح ، وكف الجوارح . . . فتصبح هذه الأحكام فى نهاية الأمر لا مجرد أشكال أو رسوم ، بل شيئاً داخلياً يمس حياة الروح والقلب ، ويقود إلى عالم النور والملائكة . . .

٩

التصوف والمجتمع

بعد أن استعرضنا معالم الطريق الصوفى ، ووقفنا على رياضات الصوفية ومجاهداتهم ونزعاتهم الروحية الخالصة التى تهدف إلى التحقق بمعرفة الله عز وجل ، يحق لنا أن نسأل : ماذا أفاد المجتمع من تعاليمهم . وماذا يمكن له أن يفيد منها . . .

ولعل من الخير أن نبدأ أولاً بمناقشة أهم ما يؤخذ على الصوفية . . . فإن أول ما يؤخذ عليهم أنهم لم يشجعوا العمل والسعى من أجل الرزق ، وأمعنوا فى التوكل غاية الإمعان ، بحيث أصبح الصوفى فى نهاية الأمر عضواً لا ينتج ولا يفيد ، ولا يقدم فى سير الأمور أو يؤخر . وقد رأينا أمثلة لهذا التوكل ، وعرفنا كيف يفضلون الفقر على الغنى ، والعزلة على السعى ، والتوكل على الحيطة ، والزهد فى الدنيا على الإقبال عليها . . .

وهم إلى جانب ذلك أو نتيجة لذلك قد حرموا على أنفسهم الزواج ، على أساس أنه من العوائق التى تشغلهم عن المضى فى طريقهم الروحى ، فلا يعقل أن يقعد رجل عن طلب الرزق ، وهناك من يجب عليه إعالتهم وتوفير العيش لهم . . . وهكذا نسيطع أن نقول إن التصوف ينطوى على نظرة عداء

للدنيا وإعراض عنها ، وقمع لشهوات البدن وأهواء الحس من أجل تنمية الروح وتهيئة الجو الذى تستطيع فيه النفس أن تسلك طريقها إلى غايتهم القصوى .

والمتصوفة يستندون فى منهجهم هذا على أسس من القرآن والسنة على اعتبار أن التصوف قد نبع من ضمير الإسلام ، واستمد مقوماته مما جاء فى الكتاب الكريم ، ومما أخذ به النبى ومسلمو الصدر الأول أنفسهم من زهد وقناعة وتبتل .

ومن ذلك قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» .

وقوله : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » .

وقوله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

وقوله : « وتوكل على الحى الذى لا يموت » .

وروى ابن مسعود : « دخلت على رسول الله وقد نام على حصير وقد أثر فى جنبه ، فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا لك وطاء تجعله بينك وبين الحصير يقياك منه ، فقال : مالى وللدنيا؟ ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

ومما يؤثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يحبب إلى الناس صحبة الفقراء . . . وفى ذلك يقول عون بن عتبة : « كنت أصحب الأغنياء فما كان أحد أكثر هماً منى ، كنت أرى دابة خيراً من دابتى ، وثوباً خيراً من ثوبى . فلما سمعت قول رسول الله إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ، فذلك أجدر ألا تزدردوا نعمة الله عليكم .

قال : لما سمعت ذلك صحبت الفقراء واسترحت » .

وروى ابن هشام عن زيد بن أسلم قال : لما استعمل رسول الله عتاب بن أسيد على مكة ، رزقه كل يوم درهماً، فقام وخطب الناس فقال :

أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله درهماً كل يوم ، فليست لى حاجة إلى أحد . . .

وهكذا ، نجد فى القرآن والسنة وسيرة المسلمين الأوائل الأساس لبعض ما انتهجه الصوفية . . .

ولكنا لا نستطيع أن نقول إن القرآن والسنة قد دعيا إلى ما أخذ به الصوفية أنفسهم من انقطاع ، واعتكاف ، وقعود . . . وحرمان .

فقد دعا القرآن إلى العمل ، وحث الناس على السعى ، واستغلال كل الإمكانيات التى يسرها لهم ، سواء كانت هذه الإمكانيات كامنة فيهم ، أو فى الأرض التى يعيشون فوقها : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها » ، « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » ، « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ، « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » .

وقد جاء أناس إلى زوجات النبي عليه الصلاة والسلام يسألون عن عبادته فيما بينه وبين الله ، تلك العبادة التي غفر الله له بها ما تقدم وما تأخر من ذنبه ، فقال أحدهم : « إني لا آكل اللحم أبداً » . وقال آخر : « وأنا لا أتزوج النساء » . وقال ثالث : « وأنا لا أنام على فراش » ، فبلغ أمرهم إلى النبي عليه السلام ، فخرج إليهم غاضباً وقال : « ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ، وإني لأخشاكم لله وأتقاكم ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ليس في ديني ترك النساء واللحم ولا اتخاذ الصوامع » وقال : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى : " يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً " . وقال : " يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم " .

فلم يدع إلى الحرمان من متع ما خلق للناس ، بل هو لم يدع إلى العزوف عن التجمل أيضاً . . . وفي ذلك يقول تعالى :

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربو ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

فالإسلام لم يدع إلى احتقار الدنيا أو العزوف عن طيباتها، ولم يهمل مطالب الجسم وحاجات البدن ، بل هو اعترف بأن الإنسان جسم وروح . . . ولكل من الجسم والروح مطالبة . . . ولا تقف حاجات البدن حائلا بين الإنسان وربه . . . ما دامت هذه الحاجات مما يتفق مع الحدود التي يرسمها الروح المهذب .

ونحن إذا حاولنا أن نقيم الصوفية من خلال هذه النظرة . . . لوجدنا أنه من الإنصاف أن نبدأ أولا ببيان أمرين نعتقد أنهما على جانب كبير من الأهمية. وأول هذين الأمرين ، أن الصوفيين أنفسهم كانوا ينظرون إلى طريقتهم فى التهذيب الروحى ، وإلى نزعاتهم التى قد تختلف أحياناً مع الطبيعة البشرية وتحول بينهم وبين أن يكونوا عوامل بناء وخلق فى المجتمع ... كان الصوفيون ينظرون إلى ذلك على أنه منهج خاص بهم يكفل لهم الوصول إلى غايتهم ، لا أسلوب للسلوك يجب فرضه على من سواهم من الناس .

وقد رأينا كيف أن طريق التصوف الصحيح لم يكن مفتوحاً أمام الجميع ، وكيف كان الشيخ يخضع مريديه لفترة طويلة من الامتحان القاسى العنيف حتى يتبين صدق عزمهم ، وقوة تحملهم لأعباء الطريق . فإذا وضح له ذلك منهم وخرجوا من الامتحان أصلب ما يكونون عوداً ، أجاز انضمامهم إليه ، وخلع عليهم (المرقعة) التى تدل على أنهم قد اجتازوا الامتحان بنجاح ؛ وأن لهم من صدق نواياهم وقوة عزيمتهم وشدة شوقهم

إلى الله تعالى ما يمكنهم من المضى فى الطريق إلى نهايته . . .

فالصوفية إذن لم يقصدوا إلى أن يكونوا حملة لواء دعوة عامة . . .

يبدو ذلك من قول رويم بن أحمد البغدادى لمحمد بن خفيف عند ما قال له هذا : أوصنى ، فقال رويم : أقل ما فى الأمر بذل الروح ، فإن أمكنك الدخول مع هذا فادخل فيه وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية . . .

وهم عندما صرحوا بأن منهجهم هو أنبل المناهج ، ومعرفتهم التى يصلون إليها عن طريق هذا المنهج هى أسمى المعارف ، لم يغمطوا حق أنماط المناهج والمعارف الأخرى ، ولا هم حقروا من شأنها . . . حقيقة إنهم اعتبروها قاصرة عن الوصول إلى ما يصلون إليه ، ولكنهم لم يفترضوا أن كل إنسان يستطيع أن يصل إلى غايتهم ، ومن هنا كانت فترة الامتحان الشاقة التى يفرضها الشيخ على مريديه ، وكان أيضاً تصويرهم للحدود التى يجب أن تلتزمها كل طبقة من الناس : فطبقة العوام يجب أن تقف عند ظاهر الشرع ، والمتكلمون والفلاسفة يجب أن يقفو عند حدود العقل وإمكانياته . وهم على أية حال لم يهونوا من أمر أى من الطبقتين ، فالأمر لا يعدو أن يكون فضلاً من الله يعطيه لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء . . . فلا وقوف العوام عند ظاهر الشرع يهون من أمرهم ، ولا وقوف الفلاسفة عند حدود العقل يدعو إلى الاستخفاف بهم . . . وهذا واحد

من الصوفية هو أبو بكر الوراق يذكر عوام الخلق بالخير ، فيقول : إنهم هم الذين سلمت صدورهم ، وحسنت أعمالهم ، وطهرت ألسنتهم ، ويفرق بينهم وبين الغوغاء الذين خلوا من هذه الصفات .

ومن ناحية أخرى ، نجد الصوفية يبيحون للناس ما حرموه هم على أنفسهم فهم مع قعودهم عن الكسب لم ينكروا حق الناس فيه ، ومع بغضهم للإنفاق والادخار لم يحرموهما عليهم . ولكنهم وضعوا لكل ذلك حدوده وآدابه ، فالفرد يجب أن يرعى فى كسبه مقدار حاجته فى الملبس والمسكن والمطعم ، وألا يشغله الكسب عن تأدية الصلاة فى أوقاتها ، وأن يترك الحلف والإطراء لسلعته ويتجنب الكسب الحرام . . . وفى هذا يقول سرى السقطى : خير الرزق ما سلم من خمسة ، من الآثام فى الاكتساب ، والمذلة والخضوع فى السؤال ، والغش فى الصناعة وأثمان آلة المعاصى ، ومعاملة الظلمة . . .

ويوصى الصوفية بالاقتصاد فى الإنفاق من غير تقتير ولا تبذير ، وعدم الالتجاء إلى الادخار بخلاً واستكثاراً . . . وهم جميعاً يكرهون البخل ويندون به . . يقول أبو على الجوزجانى : البخل هو ثلاثة أحرف . . الباء وهو البلاء ، والخاء وهو الخسران ، واللام وهو اللوم ، فالبخيل بلاء فى نفسه ، وخاسر فى سعيه ، وملوم فى بخله . . .

وليس المقصود بالبخل هو كف اليد عند الغنى . . .

ولكنه كما يقول أبو حمزة البزاز : ليس السخاء أن يعطى الواجد المعدم ، إنما السخاء أن يعطى المعدم الواجد . . .

وعلى الرغم من أن الصوفية ينكرون على أنفسهم كثرة الطعام ، ويحرمون بطونهم من أطايبه حتى قالوا : الجوع طعام الزاهدين والذكر طعام العارفين . . . إلا أنهم لم يدعوا الناس إلى ما أخذوا هم به أنفسهم ، بل فى مأثوراتهم ما يدل على أنهم يعتبرون من واجبات الضيافة تقديم الطعام الشهى للضيوف ، فهم يقولون : من إكرام الضيوف تعجيل الطعام لهم ، وأفضل ما قدم إليهم اللحم ، وخير اللحم السمين النضيج فإن كان بعد اللحم حلاوة فقد جمع لهم الطيبات . . .

وقد حرم أغلب الصوفية على أنفسهم الزواج ، على أساس أنه من العوائق التى تشغلهم عن المضى فى طريقهم الروحى ، فلا يعقل أن يقعد رجل عن طلب الرزق وهناك من يجب عليه إعالتهم ، إلا أن ذلك لم يمنعهم من التصريح بأن الزواج مما يمتاز به سائر الناس عنهم . . .

قال المكى : كان بشر بن الحارث يقول فى أحمد بن حنبل : فضل على بثلاث : بطلب الحلال لنفسه ولغيره ، وأنا أطلب الحلال لنفسى ، واتساعه للنكاح وضيقى عنه ، وقد جعل إماماً للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسى[1].

وترتب على عدم إقبال الصوفية على الزواج عدم تمكنهم

---

(١) قوت القلوب : ج ٤ ص ١٥٣ .

من تكوين الأسرة وكان هذا أيضاً مما أخذ عليهم ، إذ أن هذا الاتجاه من شأنه لو اتسع نطاقه أن يقضى على المجتمع ، فليس يخفى أن الأسرة هى الخلية الأولى للمجتمع فإذا انصرف الناس عن تكوينها ، لتلاشى المجتمع وانحدر فى طريق الفناء . . .

ولكن من الإنصاف أن نقول إن أغلب الصوفية على الرغم من موقفهم هذا من الزواج والأسرة يحملون فى أعماقهم ميلاً إليهما . . . تدل على ذلك القصة التالية :

رأى رجل بشر بن الحارث فى المنام بعد وفاته ، فسأله عن حاله فقال :

عاتبنى ربى عز وجل فقال : يا بشر ما كنت أحب أن تلقانى عزباً . فسأله صاحب الرؤيا : ما فعل أبو نصر التمار؟ فقال بشر : رفع فوقى سبعين درجة فسأله الرجل : بماذا ؟ فقال : بصبره على بناته وعياله[١] . . .

فهم لم يحببوا الناس فى الإعراض عن الزواج ، بل هم يصرحون بأن الله يبغض أن يعرض عباده عنه ، وهو لذلك يرفع المتزوجين درجات فوق من لم يتزوجوا ، ويحب فى عباده صبرهم على بناتهم وعيالهم . . .

وعلى أية حال فإن الصوفية بلا شك أصحاب مجموعة هائلة من الفضائل ، ولا غرو ، فإن طريقهم الروحى يقوم أصلاً على مكارم الأخلاق ، وأساس هذا الطريق تأديب

---

(١) المرجع نفسه ص ١٥٤ .

النفس وتهذيبها ، وتصفية الروح وتطهيرها ، ولا يكون ذلك إلا برقة الحال ، وحلاوة الشمائل ، ومحبة الخير ، وحسن الخصال ...

فهم صادقون ، لا ينطق لسانهم إلا صدقاً ، ولا يخفق قلبهم إلا حقا . . . ولهم مأثورات كثيرة فى الصدق ومعناه وجزاء الصادقين . . .

يقول الفضل بن عياض : « لم يتزيد الناس بشىء أفضل من الصدق وطلب الحلال . . » .

ويقول ذو النون المصرى : « الصدق سيف الله فى أرضه ما وضع على شىء إلا قطعه . . . »

ويقول أبو الحسين النيسابورى : « الصدق استقامة الطريقة فى الدين واتباع السنة فى الشرع . . . »

والصدق له أربعة جوانب ، فهناك كما يقول أبو على الثقفى : « صدق القول وصدق العمل وصدق المودة وصدق الأمانة ولا ينبغى أن تفارق أحد هذه الخلال الأربعة . . . »

ويقول أبو يعقوب النهرجورى : « الصدق موافقة الحق فى السر والعلانية ، وحقيقة الصدق القول بالحق فى مواطن التهلكة . . . »

ورسم أبو سليمان الدارانى جزاء الصادقين فقال : « من كان الصدق وسيلته كان الرضا من الله جائزته . . . »

ومن أخلاق الصوفية التواضع . . .

قال الفضل بن عياض : « التواضع أن تخضع للحق

وتنقاد له ، وتقبل الحق من كل من تسمعه منه » .

وقال ذو النون المصرى : « من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله فإنها تذوب وتصفو ، ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، فإن النفوس كلها فقيرة عند هيبته . . . »

ومن جميل صفاتهم الصبر . . .

يقول أبو حفص النيسابورى : « الصبر زاد المضطرين والرضا درجة العارفين » .

ويقول : « من صبر على صبره فهو الصابر ، لا من صبر وشكا » .

ويقول أبوإسحاق الخواص : « من لم يصبر لم يظفر » .

ومن أخلاقهم الإخلاص . . .

وقد سئل أبو بكر الدقى عنه فقال : « أن يكون ظاهر الإنسان و باطنه وسكونه وحركاته خالصاً لله لا يشوبه حظ نفس ولا هوى ولا خلق ولا طمع . . . »

وقال : « من تكلم فى الإخلاص ولم يطالب نفسه بذلك ابتلاه الله بهتك ستره عند إخوانه . . . »

وهم يحترمون الصداقة ويجلون الأخوة ولهم فى ذلك أقوال كثيرة . . .

يقول سرى السقطى : « لا تصرم أخاك على ارتياب ولا تدعه دون الاستعتاب » . . .

ويقول بشر الحافى : « لا تكن كاملاً حتى يأمنك

عدوك ، وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك ؟ » .

ولا يجب على الصديق أن يقابل إساءة صديقه بمثلها . . .

يقول أبو يزيد البسطامى : « إذا صحبك إنسان وأساء عشرتك فادخل عليه بحسن أخلاقك يطب عيشك ، وإذا أنعم عليك ، فابدأ بشكر الله عز وجل ، فإنه هو الذى عطف عليك القلوب ، وإذا ابتليت فأسرع الاستقالة فإنه القادر على كشفها دون سائر الخلق . . » .

ويقول رويم بن أحمد البغدادى : « الفتوة ، أن تعذر إخوانك فى زلاتهم ، ولا تعاملهم بما تحتاج أن تعتذر منه » .

وللصداقة شروطها وآدابها وبدون هذه الشروط والآداب لا تستقيم . . .

يقول أبو الحسن المزين : « صحبة الفساق داء ودواؤها مفارقتهم » .

وسئل الجنيد : من أصحب ؟ ، فقال : « من تقدر أن تطلعه على ما يعلمه الله منك ، ومن يقدر أن ينسى ما له ويقضى ما عليه . . . »

وقال أبو بكر الوراق : « لا تصحب من يمدحك بخلاف ما أنت عليه ، أو بغير ما فيك ، فإنه إذا غضب منك ذمك بما ليس فيك » .

ومن مستلزمات الصداقة ؟.. ، الود . . .

يقول حاتم الأصم : « أربعة يندمون على أربعة ، المقصر

إذا فاته العمل ، والمنقطع عن أصدقائه إذا نابته نائبة ، والممكن منه عدوه بسوء رأيه ، والجرىء على الذنوب » .

ومن مستلزماتها أيضاً . . . الإيثار . . .

يقول أبو حفص النيسابورى : « الإيثار أن تقدم حظوظ الإخوان على حظك فى أمر آخرتك ودنياك » .

واجتماعات الأصدقاء لها آدابها وتقاليدها . . .

سئل الحلاج . . . ما الذى يجب على الإخوان إذا اجتمعوا ؟ فقال : التواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، قال الله تعالى : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

والخل الوفى نعمة من الله يسبغها على عباده . . .

قال إبراهيم بن شيبان : « عوض الله المؤمنين فى الدنيا مما لهم فى الآخرة بشيئين ، عوضهم عن الجنة بالجلوس فى المساجد ، وعوضهم عن النظر إلى وجهه تعالى بالنظر إلى إخوانهم المؤمنين » .

وليس من شك فى أن القارئ قد وقف من خلال هذا الحديث على الكثير من أخلاق الصوفية ومذاهبهم الروحية الأخرى . . . وتعرف على شتى أحوالهم وأذواقهم . . . ولعله قد أكبر فى الصوفية نزعتهم الروحية الخالصة وبحثهم عن الحقيقة المطلقة ، مضحين بمتعة الجسم فى سبيل متعة الروح . سعداء بمجاهداتهم ورياضاتهم فى أوقات أقبل الناس فيها على الدنيا ، وألفوا حياة الدعة والرفاهية . . .

ولكنا نستطيع أن نقول مع هذا ، إن التصوف بهذا المعنى لا يعدو أن يكون نوعاً من السلبية نحو المجتمع . . . وإنه يستطيع بشيء من التطوير أن يكون قوة دفع لا يستهان بها فى المجتمعات . . . فما أحوج الناس إلى إيمان الصوفية ونقاء أرواحهم ، ودقة إحساسهم . . . ما أحوجهم إلى الشعور بما يشعر به الصوفية من حب يسعون إليه ويضحون فى سبيله بكل شيء . . . إن هذه جميعاً هى الأسس التى يمكن أن يبنى عليها مجتمع قوى يؤمن بالسلام ، والحرية ، والعدل ، والمساواة مجتمع نظيف ، لا تسيطر على أفراده عوامل الحقد والجشع والاستغلال . . . إن هذا هو سحر الروح الذى يعطى لكل تطور طعماً ومعنى ، ويقى البشرية ويلات الأنانية والتكالب على امتلاك القوة وإرهاب الآخرين بها . . . لأنه يمسح من القلوب ما خطته المدنية الجوفاء . . . فيمهد بذلك ، طريقاً إلى السلام والمحبة والإخاء . . .

ألا ما أحوج البشرية إلى هذا التصوف البناء الخلاق . . . الذى يخرج من ظلمة الصومعة إلى نور المجتمع . . . فيناجى الله فى المصنع . . . وفى الحقل . . . ويتخذ من التقرب إلى الله ، وصفاء القلب ، ونقاء السريرة ، والإيمان العميق ، قوة دافعة نحو الإنتاج ، والعمل المثمر النظيف . . .

١٠

خاتمة

من مزايا القرن العشرين اتجاه الأذهان إلى معرفة الأسس التى يقوم عليها هذا المجتمع ، والرغبة فى الوقوف على الأسس التى قامت عليها المجتمعات الإنسانية منذ القدم ، فقد دلت فى مجموعها على أن الجهد الإنسانى قد ثابر عملياً وكد فكرياً فكانت النتيجة ظهور الابتكارات المستحدثة مما ترتب عليه انتعاش قوى وتجديد منتج قطع على الجدل طريقه فازداد التعمق فى استكناه فكرة الحقيقة وتحرى مالها من الأصول والعناصر .

ولسنا نبعد عن الصواب إن قلنا : إن مصدر الحياة فى كل شعب هو استشعار أصول الفضائل واستشعار الأخوة والتعاون بين الأفراد على البر والتناصح فى الخير والشر وهو نتيجة للروح الذى أودعه الله جميع الشرائع الإلهية من تصحيح العقيدة ، والحث على العمل على أساس من التفكير السليم وإسعاد المجتمع الذى لا يسعد مع شقاء أفراده .

لقد مرت على تعاليم الأديان حالات كثيرة سواء فى القرون الوسطى أو فى عهود الإصلاح كابدت فيه الكثير من التغييرات وأدى سوء تأويل بعض النصوص إلى القعود والتواكل

كما حدث ذلك فى المجتمع الإسلامى ، إذ نظر الصوفية إلى الدنيا نظرة عداء ، وأعرضوا عنها ، وعزفوا عن الكد والعمل .

ومما تناقلته الأجيال فيما بينها أن كل هذه الديانات قد بنيت على الأسس المتينة الصالحة التى كان من شأنها تطوير هذه النظرة بعد أن تنكب الكثيرون سبيل التعاليم الدينية وأفضى الانحراف عنها إلى التدهور فى إعلاء شأن العقل الإنسانى والحيلولة دون خوض المجتمعات غمار الحياة الحرة الرتيبة .

وفى ضوء هذه الملاحظات يمكننا أن نقول إن الصوفية فى الواقع ليست إلا بمثابة المواد الأولية التى تقوم عليها الحياة على أن تكون هذه المواد مرتكزة على فكرة الحقيقة والواقع وملتصقة بهما لأن الحقيقة بما فيها من نبل وقيمة وشرف هى وحدها التى ترتب مصالح المجتمع ، وتعين درجاتها أيا كانت هذه المصالح فردية أو عامة ، إذ لا شك فى أن الحقيقة هى التى تدفع إلى الكد فى البحث والتنقيب واستجلاء الفكرة الصالحة ، أما المداورة التى تخفى هذه الحقيقة ، وتذهب إلى جحود فكرتها باتخاذ هذه النظرة الغريبة معقلا يعصم من قهر الواقع ، فليست إلا مفسدة للعقول والمدارك والأفهام . . .

ومما لا شك فيه أن الإيمان هو مصدر التطور فإذا سادت الصوفية ومشت مع الحقيقة والواقع جنباً إلى جنب وامتزجت بهما ولم تتجرد عنهما فإنها تكون نظرية صحيحة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ولا تتعارض مع أصل من أصول

الدين، ذلك أن دوافع هذه المؤثرات القوية من شأنها أن تخلق للصوفية عهداً جديداً يقوم على التقارب بين الفكرتين وامتزاجهما امتزاجاً تتفاعلان بها فتؤثر كل منهما فى الأخرى لأن طبيعة الفكرتين مهما كانت مختلفة، فقد عمل الزمان عمله فى التقريب بينهما، مما يدفع إلى أن يسلك الصوفى طريقه فى الحياة العقلية والمادية جميعاً بعد أن ترتسم فى ذهنه صورة للحياة غير التى كان يحياها، وتتحرك نفسه تطلب الحرية للوصول إلى هذه الصورة الجديدة للمشاركة فى بناء المجتمع الإنسانى، على أن هذا التقارب بين الفكرتين ليس من واقعه إلا عملا بأحكام الدين، وإحياء للتعاليم الدينية إذ لا نزاع فى أن الفكرتين بامتزاجهما وتكميل الواحدة منهما صورة الأخرى، والتوفيق بين القيم الروحية العليا وبين تطور الحياة المادية، لمما يدفع بالشعوب إلى ميدان العمل والإنشاء والتجديد تحت ضوء هذه المثل العليا التى تصل ماضيها بحاضرها، ويحقق أكثر ما يكون من نفع لجهود هذا الجيل والأجيال المقبلة . .

وأول سؤال قد يتبادر للذهن عند ما نحاول درس موضوع الصوفية، هو البحث عن مالها من المعانى، وعن مداها القريب والبعيد . . . فقد دلت الصوفية منذ أقدم العصور على معان مختلفة، ولكنها مع ذلك متقاربة متجانسة، ثم تطورت هذه الكلمة بعض التطور فاستعملت بمعنى الثقافة الدينية التى عنى بها العرب المسلمون عناية خاصة ولا سيما بعد ما عمقت هذه الثقافة واشتد

تنوعها فى القرنين الثانى والثالث .. ومع ذلك فقد استعملت هذه الكلمة أثناء العصور الإسلامية الأولى فى معان أوسع من هذا المعنى وأشمل . . .

فقد قيل بأن المتصوف ليس بالإنسان الذى يتجه بكليته إلى تنمية روحه فحسب باعتكافه عن العالم،وليس هو من يسلك سبيل التبتل والانقطاع منعزلا عن الدنيا،ومن يحصر نفسه فى دائرة المعابد والكهوف... إنما المتصوف، هو من تنطق أحاسيسه بالوعى الاشتراكى الإنسانى الجماعى ،ومن يستند فى خطواته على تعاليم الدين،ويتخذ منها لنفسه منهجاً فى الحياة، وموقفاً إيجابياً فى المجتمع الذى يعيش فيه على أساس من قوى تفكيره وماله من الإرادة فى العمل والإنتاج متضامناً مع الأفراد الآخرين فى بناء هذا المجتمع عاملا على رفع شأنه حتى يكون متين الأساس، قوى الأركان . . .

وقد عبروا عن الصوفية بصور عدة.. فقالوا عنها بأنها النزعة الروحية الخالصة..لأنها تستهدف تصفية الروح..وتطهيرها ،وقالوا بأن طريقها يقوم على الأخلاق.. ويستند إلى تأديب النفس، وحب الخير ،قوامها الصبر والخضوع للحق — ولكن مما لا شك فيه أن تصوير الصوفية بأنها البحث عن الحقيقة المطلقة وتضحية متعة الجسم فى سبيل متعة الروح قد يكون تعبيراً أبلغ دلالة وأبعد مدى لما فيه من كثرة التصوير.. فهو ينبئ بأنها قوة كامنة للنهوض والعمل والكفاح .. وأن من شأنها أن تخلق الوعى

والإيمان فى الفرد بما يطبعه فيه الدين من المبادئ القويمة والأخلاق الكريمة التى تدفع فى نفسه العواطف القوية للمساهمة فى بناء المجتمع لأن الفرد، بما التهب به فؤاده من غيرة على الحق، أصبح أكثر قوة وأشد عزماً من غيره على أن يأخذ دوره فى المجتمع .. وأن يلعب على الدوام دور النجاح والتقدم .

ومهما يكن من شيء فإن القوة الروحية التى هى طريق المحبة وطريق العمل ما هى إلا محرك قوى يدب روح الحركة فى قلوب الذين يتبعونها بقدر ما يكون قد رسخ فى نفوسهم من روح الإيمان والتأثير الروحى..فالتفاعل.. هو الذى يصنع الحياة الروحية ويضمن لقوة هذا الدفع الروحى النمو والزحف والاستمرار . . .

ومن أراد أن يحكم على الصوفية ومبادئها ،وروح تعاليمهما على أساس من التقارب والامتزاج بين الفكرتين.. فليطالع آيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية فكلها تتجه إلى بناء الفرد على أساس إنسانى.. وعلى أساس عادل من تطبيق العدالة الاجتماعية الحقيقية .. وكلها تحث وتوصى بأن التربية الروحية أول طريقها المحبة، ونهايته العمل الذى يوصل الفرد إلى أهدافه والارتفاع بمستوي معيشته ،وتوفير الرفاهية للجميع على أساس أن الحياة الاجتماعية دائمة التقدم، وأن كل نظام فى الدنيا مقدر له أن يتقدم.. وأن يكون فى حالة تجدد مستمر متواصل.. ولا سبيل إلى ذلك بمجرد العمل الآلى،بل لا بد من روح مؤمنة بالهدف وبالنظام معاً . .

إن جوهر الصوفية وما فيها من الحقائق الروحية جدير بالاعتبار لأنها أثرت فى حياة الناس تأثيراً شديداً حتى إنها احتفظت بالمبادئ التى نشأت عليها، وتوسعت فيها ردحاً من الزمن رغم أنها لم تستطع أن تواجه الحياة بالنظرة الواقعية، ولم تستطع أن تواجه الناس بالتساؤل عن علة وجود هذا الكون.. وعن مكان الفرد فيه، ما مهمته؟ وما الواجب عليه أن يعمل فيه؟. ذلك أن الصوفية ظلت فى دائرة التجريد ولم تحاول أن تصبغ نفسها بصبغة الشمول والعموم .. كما أنها لم تطلق للعقل الإنسانى والعواطف الإنسانية العنان لتخرج من عقالها، ولكنها أخذت ببعض الأصول وتركت البعض الآخر، حتى إنها وهى فى سبيل المعرفة قد ضلت الطريق . . .

ومما يؤخذ على الصوفية أن الطريقة التى اهتدت إليها ليست طريقة العلماء .. فهى لم تكلف نفسها وهى فى سبيل المعرفة عناء الرجوع إلى العلوم واستفتائها ومعاناة البحث عن مغزى للحياة والوصول منها إلى النتائج . . .

ولا بد لنا من وقفة قصيرة لنقول إنه كان واجباً على الصوفية وحريًّا بها أن ترجع إلى الدين والفلسفة والتاريخ والاقتصاد لتقف على ما تمخضت عنه العلوم والمعارف، ولتلمس فيها المعانى الإنسانية التى تكمن وراء الدين.. إذ لاشك فى أن وراء هذه المعانى، تقوم حياة الناس بكل ما تحويه من خير وشر، وخطأ وصواب، لذلك ـ كان واجب الصوفية أن تأخذ بنصيبها

فى بنيان هذا العالم ولكنها مع قصر نظرتها للحياة عجزت عن أى تفسير لهذه الحياة وعن مفهوم انطباعاتها الجديدة فظل إيمانها فى نظر العلم سطحياً لم يعمق العمق الكافى..لأنه ظل خلواً من الشجاعة الكافية، والإيمان بأن الإقناع وأسلوب الحجة هما من الوسائل الفعالة فى نشر المبادئ، وأنه بداية الانطلاق للمستقبل المنشود . :

ولسنا ننكر أن استمالة العواطف إلى رأى من الآراء كما يقرر علماء النفس لا تكون إلا بعد الإقتاع به، والإقناع ،أداة الدعوة إلى الرأى والعقيدة،وركن من أركان الحياة الاجتماعية فى كل عصر وفى كل أمة .

وقد استقر فى أذهان الناس منذ العصور الأولى آراء خاطئة، ومعتقدات فاسدة، فيما يتعلق بالمفهوم من الصوفية : ماهى، وما خصائصها ؟ وما غايتها ؟ .

وقد استولت هذه الآراء على العقول فنشأ عن ذلك أن تعرضت المجتمعات للأزمات والنكبات التى سلبتها عز الحياة والسلطان بما كان يذهب إليه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين حتى لا يفهموا الكتب السماوية ويعرفوا الدين معرفة حقة، ويوهموهم بأن الدين صارف عن الدنيا،فيقعدوا عن العمل والكد والكفاح .

والواقع، أن التعاليم الدينية لا يمكن أن تقف عائقاً دون النهوض بالمجتمع ،وتحقيق مصالحه على الوجه الذى يحقق الخير

العام.. وما كانت تلك التعاليم لتقر الصوفيةعلى أن تعطل فى الفرد قوى التفكير والإرادة والعمل، ولا أن يكون من شأنها أن تضعف فيه الهمة فيستكين ويستسلم للعجز.. بل إن من شأن تلك التعاليم أنها تأبى كل الإباء أن تكون علاقة الفرد بالحياة على هذه الصورة من وهن العزيمة وضعف الإرادة ومن تسلط الأوهام والخرافات عليه بل إن تطور المجتمعات لا يكون إلا بالإيمان الذى يملأ النفوس قوة، وينير للأفراد طريق المستقبل، ويقوى فيهم الشعور بالمساواة والعدالة والتضامن القائم على المحبة فيحققون بهذا الفهم المستقيم الحرية والديموقراطية، ويعملون متضامنين للخير العام . . .

تلك حقيقة من الحقائق الدينية التى لا ينكرها العقل تستقى أصولها من الكتب المقدسة.. وذلك الفهم السليم لا يفسده على الناس إلا الأوهام والتأويلات المنحرفة التى ترمى إلى حبس الروح فى دائرة التبتل والعبادة، والاعتكاف عن العالم ..

إن هذا الفهم الفاسد يخلق جيلا مضطرباً قلقاً بين الجهاد الذى يفرضه الدين وتتطلبه الحياة، وبين ما يتصورونه من أن التصوف لا يكون إلا بالانقطاع لله تعالى، أو بعبارة أخرى يحارون بين التصور والواقع . . .

إن الدين هو قوام الحياة النفسية للشعوب، والعبادة ليست إلا الحقيقة التى لا تقوم إلا على أساس من الاعتقاد بوجود الله... وتعمل بما فرضه والابتعاد عما نهى عنه، وهى لا تستقيم بدون

هذه الحقيقة ، أما العزوف الذى تلتزم به الصوفية من الإحجام عن الكد والعمل، والإصرار على البقاء فى الأبراج العاجية بعيداً عن واقع الحياة فى هذه الدائرة الضيقة .. فتلك أوهام تتخلل تلك الحقيقة، وتسرى فى ثناياها بما يجرى من المظاهرات التى تقيمها الصوفية فيما درجت عليه من شتى الاحتفالات والاجتماعات.

وعلة ماساد هذا النظام وأقعده فى نطاق نأى به عن الكفاح والعمل، والمساهمة فى بناء المجتمع ، ترجع إلى ما فطر عليه الإنسان من الميل إلى الأوهام.. وانسياقه وراء خياله الذى لا ينتهى به إلى الحقيقة . . .

والشعوب يتفاوت بعضها عن بعض فى هذا الشأن.. فمنها من يجنح إلى الحقيقة، ومنها من تتسلط عليه الأوهام، وتستأثر به، ومنها ما يجمع ما بينهما بمقدار ما ، وهكذا نرى أن المتصوفة قد غضوا الطرف عن الحقائق وواقع الأمور ، وكان جديراً بهم أن يبحثوا عن الحقيقة .

وإذا نظرنا إلى الأديان نجد قيامها قد تأسس على التبتل وعبادة إله واحد .. وقد رأينا الشعوب القديمة كلها توحيدية كمصر وفينيقيا وآشور وغيرها ، ولم يلبث الخيال أن داعبها بالتغيير ، وتناولها بالتنويع حتى انتهت تلك الأديان إلى عبادة الأصنام ونبعت منها الطقوس التى تكتنفها الخرافات مما لا يقبله عقل أو يسلم به دين . . .

لقد قامت الديانة المسيحية على تعاليم معينة تأسست على التسامح والمحبة.. غير أن أتباع هذه الديانة ما لبثوا أن خلطوها بالطقوس الوثنية التى ذاعت من قبل وتوسعوا فى ذلك حتى أفسدوا المسيحية وألصقوا بها ما لا يمت إليها بنسب . وجاءت الثورة الدينية فى القرن السادس عشر ، وحاولت أن تخلص الدين مما علق به ، وتكشف للناس عبث العابثين بالشريعة السماوية . وطالب « لوثير » بالرجوع إلى الإنجيل وما حوى من مبادئ قويمة . . .

ومن الظواهر التاريخية الهامة قيام الدين الإسلامى فى شبه جزيرة العرب واعتناق العرب الإسلام والتوسع العربى الكبير منذ القرن السابع الميلادى .

فقد كانت الأمم على أثر ما انتابها من التصدع فى الأسس والتشوه فى الشكل تتطلع إلى الإصلاح الشامل وترى نفسها فى حاجة ماسة إلى البحث والتنقيب فى أصول ذلك الإصلاح .. فكانت رسالة النبى العربى ، رسالة عامة شاملة .

وإذا راجعنا أحوال البشرية ، ملكنا العجب .. إذ نرى أن الدين الإسلامى قد تمكن فى أقل من ثلاثين سنه من أن يجمع إليه الأمة العربية من أقصاها إلى أقصاها .. وأن يهيأ له أسباب الانتشار فى بلاد مترامية الأطراف فى أقصى الشرق وجوف أفريقيا ، كما تمكن الدين من أن يحتضن بعد ذلك الأمم الأخرى فيما بين المحيط الغربى وبين جدار الصين فى أقل من قرن واحد

وحدثت الفتوحات العربية الكبرى استجابة لعوامل الدين والاقتصاد والسياسة فكان لسيل الأفكار الحرة، ومبدأ المساواة أن يتغلغل بين هذه الشعوب ، وأتيح للإسلام أن يضم سكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرف لها التاريخ مثيلا . . .

ولما ظهر الإسلام جاء مخاطباً العقل، ومستصرخاً للأفهام والألباب .. مقرراً لأصول الفضائل وقواعد النظام، وكان ظهوره للناس جميعاً عقيدة ونظاماً على أساس التوحيد فى عبارات تنم على البساطة والصراحة فكان ديناً عاماً شاملا أحاط بأمور الدين والدنيا معاً ، نشره ودعا إليه قوم آمنوا بربهم فحالفهم التوفيق فى تزكية النفوس وتطهيرها .. كما نجح الداعون فى إصلاح شئون المجتمع ،وانتهوا فى ذلك إلى حد لم يبلغه كبار المصلحين والفلاسفة .

وطالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه ، وكفل الاستقلال لكل فرد فى عمله استقلالا فى الإرادة ، واستقلالا فى الرأى ، وحرية فى الفكر ، وأوسع المجال لتسابق الهمم فى السعى ودفع العزائم إلى العمل.. وحثها على السعى فى طلب الرزق. وكان نظامه فى الحياة الدنيا مؤسساً على دعائم : أهمها حرية الرأى والفكر والمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات .

وما لبث أن دخل هذا الدين على مر العصور والأزمان ما ليس من الإسلام فى شىء لنتيجة إهمال الحقائق وإغفال المعانى السامية التى هى مصدر المجد والعزة ، فأدى ذلك إلى

التأخر ، وقام المصلحون يطالبون بفهم الدين فهما سليماً ليدرك الناس أن الإسلام كما يدعو إلى سمو الروح وصفاء النفس دعا إلى العمل لبناء المجتمع بناء قويًّا سليماً .

وقد يكون من الأهمية فى هذه الخاتمة أن أؤكد ما سبق لى بيانه فى مستهل هذا الموضوع من أن البحث العلمى النزيه الذى يحتم الرجوع دواماً إلى الواقع والحقيقة هو المطلب الأول والأخير فيما ورد بين سطور هذا الكتاب ، وليس لى إلا الرجاء فى أن يخرج القارئ فى النهاية وقد شمله مثل هذا الشعور بعد أن تقيدت بهذا الوجوب والالتزام والحمد لله رب العالمين . . .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

مراجع الكتاب

١ — المنقذ من الضلال : الغزالى

٢ — إحياء علوم الدين : الغزالى

٣ — الرسالة اللدنية : الغزالى

٤ — الرسالة القشيرية : القشيرى

٥ — اللمع : السراج الطوسى

٦ — قوت القلوب : أبو طالب المكى

٧ — مقدمة ابن خلدون

٨ — طبقات الصوفية : أبو عبد الرحمن السلمى

٩ — دائرة المعارف الإسلامية : (الطبعة العربية)

١٠ — الصوفية فى الإسلام : نيكلسون — ترجمة نور الدين شريبة

١١ — التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق (جزءان) : الدكتور زكى مبارك

١٢ — الله : عباس محمود العقاد

١٣ — الحياة الروحية فى الإسلام : دكتور محمدمصطفى حلمى

١٤ — فى الفلسفة الإسلامية : دكتور إبراهيم مدكور

١٥ — منهج القرآن فى بناء المجتمع : الأستاذ محمود شلتوت

١٦ — بطل الأبطال : الأستاذ عبد الرحمن عزام

دار المعارف بمصر

تقدم إلى طلاب الثقافة وأهل الفكر والمعرفة هذه النفائس الفكرية في مكتبة الدراسات الفلسفية :

● تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط	للأستاذ يوسف كرم
● تاريخ الفلسفة الحديثة	« « «
● العقل والوجود	« « «
● الطبيعة وما بعد الطبيعة	« « «
● أصول الرياضيات (ثلاثة أجزاء)	لبرتراند رسل ترجمة الدكتورين محمد مرسى أحمد وأحمد فؤاد الأهوانى
● القرآن والفلسفة	للدكتور محمد يوسف موسى
● الصلة بين الدين والفلسفة عند ابن رشد	للدكتور محمد يوسف موسى
● المنطق	لجون ديوى ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود
● الإدراك الحسى عند ابن سيناء	للدكتور محمد عثمان نجاتى

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

ديسمبر ١٩٦١ الثمن ٣٠ مليماً

اقرأ

عبد العزيز جادو

الطريق إلى النجاح

دار المعارف بمصر

الطريق إلى النجاح

عبد العزيز جادو

الطريق إلى النجاح

اقرأ ٢٢٩
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٢٩ - يناير سنة ١٩٦٢

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.

أسرار النجاح

إذا لم أجد طريقى فى الأرض المعبدة ، فسأقتحم القمم الصخرية الشاهقة دون تذمر ، لأننى أعلم أن كل جهد يتضمن فى ذاته الجزاء الكافى عنه ، وأن الآفاق الواسعة تنتظرنى آخر الطريق .

« جورج صاند »

نحن نتطور فى كل لحظة ، وكل دقيقة ، وكل ثانية . إن الحياة نفسها تدور بلا انقطاع . . وليس للهدوء معنى ، إنه لفظ مرادف للموت . وواجبنا فى الحياة أن نسير دائماً إلى الأمام نحو الخير . . ومهما قصرت خطواتنا ، ومهما واجهتنا العقبات ، ومهما وطئنا الأشواك ، فلا ينبغى أن نرتد إلى الوراء ، وإذا حدث أن تقهقرنا ، فلكى ننشد طريقاً آخر نمضى فيه إلى الأمام .

« إيليا اهرنبرغ »

هناك فى الغالب كثير من النظريات المختلفة التى تتعلق بمضمون النجاح بقدر ما يوجد فى الدنيا من أفراد . والنجاح ، مع ذلك ، شىء نسبى فى هذا الوجود . فالذى يعتبره أحد

الأشخاص نجاحاً ، يعتبره الآخر إخفاقاً . فإن لعنة التقديرات الزائفة ، ومحنة الآراء الكاذبة ، ليست أكثر وضوحاً وأكثر صراحة فى أى مكان مما هى فى هذه الحياة . فالجمهور يسىء الفهم بين المتغير ، الزائل ، الفانى ، وبين المستقر ، الثابت ، الدائم . . إنه لا يفرق بين الوسيلة للغاية ، وبين الغاية ذاتها . . يُعشي البريق الزائف بصره فيخال البهرج الكاذب ذهبا نُضاراً . . ويتشبث بالقشور دون اللباب .

ومجرد امتلاك المال لا يعنى بحال من الأحوال أن الفرد فى حياته ناجح . ومع أن الصورة التى تسحر بها كلمة « النجاح » الشخص المتوسط وتستميله إليها هى المال ، فهناك آلاف من الناس ذوو ثروة مادية وفيرة فى حال من الإخفاق يرثى لها . إنهم فى أغلب الأحيان وحيدون ، وعن الناس منقطعون ، يائسون ، قانطون . . والبخيل قد يكون لديه مال كثير ، ولكن ليس هناك أى بخيل نال قسطاً من النجاح ضيئلا . .

فالمال وسيلة إلى النجاح ، إذا استعمل بحكمة وتدبر . وحيازته يجب ألاّ تزدرى أو يستخف بها . فهو يمثل القوة والقدرة ، ويدفع فى الغالب إلى التيقظ ؛ ويعبر عادة عن النشاط والهمة فى كثير من المهن الدقيقة ، والأعمال الخاصة . وليس من شك فى أن اقتناءه واستعماله بحكمة وتعقل يمكن أن يسهل بدرجة عظيمة البحث عن السعادة والنجاح . ولكن المال هنا وسيلة إلى تلك الغاية وليس الغاية نفسها .

والشهرة أيضاً لا تتشابه فى المعنى مع النجاح . فكثير من الناس ينفقون كل حياتهم فى كفاح مرير وفى نضال عنيف للحصول على الشهرة ، فلا يجدون من هتافات العامة ، وصيحات استحسان الدهماء إلاّ عدم الشعور بالرضا وعدم الإحساس بالغبطة . . فالشهرة شيء من باب التحايل . وإنها لغرّارة خدّاعة ، لا أمان لها . فهى اليوم غير ما ستكونه غداً . . هى اليوم هنا ، وغداً تفتقدها فلا تجدها . والغوغاء المذبذبون ، متقلبو الرأى ، يرفعون أبطالهم اليوم إلى أبراج الرضا ، وقباب القبول ، ليطوحوا بهم غداً إلى هوة النسيان السحيقة إذا خطرةٌ وهم خطرت ، أو سورة خاطر بدرت ؛ يهتفون اليوم هتافات الاستحسان ، وغداً يصفرون باستهجان ، ثم لا يلبث أن يسدل عليه فى شهور قلائل ستار النسيان . . هذه هى مأساة التجربة المريرة التى عاناها كل من اصطلى بضع لحظات قصار بأشعة شمس التقدير السوقى الرخيص .

تقلبات الشهرة :

لقد كان ولنجتون ، بطل موقعة ووترلو ، يحتفظ إلى يوم مماته بخوذته المحطمة بالحجارة التى كان يقذفه بها الشعب الثائر فى لندن بعد مرور مدة قصيرة على استقباله استقبالاً يليق بمكانة منتصر على نابليون ومنقذ للحضارة والعمران . .

وجثمان الإسكندر الأكبر ، ظل ملقى أكثر من ثلاثين

يوماً بعد موته دون أن يتطوع أحد لوضعه فى قبر يليق به . .

ويوليوس قيصر ، حكم العالم يوماً ، وصرعه فى اليوم التالى أصدقاء كنودون ، وللجميل ناكرون . .

وغير هؤلاء كثيرون . .

ليس ثمة إلاّ معيار واحد ثابت للنجاح — هو العمل الفذ لتكوين شخصية كاملة متكاملة ، منسقة متسقة ، قوية سوية ؛ تكون فيها : قوة يضرب بها المثل ؛ وحكمة مدّخرة ، عزيزة مقدسة ؛ وتوازن يصون لصاحبه هدوءه ووقاره ، ويحفظ له سكينته ورخاء باله وسط عواصف الحياة الهوجاء ؛ وقدرة على ضبط النفس تجعل الحياة أقرب إلى اللاهوت ؛ وتحاسس[1] وتآلف يصبغ الأيام باللطف ، ويخضب أكفها بالأنس والإيناس والرقة ؛ وحب يملأ الحياة بالدفء وشذى الربيع والسعادة الأبدية .

إن أولئك الذين ينجحون فى تحقيق هذه الصورة يكوّنون من أنفسهم جماعة روحانية فى عالم صوفى ، طاهر ، مقدّس . ومع أن عددهم سيكون قليلا لا يذكر ولا يعتد به ، إلاّ أن تأثيرهم ونفوذهم سينتشر إلى أبعد حدود الانتشار . لأنهم سلالة من النوع الأسمى ، وإنهم لأشباه آلهة ! . . إنهم يبجلون الحياة ويجلونها ؛ وإنهم ليقودون أفراد الشعب إلى أعلى مرتفعات السمو

(١) التحاسس : الاشتراك فى العاطفة .

والرفعة ؛ وجودهم معنا أو على الأقل قربهم منا فيه خير وبركة ؛ إن لمساتهم تحوّل كل شيء إلى موسيقى وابتهاج ، وضياء وذهب .

إنهم يوقدون النور فى محراب الإيمان . . هم مخلّصو العالم ومنقذوه . . هم الحرّاس الذين يتقدموننا للبحث عن الخير . . هم ساكنو التخوم عند أفق الأمل البعيد . . إنهم المحسنون ، الخيّرون ، المتصدقون ، الذين هم للمجاهدين والمكافحين أشبه بظل صخرة شماء فى أرض صلدة جرداء ، يستريحون إليها ، وبظلها يتفيئون . .

النجاح الذى يشرف الحياة ، ويرفع قدرها ، ويمجدها ، يرتكز على مبادئ معينة الحدود ، واضحة المعالم :

١ – الأسس الفيزيقية يجب ألا نتغاضى عنها ولا نغفلها . . فمن الناس من يتوهم – خطأ – أن النجاح زيادة فى الصحة ، ومظهر لاصطخاب كريات الدم الحمراء ، وسهولة فى الهضم . وهذا فى النادر ما يكون صحيحاً . فلقد عرف أكثرنا أشخاصاً لا يعتد بهم ، ولا أهمية لهم إطلاقاً يعيشون فى أتم صحة وأوفر عافية . ومع ذلك فالمميزات الجوهرية الأخرى للنجاح إذا أعطيت لرجل ذى بنيان متين وصحة موفورة سيصل حتماً إلى الهدف بسرعة فائقة .

إذن فتلاحظ بعناية فائقة قوانين الصحة من الناحية البدنية والعقلية . واستعمل طاقة الرئة كلها بقدر ما تستطيع فى التنفس

الشعورى ، الغائى[١] . كن حريصاً أشد الحرص على ضمان التخلص من فضول الجسم . ولاحظ قواعد التغذية المنظمة . مارس التمرينات الرياضية كل يوم بانتظام وبرغبة أكيدة لتكسب جسماً صحيحاً . تعلم كيف تسترخى ، وكيف تنقذ جسمك من مجهود التوتر المدمر . ثم لاحظ قوانين الصحة من الوجهة العقلية . فكر فى الصحة بدل المرض ، وفى القوة بدل الضعف . واضبط العواطف السلبية كالخوف والقلق والكآبة والغم وانقباض النفس والغضب . وستكون الصحة هى مكافأتك التى ستنالها جزاء ما بذلت من مجهود .

٢ ــ المبدأ الثانى للنجاح هو أن تفكر تفكيراً صحيحاً ، وتكون على وفاق تام مع قانون العلة . تعلم كيف تفكر تفكيراً مستقيما متزناً ، لا تفكيراً عاطفيًّا ملتوياً . يقول هربرت هبارد : « إن التفكير هو أرقى الأشياء . وأن تفكر تفكيراً صحيحاً بأن تخلق وتبتكر . فكل الأشياء تأتى عن رغبة ، وكل صلاة مستجابة تكون عن حماس . إننا نصبح بتفكيرنا ذلك الشىء الذى نحلم به ونشتهيه » .

اجعل حياتك الشخصية تسير على طريق معقولة رشيدة . ولا تكن من المستبطنين الذين يفحصون عن بواطن الأشياء . دع اهتماماتك وميولك يغلب عليها طابع الخير للغير ، بعيدة كل

---

(١) الغائى : ذو غاية .

البعد عن الأنانية وحب الذات . استعمل الطريقة الاستقرائية فى التفكير والتعليل من المعلوم إلى المجهول على أساس من مبدأ الواقع . ولا تفترض الأشياء ، ولا تقبل المبادئ المضمرة ، والاستنتاجات التى لا يقوم عليها دليل .

٣ ـ أحكم عواطفك السلبية . ولا تجعلها تتحكم فيك ، أو تتسلط عليك . فليس النجاح خليقا إلاّ بالرجل الذى يستطيع أن يسود نفسه . أما الذين يستسلمون للخوف والقلق ، ويستكينون للكآبة والغضب ، ويذعنون للحقد والغيرة ، ليسوا سادة بل عبيداً أذلاء .

اجعل حياتك العاطفية فى حد المعقول . . انقل انتباهك إلى ميول واهتمامات بناءة معمرة . . كن بشوشاً ، مرحاً ، فكهاً ، خفيف الروح . . حوّل طاقاتك . . أبدل عواطفك السلبية بأخرى إيجابية . . كن عظيما ، رفيعاً ، سامياً فى عالمك الذاتى . . رتب بيتك العاطفى ، واعتن بتنظيمه وتنسيقه . .

درب إدراكاتك :

٤ ـ رقّ قوة ملاحظتك وحسنها . تبصر واهتم بما عجز الآخرون عن التبصر فيه والاهتمام به . راجع وافحص ما أخفق الآخرون فى إدراكه أو معاينته أو الإحساس به. املأ لاشعورك بثروة من الإحساس بإدراك : الشكل واللون والصوت والحركة . عش فى دنيا الملاحظة الواسعة الخصيبة ذات الثراء الغزير . .

ادرس الأشياء بإسهاب : كالمبانى ، والأشجار ، والأزهار ، والجبال والمحيطات والأنهار والناس والحيوانات وغيرها . إن دراسة دقيقة لمعظم الأشياء المألوفة لك كأوراق الشجر والأزهار والأحجار مما تراه على جانبي الطريق فى أثناء سيرك سيفيدك فائدة عظيمة .

إنما الإدراك هو أساس كل تحصيل ناجح ، ودعامة كل عمل عظيم ، سواء أكان فى الصناعة أو الابتكار أو الاختراع أو الفن أو العلوم أو الآداب .

٥ — كما أن التخيل يلعب دوراً رئيسياً هاماً فى تحصيل النجاح . فعليك أن تواظب على تحسين ملكة التخيل بالتمرين الدائم. أغلق عينيك وارسم صوراً وأشكالاً ذهنية صحيحة . انظر إلى الأشياء نظرة من يرى فيها صلات أو علاقات جديدة[١].

والتخيل هو الذى يميز بين الإنسان والحيوان . ويفرق بين حياة الخمول والبلادة ، وبين حياة التحصيل الخالق المبدع الطامح المتطلع إلى أعلى . بل هو روح العطف والود والانجذاب إلى مشاركة الغير فى حالته ، وإلى حب الخير .

وأنت ينبغى لك أن تتخيل نفسك فى مكان زميلك لكى تحاسسه[٢] وتعطف عليه ، وتعامله بما يستحق حتى يعاملك بالمثل .

---

(١) أفردنا فصلا خاصاً بالتخيل فى كتابنا « لكى تكون سعيداً » بسلسلة « اقرأ » رقم ٢١٧ فليرجع إليه من يشاء .

(٢) المحاسسة : المشاركة الوجدانية أو التشارك فى العاطفة .

« كل شيء تحب أن يفعله الناس لك ، فافعله لهم : هذا هو القانون والأنبياء[1] » .

٦ — يعتمد النجاح أيضاً على تمرين سار بهيج للجهد المبدع الخلاّق . فمن ابتغى نجاحاً فعليه أن يرضى كل الرضا عن عمله ، وأن يرى فيه ترضية إيجابية ، وغبطة وسروراً . ونحن بإنجازنا الواجب اليومي على أنه طرفة من طرائفنا نجعل من العمل التافه آية كبرى ، ومن الواجب العادى ترنيمة عذبة ، وتسبيحة ملائكية .

أدخل التخيل والحماس فى عملك ، وابعث فيه روح الحمية . ابحث عن لذتك العميقة وسرورك العظيم فى الهمة الخالقة ، وفى النشاط المبدع . كن بين صانعي ومهندسي وبنائي الغد الذى لم يولد بعد . ولا تخف من البدء فى الخلق والإنشاء .

إن العبيد وحدهم هم الذين ينجزون واجباتهم بغير تفكير أو انتباه لما يعملون ، كما كان حال الملايين من قبلهم . أما النفوس الكبيرة فهى وحدها التى تجد لعمل الأشياء سبلاً أسهل وأسرع وأكثر فعالية وأعظم نجاحاً . وهى وحدها التى تنير دروباً جديدة . وهى التى تحتفل بافتتاح نظم وتدابير ومشروعات جديدة .

٧ — فى الوقت الذى يقوم الرجل الناجح بإنجاز عمله

---

(١) إنجيل متى ٧ : ١٢ .

اليومى على خير وجه يكون واضعاً عينيه على الهدف . ومعظم الذين صنعوا التاريخ كانوا يحلمون فى الوقت الذى كانوا فيه يعملون . فانظر إلى نفسك بعين خيالك كأنك تعمل الشىء العظيم الذى تود لو أن تقوم بعمله حقيقة. واجعل كل واجب عادى تم إنجازه بأمانة تحضيراً لهدفك الحقيقى فى الحياة . راقب الذروة وضعها نصب عينيك . ثبت رؤيتك الرائعة على نجم فى سماء الأمل متألق ثابت .

٨ — انتفع بقواك اللاشعورية . فمنابع النجاح تكمن فيها . واعلم إن كنت لا تعلم ، أن أولئك الذين يتحدثون دائماً عن « النبوغ والعبقرية الهاجعة فى داخلنا » لا يعيشون فى الأوهام . فلقد أكد العالم النفسى المشهور ، ولفريد لاى ، أننا جميعاً فى اللاشعور سواء . والنابغة أو العبقرى يختلف اختلافاً بيناً عن المخفق فى أن هذا الأخير مفلس من الموارد اللاشعورية للقدرة .

كن صادقاً مع نفسك :

٩ — الإخلاص . . هذا هو الأساس . وبغير هذا العنصر الأساسى والمبدأ الجوهرى النادر تنعدم الثقة ، ويكون الخطر وعدم الأمان .

إذا كان المظهر أو المنظر ينبىء عن المخبر ، وإذا كان الناس بسيماهم تعرف نواياهم ، كذلك ذات الرجل الحقيقية تدوى وتصلصل فى صوته ؛ وتبدو من خلال عينيه ؛ وتطبع

نفسها على وجهه وسلوكه وهيئته وموقفه واتجاهه ؛ وتبين واضحة فى كل ما يفعل ويقول . أما قيمة الإخلاص فلا تقدر بثمن .

إنك ربما لا تقبل فكر الآخرين ولا توافق عليها ، ولكن مهما تكن مجموعة المبادئ التى تختارها لنفسك دستوراً ، خفياً مستوراً ، فكن صادقاً معها ، مؤمناً بها ، واثقاً فيها . واجعلها لك قدوة حسنة تقتدى بها ، ومثلا طيباً تحتذيه .

١٠ ــ ثق بنفسك . إننا يجب ألاّ نخدع أو نغشّ أنفسنا . ويجب أن نثق بأنفسنا ، وإلاّ فكيف يمكن أن ننتظر أو نؤمل أن يثق غيرنا بنا ؟

إن قدراً معقولاً من الثقة بالنفس من ألزم اللزوميات ، بل إنها ضرورة لا غنى عنها إطلاقاً .

تخلّص من كل أثر للشعور بالنقص . واعتبر نفسك على أقل تقدير مساوياً لأى شخص آخر . واجه الحياة بشجاعة وثبات ورزانة . . والإخلاص كفيل بجعلك محبوباً من الجميع .

إذا وقفت أمام شخص ما قل لنفسك : « إنى لست أقل منك شأناً ، إنك لا تزيد عنى فى شىء » . أما إذا أحسست بنقص أو دونية سواء فى شعورك الداخلى أو فى تصرفك وسلوكك الخارجى فأنت لا محالة هالك مضيع .

١١ ــ ليس ثمة كالحماس شىء يميز بوضوح الشخص الناجح . فحين يكون الفرد متحمساً ، يسطع فى وجهه ضياء ؛ ويشع من عينيه بريق ؛ وتتدفق من صوته اهتزازات بها سحر

يخلب الألباب . وهو من ثم لا بد ملفت النظر والانتباه إليه . تجتذب شخصيته القلوب والأفئدة . وتحمل كلماته الإقناع ، فتحمل الغير على الاقتناع .

تعلم كيف تتكلم بوجهك . وكيف تجعل تقاطيع وجهك تعبر عما بنفسك ، وتسجل أفكارك حتى لتجذب الأصم إليك . فالرجل الذى لا يغير أسلوبه فى التعبير أو الكلام قلما يصل إلى الكثير . حتى مباريات كرة القدم إذا كان ينقصها الحماس والحمية لا تعدو أن تكون عملاً ميتاً لا حس فيه ولا روح .

١٢ — اصنع المعروف ، ورد الجميل لأصحابه إذا أردت أن تكون ناجحاً موفقاً . . هذا هو القانون الأسمى فى الحياة .

كن محسناً ، جواداً ، كريماً ، وضع نفسك فى قائمة خدام الإنسانية العظام ، الأمناء ، وسدنتها الأوفياء . هذا هو السبيل الوحيد لثبات النجاح واستمراره . « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » .

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه
فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

اجعل الإلفة والمعاشرة ديناً عليك مستحق السداد . عندئذ ستجد مكانك حتماً بين الخالدين .

ابن لنفسك شخصية فردية ذات نفوذ وذات سيادة كى يكون فى ميسورك خدمة الآخرين . ولا تنتظر رداً أو مقابلاً لما عملت أو أسديت ، فلا حاجة بك إلى الانتظار . لأن كل شيء

مرهون بوقته . وقانون التعويض كفيل بالاهتمام بالأمر .

كن مسرفاً فى الخدمات الودية الخالصة لزملائك . واجعل حياة الآخرين أكثر خصباً وإثماراً، وأوفر حلاوة وعذوبة وأعظم سعادة وهناءة .

ولا خير فيمن ظل يبغى لنفسه   من الخير ما لا يبتغى لأخيه

اسع فى كل غداة إلى إطعام جائع ذى مسغبة ، أو مسكين ذى متربة ؛ وإدخال السرور على بائس مكتئب ؛ وبثّ الأمن والسكينة فى قلب خائف خامد الهمة ؛ وبعث الأمل فى قلب غريب ضل طريق الحياة .

هذا هو قانون الخدمة الخيرية ، والتكافل الاجتماعى . . .

وهذه هى المبادئ الإنسانية التى نصت عليها جميع الديانات السماوية . . .

وهذا هو السبيل القويم إلى النجاح .

عجائب الحياة السبع

عند ما يأتى الموت ، ويهمس فى أذنى قائلا :
« لقد انتهت أيامك. .» سأقول له : « لقد عشت فى الحب ولم أعش فى الزمن ! » وإذا سألنى : « هل ستخلد أغنياتك ؟ » فسأقول له : « لا أدرى ، ولكنى أعرف أنى وجدت الخلود فى أغنياتى ! »

« طاغور »

لا بد من الحب فى اتصال الإنسان بالإنسان .
فإن هذا الحب هو الوسيلة الوحيدة الممكنة لاستمرار حياة الإنسان !

« تولستوى »

الماضى لا يموت أبداً ، فهو حى فينا . . وهو أقدم مرشد فى حياة الأفراد والأمم . . . وما روح الأحياء إلا مؤلفة من أفكار الأموات .

« جوستاف لوبون »

بحث الناس فوجدوا بعد بحثهم عجائب الدنيا السبع ، قديمها وحديثها . ولكن هذه العجائب السبع لا تزال إلى اليوم غير مطلقة وغير شائعة ، لأنها تتغير مع كل كشف جديد .

وعجائب الزمن الحاضر تسمو دائماً على عجائب الزمن الماضى وتفوقها .

ولكن هناك سبعة قوانين بسيطة للحياة هى فى الواقع عجائبها الحقيقية . وإنها لمطلقة وشائعة ؛ ولا يمكن نقضها أو دحضها بأى حال . ولا يمكن أن نقول إنها حديثة ، ولا يمكن أن تهرم أو تشيخ أو يتقدم بها العمر .

هذه القوانين البسيطة من السهل اكتشافها . والناس جميعاً يجب أن يجدوها إذا ما أرادوا لأنفسهم السعادة .

إننا نستعملها كل يوم . بل إنها تتحكم فينا كل يوم ، وتتسلط علينا كل وقت . حتى إذا ما اعتدنا القوانين الثابتة لمجتمعنا وجمهوريتنا ومصالحنا المشتركة ، إذن لوجدنا أنفسنا قد ألفنا قوانين الحياة واعتدناها . .

إن قوانين الحياة هذه تفوق كل القوانين التى وضعها الإنسان وتبرز عليها . وباعترافنا بها وتسليمنا لها ننتهج خطة الحياة السامية ، السماوية ، المقدسة .

وهذه القوانين إنما تؤدى عملها سواء أكنا نعلم بذلك أم لا نعلم . ولكننا إذا عرفناها ، وتحققنا منها ، واعترفنا بها ، ثم استعملناها مع العلم بصدقها وصحتها ، ستغدو الحياة أكثر سهولة ، وأكثر يسراً ، وتسودنا السعادة جميعاً .

٢٠

قانون السعادة :

أول قانون من هذه القوانين هو قانون السعادة .

إنني اليوم غير سعيد . . إن عملي مرهق وممل . . ليس لدى ما يستوجب الاهتمام . ولا شيء عندى ذو قيمة أو أهمية . ويبدو لى أن ظلا من السخف والعبث يغطى كل جهد . وأن كل مسعى يبوء بالإخفاق .

مع أن الأمس كان مشرق الديباجة ، صافياً ، لا غيم فيه ولا قر ! . . .

ألم تكن الأرض هى الأرض ، والسماء هى السماء ؟ . .

ألم تكن الأشياء المادية التى كانت على وجه البسيطة بالأمس كالموجودة عليها اليوم ؟ . .

كنت سعيداً بالأمس . إذن فما بالى اليوم مغتماً ، منكسر الخاطر ، كسيف البال ؟ . .

لماذا أرى جميع رؤاى وخيالاتى مدلهمة ، معتمة ؟ . .

ومالى أرى نهارى كما لو كان ليلا بهيماً ليس له آخر ؟ ..

برز من شعورى على حين فجأة سؤال آخر هو فى حد ذاته جواب على الأسئلة الأخرى التى سبقته :

هل أنجزتُ اليوم كل تلك الأشياء التى قالت لى نفسى — مشيرتى السماوية ، وناصحتى الإلهية — بأنه يجب أن يتم إنجازها ؟

لا ! . .

من المنطق ، سواء أكان صائباً أم مخطئاً ، أن سعادتنا موصولة الأواصر بإنجازاتنا ، التي تتصل هي الأخرى بإمكانياتنا .

إذن فأنا غداً سأكون سعيداً إلى أقصى حدود السعادة . وسأصغي جيداً إلى الصوت الذي يأمرني بعمل ما ينبغي عمله . . وسأستمع إلى نصحه . . وسأؤدي واجبي على خير ما يكون الأداء . . سأخلق ، وأبتكر . . لأن ذلك الذي أقوم بعمله لا يمكن أن يكون، ما لم يكن لي فيه مصلحة .

قانون العدل :

يغويني شيطاني في وقت من الأوقات لأن أقول : « لا عدل ! » إنني لا أبرح أشقى وأكدح أياماً طويلة مملة ، وليالي داجية مضنية ، حالكة الظلمة ، سنين عدة — دون ثمرة وبلا جدوى . وما يجنيه الآخرون من أجور سخية لا يتأتى لي الحصول على مثلها . ومع أن أعبائي أكثر فداحة وأكثر وقراً ، حتى لينوء بها ظهري ، فإن أعمالي شاقة إلى أبعد حدود المشقة . قاسية ممعنة في القسوة .

ولشد ما يتملكني الحزن والألم ، وتتشعبني الهموم ، وتتوزعني الفكر ، حين أرى المكافآت المادية تغمر الذين لم يكدحوا مثلي ، ولم يبذلوا مثل أو نصف ما بذلت من مجهود . فأرفع عقيرتي دون تفكير ، وأصرخ مرة أخرى : « أين العدل ؟ . . لا عدل ! »

وحين يتلاشى صدى صرختي أسمع همساً رقيقاً ليناً من

أعماق ، من النفس التى فىّ ، عن طريق عقلى : « نعم . . . ولكنك كوفئت بما اجترحت ، وجوزيت بما اقترفت . ألم تشعر بالغبطة والسرور يشملا نك أثناء تأدية عملك ، وحين إنجازه ؟ أليس هذا هو الأجر العظيم ؟ . . وعندما يتم أحد الأعمال التى تقوم بها ، ألم تولد فيك قوة جديدة وينبعث منك عزم جديد ، وتبدأ فى عمل آخر ؟ . . هل يمكن أن يكون هناك فى الوجود مكافأة أعظم ؟ . . ألم يكن الأجر مجزياً عادلاً ؟ » .

حينئذ يقتنع وجدانى منطقياً بأن العدل شىء سماوى ، مطلق . . وأشعر بتلك الهبات ، وتلك العطايا التى قد حصلت عليها فعلاً لقاء ما أنجزته من أعمال ، وما أديته من واجبات . . فنحن نأخذ بقدر ما نعطى . أما الذين يخيل إلينا أنهم يأخذون دون أن يعطوا ، فإنهم يحصدون الهشيم الذى يغدو فيما بعد تراباً تذروه الرياح الساخطة بعيداً . . أو رماداً اشتدت به الريح فى يوم عاصف .

قانون الكثرة :

كنت أسير يوماً فى جهة ما بالطريق الزراعى ، فرأيت ما يراه غيرى دائماً فى روحاته وغدواته : حقول القمح المترامية الأطراف ، التى لا يستطيع البصر أن يدرك مداها . . ومساحات كبيرة شاسعة لا تحدها حدود من الأرض الطيبة ، بسقت فيها الأشجار ونما فيها الزرع وكثر الضرع ..

فكرت حينذاك في الملاحات التي لا ينفد الملح منها .. وفي آبار البترول التي لا ينضب معينها . . وفي البحار والأنهار التي لا يمكن أن يجف ماؤها أبد الدهر . .

مع هذه الصور الرائعة التي استعرضتها في مخيلتي جاء غيرها : آلاف المصانع ، وآلاف المعامل التي تأخذ تلك الخامات من نتاج الطبيعة ومحصولاتها ثم تحيلها بقوى الإنسان الجبارة ، وبنبوغه العبقري المستنبط إلى منتجات منجزة جاهزة . وهذه بدورها تمد الإنسان بطعامه ومأواه وطرق مواصلاته ، وأدوات لهوه وتسليته ، وأوقات فراغه حيث يتسنى له الحصول على الألفة والمعاشرة ، وحيث المجال للتفكير في بحث دقيق أو فحص عميق ، يقود إلى معرفة جديدة .

إن أرضنا فيها كل هذا الفيض الغزير ، وهذه الكثرة الكثيرة المفرطة ، لكل الناس قاطبة . فإذا تسللت مجاعة أو مسغبة — لا قدر الله — إلى جزء من أجزاء الأرض ، نجد فيضاً فائضاً من المحصولات في جزء آخر . وطرق النقل الكثيرة السهلة كفيلة بتسوية الحال . حتى سكان الأرض في زيادة مستمرة ، وازدياد مطرد ، ولا يزال هناك على الدوام المزيد .

هذا قانون صارم لا يلين من قوانين الحياة . فإذا ما تفهمناه واستوعبناه ، فلن تعوق سموم الشك شرايينا ، ولن تعرقل ميولنا . وما دام هناك كثرة للجميع ، فسنأخذ جميعنا بكثرة . .

قانون العادة :

كثيراً ما نسمع أن الإنسان محكوم بعاداته . وأن الناس عبيد العادة . فنحن نجتاز كثيراً من التفصيلات المعيشية ، كارتداء ملابسنا فى الصباح ، وتناول وجبات غذائنا فى ساعات معينة ، ونتخذ لراحتنا واسترخائنا ومسراتنا أوقاتاً معلومة ، ثابتة ، دون أن نبذل فى ذلك أى تفكير . هذه الأشياء كلها أضحت عندنا بحكم التكرار عادة .

ولكن هذا لم يك إلا قليلا من كثير من عاداتنا . فهناك كثير غيرها ، كثير جداً . وإنها لتلعب دوراً هاماً عظيم الأهمية فيما نلمسه من الحياة . فمن المهم أن نعرف كيف نرحب بالناس ونحييهم . وكيف نلتقى بهم فى أوقات العمل ، وفى المجتمعات .

دعنا إذن ندبر لأنفسنا العادة التى يتعين علينا أن نكونها ، ونعتادها كما اعتدنا غيرها من أشياء فى حيواتنا . إنها بالحق أكثر أهمية لنا وأكثر لزوماً . . وهذه هى بعض العادات التى أرى أنها تستحق منا كل عناية وكل اهتمام . ولقد أفادت الكثيرين إفادة ما كانت لتخطر لنا على بال : الترحيب ببشاشة وبوجه باسم مستبشر ؛ ورؤية جانب الخير فى رفاقنا وأصحابنا ؛ واستشفاف الجمال من خلف حجاب قد يكون فى أكثر الأحيان بشعاً دميماً ؛ والسعى الشريف ؛ والاجتهاد بجد وهمة ؛ وإبداء الحب والإعراب عنه ؛ والتعبير عن السعادة والتقدير .

العادات هى الألوان التى تضع اللمسات الأخيرة على صورة ذاتنا فى الحياة . وما دمنا نريد الصورة جميلة ، إذن علينا أن نستعمل ألواناً نظيفة ، رائقة ، واضحة ، سعيدة .

قانون الحكمة :

الحكمة هدف كل الناس ، سواء أقرروا ذلك بطريق مباشر أم غير مباشر . . لأن الحكمة ضالة المؤمن ، وفيها تكمن السعادة .

والناس فى استطاعتهم أن يكونوا حكماء إذا استعملوا المواهب التى تكمن فى ذات أنفسهم . والمعرفة مهما كثرت أو اتسعت ليست إلا ممرًّا ضيقاً إذا قارناها بالحكمة ، طريق الحياة الفسيح .

علينا أن نتفهم هذه الأشياء جميعاً بعقولنا وقلوبنا ؛ علينا أن نفهم جيداً ونضع نصب أعيننا : أن الخير لابد أن ينتشر ، وأن الرخاء سيعم الأرجاء ، وأن العدل سيسود ويبلغ حد الكمال ؛ وأن الحب هو القوة السائدة المسيطرة فى الحياة . وأن السعادة جزاء الكد والكدح .

هذه هى الحكمة . . .

كل تلك الحقائق هى التى خلقت الحكماء فى العصور القديمة . وإنها لمعروفة لدى حكماء العصر الحديث .

وهذه الحقائق بسيطة فى غاية البساطة ، واكتشافها سهل

ميسور . كل ما نحتاج إليه هو أن نستعمل حواسنا المادية فى جميع تصرفاتنا ومعاملاتنا مع الآخرين : نستمع إليهم ، ونتحدث معهم ، وننظر إليهم ، ونهتم بهم ، ونتذوق الأشياء التى يستنبتونها لنا من بطن الأرض لنطفئ بها شهواتنا ، ونشعر بالأشياء التى يصنعونها لنا باستمرار لأجل متعتنا ولذتنا .

إذن فلنسجد لله شكراً على تلك الحواس التى وهبها لنا ، وأنعم علينا بها ، وعن طريقها أوتينا الحكمة . ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً . . .

قانون الحب :

الحب . . .

يا لها من كلمة جميلة ، ولفظة مستعذبة ، لا يكاد الإنسان يخطر على باله ذكرها حتى يخفق لها قلبه ، وتهتز لها مشاعره . .

الحب . . إنه وحى وجدانى ، وإلهام نفسى ، وعاطفة لا يخلو منها قلب حساس . .

إنه الهادى إلى طريق السعادة اللانهائية . .

وهو منبع السعادة العظيمة الأبدية . .

صحيح ، أن السبب المباشر لوجودنا فى الحياة هو الحب عن طريق تلك الرابطة المقدسة التى تربط بين قلبين ، وتؤلف بين نفسين . ولقد غذّينا فى أثناء حبونا وفطامنا ، وربينا إلى أن اكتمل شبابنا بوساطة حب والدينا لبعضهما .

إن جهادنا وكفاحنا فى مرحلة نضجنا وبلوغنا كان يحفزنا إليه الحب المتبادل بيننا وبين الجنس الآخر . وما ينتج عن ذلك من حمل ، إنما هو مولد العاطفة الغامضة : حبنا للكائنات البشرية التى تكافح معنا كتفا بكتف لنبنى مستقبلا أكثر جمالاً ، وأكثر حسناً ، وأعظم سعادة .

إن المثل الأعلى الذى فاز وانتصر وأضحى حقيقة واقعة ، إنما الذى مهد السبيل إليه هو الحب الأخوى الذى التمس للبشرية : الحب ، والعدل، والمساواة ، والحق فى البحث عن السعادة .

إنها سلسلة ليس لها نهاية تلك التى تجلب للإنسان نجاحاً أسمى ، وتقدماً أرقى . أما القوة الدافعة من خلفها جميعاً فهى الحب .

ونحن حين نتحقق من هذه القوة الهائلة ، ونعترف بها ، ثم نعمل معها بقلوبنا ، ستفتح لنا دنى جديدة ، وتظهر لنا آفاقاً جديدة فيها : كل الجمال ، وكل البهاء ، وكل السعادة .

قانون الخلود :

إن الأعوام تزحف علىّ ومعها رهبة طبيعية من النسيان .

هل أنا — من يملك ذلك الأمد القصير من حياة فى جسده — لن ألبث أن أذهب إلى الأبد . . أتحلل وأصير إلى تراب . . إلى لا شىء ؟ . .

لماذا إذن كل هذا العمل ، وكل هذا الكد والكدح ؟ . .
ولم تلك الآمال ، وذاك الطموح ، إذا كان من المحتم على أن أترك هذا كله ، وأرضخ للاّشيئية . . مذعنا للعدم ؟ . .

عندئذ جاءت لمعونتى كل من المعرفة والحكمة . فخمد الشك ، وهدأ الريب . استرجعت لى المعرفة والحكمة ، عن طريق ذاكرتى ، دراساتى فى العلوم . لقد برهنت لى دراساتى فى الطبيعية ، وفى علم الأحياء والكيمياء ، أن ليس هناك خلق أو هدم فى الحاسة المطلقة . إنما الذى يتغير هو الهيئة أو الصورة فحسب . فمن البذرة تنبت الشجرة . . ومن البييضة ينشأ النسل والذرية . . وفى المركبات والأخلاط تتواجد العناصر . . وهكذا الحياة مجرد تغيير دائم مستمر للصورة .

وكذلك الحال فى الفكر ، وفى الإلهام ، وفى الأشكال التى يستنبطها الفن . فروح الفنان أو نفسه التى فى عمله المنجز هى بكل تأكيد كالأشياء التى نسميها المادة . ذلك الجزء من نفسه له صورة قابلة للتغيير . إذ يأتى فنان آخر ويرى روح الفنان السابق فى العمل فيدمجه فى عمل من أعماله ، وبذلك يخلق صورة جديدة .

وهكذا تسير العملية على هذا المنوال إلى ما لا نهاية . . أشكال تتغير على الدوام وباستمرار . ولكن بحالة أكثر صفاء ، وأكثر تنقيحاً . . ومستوى الصورة الجديدة دائماً أعلى من التى قبلها .

يجب أن نعرف أيضاً من هذا القانون أن الإنسان إذا مات فإن جسده — كما يبدو لنا — هو الذى يبلى ويفنى ويلحقه العدم . أما روحه فتبقى خالدة تشرف من علياتها على ما قام به صاحبها من أعمال وآثار تجدد ذكراه . ولسوف يخلد اسمه خلود الزمن ، ويظل ذكره ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماء مقروناً بالثناء والإكبار .

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

لاتبدد قوة فكرك

لا شيء جميل أو قبيح ، ولكن التفكير يجعل منه كذلك .

« شكسبير »

أفكارك تجلب إليك قوى من الخارج من ذات النوع الذى تخزنه فى نفسك .

« راسكين »

فى كل إنسان قوة مفكرة عليه أن يفسح لها مجال التفكير .

« ماردن »

إذا كنت قد أديت للمجتمع أية خدمة ، فالفضل فى ذلك للتفكير فى صبر وتؤدة .

« سير إيزاك نيوتن »

إن عُشر القدرة التى تبددها فى التفكير الطائش ، العقيم ، إذا أنت وجهتها بتعقل وبفطنة وإدراك إلى نواحى الصحة والسعادة والنجاح ، كنت إنساناً مختلفاً تمام الاختلاف . فهذا التبديد من الأمور الخطيرة . وإنى لا أذكر أن هناك إنساناً بلغ

تمام الفكر وكماله وقوته التى يستحقها أو يستأهلها بحق . حتى ولو كان هذا الإنسان مثل توماس إديسون الذى لم يستعمل من خلايا مخه أكثر من ٧٥٪ – كما قرر العلماء – فالإنسان إلى الآن لم يدرك الاستيعاب الكامل ، والفهم الصحيح لقدرة فكره .

والأفكار تأتى وتروح بسهولة عظيمة . بل إنها تخطر وتسرح بسرعة فائقة . حتى إننا إذا تعجبنا فى وقت من الأوقات لأمرها ، وتساءلنا أين تذهب هذه الأفكار ، ومن أين تأتى ؟ لتملكتنا الحيرة من أمر سرها ، ونعود أدراجنا مرة أخرى إلى تيارات الفكر التى تعودت عقولنا الانسياق معها عن طريق العادة راضية مرضية .. قانعة بالاعتقاد أن هذى الأسرار يعجز عن تفسيرها الإنسان ، وليس يدرك كنهها إلا علام الغيوب .

ثم إن الحياة حركة دائبة ؛ والفكر جزء من الحياة ؛ والحياة لا يمكن أن تقف ساكنة هادئة بأى حال .

وهناك من تيارات الفكر ما لا يمكن أن يصدها أو يعوق سيرها أى سير غامض . . تيارات تشق طريقها خلال تخوم وحدود يستحيل اختراقها . . إنها هى التى تولج كثيراً من الناس فى متاهة من الفكر يشعرون فيها بعجزهم عن ضبطه ، وضعفهم فى التحكم فيه ، فيولون عنه مدبرين .

يجب علينا أن نفكر . أما الذين يخفقون فى توجيه طاقة فكرهم تجاه الأعمال الإنشائية والبناءة ، فسرعان ما يجدون أن

هذه القوة تنصرف من تلقاء نفسها إلى الأعمال الهدامة ، المخرِّبة.

لقد كان فى كل عصر من العصور عقول لم تقنع بالانسياق مع تيارات الفكر العامة ، الشائعة . فانفصلت عن الجمهور ، وانسحبت وحدها فى مجريات جديدة . أما عقولنا ، التى استمالها التحوّل من أسلوب التفكير الذى اعتدناه ودربنا عليه ، فقد اقتفت آثار هؤلاء القادة ، وحذت حذوهم ، وانساقت مع تيارات الفكر الحديث .

قد يسأل البعض : « ما هذا الذى نسميه فكرا ؟ » ويلتمسون من أنفسهم الجواب. كانت التّراكيب العجيبة لمخ الإنسان تباشر عملها من قياس ، ومن وزن ، ومن مقابلة للحقائق المعلومة إلى أن قرر الوعى أو الوجدان أن الفكر قوة محركة ديناميكية ذات قيمة تفوق الحصر — النتيجة لتقديرات معينة لحركة أثارتها القوى الخارجية فى التّركيب العضوى .

والإنسان بطىء، متمهل فى الكشف عن كيفية انتفاعه من قوى الطبيعة الهائلة . ولكن حين تسترعى انتباهه القدرة التى تعبر عنها تلك القوى وتظهرها — ثم يبدأ يفكر كيف يجعل هذه القدرة تعمل له ولغيره — فلن يطول به الزمن حتى يكتشف لنفسه سبيلا .

لقد كانت هناك أعمال عجيبة منذ الأيام التى كان فيها الفلاح يحسب أنه من الضرورى وضع حجر فى طرف من زكيبة

القمح التي يحملها فوق ظهر حماره لكي يحفظ توازن القمح في الطرف الآخر . إلى أن جاء العبقري الذكي الذي اكتشف فكرة اعتبرت حينذاك من الفكرات النيرة ، المشرقة . هي أن الحجر لا لزوم له بتاتاً ، والقمح يمكن وضعه في كل من طرفي الركيبة . .

لقد كانت بالحق خطوة جريئة نحو التقدم . ونحن لا يمكن أن ننجح أو نتقدم بطريقة أخرى غير توالي الخطوات وتعاقبها . ولكننا يجب أن يكون لدينا استعداد للاقتناع ، والتساهل ، والتسامح ، إذا نحن أملنا نجاحاً ورجونا تقدماً .

إن الشلال ، الذي تبددت قدرته خلال جميع العصور ، حين كان الإنسان يجهل المنافع والمزايا التي كان يمكنه أن يستغلها منه ، قد استغلت أخيراً لتمده بالثروة والسعة والراحة والرخاء والسهولة واليسر . فهو يسع كل هذا وأكثر من هذا .

والبخار ، الذي كان يرفع أغطية الغلايات عند كثير من الناس دون أن يثير فضولهم ، اجتذب أخيراً انتباه عقل رفض أن يطلق الفكرات التي أوحى إليه بها أو يتركها تتفرق بدداً ، إلى أن وجد هذا العقل وسيلة حول بها للنفع تلك الطاقة المبددة ، الضائعة . وكانت النتيجة أن القدرة التي كانت تلهي نفسها وتسليها مع مثل هذه السخافات المرحة كرفع أغطية الغلايات استغلت لتقوم بالعمل ، باعتدال في بادئ الأمر ، حتى أضحت للإنسان أكثر من يده اليمنى ، ومكنته ولا تزال تمكنه

من إنجاز أشياء لم يحلم بمثلها چيمس وات .

والقوة المائية ، بضجيجها وعجيجها ، انتزعت اهتمام الإنسان وحملت إليه الأنباء السارة ، والبشائر الطيبة البهيجة عن منافعها . مضافاً إليها قدرة البخار المتسللة ، الزائفة ، المراوغة ، صنعت الوسيلة التى لا تزال إلى الآن من أكثر الأعمال العظيمة غرابة ، ألا وهى الكهربا . تلك القدرة اللامنظورة السرمدية ، غير المحدودة ، التى أذعنت واستسلمت لزحف تقدم الإنسان وسير نجاح البشرية قدماً إلى الأمام حتى باتت أداة الإنسان وعدته التى لا غنى له عنها .

وفى هذه الحقبة من الزمن ، كما لم يكن من قبل ، تحوّل انتباه الإنسان إلى قدرة أكثر هدوءاً ، وأكثر سكوناً ، وأكثر تسللاً وزوغاناً . هى أشبه بتلك القدرات التى تعلم الإنسان كيف يستعملها ويستخدمها . . وإنه ليبدد طاقاتها ، ويسرف فى تبديدها خلال عصور لا عدّ لها ولا حصر — هى قدرة الفكر .

هذا الفكر هو الذى أتعب الإنسان وأجهده . وأشقاه وأنهكه . . وأضناه وعذبه . . هو الذى قاده إلى موارد التهلكة ، وأدى به إلى المخاطر والمشاكل والصعاب . . وهو الذى سما به إلى عالم الخيال . . وارتفع به إلى دنيا الأحلام ، حيث تحققت أعز أمانيه — ثم استفاق ليجعل من أحلامه حقائق واضحة صريحة . .

لقد كان لعنة من أسوء اللعنات ، و بركة من أعظم البركات. لقد كان نقمة ، وكان نعمة . . إنه جزء من ذات نفس الإنسان ، وطاقته القلقة ، المتبرمة ، التى لا تكل ولا تمل ، والتى لا تخمد ولا ترتوى ، والتى تتدفق على مخه إلى أن يسعفه لا شعوره ، ويرفع عنه الضغط والمجهود ، ويسمح له باستعادة ذاك التوازن فى مراكز العصب التى تمكنه من تحمل التضارب والتناقض المستمر مع الفكر ، والنشاط المرافق له الذى يستحثه إليه .

ويسأل الإنسان السؤال نفسه الذى سأله من قبل حين وقف وجهاً لوجه مع القدرة المبددة : « ما الذى يمكننى أن أفعل بها ؟ . . » ، « كيف يمكننى أن أسخرها لخدمتى ، وأستخدمها لمنفعتى ؟ » . ومرة أخرى تشرع آلات المخ فى العمل على إيجاد إجابة للسؤال . وشيئاً فشيئاً تتجمع فى عقول أولئك الذين درسوا باستفاضة معرفة الفوائد لهذه القدرة الشائعة المألوفة ، والتى أسيء فهمها . . ومن ثم تنتقل إلى العامة . وهؤلاء بدورهم هم الذين يقولون لك إن تبديد الفكر فى الماضى يشمل التفكير الباطل الذى ليس له غاية ولا هدف .

وفجأة يسأل الرجل المتوسط نفسه عما يفكر فيه . يقول أحدهم : « فيم كنت أفكر ؟ . . إننى أعرف بالجهد وبكل صعوبة خليطاً من الأشياء ؛ منها الطيب ، ومنها الردىء . . منها الحسن ، ومنها القبيح . . ومنها ما بين ذلك . . ما أشق عملى

وما أصعبه ! . . كم أكون مغتبطاً جذلاً حالما أفرغ منه . . ما أغبانا وما أحمقنا ! . . هل الحياة وما فى الحياة سوى سلسلة من المتاعب والمضايقات؟ »

ويقول آخر : « إننى أفكر فى روعة الدنيا وما فيها من الحسن والجمال والرواء ! . . فتنة وبهجة هى الدنيا . . هذه الحياة التى تمدنى بتلك الفكرات الجميلة ، وبتلك العواطف النبيلة ؛ وتلك الإحساسات الرقيقة ؛ وهذه النسمات العليلة ؛ وهذا الهواء النقى المنعش ؛ وهذه المناظر البهية الرائقة ، المونقة الرائعة ! . إننى كنت أفكر فى أنى أريد دواماً أن أملأ قلبى وروحى بتلك العواطف العظيمة ، وتلك المشاعر النبيلة ، وأحتفظ لنفسى بها . . كم أود لو أكون أهلاً لهبة الحياة التى لا تقوّم بثمن ولا تقدر بمال » .

وهناك عقول قليلة تقف عند غاية . والشخص المتوسط الذى ليست له خطة فى الحياة ، إنما يقف حائراً متردداً فيما يريد . وهذه الحيرة تجلب له بلبلة وارتباكاً ذهنيًّا . . وهذا الارتباك الذهنى يسمح بالدخول لكمية من الأفكار الهدامة ، المخربة ، التى تجعل من الإنسان شخصاً بائساً ، عليل النفس ، مخفقاً خاملاً .

والناس توّاقون بطبيعتهم إلى الأشياء التى تجلب لهم أغلى مسرات الحياة ، وأشهى هباتها . ولكنهم خائبون فاشلون فى أن يفهموا أو يدركوا أن حلقة الوصل بتلك القوى إنما ترقد فى ذات

أنفسهم . وأنهم دائمو البحث عنها خارج حدود ذاتهم .

والرجل الذى ليست له غاية شريفة قوية أو غرض نبيل عظيم فى الحياة ، إنما يقطع عن قصد وتعمد « خط الاتصال مع القدرة » ، ويحرم نفسه متع الحياة ومسراتها التى قدمت إليه دون مقابل .

ثم إن الفكر يتبدد بتركيزه على غرض باطل لا يجدى نفعاً . . والطاقة تتبدد بنضالها فى إنجاز فكرات وتنفيذها بأساليب ثابتة من الفكر لا تقدم شيئاً يستحق المجهود .

إننا نفكر فى أنه ينبغى علينا أن نعمل كما عمل غيرنا . وهكذا يحكم الفكر أفعالنا ويسيطر عليها . إننا نقف لنتأمل أو لنحسب كم فقدنا من طاقات فكرنا وطبيعتنا ، وكيف يمكننا أن نستعملها على خير ما يكون الاستعمال .

إننا نفكر فى أننا يجب أن نكون فقراء ، على كثير أو قليل من التعس والحزن والاكتئاب . لأننا كنا كذلك ، فى حين أن كل من عدانا يكافح من حولنا . إن من الناس من يسمح للماضى بأن يلعب دوراً وخيم العاقبة فى حياته بدلاً من أن يزود نفسه منه بمثل طيب يعاونه على توجيه نفسه ، ويساعد على إرشاده فى المستقبل . ومن الناس من يخفق فى التفكير لنفسه ويتسلط عليه كثير من شئون الغير : ما الذى أتى به آباؤنا وأمهاتنا ، وما الذى أنجزوه من أعمال ؟ . . ما الذى يفعله وقومنا ، وما الذى يقوم بإنجازه زملاؤنا ولداتنا ؟ . .

لماذا ترضى لنفسك بأن تقف فى صف واحد مع مثل هؤلاء المخفقين ، والتعساء ، والحالمين ؟ . .

إن للفكر براعة فائقة ، ومقدرة عجيبة فى إنتاج ما يقدمه . ومن العجيب العاجب أننا ونحن نعرف هذا عن تجربة ، نسمح لأنفسنا بالاستمرار والمثابرة فى التفكير بإلحاح فى أشياء لا نحبها ولا نريد أن نقوم بعملها . بينما يكون الفكر داول الوقت جادًّا فى البحث عن بعض وسائل يعبر بها عن نفسه تعبيراً ماديًّا .

إن الأحلام العقيمة الفارغة ، والأوهام التافهة ، لن تنجز شيئا البتة ؛ ولكنه التركيز القوى الفعال المتبوع بالحركة هو الذى يحمل قدرة الفكر على العمل الذى نرغب فى تأديته . أما أن نجلس ونفكر أننا فى حالات وصفات من المثل العليا فهذا سهل لو كان يجدى . ولكن يجب علينا ألاّ نفكر فحسب ، بل ينبغى علينا أن نعمل إذا أردنا تحقيق مثلنا العليا . فعن طريق تحويل الطاقة إلى أنماط وأشكال أخرى يجد الفكر تعبيراً . وبإيجاد التعبير يتم العمل .

والفكر سريع الحركة خفيفها . وحركاتنا البطيئة المتأنية لا يمكن أن تتابعها أو تلاحقها بأى حال.. ولكن فى إمكاننا أن نرتب بداية . وبعمل القليل الذى يرقد فى قدرتنا ، وبإضافة القليل إلى هذا القليل ، يوماً بعد يوم ، عن معرفة ودراية ، يمكننا أن نحسّن بالتدريج قدراتنا التى كانت فيما مضى خاملة

هالكة ، مضيعة . فالأشياء العظيمة إنما تنتج دائماً من وصل أشياء صغيرة ببعضها وصلاً بارعاً ، وضم شملها بمهارة وإتقان . وباتخاذنا الخطوة الأولى نحصل على القدرة التى تساعدنا على اتخاذ الخطوة الثانية . وإذا كانت لدينا الفكرة النافذة الصائبة عما نرغب أخيراً فى إنجازه فستبقى العضلات أمينة على واجباتها بوساطة التركيز إلى أن نبلغ الغاية التى نرجوها ونأملها ، وندرك الغرض الذى نستهدفه .

هناك طاقة كبيرة وفيرة أكثر مما نظن تتبدد فى المحادثات العقيمة ، وفى ذرع الغرفة ذهاباً وإياباً دون جدوى . وهذا الإسراف فى الطاقة الميكانيكية هو النتيجة الحتمية والتى لا مفر منها لتبديد الفكر .

وإن الرجل الذى يعمل على تحقيق أحلامه ، إنما هو الذى يركز أفكاره على غرض بعينه . ولا يسمح لنفسه أن يحيد أو ينحرف عن هذا الغرض حتى تتحقق مثاليته . إنه ليصون طاقته ويوجهها نحو هدف معين كالهداف الذى يركز انتباهه على الهدف عاملاً على إصابته . إنه يترك عقله لتنوع الفكر واختلافاته ، ولكنه لا يسمح لأى إيحاءات مضادة أو عكسية أن تعوق أثر تفكيره الذى ينويه أو الذى صمم عليه .

إننى لا أقصد أن يكون الإنسان وقوراً متزمتا أكثر من اللازم . وإنما يجب أن يتخذ لنفسه لحظات من اللهو البرىء يجدد فيها نشاطه بالتسلية والرياضة لكى يوازن بين حياته وراحة

عقله ، حتى يمكنه فى كل وقت وفى كل حين أن يكون مالكاً لعقل متزن نشيط متيقظ مستنير ؛ لا عقل مبتذل تافه ، ممتهن من فرط التعب والإجهاد .

إنها ليست حياة إنكار الذات هى التى أدافع عنها ، وأدعو إليها ، ولكنها الحياة القويمة ، المستقيمة .

وإنك إن لم تكن درست علم النفس دراسة وافية ، فسيكون لديك فى الوقت الراهن فكرة غامضة غاية الغموض ، مبهمة ممعنة فى الإبهام عن عظمة عقلك ووظائفه .

وليس من الضرورى أن تظل عاجزاً ، تعيساً . عديم الكفاية .

آمل أن يكون فى حديثى هذا حافز ينبهك إلى فهم إمكانياتك وتحقيقها ، ويستفزك ويستثير همتك إلى العمل .

لا تلم حظك

الرجال السطحيون يؤمنون بالحظ ، والرجال الأقوياء يؤمنون بالسبب والنتيجة .

« إمرسون »

إذا كنا ناجحين اعتقدنا أن التوفيق قد جلبه الجد والقدرة ، فإن أخفقنا قلنا إن المسألة مسألة حظ .

« ماندر »

الذى يجىء فى المرتبة الثانية بعد اقتناص الفرصة ، معرفة طريقة الانتفاع بها .

« دزرائيلى »

الفرص من طبيعتها النفور والابتعاد ، تمر مسرعة ، ولا يمكن لسوى الرجل الحازم أن يقبض عليها .

« ماردن »

إن فى معظمنا لأثارة من خرافة . فنحن لا نخاف من الرقم ١٣ ولا نتشاءم منه ؛ وقد نمر تحت سلم دون أن ينتابنا فزع ، أو يلم بنا وجل ، أو نحس بشىء من الرهبة ؛ وقد لا يزعجنا رؤية قط أسود اللون يعترض سبيلنا . ولكننا إذا تأملنا حياتنا وأنعمنا النظر فيها وفى أحوالها ، ودققنا البحث فى مسالكها

وجدنا أننا نعزو كثيراً من الأشياء إلى حسن الحظ أو سوء الحظ .

ليسمح لى القارئ الكريم أن أبين بوضوح فى بداية هذا الفصل أن كل شيء خاضع لقانون. فقد يكون من سوء حظك أن تولد وليس فى فمك ملعقة من فضة ، فيكون لديك معونة مالية تحقق بها ما تشتهى ، أو يكون فى حوزتك الثروة التى لا غنى عنها فى تنفيذ أو إنجاز أشياء معينة تحتفظ بها فى ذاكرتك . . ولكن ، حتى هذا مطابق لقانون .

فمن المشاهد أن خمسة فى المائة على وجه التقريب ممن يلجون الحياة العملية بالاشتغال فى الأعمال الحرة لحساب أنفسهم — ناجحون فى أعمالهم ، موفقون فى شئون حياتهم . وليس معنى هذا أن الخمسة والتسعين فى المائة الباقين تعساء أو أشقياء أو سيئو الحظ. وإنما معناه أن الغالبية الساحقة لم يفهموا بعد القوانين التى وضعت لتكون أساساً للنجاح . فصادفتهم فى الطريق عقبات كأداء لم يستطيعوا اجتيازها أو التغلب عليها ؛ أو أنهم أخفقوا فى دفع الثمن المناسب من الكد والكدح ؛ أو أنهم اضطروا أو أجبروا على اختيار نوع العمل الذى زاولوه .

وأنت لكى تفهم القوانين التى يقوم عليها نجاح الأعمال ، يجب أن يكون لديك إدراك بسيط لقواك الذاتية ، وكيفية توجيهها .

يقال إن رجلاً ممن يرأسون أحد المشروعات العظيمة

الناجحة ، وكان يعتبر من أغنى أغنياء العالم ، أخفق فى أول مغامرة قام بها . فطفق يدرس الحالة على حقيقتها ويتفهمها بعناية واهتمام . وعندئذ وجد نفسه شرّاء بارعاً أكثر منه مديراً كفءاً أو رئيساً ماهراً . فعاد مرة أخرى إلى نفس العمل الذى سبق أن أخفق فيه بعد أن استخدم موظفاً حاذقاً للقيام بإدارة العمل ، وتفرغ هو لعملية الشراء . فحقق بذلك نجاحاً باهراً .

الآباء الموسرون :

من الخطر فى بعض الأحيان أن يولد المرء من أبوين موسرين ، أو أن ينشأ كما ينشأ « أولاد الذوات » أنيقاً رقيقاً مدللا ، لا يعرف الضنى ولا الكد ولا الجهد . فخلال الحياة الناعمة ، المترفة ، التى ينشأ الطفل فيها ، ربما تتكون فيه عادة البحث عن أساليب أقل مقاومة وأقل احتمالاً ، فيعتاد السهل اليسير من الأمور ، ومن ثم يتحول إلى شخص تافه ضئيل ، فيه ميوعة وعدم اكتراث . وعلى النقيض من ذلك نجد أن أكثر المشاهير والعظماء سواء أكانوا رجالاً أم نساء نشئوا فى أسر فقيرة رقيقة الحال . فبمجابهة الصعاب ، وبمقاومة الشدائد يمكن أن تتكون الأخلاق وتنشأ القوة .

إن الأثرياء الذين لا يجدون فى حياتهم من الصعاب أو الإحن إلاّ القليل ، ولا يصادفون من العقبات إلاّ النزر اليسير ،

مع ما يبدو عليهم من مظاهر النعمة والجاه ، وما يغمرهم من أسباب الترف والنعيم مما لم يدفعوا له ثمناً من الجهد والنصب أو الكد والعرق ، لا يلبثون أن يدركهم العجز والوهن . أما الرجل العصامى الذى كوّن نفسه بنفسه ، فمن حقه علينا أن نقدّره حق قدره ، ونحترمه كل الاحترام ، وننظر إليه نظرة التجلة والإكبار .

هل فى الدنيا شىء اسمه الحظ ؟

حتّى اللعبة التى نطلق عليها اسم « البخت » كل شىء فيها خاضع لقانون . فأنت مثلا إذا تعهدت بسحب « الكومى » من باكو « الكوتشينة » ربما يحدث أن توفق فى ذلك فى أول مرة . ولكنك إذا كررت المحاولة بعد ذلك مراراً وتكراراً مئات المرات ربما تمنى بالإخفاق وتبوء بالخسران . وبيوت القمار قادرة على تحديد أرباحها بكل دقة حسب ما لديها من عملاء كثيرين . ولا تعتبر هذه « فرصة » صادفت النادى . لأن القائمين عليه يعرفون بالضبط أن دخلاً أو ربحاً معيناً فى كل شهر أو فى كلّ سنة يتحقق من قدر معين من اللعب . حتى لقد يأتى أحد الناس فى إحدى السهرات ويكاد يستنفد موارد النادى ، ولكن حين يأتى وقت التقدير النهائى تكون النتيجة ربحاً للنادى وخسارة للاعب .

وهكذا الحال ، فى كل الأحوال ، مع جميع ما فى الحياة

من شئون وأشياء .

وإذا كانت أعمارنا قصيرة الأمد ، ولنفرض أنها أسبوع أو شهر مثلاً ، فالذى نعبر عنه بالحظ يمكن أن يلعب دوراً . ولكن الحقيقة أننا نعيش مدة طويلة ، فيها الكفاية ، تسمح لقانون النسبة لكى يحل المسألة بأن يقصى بل يحذف الحظ من حيواتنا . فإذا كانت جهودنا كما ينبغى أن تكون ، وإذا ثابرنا وصبرنا ، فإن قانون النسبة هذا سيعمل لمصلحتنا دائماً ، وسنكسب باستمرار ، وسنصل حتماً إلى غايتنا وأهدافنا فى الوقت المناسب .

وإننا لنجد رجالاً ونساء يعملون بجد وهمة بدون كلل أو ملل ، ومع ذلك لا يبدو عليهم أبداً أية بادرة من بوادر الفوز أو النجاح . وهذا ناشئ عن أنهم — ولو أنهم كانوا بالحق صادقين ، أمناء ، أوفياء — لم يستعملوا عقولهم بالطريقة السوية كما ينبغى ، فأخفقوا فى الاستجابة أو الإذعان إلى القوانين العقلية الكائنة فى النجاح . وربما كان افتقارهم إلى النجاح منشؤه : الافتقار إلى الثقة والإقدام ؛ أو خوفهم من المسئولية ؛ أو ربما كان مجرد احتياج إلى تفهم أنفسهم وقوى ذاتهم . ولكن من المؤكد أنهم كانوا بعيدين كل البعد عما تتطلبه منهم هذه الحياة الكبيرة . وأن عائقاً كان يعوقهم عن إدراك بعض الأصول أو الجوهريات التى تحتاجها مستلزمات المعيشة فى هذا الوجود ، وإلا لكانوا من الناجحين .

حينما كنت فتى يافعاً ، عملت بوظيفة كتابية فى إحدى

المؤسسات الكبيرة المعروفة فى القطر بتجارة الحديد . وبعد سنين عدة ساقنى حب الاستطلاع إلى زيارة نفس المكتب الذى كنت أعمل فيه . فوجدت عدداً من نفس الموظفين يكدحون ويسيرون الهوينا فى نفس العمل الذى كانوا فيه منذ أن كنت معهم . إنهم عبيدو العادة ، منساقون على غير هدى ، مدفوعون إلى غير غاية ، خائفون من الإسراع فى السير ، ومن محاولة بعض أشياء تخالف أو تغاير خط سيرهم فى العمل . والتقيت برجل فى نحو الستين من سنى حياته كان يعمل محاسباً طول حياته . وكان مثال الأمانة والاستقامة مكث فى نفس المؤسسة التى يعمل بها أكثر من ثلاثين سنة . ولكنه كان فى أشد الحاجة إلى الإقدام والثقة بالنفس، لقد عُرض على هذا الرجل خلال هذه المدة الطويلة وفى مناسبات عديدة ، وظائف أخرى ، منها وظيفة مدير لبعض فروع الشركة . ولكن خوفه من المسئولية كان السبب دائماً فى رفضه الترقية . لقد كان خائفاً من نفسه ، عديم الثقة بها . فخاف من انتهاز فرصة كانت ستقوده حتما إلى النجاح .

ادرس مقدراتك :

ثم إننا نجد أناساً يزاولون أعمالاً لا تناسبهم البتة ، ولا تليق لهم ، ولا توافق مزاجهم . وهذا يتعارض بطبيعة الحال مع أى نجاح ، ويحول دون بلوغ أى تقدم . مثل هؤلاء الأشخاص

كان عليهم أن يعملوا لأنفسهم قائمة جرد ، ويرسموا لأنفسهم خطة يسيرون عليها . وكان عليهم أن يدرسوا قدراتهم وكفاياتهم ومؤهلاتهم قبل شروعهم فى امتهان العمل الذى يمارسونه . .

وعلى المرء أن يدبر أموره ، ويقرر مصيره ، ملاحظاً ماذا عسى أن تكون الحرفة أو المهنة التى ينبغى له أن يباشرها ، وذلك بالشروع بالبدء أولاً فى التفكير فيما يفضله عن غيره ، وفيما يحبه أكثر من سواه . ومن ثم يعمل الفكر ليرى إذا كانت له الصفات اللازمة التى تؤهله لهذا العمل . وإذا كان يصلح لهذا العمل أو لغيره .

وكثيرا ما يكون الوالدان مسئولين عن البداية الأولى التى قد تكون فى أغلب الأحيان بداية مخطئة . فالأب يريد أن يكون ابنه طبيباً أو محامياً أو غير ذلك . فيشرع فى تأهيله كى يجعل منه طبيباً أو محامياً بصرف النظر عما إذا كان لدى الابن ميل طبيعى للدخول فى مثل هذه المهن .

إننى أعتقد اعتقاداً جازماً أن خمسين فى المائة من الأطباء الذين تخرجوا فى كليات الطب لم يفتحوا عيادات ولم يزالوا المهنة . وأن نصف هؤلاء زاولوا أعمالاً أخرى بعد أن أمضوا سنة فى التمرين . فيالها من كمية كبيرة لا يستهان بها تلك الطاقة المبددة ، وذاك الوقت الضائع هباء .

إن الأب إذا رغب فى مساعدة ابنه ومعاونته على توجيهه الوجهة الصحيحة فى السبيل السوى إلى مستقبل حياته ، عليه

أن يقوم بدراسة ابنه دراسة دقيقة . فيجعل هذه الدراسة هى التى تقرر مصيره ، وتبتّ فيما عساه يكون أصلح له وأجدى ، بدلاً من أن يتبع هوى نفسه فيضل سواء السبيل .

هل يعبر عن الإخفاق أو الفشل الناشئ عن سوء التصرف فى هذه الأحوال « بسوء الحظ » ؟ كلا . .

ادرس نفسك دراسة عميقة :

إنك إذا استرجعت وتأملت فيما مضى من أيام عمرك ، ستجد أنك اجتزت عدة مناسبات ، ومررت بعدد من الفرص لم يكن لها أى اتصال وثيق بذاتك اللاشعورية ، وحصلت فى الغالب على ما نطلق عليه « الشعور » أو الإحساس عند سنوح هذه الفرص فتقتنع بها وتقبلها . أما ما نسميه « التأثر النظرى » مما اعتاده بعض جامعى المال وطالبى الثراء ، فمعناه بكل بساطة أن هؤلاء الناس على صلة وثيقة بما استقر فى أعماق ذواتهم سواء أكان ذلك شعوريًّا أم لا شعوريًّا . وباستخدام هذه القوى مراراً يغدو هذا الطور من عقولهم أكثر كمالاً وأعلى مستوى .

ولا يخفى أن هناك دائماً عنصر « المصادفة » الذى يرتبط بالحياة ارتباطاً وثيقاً ، ولكنه ليس الحظ . ونحن إذا اقترفنا بعض الأخطاء أو تردينا فى مواطن الزلل ، كما يحدث أحيانا ، فمعنى هذا بكل بساطة أننا إما أن نكون عديمى الدراية بالقوانين الجوهرية التى تحكم هذه الأشياء وتنظمها ، وعلى جهل تام

بمبادئها ؛ وإما أن نكون قد ارتكبناها عامدين متعمدين رغبة منا فى تأدية عقاب يفرض علينا ، أو نيل جزاء نستحقه .

إننا كثيرا ما نسمع أن « فلانا صادفه حسن الحظ » ولكنى أرى أن هناك دائماً ثمة شىء خلف هذه الحركات التى تبدو فى الظاهر أنها موفقة سعيدة .

فإذا آلى المرء على نفسه أن ينجح ، وأن يجعل الجهد وراء رغباته ، وكانت له روح طيبة ، ونفس عالية ، فإنه سينجح . مثل هذا الشخص بدلاً من أن يسمح للإخفاق أن يثبط من همته ، أو يوهن من عزيمته ، يجعل منه درساً يستفيد منه ، ويواصل السير حثاً بخطى ثابتة ، باستمرار وبغير انقطاع .

لقد ذاق أغلب الأثرياء والموسرين فى بعض فترات من حياتهم مرارة الإخفاق ، ولكنهم كانوا فى كل مرة من مرات الإخفاق يستفيدون الكثير من الخبرة والتجربة ، إلى أن جاء اليوم الذى عثروا فيه على الشىء الصائب ، وانكشف لهم ما ليس فى حسبانهم ، فأتموا شيئاً يستوجب الاهتمام ويستحق الكدح . وقانون النسبية سينتج وسيؤتى ثماره وسيعمل على مساعدتنا ، وسيعيننا على الحياة إذا نحن داومنا على السير فى العمل بجد واستمرار .

وأنت إن كنت مخفقاً فى أمر من الأمور فلا تلق تبعة إخفاقك على « الحظ السيئ » ، وإنما التبعة تقع ثمة على خطأ ترديت فيه . وتأكد أن إخفاقك قد يكون سببه هو حاجتك

إلى فهم أو خبرة أو إدراك أو فطنة . وقد يُعزى إلى توافق ذهني مخطئ .

والجهد الموجه توجيهاً حسناً إيجابياً إلى الطريق السوى مآله بكل تأكيد إلى النجاح والتوفيق . فأنت سيكون لديك بطبيعة الحال محصول من القمح لا من الشعير إذا كنت قد زرعت قمحاً . . وليس للحظ دخل فى هذا .

كم من أناس يأملون وينتظرون بفارغ الصبر أن يتغير حظهم فى يوم من الأيام . وهيهات أن يغير الأمل والانتظار من الحظ شيئاً . إنما التغيير أو التبديل يجب أن يحدث فيك أنت . . فلا تجلس فى انتظار « الخير » يأتى ساعياً إليك . بل يجب عليك أن تسعى إليه أنت .

علينا جميعاً أن ننتهز الفرص فى حياتنا . وخير لنا أن ننتهز فرصة وإن فلتت منا ، من أن نقف ساكنين أو أن نركن إلى الراحة والدعة . ولا يوهنن من همتك أو يثبطن من عزمك أن تسقط أو تزل أو تخفق . بل انهض من كبوتك وسر قدماً ، وصابر وثابر واستفد من التجربة .

إن عظماء الرجال لم ينتظروا الفرص لتقف أمامهم وتعرض نفسها عليهم ، إنما هم الذين قبضوا عليها وتشبثوا بها وهى مسرعة أمامهم ، وسخروها لقضاء حاجاتهم .

يبدو على معظمنا فى كثير من الأحيان أنه ليس أكثر جرأة ولا أكثر عزماً من طفل يتعلم المشى . فيكبو من وقت إلى

آخر أثناء محاولته تعلم فن التوازن . ولكنه ينهض من كبوته ويعيد الكرة مرة بعد مرة إلى أن ينجح .

إذن لا تذر أحداً يتبرم أو يبدى تذمراً من أن الأقدار تخونه أو أنها تعمل فى بعض الأحيان ضده ؛ ولكن ، يخلق به حين يكبو أو يتعثر ألاّ يتطير ولا يتشاءم ، فالرجل المتشائم لا نفع له ولا جدوى منه . فهو على التحقيق مخفق فى حياته . وإن حيوانا أليفاً لأجدى فى الحياة من هؤلاء المتشائمين .

شمر عن ساعديك ، وخذ لكل شىء عدته ، فقد يكون هناك شىء مجهول من أسرار الكون فى انتظارك . وقد يكون ثمة دافع يرفعك ويسمو بك بالتدريج فوق سوء الحظ ، وقلة البخت وتغدو كل يوم أكثر استهانة وأقل تأثراً بهجمات النحس وغدرات الزمان . وتتعلم كيف تقتحم طريقك وتسلك سبيلك بالرغم مما يصادفك من عقبات ، إلى أن تصبح أخيراً قادراً على تكييف « حظك » وصياغته كما تريد .

قال أحد المفكرين : « إنما الحياة قصيرة جدًّا ، أقصر مما نتصور أقصر من أن نبدد لحظاتها فى التحسر والبكاء على سوء الحظ وقلة البخت ؛ بل يجب علينا أن نلاحق النجاح ونتابعه ونسعى إليه لأنه لن يأتى إلينا ، ونحن ليس لدينا وقت نبدده » .

واجه مخاوفك

لا أريد أن أكون موضع خوف بل موضع اهتمام .
« سعد زغلول »

إذا ألغيت الخوف من عقلك وقلبك ، كسبت الثقة التي لا بد منها لحياة منتصرة ، وعاونت على خلق الثقة لدى الآخرين . وبفضل الإيمان والتفكير تستطيع أن تجعل الخوف في أجازة دائمة .
« جورج ماتيو آدامز »

لا تخش انفعالاتك أو عواطفك . لا ترهبها ، حتى ولو كانت متعبة مكدودة . بل ادرسها ، وابحثها ، وفكر فيها . . . سيطر عليها ، واحكمها ، وتحكم فيها . . . ثم حولها لمنفعتك ولنفع الآخرين .

سمعت عن رجل كان يخاف البرق ويخشى رؤيته . فطفق يدرس الكثير عن البرق . وشيئاً فشيئاً عرف كيف يصوره من زواياه المختلفة . فتعلم كيف يفرق بين الومضات المتكررة الأخاذة ، عمودية كانت أم أفقية . وبذلك تلاشت مخاوفه من شر أنواع العواصف البرقية — وأصبح الشيء الذي كان يخشاه

ويرهبه ، هوايته المفضلة . ولشدّ ما كان يسرّه ويثلج صدره أن يخرج إلى شرفة منزله فى أثناء عواصف الرعد الرهيبة ويصور وميضها وبريقها ، حتى لقد ظنه أحد أصدقائه أنه أصيب بلوثة فى عقله . ولكن كان العكس هو الصحيح . لأنه بعد ذلك أخذ يكتب ويبيع لمجلات مختلفة موضوعات شائقة عن البرق والرعد . . لقد حول خوفه إلى هواية فيها كثير من النفع ، وفيها ربح وفير .

وكنت أعرف شابًّا كان أخوف ما يخافه هو أن يفقد وظيفته ، مع أنه كان على درجة من الثقافة لا بأس بها . ولكنه راح يدرس الإجراءات والشئون التى تتعدى حدود اختصاصه . واشترك فى تدريب بالمراسلة خاصة بالمحاسبة وطرق التجارة . ولقد أصبح بعد ذلك رجلاً حرًّا يستمتع بعمله كأحسن ما يكون الاستمتاع . لا يوهمه خوف ، ولا يخيفه وهم . لقد تعلم فيما تعلمه أنه فى حالة ما إذا فقد عمله أو وظيفته — وهو الرجل الحاذق — فإنه حتما سيجد وظيفة أخرى أحسن وأفضل فى انتظاره ، وبأسرع مما ينتظر .

وبنفس هذه الطريقة يمكن التغلب على جميع الذهانات[١] الانفعالية والسيطرة عليها . إنك لن تحتاج إلى أكثر من أن تدرس الأشياء التى تخاف منها وترهبها . جزئها وخذ كل جزء

---

(١) الأمراض العقلية .

منها على حدة . ابحثها ، وافحصها ، ودقق الفحص فيها . . صور البرق وومضاته اللامعة المتألقة . عندئذ ستتحول أحزانك ومتاعبك ومخاوفك إلى ما يفيدك ويعود عليك بالنفع الجزيل .

وفى إمكان كثير من العصابيين [١] أن يعتبوا أو يسكبوا امن جديد خلقهم وطباعهم . وفى مقدورهم أن يعيشوا عيشة هنية رضية إذا عرفوا كيف يكشفون عن الحقائق التى توضح لهم تركيب المخ والأعصاب ، ووظائفها ، والمبادئ الأولية للعقل — وبكلمة أخرى علم النفس . .

إن تحليل الخلق ، وتحليل النفس ، إنما يرتكز عليها نور العلم الوهاج . وأطباء الأمراض العقلية يؤكدون أن التقلب العاطفى ، والطيش ، والتردد ، كثيراً ما يكون ملفتا للأنظار . وبوسع المرء أن يوفقها مع طول موجة ذهنية أخرى ، كى يمضى بعيداً تجاه النجاح . وستكون الحالة فى تغير مستمر دائم .

وبعض الناس سرعان ما يتألمون ويتوجعون ، وتتفجر دموعهم حزناً وكمداً ، ويطفقون يبكون ويعولون لأخف لوم ، ومن أقل تأنيب . ثم يظهرون من جديد الاحتقار والازدراء والتشفى . ثم يخففون عن أنفسهم ويفرجون عنها بعصفات عنيفة ، وهبات قاسية من السخط والحنق والغضب . وهكذا ينقلب السرور إلى حزن ، والبهجة إلى هم وكرب ، والفترات الطويلة

---

(١) المرضى باختلال الأعصاب .

من السعادة تتبعها غمرة من غمرات المكاره ، وحالة من حالات اليأس ، وانقباض النفس .

هذا الضرب من الطبع المتقلب ، الدائم التغير ، يتكشف دائماً فى نواحي نشاطهم . إنهم إما أن يكونوا سعداء دائبى الحركة ؛ وإما أن يكونوا غير قانعين ، بطرين ، مع خمول وعدم حركة . إنهم عطوفون ودودون فى بعض الأحيان ؛ نفورون ، ثقيلو الدم أحيانا أخرى . إنهم على حالات وأمزجة تدعو إلى عدم الاعتماد عليهم ، أو الوثوق بهم ، أو الركون إليهم . بسماتهم يعقبها عبوس ، ويتبعها تجهم وقطوب . ويقف أصدقاؤهم ومعارفهم حائرين حيالهم لا يستطيعون لهذا التقلب تفسيراً . وإنهم ليحتاطون دائما ويحترسون لتفادى العواقب وتجنب التبعات .

وهكذا يتحول الكثير من أمثال هؤلاء الناس إلى « خلان يتلونون مع الزمان » . إنهم لا يكادون يحبون بدون معيار ، حتى يكرهوا بأسرع ما يمكن بدون سبب أو مبرر . وبوسعى هنا أن أقرر — من باب العلم بالشىء — حقيقة ثابتة ، هى أن الميل إلى الكآبة والانقباض لدى الذكور أقوى بكثير مما عند الإناث .

والناس جميعا يتفاوت تأثرهم بإيحاءات أناس آخرين . كما يتفاوت انقيادهم إليهم عن طريق تلك الإيحاءات . وكثيراً ما يتعرض كل فرد (لنغزة) عصبية أو حالة هستيرية تشبه إلى حد ما (عفريت العلبة) . ويتوقف انطلاق هذا العفريت

وعدم انطلاقه على قوة الزمبرك والقوة الموضوعة على الغطاء .

فمن الخير أن نذكر جيداً أن شيئاً تافهاً قد يحطم كيان الإنسان ويضعضع بنيانه ؛ ولذلك ينبغى علينا أن نتحاشى إثارة أصدقائنا ورفاقنا ، ونتجنب استفزازهم ، أو تجريحهم ، أو خدش شعورهم ما دام ذلك فى وسعنا .

إن عناء العمل اليومى ، والمجهود المضنى الذى نقوم به كل نهار ، مع ما يصحبه من مناقشات صغيرة ومحادثات أومعاملات مع أناس سخفاء غير معقولين ، يقودنا إلى السعادة ، ويهبنا الرفاهية ، ويمدنا جميعاً بالخير وحب الخير .

ولقد ذهب بعض المحللين النفسيين إلى أبعد من هذا ، فقالوا إن الطبع السيئ أمر محمود فيه خير ونفع كبير . ذلك لأنه يؤهل الفرد ويبعث فيه القدرة لكى « يفتح الصمام » ويطلق منه « البخار » والضغط ؛ وعندئذ يستطيع الفرد أن يقفل أو «يسد» الصمام فى أى وقت فيغدو سوياً مرة أخرى بضع أسابيع . أما هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يطلقوا « البخار » فى شكل طبع فإنهم يستيقظون فى أغلب الأحيان ليجدوا أنفسهم فى حراسة عقلية بإحدى المستشفيات .

وإنه لأمر عادى جداً ، بل وطبيعى أن يثور الإنسان ويتميز غيظاً وحنقاً . ولكن لابد أن يكون هناك لهذه الحال من ترياق . . وهذا محقق أكيد، تحققنا من وجود عقار أو مادة كيماوية هاجعة فى هذه اللحظة على أرفف الأطباء والصيادلة

مما يمكن أن تشفى السرطان والسل الدرنى . إذا نحن استطعنا أن نقع عليها ونعرفها .

وحين تصادف شخصاً مغيظاً . فقد اتزانه : عليك أنت أن تظل رزيناً ، ثابتًا ، عديم الاكتراث . وأن تضع أعصابك فى ثلاجة — إن اضطراك الأمر لذلك .

وإن رجلاً سيئ الطبع لابد أن يقدر الرجل الذى يمكنه أن يظل هادئًا رصيناً . إنه نفس قانون الطبيعة الأزلى القديم : العناصر المتشابهة تتنافر ، والعناصر غير المتشابهة تتجاذب .

إننا جميعاً عصبيون ، ولكن بدرجات متفاوتة . ولقد تمرسنا واعتدنا الضعف والوهن العصبى الناشئ عن المجهود والإجهاد العقلى المتصل ، والعمل الشاق المتواصل . وربما ينتاب بعضنا حالات هستيرية حقيقية ، ويهب كالعاصفة دون أى سبب مثير ظاهر . ومقدار الإجهاد وطبيعته التى من شأنها يتسبب الخوار والتهافت تختلف وتتباين باختلاف الأفراد . فبينما نجد شخصاً يستطيع رفع ثقل فوق المتوسط ، نرى آخرين يعجزون عن رفع ثقل أقل منه بكثير . .

والعمل الذهنى إذا امتد إلى حد الإفراط ، أو تجاوز القدر المعقول ، على شرط ألا يكون مصحوباً بالقلق ، ليس سبباً أو علة متكررة ، بصرف النظر عن المعتقدات المألوفة لدى عامة الشعب .

ولكن إذا ما وجد القلق ، فلابد من وجود ضعف بالأعصاب

وتكرر وقوع حالات من النور ستانيا . وغالباً ما تكون الأعراض الأولية لهذه الحالة هي العجز التام ، وعدم القدرة على التفكير تفكيراً مترابطا ، متتابعاً ، متصلاً دون انقطاع .

وهنالك كثير من الناس ممن عُرفوا برجاحة العقل ، ونفاذ البصيرة ، وأصالة الرأى ، تغلب عليهم حالات نورستانية ، ولكنها ليست دائماً بسبب أعمالهم . وكم من أعمال مجيدة خالدة قامت على أيدى أناس ضعاف الصحة ، ضعاف الأعصاب .

إن كل فرد فى الدنيا كان فى الأصل عصبياً ، يعجز عن مقاومة كميات القهر والإجهاد بدون تعطل . إذا كانت كفتا الميزان متعادلتين تماماً ، فإن وضع ثقل واحد فى إحدى الكفتين يرجح ذلك الجانب .

وقد تأتى « الزوبعة المخية » من أثر تعب شديد ، وإجهاد مفرط ، ومن التهيجية (سرعة الانفعال والتهيج) . وفى إمكاننا أن نتبين وندرك إذا كان غيرنا من الناس فى حالة طيبة ومزاج معتدل ؛ أو فى حالة حزن واكتئاب : أو إذا كانوا مصابين بالسوداء . وعندئذ يتحتم علينا أن نبذل كل ما فى وسعنا ، ونعمل جهد طاقتنا لنتحاشى الكلمات الجافة ، والألفاظ القاسية ، أو الجارحة ، التى قد تكون سبباً لإثارة المشاعر ، وإيغار الصدور ، واستثارة الضغائن والأحقاد ، وتكون بالتالى سبباً لأضرار فادحة .

كيف نحس بهذه الزوبعة المخية التى تهددنا فى أى وقت ،

والتي قد تكون محدقة بنا ، مشرفة علينا ؟ . .

إذا تركنا « الحركة » هي التي تحكي لنا القصة ، عرفنا أن الفرد إذا عمل بطريقة سوية ، ونظر بطريقة سوية ، وكانت حركاته موزونة ، متزنة ، فهو لا شك معافى ، فى تمام العافية . ولابد أنه يشعر بسلامته وكماله ، بصرف النظر عما يقوله غيره عنه . أما إذا كانت حركاته مهتزة ، مترنحة غير رتيبة ، تلازم ساقه أو ذراعه أو رقبته حركات تشنجية أو تقلصية — هذا الشخص لايمكن أن يسمح له تركيب عقله بالدخول فى مناقشات أو مجادلات تحتاج إلى التدليل ، وإقامة البراهين عليها .

وإنها لحقيقة ثابتة معروفة ، أن الشيء قد يكون بالغ التفاهة ولكنه يهدم كيان الفرد ، ويشوش عليه عقله وتفكيره ، ويضعضع بنيانه ، ويكون سبباً فى عدم توافق مجموعات العضلة ، وفى التأثير على الجهاز العصبى .

إننا أتينا إلى العالم وفى كل منا قدرات متفاوتة غير متشابهة لمقاومة الإجهاد، سواء أكان انفعالياً أم ذهنياً أم فيزيقياً أم إم روحانياً أم كيميائياً—هذا الإجهاد الذى هو فى الواقع مجموع القوى التى تؤثر على التركيب العضوى فى الفرد ، وعلى خلاياه الأصلية ، الجوهرية . فهو لذلك يتضمن العلة ، والعمل الآلى ، والمجهود الفكرى .

وما نحن إلاّ فى مدارج العلم ببعض أشياء عن سبب التفاوت والتباين فى المقدرة على مقاومة هذه الحياة شديدة البأس ،

قوية البطش ، وعلى الصمود أمامها . ومن المحتمل أن تكون الوظيفة الشاذة لإحدى الغدد الصماء أو لجملة منها هى الأصل أو الأساس لكثير من الوساوس وضعف الأعصاب ، أكثر من أى علة نشأت فى الأصل من النظام العصبى نفسه . ولكن هذه نظرية أكثر منها مذهب علمى أو حقيقة واقعة محققة .

وبينما نجد كثيراً من الناس يتحملون الصعاب ، ويجابهون المشاق ، بقوة وبصبر وشكيمة . ويقاومون مقاومة فعالة ناجحة أثقال الحياة العادية المألوفة ، نجد آخرين يستسلمون لليأس ، ويستكينون للقنوط ، ويرزحون تحت أعباء وأوقار يتحملها غيرهم بثبات ورباطة جأش ، ورحابة صدر ، وعزم شديد — مهما كانت الأسباب أو الدوافع — ويبدو بالرغم من هذا ، أنه من الخير لنا ، بل من المحتم علينا ، أن نسمو بعقولنا ، ونرتفع بمشاعرنا ، حين نحاول أن نوفق بين مشاكلنا فى الحياة ، وبين أسلوبنا فى المعيشة بالنسبة إلى الحياة العاطفية لمن نعاشرهم أو نعيش معهم أو نرتبط بهم فى المعاملات .

والأمراض العقلية العاطفية التى يطلق عليها علماء النفس « الذهان العاطفى » كالخوف والبغض والكراهية والحب والثأر والتظاهر الكاذب ، مدعاة للحيرة والارتباك والوهم . وذهان الخوف على رأس القائمة ؛ فعند كثير من الناس أوهام من الخوف تملأ أذهانهم ، وتسيطر على رءوسهم ، كالخوف من الإخفاق ، وضياع المستقبل ؛ والخوف من الزحام ، والخوف من

الجرائيم . كل هذه المخاوف بجميع صنوفها وضروبها ، يتحتم علينا أن ننتزعها انتزاعاً من نفوسنا . ونتخلص بل ونتحرر منها جميعاً ، لاسيا ونحن فى زمن التثقيف والاستنارة ، وعهد العلم والعرفان . كما يتحتم علينا أن نعمل على ألا يكون للبغضاء والكراهية مكان أو أثر فى حياة أى فرد . وأن نملأ بالحب والود والعطف والحنان قلوبنا وأفئدتنا مدى الحياة . وأن نحيا حياة عالية المستوى ، خالصة من شوائب الهموم والكروب والأحزان . وأن نعمل على الحد من وطأة الثأر والانتقام — أيًّا كان نوعه أو كيفيته — من النفوس الملتهبة بالغضب واللهب ، والصدور المضطرمة بالحقد والموجدة . وأن نمحو ما قد يكون عالقاً بالقلوب من سواد وقتمة وسخيمة . وأن نكون عطوفين على الناس ، متسامحين معهم ، رحماء بهم ، نحب لهم الخير كما نحبه لأنفسنا .

أما التظاهر المموه ، والتفاخر الكاذب ، والمباهاة الخداعة ، فهى ذهان له وزنه وله قيمته . وإنه لجدير بالدراسة والبحث . فكل فرد يودّ لو يضفى على نفسه شيئاً من الملاحة ، وحسن السمة . وإنه ليحب أن يتظاهر بالوجاهة ، والإصالة والجاه العريض ، وجمال المنظر والمظهر . وليس من شك فى أن هذه طبيعة متأصلة فى كل فرد . إذ أننا جميعاً نجاهد ونكافح فى سبيل التفوق والتبريز على سوانا ، ولكى نعلو فوق مستوانا . وأكثر الناس لا يسعدون ولا يهنأ لهم عيش إلاّ إذا فاقوا

أقرانهم وبرزوا عليهم. ولعلّ هذه المنافسة هى السبب المباشر الذى يعاون على النجاح الحقيقى الذى لا يمكن الوصول إليه إلاّ بشق الأنفس ، ولا يناله إلاّ كل مثابر ، صابر ، مجد ، عنيد .

كن مرحاً . .
تكن سعيداً

إن العبوسة والكآبة واضطراب النفس دلائل على الصغر . فجميع النفوس الكبيرة يكتنفها جو السكينة والطمأنينة .

« أناتول فرانس »

النور الذى يلمع فى عينيك تأتى به النار التى تضطرم فى صدرك .

« بيرون »

السعادة فى هذه الحياة محصورة فى فهم معنى الحياة .

« تولستوى »

ذات أمسية من أمسيات الربيع ، كنا ستة نفر جلوساً فى غرفة الانتظار نرتقب حضور باقى الزمرة واكتمال عقد الجماعة . كان منا من يدخن ، ومنا من يستمع إلى المذياع ، ومنا من يتجاذب أطراف الكلام مع خدين له . وكان الحديث يدور فيما بيننا فاتراً سقيماً متراخياً . وإذا بى أشعر على حين بغتة بالجو وقد تكهرب . فتلفت حولى لأرى غادة هيفاء ، رشيقة

القوام ، حسنة الهندام ، تلج الغرفة يتبعها باقى أفراد الجماعة .

كانت تتحرك فى رشاقة ، وتتمايل فى خفة . وحين بدأت تتكلم تبين لى أن فى صوتها الخفيض رنة سرور ، وأن له نغمة موسيقية . حيّت كل من تعرفه فرداً فرداً ، وأبدت اغتباطها وحبورها بالتعرف على الآخرين . إن عينيها اللامعتين تلتقيان بعينيك ترى فيهما إشراقه ساطعة كما لو كانت تحشد كل ما فى الدنيا من سرور وطرب . ويتجسد فيهما كل معانى الفرح والابتهاج . ولا تملك إزاءها إلا أن ترخى بصرك فى استحياء .

كانت بسماتها الطروبة المتألقة بما فيها من وميض طابعاً خاصاً لها . . وكانت ضحكاتها الفرحة بما فيها من ازدهاء تأخذ بمجامع القلوب والأفئدة . . وتمايل رأسها كان يوحى بأن كل شىء حولها فيه طرب وحبور وموسيقى . أما حركات يديها وكتفيها ففيها اتزان فطرى ، وإيقاع غريزى . كانت تعرب — بكل السبل وبجميع الوسائل — عن سرور جمّ ، وتعبر عن غبطة وانشراح ، وتعلن بحماس حيوى واستجابة متلهفة ، وتوافق متحمس ، إلى كل ما يبعث على الارتياح والاستبشار ، ويجلب الحب والود والوئام ، ويشجع على الحياة وحب الحياة .

لقد تأكدت تماماً من الطبيعة الجميلة ، والفطرة السليمة ، فى كل شىء قالته أو فعلته . سرّنى منها أنها تدير الحديث بلباقة ، وتتنقل بين الجمع برشاقة . كان حديثها ترحيباً بمن حولها ، منبهاً ومؤنساً لهم ، محبباً إليهم ، فيه عذوبة ، وفيه رقة

وسحر . كانت فعالها مع ما فيها من سرعة خالية من أى تكلف أو تصنع . وكانت مظاهر السعادة تتألق منها . كانت تبدو وكأنها مخلوق من عالم آخر . لقد فتنتنا جميعاً ، وخلبت لبنا ، وسبت عقولنا . لم أتمالك نفسي من متابعتها بنظرى ، غير قادر على تحويله عنها . وطفقت لا أرى ولا أسمع ولا أشعر بشيء غير إثارتها المدهشة ، وتأثيرها السحرى ، وأثرها العميق فى النفس . وبت لياتى مسهداً ، مفكراً ، متأملاً .

* * *

ليس من عجب فى أن معظمنا يعيش على هامش الحياة ، عيشة رتيبة متماثلة . . (والذى يبات فيه ، يصبح فيه) ؛ أو يبدد وقته فى هوايات سطحية لا تنفع . إننا اعتدنا أن نمشي ونتحرك آليـًا. طوال كل يوم يأتى علينا ، دون أن نفكر فى شيء يجعل منا أناساً ذوى شخصية ، وذوى أهمية .. أناساً ترمقنا الأعين بالإعجاب والإكبار .

إن سوراتنا الفكرية الطبيعية ، وخواطرنا ، قتلها الاحتشام والأدب والتقاليد . وغدونا نسلم جدلاً على سبيل الفرض بأشياء كثيرة جداً — كضوء الشمس مثلاً ، وأوراق النبات الزمردية ، وصحتنا ، وابتساماتنا ، وأصدقائنا — وأصبحت جميع أفكارنا وأفعالنا تتبع نماذج شعبية مصنوعة محليـًا . وصار كل شيء يتحول بل يهبط إلى مجرد صورة . إننا على حال من السفسطائية لا يمكن تصورها . حال غير طبيعية وغير واقعية . ونسينا كيف

نكون مسرورين منبسطين ، وكيف نثير الدهشة والإعجاب .
ولم يبق في قلوبنا أية بهجة أو غبطة أو انجذاب .

ألم تواتك الظروف بالجلوس فى قطار محدقاً فى الفضاء الواسع وأنت خالى الذهن ، ليس بعقلك أى شىء . فتروعك شخصية مرحة نشطة ذات حيوية دفاقة ، شذبة الإهاب ، تمر أمامك فى الممشى ؟ . . إن أى شخص آخر يكون مجرد عابر سبيل كأى مسافر عادى ، بعكس هذا الشخص الذى ينبعث منه الحماس ، وتبين عليه بوادر الحمية ، التى يمكن التعبير عنها بصدق وسهولة ، بأنها حب الحياة .

ألم تلحظ فى أحد الشوارع المزدحمة شخصاً ما يسير كما لو كان أميراً ، يبدو من سمته كأنه يود أن يصافح بكل إخلاص أيدى كل الدنيا ، ويلوح من مظهره كأنما خلق لكى يعيش مرحاً نشيطا ، سريع التأثر ، كأنه على وشك أن يرفع عقيرته بالغناء ؟ . . وبينما تكون متنبها إليه ، مشغولاً بالنظر إليه وقت مروره ، لا يكون لأى شخص آخر سواه أية قيمة أو أهمية ؟ . .

ألم تر شخصاً يقوم بعمل صغير تافه كختم طوابع البريد على الخطابات مثلا ، أو شراء زوج من الجوارب ، يحوطه جو مفعم بالنصر الذاتى الذى لا يحده وصف . وفى حالة يكتنفها الظفر الذي لا حدّ له ؟ . .

ألم تشاهد أطفالا صغاراً يزاولون بازدهاء ومرح إحدى اللعب البسيطة ؟ . .

أولئك هم الأشخاص الذين لا تزال شمسهم تسطع بأشعتها الذهبية كل يوم . . . .

أولئك هم الذين يغزون بابتسامة ، وينتصرون بكلمة ، ويعيشون بحرية وانطلاق ، ويحيون حياة كاملة ، غنية ، سعيدة . .

إن كل ما تحتاج إليه هو أن تنغمس فى السعادة ، وتغمر نفسك بها بقدر ما تستطيع . .

عبر عن الإيقاعات التى تكتمن فيك . وتأثر سوراتك الفكرية ، وتتبع خواطرك الفجائية . تعقب دوافعك وبواعثك . غن حين تشاء أن تغنى . ولا تنتظر أحداً يشاركك فى الغناء . وارقص حيثما تشاء ، ولن يضيرك من الرقص شىء ، ولن يؤاخذك إنسان . افتح ذراعيك على آخرهما . ابسطهما ومل برأسك إلى الوراء ، واضحك . اضحك ملء شدقيك ! . . عندئذ ستشعر بالسرور والبهجة . وستحس بغبطة روحية ، وبفرح علوى سام يغمرك ويملأ جوانبك ، ويفيض فى كيانك . ماذا يهمك أو يقلقك إذا لم ير الآخرون سبباً ظاهراً أو علة واضحة لذلك ؟

عبر عن نفسك ، وعن حبك ، وعن سعادتك . وثابر على هذا التعبير واستمسك به . لا تذر السعادة أو الحب يخرج من حياتك لحظة واحدة . .

ابحث عن الأشياء التى تستدر الضحك . كن خفيف الروح ، ذا نفس مرحة طروب لا يخنقها هم أو قلق . فالفكاهة والبشاشة تدفع المرء إلى الشعور الطيب . والشعور الطيب الخير خطوة مبدئية نحو الهدف ! . .

أوجد لنفسك كل يوم شيئاً جديداً يبعث على السرور . واجعل الدنيا تعرف عنك أنك مغتبط جزل .

إذا لقيت فى طريقك مرة شخصا ممن تعرفهم وكان مكتئباً حزيناً ، رحب به وكأنك لم تره طول حياتك مبتهجاً فرحاً مثل هذه الساعة . قل له إن السعادة تبين واضحة على محياه بشكل عجيب ، وكأنها تذيع على الناس أهم الأنباء وأعظمها . ومن ثم راقبه وهو يفتح عينيه وينصب قامته أكثر من قبل .

افعل من الأشياء ما تحب أن تفعله . واغتنم اللذات المباحة ، واقتن منها ما يفيدك وينفعك . .

دع نفسك بكليتها تهلك فى سبيل إيجاد فكرة وتحقيقها . . اخلق ! وأنجز ! . . واسع فى الدنيا لكى تسعى الدنيا معك ! !

قف منتصب القامة ، فارع العود ، وانظر دائماً إلى الأمام . وتنفس بعمق ، وخذ الأشياء على أنها سهلة بسيطة . ولا تكن مندفعاً متهوراً . ولا متردداً فلا موضع فى الحياة للمترددين . .

اشتغل بتؤدة ، وتأن فى عملك لكى تكون طبيعياً . فلديك

من الوقت قدر ما عند أى شخص آخر . تمتع بكل ساعة تعيشها . عش فى حاضرك . .

اكتشف كنزاً من الذهب فى كل ذرة من ضوء الشمس . .

هذى هى الحياة بكل ما فيها من خير وفير . .

قدر لكل شىء قيمته . . احصل على كل شىء ترى أنه سيعينك ويعاونك ويصلح من شأنك ، واستحوز عليه لنفسك . اجعله ملكاً لك . بهذه الوسيلة فحسب يمكنك أن تبنى نفسك . وتنشئها من جديد ، وتنميها ، ومن ثم تعيش غنيا موفور الغنى ، منعماً ، واسع النعمة .

ضع نصب عينيك أن ليس ثمة فى الوجود إنسان يمكنه أن يسلبك حقك فى الحياة . أو يختلس منك نصيبك من الأرض أو من النجوم ، أو من شعاع الشمس ، أو من الهواء . كل ذلك ملكك ولك حق استعماله والانتفاع به جميعاً كيفما تشاء . فامش فى مناكبها ، واستشعر ما فيها من جمال وفتنة . وترعرع فى ربوعها حتى تكتمل قواك ، وتكمل شخصيتك .

أشعر بالصحة والعافية ، والمس فى نفسك الطاقة الثابتة — التى لا تزول ولا تفرغ — وهى تسرى خلال كل خلية من خلايا بدنك ! . . عبر عنها بحيوية متوقدة توّاقة ، وبحماس قوى متدفق .

لا تخرج عن حدود روضة أزهارك . وحاول أن تملأها بألحان السعادة . ارفع رأسك عالية حتى تقرب من السحاب .

اجمع ذهب أشعة الشمس . امسك كل نغمة من لحن وضحكة ومسرة . . فالدنيا وكل ما فى الدنيا لك !! . .

ولكنها ليست لك وحدك . إنك ستعرف أكثر من ذلك كثيراً ، وستكون فى حاجة إلى تقسيم السعادة التى ستأتيك ، وستحتار فى توزيعها .

كن مخلصاً لنفسك ، واعمل بالنصيحة التى يسديها إليك أندريه جيد : « لا تقلد غيرك من الناس ، فتفعل ما يفعلون ، وتتحدث كما يتحدثون ، وتكتب كما يكتبون ، ولكن كن مخلصاً لنفسك ، وافعل ما تمليه عليك شخصيتك لتكون جديراً بالإعجاب » .

إن الأفكار تعدى ، بل إنها أسرع فى نقل العدوى من أى شيء آخر . والناس فى ميسورهم أن « يمسكوا » بالسعادة بسهولة لا تخطر على بال إنسان : إذا كانت قلوبهم مليئة دائماً بالأمل ؛ وإذا كان تفكيرهم إيجابيًّا ، بناء ، مجداً . وهذا التفكير الهادئ المتفائل يظهر أثره فى المس الكهربى الذى يشعر به كل من يصافحك ؛ وفى انبساط أساريرك ؛ وفى البسمة العذبة الحلوة ، المنطبعة على ثغرك : وفى البريق اللامع المتألق الذى يشع من عينيك .

وإذا كنت توّاقاً لأن تكون خدوماً لأخدانك وخلاّنك ؛ وإذا كنت راغباً فى شيء يجعل لحياتك قيمة أكثر من قبل ، ولكل دقيقة تعيشها ثقلا له قيمته فى هذا الوجود الكبير ، عليك

أن تأخذ على عاتقك واجباً صغيراً وتعمل على تأديته خير أداء :
هو أن تكون مبشراً بالسعادة ، داعياً إليها بقدر ما تستطيع .

تخيّر لأحاديثك اللفظة العذبة ، والكلمة الطيبة ، فالكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين .

بذلك ستظل شمس حياتك مشرقة ، لامعة ، ألاّقة ، وضوء شمسك متوهجاً ، ذهبيًّا ، أخاذاً .

الشخصية . . .

. . ما هى ، وكيف تغيرها ؟

العظمة هى الشخصية ، وللعظمة مقاييس ، وقد يكون كل عظيم ذا شخصية ، ولا يكون كل ذى شخصية عظيما .

« نابليون »

إن قوة الإنسان وعظمته ومجده كل هذه تتوقف على صفات جوهرية .

« بيكنسفيلد »

الشخصية شجرة ، والشهرة ظلها .

« أبراهام لنكولن »

كم منا فى وقت من الأوقات من لم يحسد صديقاً من أصدقائه على شخصيته ، أو يغار منه ؟ . .

وكم منا من لم يذهب لسماع محاضرة إلا وأحس بخيبة أمل كبيرة لأن المحاضر لم يجتذبنا بحديثه ، ولم يخلب لبنا ، ولم يؤثر علينا بشخصيته ؟ . .

وكم منا من تأثر بشخصية متحدث إلينا فأسلمنا إلى نوم

مغنطيسي جعلنا نتقبل كل ما يقول ، دون أن نتبين أو نتفحص الحقيقة مما يقول ؟ . .

إننا كثيراً ما نلتقى بمثل هذه التجارب فى دنيا الأعمال . . وكثيراً ما نرفض الشراء من بعض الباعة لأنهم « يعاملوننا بطريقة مخطئة » . وفى التدريس يخفق بعض المدرسين فى مهنتهم لأنهم ليست لديهم الشخصية التى يمكنهم بها كسب حب التلاميذ واحترامهم . ومؤلفو الروايات والقصص الخيالية يحاولون تصوير أبطالهم وبطلاتهم ووصفهم بصفات وحالات مستحبة ، ورسم أراذلهم بطريقة تجتذب استهجان القارئ واستنكاره .

فإذا أخفقت فى سلب لب أصدقائك ، أو فى الاستحواذ على عقولهم ، وإذا كنت على طرفى نقيض مع زملائك فى العمل ، فقد آن لك أن تتبصر فى نفسك جيداً وتتحقق من ذاتك . لأن السبب ، على الأرجح ، وفى أغلب الأمر ، يكمن فى شخصيتك.

وإذا كنت ممن يتلقون الأوامر ، أو ممن يقومون بعمل روتينى لشخص آخر أدنى منك عقليًّا ، من كل الوجوه ، فقارن نفسك بهذا الشخص وستجد أنك تفتقر إلى بعض صفات شخصية معينة .

وقد يبدو غريباً معرفة ما للشخصية من أهمية ، حتى إن قلة قليلة من الناس من يتبصر فى شخصيته أو يقوم بمحاولة لتحسينها . ويقنعون بمركزهم الراهن كأمر نهائى دون أن يعملوا شيئاً يخرجهم مما هم فيه من وضع وضيع . فهم لا ينظرون إلى

وضعهم هذا إلاّ أنه قبر يغيبهم عن صوابهم ، وسيهبطون إلى درجة أقل من مركزهم الحالى . إن الرضا بحالتهم الراهنة كحل نهائى ليس أسوأ ما فى الأمر . لأن الفرد لا يستمر فى سكونه أبداً ، ولا يكف عن الحركة أبداً . فهو صائر حتماً إما إلى أسوأ ؛ وإما إلى أحسن .

ولكى نفهم كيفية تحسين أو تعديل شخصيتنا ، لابد أن نعرف ما هى الشخصية . والخطوة الثانية هى أن نعرف أو نكشف عما إذا كان من الممكن تعديلها أو تحسينها . والخطوة الثالثة هى أن نتأمل جيداً طريقة تحسينها إذا كان من الممكن تحسينها .

فما هى الشخصية ؟ . .

إنها تختلف تماماً عن الخلق ، لأن الشخص قد يكون لصاً أو نشالاً ، ومع ذلك تكون له شخصية لا بأس بها . ومع أن الخلق والشخصية يختلفان عن بعضهما ، فالخلق مع ذلك عنصر من عناصر الشخصية . وهو ليس كالحذق أو الطبع أو الجمال أو الكلام ولو أن هذه الأشياء جميعها تدخل فى تكوين مجموع الذات ، أى الشخصية التى لا يمكن تفسيرها أو تعريفها .

ولا يمكن أن يجتمع متقشف وسكير فى مكان ما لمدة عشر دقائق دون أن نعرف شيئاً عن شخصيتهما . ولا يمكننا بحال أن نتحدث كثيراً عن شخصية رجل غريب بمجرد النظر إليه وهو جالس على مقعد دون أن يبدى أى حركة . ولكن فى اللحظة

التى يبدأ فيها أن يتحرك ويتحدث ، يمكن أن نعرفه ونعرف ماذا يكون ! . .

لقد استقر رأى كثير من الثقات على أن : علم فراسة الدفاع ، وتحليل الخلق ، الاستنباء بالعدد ، وسائل لقراءة الشخصية .

ويقول هنرى ترال فى كتابه « سيكولوجية القيادة » إن المرء لكى يكون قائداً يجب عليه أن يبيع نفسه للآخرين . ولا يمكنه القيام بذلك إلا عن طريق شخصية راقية ، ناضجة .

وهناك ، على حد قول هذا الكاتب ، تسع صفات أوعوامل أساسية هى : الحيوية ، والانفعالية ، والإخلاص ، الجاذبية ، والعقلية ، والروحانية ، وسلامة النية ، والجرأة ، والفردية . . ويقول بعد ذلك إن هذه العوامل يمكن تقويمها وتقويتها .

ومن العلماء من حلل الشخصية إلى عشرين عاملاً منها : الطموح ، والفاعلية أو التأثير فى الحديث أو الخطابة ، والصداقة والحصافة أو اللباقة ، والابتهاج ، وسلامة الرأى ، والأناقة ، حسن تدبير الأمور .

ودلت التحريات التى تجمعت منذ بضع سنين فى إحدى الجامعات على أن الشبان الذين يحصلون على درجات عالية ، الذين يخالطون غيرهم ، يحسنون الاندماج معهم ، هم الذين يصيبون نجاحاً أكبر بعد تخرجهم من معاهد التعليم .

وجاء فى أكبر عدد من الإجابات على أحد الاستفتاءات أن الصفات المميزة التى يراها كبار رجال التعليم فى المعلم الصالح هى : الشخصية ، والمظهر ، واللباقة ، والتحفظ ، والوسامة ، والحماسة ، والحيوية ، والإخلاص ، والتفاؤل ، والمعرفة ، والعطف .

وفى بعض الأحيان ، تبدو الشخصية مركبة ، وفى ذلك يقول واطسون ، زعيم المدرسة السلوكية : « إننا يجب أن نعتبر مجموع موجودات الفرد (الفعلية والمحتملة) وديونه (الفعلية والمحتملة) فى الجانب المعارض مثل شخصيته . ونعنى بالموجودات ذلك الجزء من مهمات الفرد ومعداته الذى يعمل من أجل إصلاحه وتقويمه واتزانه فى بيئته الحاضرة ، ومن أجل إعادة تقويمه وإصلاحه ثانية إذا تغيرت البيئة ؛ ونعنى بالدين ذلك الجزء من مهمات الفرد الذى لا يعمل فى البيئة الحالية ، والعوامل المحتملة التى يمكن أن تمنع أو تعوق نهوضه ليلتقى ببيئة مختلفة » .

وهناك آخرون يعتبرون الشخصية كنتيجة تعاونية ، ومحصول تركيبى لهذا الإصلاح المتباين بين ما تفعله الدنيا بنا ، وبين ما نحاول أن نعمله لمواطنينا .

إننى سردت هذه الابتداعات أو التخريجات لأبين إلى أى مدى كانت الشخصية قابلة للتفسير ، ولأبين كذلك وجهات النظر المختلفة الخاصة بها ، والمحاولات الكثيرة التى قام بها الأخصائيون وأهل الخبرة لإيجاد تعريف لها . ولكى لا يحرّف

المعنى من غرضى ، أقول إنى لا أتحدث عن الشخصية بأى حاسة مختصة بالفلسفة العقلية . وإننى لا أبحث ولا أتكلم فى الذات ، أو الذات الأخرى ، أو الأنا ، أو العقل الواعى ، ولكننى أنظر إلى الشخصية بالطريقة التى ينظر بها البعيدون عن الفن لا أقل ولا أكثر . وإن « شيئاً ما » هو الذى يبعثنا على القول بأن شخصاً بعينه يسبي العقول ، وذو نفوذ ، وجاذبية وتأثير .

وينبغى لنا ، دون شك ، أن ندخل فى مناطق اللاشعور والتحتشعور لكى نكشف عن بؤرة العادات والمسالك العصبية التى تكون الارتكاسات التى يهمنا أمرها . ولكننا لا نهتم بشىء آخر أكثر من ذلك . وسنبدأ بأن نفترض أن ميكانيزم الشخصية مخبوء فى أغوار التحتشعور . وأظن أن هذا صحيح لأن جميع العناصر أو المواد الأصلية التى تتكون منها الشخصية تتعلق بالتحتشعور الذى يضبطها ويحكمها على أوسع نطاق . وأظن أن هذا صحيح ، فضلا عن ذلك ، لأن هذه العناصر تبدأ قسراً كضروب من التجارب ؛ ثم تصير محاكاة ، ومن ثم تغدو عادية . إنها فى بادئ الأمر قهرية ، تتم فى الغالب لاشعورياً ، ولكن فى مقدورها أن تصير إرادية ، كما يشاهد من محاكاة الأطفال .

إن خبراتنا جميعاً فى الحياة تحكمها وتحددها ثلاث قوى هى : الطاقات الموروثة ، والأوساط البيئية ، والتأثير الوهمى . .

فالصورة فى العقل هى المشكّلة والخالقة كأية قوة من القوى التى تخرج من الأسلاف أو من البيئة . وعن طريق أصل الصورة أو جرثومتها يمكننا أن نضبط ونكيف تأثيرات الوراثة والبيئة . أما المنبه المرشد فى جرثومة الصورة هذه فهو الذى يوجه حياتنا . ومن خلال هذه القوة فحسب صار عظماء العالم ، ولا سيما أولئك الذين استخفوا بالوراثة والبيئة ، إلى ما هم فيه من عظمة ومجد . لقد اهتموا بهذه القوة وحرصوا على أن يجعلوا أمامهم الصورة التى يريدون أن يكونوا عليها . ولم يتوقفوا عند هذا الحد . بل إنهم وقد فعلوا هذا عادوا وتأكدوا مما يفعلونه . ولا يستطيع أى فرد يريد أن يكون عظيما ، أو يريد أن يغير شخصيته ، أن يؤمل نجاحاً إذا توقف عند الصورة .

وهناك كثير ممن يلتمسون الشىء ويجلسون فى انتظار تحقيقه . وعندما لا يلوح فى الأفق ما يدل على تحقيق ما يريدون تتزعزع عقيدتهم ويفقدون ثقتهم بالسماء . فى حين أن الإيمان ضرورة لا بد منها . إلا أن هناك شيئين آخرين على الأقل مطلوبين لتحقيق الغرض . فالفرد يجب أن يكون عنده الاستعداد لمواجهة العواقب والتبعات إذا كانت هناك تبعات . ويعمل شيئاً يجعلها تحدث . وهكذا الحال مع النجاح ؛ وهكذا الحال مع تغيير الفرد شخصيته . فالإيمان بالصورة ضرورى ، ولكن يجب أن يكون الفرد مستعداً لمقابلة التبعات إذا وُجدت .

وبما أن العادات وجميع العناصر السيكولوجية الصغيرة

التى تعمل على تكملة الشخصية ، تتكون لا إراديًّا ، فيجب أن تستبدل إرادياً وشعوريًّا . وعلى الفرد أن يعمل مجهوداً شعورياً لاستبدال القوى المخربة .

إن أحلام الفرد وخططه ورغباته وصوره هى التى تعين اتجاهه فى الحياة . أما الإرادة فعليها إطاعة التخيل بصرف النظر عن العواقب أو التبعات . وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . إنه يرث اللبنات وأخشاب العمارة الخاصة بطبيعته ؛ أما موقع البناء فقد أعدته له البيئة ؛ وأما تصميم المنزل — منفعته ، ونجاحه وجماله — فإنما يقاس بالصور العقلية .

إن العادات الحسنة ، والدوافع النبيلة ، والميول المهذبة ، والذكاء ، والتفكير الوديع ، والاتجاه والسلوك الذى ينشأ عن هذا كله إذا فرضنا أنها تكون شخصية جذابة ، فإن الفرد يمكنه أن يكيف شخصيته بقدر ما يمكنه أن يحقق العناصر السيكولوجية لأنه بمجرد أن يقوم بهذا التحقيق يكون على استعداد لتقويمه وتثبيته فى خلقه وفى تركيبه العام ببعض تمرينات ضرورية لتحسين كل منها ، ونذكر منها ما يلى :

اعرف ما تريد :

قبل كل شيء يجب أن تعرف ماذا تريد . لأن معرفة الفرد

أخطاءه بداية الحكمة . ولذلك فإن أهم شيء هو معرفة نوع الشخصية التي يجدر بنا اقتناؤها ، إذا كنا غير راضين عن شخصيتنا السابقة . والفرد إذا كان يأمل تحسين شخصيته ، فعليه أن يعمل شيئاً أكثر من التأميل . وعليه أن يعمل شيئاً أكثر من الرغبة التي يرجوها ، ويجب عليه أن يبدأ بشيء بسيط ومحدد فى عقله . فإذا بدأ وفى عقله أى شيء من الشك أو التردد فسيقضى على نفسه قضاء مبرماً .

والشخصية هى نتيجة ما يحدث لنا ، لأن الحياة تميل إلى احتضان ارتقائنا وتحسين تطورنا بالرغم منا . فمن الواضح إذن أن بيئة موطننا ، مثلا ، تلعب دورها فى تشكيل شخصيتنا . والأسرات لديها اتجاه إلى التفكير والعمل بطريقة مماثلة ، لتكون نوعاً من الشخصية الأسرية . ونحن إذا قلنا « إن الطيور على أشكالها تقع » أو إذا قلنا « حدثنى عن معاشريك من يكونون ، أقل لك من تكون » فهذا يشير إلى الاعتقاد الشائع عن أثر البيئة فى الشخصية ، فيمكننا تبعاً لذلك أن نحكم شخصيتنا بالقدر الذى يمكننا به أن نحكم هذه العناصر . فعشراؤنا ، ومهننا ، وحياتنا المنزلية ، والبيئة بوجه عام ، تؤثر بالخير أو بالشر فى اتجاهاتنا وميولنا تجاه الأناقة ، والذوق فى الملبس ، والأساليب الرقيقة ، والخلق الكريم ، وعزة النفس ، والوقار فى كل مجلس أو جماعة ، وكل هذا يلعب دوره فى منحنا شخصيتنا .

قدِّم إيحاءاتك إلى اللاشعور ، وكوِّن صورة ذهنية ، واحتفظ بالصورة أو النموذج أمام لا شعورك . والفعل الموافق سيقوم بالاقتداء . والإيحاءات المحددة بالخير ، نتائجها دائماً محددة بالنجاح ؛ كما أن الإيحاءات العرضية تنتج نتائج عرضية . والجسم دائم التغير خلال خلايا الحياة ؛ فالعقل والجهاز العقلى دائم التغير خلال جراثيم الصورة الذهنية. وهكذا ، إذا عرف الفرد هذا ، فعليه أن يكون متفائلا بالخير . وعليه أن يوحى إلى نفسه إيحاءات بناءة ، ويفكر تفكيراً إيجابياً. فالأفكار السلبية أشبه بالنظر إلى الوراء ، ولن يصل الفرد إلى أى مكان إذا نظر إلى الوراء . فابدأ من الآن فى تشكيل حياتك وتكوين شخصيتك من جديد .

وابدأ من حيث أنت :

أما الذين يحاولون أن يبدءوا من حيث يحبون أن يكونوا فهم مخطئون . إنهم يعجبون بشخص معين ويودون أن تكون لهم مثل شخصيته. ويقرءون فى علم النفس التطبيقى ويبدءون فى تطبيق ما قرأوه ؛ فتكون النتيجة اخفاق مريع .. لماذا ؟ لأنهم رأوا بكل بساطة أن يبدءوا من عند هدفهم . مع أن كرة القدم يجب أن تركل من وضع ما فى الملعب ، ثم تنتقل من هجمات الخط الأمامى واندفاعات الجناح إلى أن تصل إلى المرمى .

إن العنصر الحيوى الثابت فى الشخصية هو مثالية الفرد ،

تماماً كما فى الإرادة والخلق . فطالما يضع الفرد أمام عقله الصورة التى يريد أن يكون عليها ، ستتيح للنموذج أن يتكون ، ويأتى الدور بعد ذلك على التركيب البنائى لإتمام النموذج . وإذا كانت لدى الفرد الرغبة فى تغيير شخصيته ، فعليه أن يغير الصورة التى أمام عينى عقله . ويجب أن يغير مثاليته . والفرد يسمو أو يهبط فى حياته المعيشية على قدر فهمه وإدراكه للأمور ، وتطبيقه لقوانين الطبيعة .

دعم نفسك :

اتخذ نموذجاً . . واعمل كما تعمل أى حائكة ، قصّ جزءاً واحداً فى كل مرة . فالحياة لم تصنع بالآلات ؛ ولا يمكن لعناصر حياة الفرد أن تتكيف أو تحور بطريقة الآلة . وأنت لا يمكنك أن تحطم آلة ثم تفصل قطعة من القماش . بل يجب أن تأخذ جزءاً جزءاً — وتستعمل مقص قوة إرادتك وتخيلك ! . .

ولكى تتحقق من أنك أنت هو أنت ، ومن أنك فى الحاضر هو ما كنت عليه فى الماضى بسبب الوراثة ، وتأثير ما قبل الولادة ، والتجربة التى تعقب الولادة ، والتربية ، يجب أن يكون هناك المشجع لذلك لا التثبيط والمعارضة .

أما أن تفكر فى تلك الأشياء على أنها غير قابلة للتغيير أو التبديل ، وعلى أنها من الأمور التى تتعلق بالقضاء والقدر ، فهذا شيء يمحو الشعور ، ويفقد الحسّ ، ويسلب الوعى .

صحيح أنك لن تقدر على طرد هذه المؤثرات ، ولكن فى إمكانك أن تستعيض عنها بدوافع أقوى وقوى أعظم . وليس ثمة عادة يمكن «تحطيمها» ، ولكننا نحصل بسهولة على باعث أقوى . ولهذا السبب يجدر بنا أن نكوّن عادات حسنة منذ الصغر .

والتعويض أو الاستبدال هو ما يجب أن نهتم به . فالعقل التحتشعورى ، إذا أعطيته فرصة ، فإنه سيستبدل لك فى الحاضر النشاط البانى الذى سيحل محل القوى الهدامة التى كانت تعمل فى الماضى .

وابدأ بدراسة نفسك . وهذا لا يمكن أن يكرر كثيراً . . .

اعرف أين أنت الآن ، ثم قرر أين تريد أن تكون . . .

يقول بعض الثقات إننا يجب أن يكون لنا ست ذوات : ذات تتكافأ مع المشاكل ومع بيئة الموطن ؛ وذات للحياة الاجتماعية ؛ وذات لدنيا الأعمال ؛ وذات لخارج البيت ؛ وذات للفكر ؛ وذات للروح . وأنهار التعبير هذه إنما تتدفق فى بحيرة النتيجة الجميلة التى ستغدو فيما بعد شخصيتنا . وإذا كانت البحيرة جميلة وواسعة ورائعة ، فذلك يرجع إلى قوة وجمال وصفاء الأنهار التى تغذيها .

إن الزمن الذى تنمو فيه العادات ، وتتكون فيه السمات المرغوبة فى الشخصية ، هو زمن الطفولة دون شك . ولذا يجب أن يحرص الآباء على أن يكونوا متنبهين للوسط أو المحيط الذى

ينشأ فيه أطفالهم . فللنماذج القديمة ميل للظهور بعد سنين . وإذا كانت هناك بعض أنظمة لرد فعل قد تكونت ، وليس من السهل تغييرها ، فليس لذلك من سبيل إلاّ أن يحل محلها منبهات أقوى .

إن ذلك الذى تمتلكه ، مهما كان ، ليس بكثير . .

وليس بكثير كذلك ، ذلك الذى تفعله بما تمتلك . .

إن شاباً يرث الملايين قد يموت فقيراً معدماً ، فى حين أن شاباً فقيراً ، صعلوكاً ، قد يستخدم ذكاءه ، ونبوغه ، ويستثمر نقوده ، فيموت وهو من أصحاب الملايين ! . .

إذن ، فاكشف عن درجة عقلك ، وعن مدى ما عندك من إدراك ، واستعمله على خير ما يكون الاستعمال . . وابدأ من حيث أنت .

عشر طرق لمقاومة الإخفاق

يشق على الإنسان أن يخفق ، ولكن عدم محاولته النجاح أقبح من ذلك .

« روزفلت »

سبب إخفاق الكثيرين ، أنهم لا يعرفون مواطن الضعف فيهم .

« شكسبير »

تريدنا الحكمة شجعاناً لا نبالى بشيء . تريدنا أشداء مستهزئين ، لأن الحكمة أنثى ، ولا تحب الأنثى إلا الرجل المكافح الصلب .

« نيتشه »

العمل المشترك يوحد النفوس بقدر ما تفرقها الأثرة ومحبة الذات .

« أناتول فرانس »

قال دزرائيلى عندما وقف فى البرلمان ليخطب لأول مرة فى حياته وقوبل بعاصفة من السخرية والاستهزاء : « سيأتى اليوم الذى تشتاقون فيه لسماعى » .

فالنجاح غالباً ما يكون على ناصية الطريق الذى تريد أن

تتفاداه . بل قد يكون قريباً من المكان الذى تقف فيه وتريد أن تغادره .

والإخفاق كثيراً ما يكون مألوفاً بين أولئك الذين يحاولون عمل أشياء عظيمة ، وأولئك الذين ينطوون على أنفسهم ويستقلون بذاتهم ، وغير الطموحين ، والقانعين بحالتهم الراهنة .

ويخفق الكثيرون لأنهم لم يتعلموا من أخطائهم ، أو لأنهم لا يبذلون من الجهد فى أعمالهم شيئاً . ولا يؤثر فى نجاح المرء أو فشله مال أو ذكاء أو مركز أو جاه أو نفوذ أو مظهر أو حظ بقدر ما يؤثر فيه اتجاهه نحو الحياة . فإذا ظننت أنك تحت رحمة القضاء والقدر أو القسمة والنصيب فإنك ستقهر وستغلب على أمرك قبل أن تبدأ . أما ما الذى سيعمله الآخرون ، وما الذى ستكون عليه الأحوال وماذا سيأتى به المستقبل ، فلا أهمية له مطلقاً . وأما الذى يعتد به فهو الطريقة التى يجب أن يتبعها المرء . وأنت يمكنك أن تضبط وتحكم أكثر الأشياء أهمية وهى : اتجاهك ، وميولك ، ونزعاتك ، وإرادتك . فلكى تتغلب على إخفاقك يجب عليك أن تحلله وتتخلص من أسبابه ، وتتجنب تكراره أو إعادته .

١ ــ دع شجاعتك تحطم مخاوفك :

إن شجاعتك ستبعث فيك روح الإبداع والإنشاء . وستفتح لك أبواب الفرص ، وتستخرج لك قواك المخبوءة ، وتملأ رؤياك

بالإمكانيات . أما مخاوفك فستحطم ثقتك بنفسك ، وتجفف ينابيع إلهامك ، وتعتم رؤى أملك .

يقول چون باترسون ، منشئ آلات تسجيل الدورات فى آلة النقود : « إذا قدر وجاء وقت لا يكون فيه للشجاعة أى ضرورة ، ولا يكون لها لزوم لتكافح ضد الحواجز والعقبات ، فسأعرف أن الوقت قد حان لأوصد مصراعى النافذة ، وأصرف القدرة وأرسم النيران طول الوقت » .

إن الذين يكسبون أينما كانوا هم الذين يقاومون المصاعب بشجاعة ، ويواجهون الشدائد بصبر وحزم . والذين تعلموا ألاّ يخافوا ولا يفزعوا ، وعلمتهم التجارب الجرأة والإقدام . والرجل الذى ينال بسهولة كل ما يطلبه ، ويأتيه كل شىء دون كد أو جهد ، لن يتعلم الكفاح فى سبيل الحصول على الأشياء . وإذا انتزعت من تحته « الدعامات » فإنه يسقط ولا يستطيع معاودة النهوض بنفسه . فالنائبات والضائقات كثيراً ما تكون امتحاناً صادقاً للمرء . وأنت إذا أردت أن تفعل الخير ، عليك أن تضع كل الرصيد ، وتستنفد جميع ما تملك من احتياطى ، وتجعل شجاعتك تتغلب على مخاوفك ، بل وتسحقها سحقاً .

٢ ــ دع التركيز يحل محل شرود الذهن :

دع الانتباه الكلى والمثابرة ، والعمل الجاد ، يحل محل عقل

ساه ، وقلب لاه ، وحياة حائرة متخبطة . ولكى يعرف المرء عمله بالضبط ، عليه أن يؤديه بكل كفاءة ومقدرة . وعليه أن يساير الزمن ويجارى مطالب كل فرد من الأفراد . فالناس إنما يتقدمون بتقدم أعمالهم ، وينجحون بنجاحها . وحينئذ تواتيهم فرص جديدة ، وتتفتح لهم آفاق عمل فذ ومآثر حميدة .

يقول إمرسون : « إنه لسعيد جد السعادة ذلك الشخص الذى وجد عمله » . فإذا وجدت عملك ، وأمكنك أن تضع فيه قلبك ، فستكون فى طريقك إلى السعادة . أما إذا لم تجد عملك فستكون دائماً حائر الفكر ، شارد البال . وستكون فى طريقك إلى البؤس والتعاسة والإخفاق . فبإيجاد عملك تجد الدرب الذى يوصلك إلى النجاح .

ومهما كان العمل الذى عند الإنسان ، وكيفما كان ، إذا ركز فيه عقله واندمج فيه بكليته ، فلا بد أن يتم على أحسن ما يكون .

يقول ديكنز : « إن الصفة الوحيدة ، المفيدة ، المأمونة ، المربحة ، التى لابد من الحصول عليها فى كل غرض من الأغراض وفى كل مهنة من المهن ، وفى كل أمر يتعلق بالدرس أو التفكير أو التأمل هى صفة الانتباه » .

ويقول إديسون : « إننى إذا شرعت فى عمل أو بدأت فى أى شىء فلابد أن يمكث أبداً فى عقلى ، وليس من السهل بأى حال أن أتحول عنه أو يتحول عن عقلى حتى يتم » .

فبالطموح يصل المرء إلى هدفه ، ويجد السعادة التى كان يظنها وقفاً على قليل من الناس .

إن الشخص الناجح ليس هو الذى يبدأ ثم يقف ، وإنما هو الذى يبدأ ثم يثابر ويصر على النضال . فإذا أردت أن تقاوم أخفاقك وتتغلب عليه ، يجب أن يكون عندك الانتباه الفاره ، والإصغاء الذكى الفطن ، والإدارة الحاذقة الحازمة ، والمثابرة ، والإصرار على العمل فى الأوقات العصيبة القاسية بنفس الحماسة والحمية التى تعمل بها فى الأوقات السهلة .

٣ ـ دع معرفة الذات تحل محل الجهل بها :

لقد كانت دلفى ، باليونان ، مهبط وحى أبولو المشهور ، حيث راح العالم يبحث عن المستقبل ، ويرجو الظفر بمشورة فى المسائل المعقدة أو الأمور المحيرة . وهناك فوق الكهف الذى كان على هيئة مزار وُضع حجر كبير نقشت عليه هذه النصيحة التى وجهها أرسطو إلى كل سائل :

« أعرف نفسك »

إن التحليل النفسى ، وهو أحدث ما فى علم النفس ، بكل ما فيه من مزايا ، يرجع إلى هذه الحقيقة : « يجب أن

يحلل الفرد نفسه » . ولقد عرف نابليون هذه الحقيقة فقال :
« من يملك نفسه يعد أكبر منتصر » . ومن قبل نابليون بآلاف
السنين عرفها لقمان فقال : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

إنه لشيء عظيم ، إذن ، أن تطلع على خفايا نفسك ،
وتلمّ بمكنونات ذاتك . ولقد أخفق الكثيرون لأنهم لم يعملوا
« جرداً » أو « كشف حساب » لصحتهم وعاداتهم صفاتهم
ومؤهلاتهم وطباعهم وميولهم وترتيبهم .

إنني أعرف أربعة رجال كانوا من المخفقين : مدير بنك
لأنه حاد الطبع ، سريع الانفعال ؛ ورجل أعمال لأن هيئته
كانت تبدو عليها الكبر والغطرسة والتعالى ؛ ومزارع لأنه كان
غير موثوق به ، غير جدير بالاعتماد عليه ؛ ورجل دين مرصع
بالذهب ، ويمتلىء شحماً ولحماً . .

إنه لمخفق ذلك الرجل الذى يتبختر زهواً ، ويتمايل عجباً
كالطاووس ، ويرتدى إهاب الطير فيما يتعلق بأموره المالية
والاجتماعية ، ويظن أن الأثواب الزاهية الجميلة هى التى تصنع
منه رجلاً . فمن كان هذا شأنه يكون النجاح بالنسبة له كجلد
النمر المقلد الموشى بخرز من زجاج .

إن العالم اليوم لينظر إلى الرجل الذى يعرف تماماً نوع العمل
الذى يناسبه ؛ والذى يريد أن يضع نفسه فى المكان الصحيح
الذى يوافقه ؛ والذى يشتهى أن يكسب بعرق جبينه ما يكفل له
حياة أمينة شريفة ؛ والذى يود أن يرى المحيطين به سعداء ؛

والذى يمكنه أن يضيف شيئاً ، أى شىء ، إلى الإصلاح الاجتماعى والبشرى ، وإلى الإنسانية جمعاء .

٤ ـ تخير أصدقاءك ومعارفك باعتناء :

إنما يعرف المرء بأصدقائه الذين يخالطهم ويخالطونه ، ويعاشرهم ويعاشرونه ، وكل قرين بالمقارن يقتدى . وهكذا نعرف فى الغالب اتجاه ذات الفرد ، ودائرة أفقه ، ونوع مبادئه فى الحياة . وأنت ينبغى لك أن تراقب الصداقة كيف تمضى . . هل ترى أن أصدقاءك عون لك ، أم أنهم عالة عليك ؟ . . إن الصديق يعرف وقت الضيق . والصاحب الذى له أوطار ، إذا قضاها طار . فالأصدقاء المسيئون الذين من هذا الطراز يميلون إلى تشويه سمعتك الطيبة ، وعرقلة أعمالك المجيدة ، والتقليل من مركزك الاجتماعى ، وإثنائك عن مثلك العليا ، وإخلالك عن سواء السبيل .

أما الأصدقاء الأوفياء الذين تغلب عليهم صفة الاستقامة ، فإنهم يضيفون إلى شخصيتك خلقاً حميداً ، ويزيدون أطماحك تأثيراً ونفوذاً ، ويذكرونك بالثناء والإكبار لدى الآخرين فى غيبتك.

فتحاش جهدك الصاحب ذا السمعة السيئة ، والعشير الإمعة ، وابعد عنه بعدك عن كلب أجرب . واندمج فى جو الطامحين والمثابرين .

٥ ـ دع الغرض المحدد يحلّ محل العمل المشتت :

حدثنى مدير إحدى المؤسسات الكبيرة الناجحة بقوله : « إننى التقيت فى الخمسة عشر سنة الأخيرة بعشرة آلاف رجل تقريباً . فوجدت أن الرجل الذى له غرض يستهدفه ، وله دافع يستحثه ، وله فكرة محددة واضحة عما يريد أن يفعله ، فرد نادر قليل الوجود » .

فالناس الذين لا غرض لهم كثيراً ما يكونون تحت رحمة القدر . إنهم لا يستطيعون السيادة على أنفسهم ، ولا يمكنهم السيطرة على نصيبهم أو التحكم فى مصايرهم . إنهم عبيد الظروف والأحوال . بل إنهم أقرب شبهاً بالسفينة بدون خريطة أو بوصلة ، وليس لها مصير تصير إليه ، أو وجهة معينة ترجو الوصول إليها ، فلابد أن تجرفها موجة كبيرة من موجات بحر الحياة الصاخب .

إن الغرض المحدد يركز انتباه الفرد ويجمّعه فى نقطة مركزية ويضبطه على الهدف . إنه يسخر طاقة الفرد لغاية واحدة . وإنه ليشحذ حد ذكاء الفرد ويرهف قريحته . وإنه ليضفى على الحياة معنى جميلاً .

فإذا رغبت فى أن تتغلب على الإخفاق ، فدع غرضاً بعينه يسيطر على نفسك ، ويقودك إلى دراسة هادفة جادّة ، ويبعث فيك روحاً طامحة ، ويوحى إليك إيحاءات بناءة ، ويلهمك

بمجهود فيه بعض التضحية للبلوغ إلى هدفك .

٦ – دع الاقتصاد يحل محل الإسراف :

لست أعنى بالاقتصاد أن يكون الفرد شحيحاً أو بخيلاً . . فالاقتصاد ليس معناه أن نجوع اليوم لنأكل غداً ؛ ولا أن نضحي بسعادة يومنا فى سبيل راحة غدنا ؛ أو أن نكون اليوم نساكاً متعبدين من أجل مركز الحياة الاجتماعى غداً . . لقد عرّف بنيامين فرانكلين الاقتصاد بأنه : « إذا عرفت كيف تنفق أقل مما تحصل عليه ، لاستحوزت على حجر الفلاسفة » . ويقول روكفلر : « أومن بأن حسن التدبير ركن من أركان الحياة المنتظمة ، وأن الاقتصاد عنصر أساسى فى كل بنيان مالى سليم . . الحكومة ، والأعمال ، والحياة الخاصة » .

فالاقتصاد حالة من الحالات العقلية الى تقيس وتزن الحياة بإمكانياتها فى التحصيل ، والتى تطبق أحسن جهود ها بالآ لات والعدَد الموجودة لعمل معظم الحاضر ليكون أساساً ثابتا مناسباً للمستقبل الذى يستحق الذكر . فلكن إذن مدبراً مقتصداً فى وقتك ومالك وصحتك ومواد بك وفرصك . ويجب أن تتعلم كيف تدخر المال ، فهو الوسيلة الوحيدة للتعبير عن حياتك ووقتك وجهدك ودراستك وألمك وعملك .

فإذا كنت تريد أن تعرف إن كنت سائراً فى طريقك إلى النجاح أم لا فيمكنك أن تعرف بسهولة ، والاختبار سهل

بسيط ومنزّه عن الخطأ ، وهو : هل أنت قادر على أن تدّخر مالاً ؟ . . إذا لم تكن كذلك ، فستضل الطريق ، وستخفق وتمنى بخيبة أمل كبيرة وتكون من الخاسرين . لأن بذرة النجاح ليست فيك . .

هل أنت مخفق لأنك مسرف ومبذر ؟ ..

إذن كن مقتصداً ، وثابر على الادخار ، وستجد نفسك سائراً فى طريقك إلى النجاح .

٧ ــ دافع عن المثل الأدبية العليا :

إن القوانين الأدبية الأساسية عامة وعالمية ، جامدة قاسية ، ثابتة محققة ، مثلها كمثل قوانين الطبيعة ، ونجوم السماء ، والشمس المشرقة . ومن الأمور الجوهرية أن قوانين الأرض والبحر والسماء إنما هى قوانين أدبية يؤيدها الاعتقاد بأن : « هناك قوة فى العالم تعمل للتقوى والعدل والقسط » .

قال مدير أحد البنوك : « إننى لا أعتبر أى شىء أكثر أهمية من الرجل الذى له عقيدة ثابتة راسخة فى القوة الإلهية ، وثقة بالواحد الأحد الذى لا يتخلى عنه فى ساعة المحنة والحرج والضيق ، فيمده بالقوة والشجاعة ليعمل عملاً صالحاً ، ويحفظ نفسه نقيًّا تقيًّا ، مخلصاً ، أميناً ، وفياً » .

فالمبادئ الأدبية التى يدعمها الاعتقاد الدينى ستجعلك تنافح بقوة عن القضايا والأغراض التى لها قيمتها ولها خطرها ؛

وإنها لتبثّ فيك الاستقامة والطهارة والأمانة والإخلاص والوفاء .

إن العمل بالعادات المرعية أو المألوفة ، والامتثال للعرف أو التقاليد لا يكفى . بل لابد أن يوجد الخلق المتين النقى ، الحر ، والمثل العليا ، والمجهود النبيل ، والسعى المشكور . فالحياة بدون مثل أدبية عليا تحكمك وتسوسك ، ستصبح حياة ضحلة ، سطحية ، لا لذة فيها ولا متعة .

٨ ــ دع التعاون يحل محل التفرّد :

يجب أن تذكر دائماً أن النجاح شىء اجتماعى ؛ وأنك تستفيد مما يحيط بك وممن يحيطون بك من خير اجتماعى ؛ وأنك زميل وشريك فى المجتمع ؛ وأن وظيفتك هى أن تؤهل نفسك وتعدها للنظام الآلى فى منشأتك أو إدارتك . وهذا ما يسمى بالتعاون . . .

فالتعاون هو القدرة على عمل الشىء الذى يكون فيه دائماً النفع والفائدة للجمعية أو المؤسسة أكثر من الفائدة التى تعود على الإدارة الشخصية أو الفردية . والتعاون كما يقول ابن خلدون : « من أهم أركان الحياة ، لا يستغنى عنه الإنسان ولا الحيوان » .

وإذا أردت أن تغالب فشلك يجب أن تعمل مع الآخرين ، وأن تمثل دورك فى الحياة مع الآخرين ، فالناس بالناس وخير الناس من عاون الناس . يقول الحديث الشريف ؛ « الناس بخير ما تعاونوا » ويقول أناتول فرانس : « العمل المشترك يوحد النفوس

بقدر ما تفرقها الأثرة ومحبة الذات » .

وأنت ينبغي لك أن تشتغل مع غيرك ، وتنسجم مع غيرك ، وتجعل نجاح أولئك الذين تعمل من أجلهم هو الغرض الأسمى لسعيك واجتهادك . وبهذا فحسب ستتغلب على إخفاقك .

٩ – دع الدوافع النبيلة تحل محل الأغراض الوضيعة :

إن أعظم ضرورة على الإطلاق لشباب الجيل هو الدافع النبيل . فالمثل العليا هى التى تحكم العالم . . والمثل العليا مع الفكر هى التى تصنع الرجال . . والدوافع هى التى تكيف الحياة وتصوغها .. والأهداف هى التى توجه نشاطنا وهمتنا .. والتحصيل هو الذى يجتذب الموارد المخبوءة . . والأغراض السامية الجليلة هى التى تؤدى إلى الشخصية الفاضلة . .

قال روبرت برنيس : « إن أكبر نكبة فى حياتى هى أنى كنت فى حاجة إلى هدف » .

إن الدافع النبيل هو الذى يساعد على جعل الحياة تستحق الاهتمام . أما المال فى حد ذاته ، والتعليم ، والشهرة ، والقوة ، كلها مجرد قشور . ولكنها إذا صُبت مع دوافع لها قيمتها ، فإنها تعمل للأغراض النبيلة التى لا تفنى ولا تزول وهى . الخلق والنفع والخدمة .

١٠ ـ النظر إلى الأمام يجب أن يحل محل قصر النظر :

قال هنرى فورد ذات مرة : « إن أكبر عمل فى حياتى هو النظر إلى الأمام » . كم لكلمة « إلى الأمام » هذه من قيمة ، وكم لها من أثر كبير ! . . .

هناك ثلاثة أصناف من الرجال : « أولئك الذين لا يؤدون كل واجباتهم ؛ وأولئك الذين يهتمون بتأدية واجباتهم ؛ وأولئك الذين يؤدون واجباتهم ويزيدون عليها قليلا » .

فالنجاح والإخفاق غالباً ما يحددهما نوع الفرد بالغرض الذى يرمى إليه ، سواء أكان يبتغى بذلك تأمين مستقبله وتحسينه ، أم كان يريد التضحية من أجل أشياء أفضل .

فإذا أردت أن تقاوم الإخفاق يجب عليك أن تنظر أمامك وتعمل أكثر مما يطلب إليك عمله . وبذلك سيكون النجاح حليفك . وكل من سار على الدرب وصل .

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه

وليس عليه أن يساعده الدهر

طريقك إلى النجاح

إذا لم أجد طريقى فى الأرض المعبدة ، فسأقتحم القمم الصخرية الشاهقة دون تذمر ، لأنى أعلم أن كل جهد يتضمن فى ذاته الجزاء الكافى عنه ، وأن الآفاق الواسعة تنتظرنى فى آخر الطريق .

« جورج صاند »

أؤمن بأن حسن التدبير ركن من أركان الحياة المنتظمة ، وأن الاقتصاد عنصر أساسى فى كل بنيان مالى سليم . . الحكومة والأعمال والحياة الخاصة .

« روكفلر »

النجاح هو النتيجة الحتمية لسلامة التفكير ، وسداد الرأى ، وسعة الإدراك ، ونفاذ البصيرة .

وللنجاح صلة وثيقة بكمية رأس المال الابتدائى أو مقدار الدخل .

ثمة كثير ممن لديهم القدرة على الكسب ولهم إيراد كبير ينتهى بهم الحال إلى الإفلاس والتدهور ، والتخبط فى الأمراض والسقام ، ومعاناة البؤس والشقاء ، ويكون هذا كل نصيبهم من إيرادات السنة الختامية . كما أننا نرى كثيراً ممن يعيشون

فى حدود ميزانية متواضعة مقتصدة ، يدبرون أنفسهم ويقودونها إلى منطقة يشملها الهدوء والسكينة والدعة ، ويكتنفها الاتزان والقناعة والرضا .

والنجاح فى الأعمال لا يعتمد على الغنى والجاه ، بقدر ما يعتمد على الشخصية الكاملة المتكاملة . كما أن الإخفاق لا يعزى دائماً إلى نقص فى المال ، وإنما يعزى فى الغالب الأعم إلى عجز فى العقل ، ونقص فى الإدراك .

أولا : اتخذ لنفسك قائمة جرد وسجل فيها ما تستكشفه من أسباب أدّت بك إلى الرجوع إلى الوراء ، وصدّتك عن التقدم إلى الأمام . إن التفكير الخاطئ هو المعضلة الأساسية دائماً ، وهو السبب فى ضعف إدارة الأعمال . فهل أنت ممن يفكرون فى الإخفاق أكثر مما يفكرون فى النجاح ؟.. هل تروى لأقاربك أو لزملائك فى العمل كيف تخفق ، ولماذا تخفق ، فى حين أنه ينبغى عليك أن توضح لهؤلاء جميعاً بكل دقة كيف ولماذا أنت سائر فى طريقك إلى النجاح ؟ . . هل فى عقلك الخفى اللاشعورى عقدة نقص مزمنة تقف ضد فكرة النجاح ؟ .

« عصام . . إنك لا تساوى شيئاً البتة . ولن تتقدم فى عملك قيد أنملة ، لأنك متردد متحير ، ولا يمكنك أن تبتّ ، فى أمر من الأمور » . .

هذه الفكرة كانت متسلطة على أحدهم ، واستمرت تدفعه إلى الخلف حتى بلغ الأربعين من عمره . إنه حينما كان فى

الخامسة عشرة كان أخوه الذى يكبره فى السن يدْس فيه «عقدة الفشل» هذه ويدفعها فى أعصابه اللدنة ، حيث رسخت فيه ربع قرن من الزمان .

وفى عيد ميلاد عصام الأربعين حدثت أمور . حدث أن أخاه هذا الأكبر منه انتابته ضائقة مالية ، ومنى بكارثة ، فجاءه يلتمس منه النصيحة والعون . عندئذ استعاد إلى ذاكرته ما كان عليه منذ خمس وعشرين سنة مضت . ورأى بعين خياله ماذا كان يجب أن يكون . . رأى أنه كان متسلحاً ومعداً تمام الإعداد للنجاح كأخيه سواء بسواء ؛ وأنه كان فى ميسوره أن أن يناضل ويكافح وينافح ، ويثبت ويستقر . وبالتالى كان فى استطاعته أن ينجح . . لقد كان يتم أعماله و ينجز ما عليه من واجبات بهمة فاترة ، وحمية كليلة . . ثم رأى بعد ذلك ، فى لمح البصر ، أن كل العناصر التى يتطلبها النجاح ، كانت ولا تزال تكمن فيه . . فى ذاته . فساعد أخاه وأقاله من كبوته ، وانتشله من عثرته .

إن هذا النور الجديد ، وهذا الإيمان الجديد ، اللذان اكتنفاه أعطياه عزماً وثباتاً ، ومقدرة لانبثاق جديد من النشاط فى العمل صنع له حظه .

ثانيا : هل حياتك كلها متزنة ، حتى يكون لك بعض المشاركة فى ميول البشرية العظمى فيما يختص بكل من : العمل ، وأوقات الفراغ ، والألفة ، والعبادة ؟ . . إنك ستلمس فائدة

كبيرة ، وستجد من المزايا العظيمة ما يعود عليك بالخير الكثير ، إذا أوجدت شيئاً تعمله مع كل من هذه الوسائل الرئيسية الأربعة التي يقوم عليها *النمو الذاتي* والرضا البشري .

هل تزاول عملاً مناسباً أو تشغل وظيفة ملائمة تمضي بها ثمان ساعات كل يوم كحد أدنى ؟ . . خصص ثماني ساعات أخرى للراحة ، وللمسائل الاجتماعية ، واقضها في الأعمال البناءة وفي الشئون التي تتصل بالتثقيف والتهذيب . ثمان ساعات كثيرة جداً إذا أمضيتها في اللعب واللهو والبحث عن اللذة. وإذا أنت لم تخصص جزءاً منها للدرس وللتحسين الذاتي ، فستكون أهلاً للإخفاق والخيبة ، ولابد أن تمنى بهما . .

ثالثا : هل حياتك العملية نفسها متوازنة كما يجب ؟

هل تعترف وتسلم بالدعامات الأربع التي تقوم عليها الحياة الجارية ، والتي ترتكز عليها الحرفة العملية الناجحة ، وهي : أن تكسب ، وأن تنفق ، وأن تدخر ، وأن تعطي ؟ . .

هناك كثير ممن يفنون حياتهم ويهلكون أنفسهم فيما لا ينفع ، في حين أنهم في أشد الافتقار إلى فضيلة الإنفاق بحكمة وتبصر ، أو الادخار بانتظام وتدبر . إنهم في حاجة إلى تفهم الآية الكريمة : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » .

وهناك الكثير ممن لا يفهمون ولا يدركون أن مبلغاً معيناً من المال إذا وضع بتفكر وتبصر في بعض وجوه الخير إنما هو

استثمار تجارى غير مباشر . وأغلب الذين أخفقوا فى تجارتهم كانت تسيطر عليهم خلة الإسراف والتبذير .

إشرع فوراً فى جعل حياتك كاملة ، تامة ، لا ينقصها شيء من هذه المصادر المالية الأربعة . وبذلك تحصل على أعلى حد وأقصى درجة من اللذة والرضا فى كل أعمالك .

قم بعمل تحريات دقيقة عن نفسك . حلل نفسك تحليلاً سمحاً نبيلاً فى كل ما يتعلق بعملك أو وظيفتك الحالية . هل هذا العمل يناسبك ، وهل هو موائم لك ؟

هل أنت مخلص لعملك الإخلاص كله ، وهل أنت مكرس له ذاتك ؟

هل يقف هذا العمل أمام أى أمل مرتقب فى تقدمك وترقيتك ؟

أهناك فى هذا العمل نماء كامن ، ونتاج محتمل ؟

هل أنت عادل فى تصرفاتك الخاصة بالعمل الذى تباشره ، وبالإدارة التى تعمل فيها ؟

هل تمارس عملاً تود دائماً وفى كل وقت أن تستبدله بعمل آخر ؟ . .

تأنَّ فى الحكم على مهنتك الحالية ، ولا تحقّرها أو تتنكر لها . فمن الخطأ الجسيم أن يفكر الشاب الصغير أو يتخيل أن (شغلته) أسوأ أو أصعب من التى يشتغلها كثير من أصدقائه ، فيقع فى براثن العادة المردية ، وهى أن يتحدث بالسوء عن أمور

رزقه وشئون معاشه . وبعد تكرار هذه الإيحاءات السلبية عن أعماله . مرة بعد مرة ، سرعان ما يبدأ فى الاعتقاد بصدقها ، والإيمان بصحتها ، فيخفق ويفقد قيمة نفسه .

وإذا أردت أن تحصل من عملك على إيراد طيب ودخل كبير ، ينبغى لك أولاً أن تعيد تجديده عقلياً . وعليك أن تمتدحه وتثنى عليه عقلياً — هبه من قلبك ، سراً وعلانية ، بركتك ونعمتك . قل دائماً أبداً إنك تحبه . . وفكر دائماً فى أنك تحبه ، وحتما ستحبه . وبعد أن يتم هذا ، وبعد أن تتحسن علاقتك بعملك ، وتنسجم معه ، وتتم المواءمة بينكما ، يمكنك أن تعتمد عليه كل الاعتماد ، وتكل إليه الأمر فى جلب الدخل المطلوب لمعيشتك .

إن الإخفاق والنجاح كليهما يكمنان فى عقلك . فأى منهما ستدعو ؟ وأى منهما ستفسح له المجال للسيادة والنفوذ ؟ ولأى منهما ستخلى مكاناً يبسط فيه سلطته ؟ . .

وبما أن المهنة أو الوظيفة تميل الآن إلى التخصص ، فمن المستحيل على الفرد عملياً أن يجد مكاناً يوافق عقله تماماً ، ويتناسب مع عواطفه وانفعالاته . ومن هنا نرى أن المرء فى أشد الحاجة إلى جعل عقله وعواطفه تتناسب مع هويته . أى أنه يجب عليه أن يتعلم كيف يحب مكانه الذى أهل له ، والمهنة أو الوظيفة التى تعين عليه شغلها .

إن الطريقة السالفة الذكر سيكون لها معك فى توجيه عقلك

شأن فى غاية الأهمية وأمر عظيم الخطر . حاول أن تجربها . .

كثيرون يمكنهم أن يربحوا ، ولكن قليلا يمكنهم أن ينفقوا ؛ أى ينفقوا بتعقل ووعى وإدراك . اعمل ترسيما أو تخطيطا ، وضع ميزانية . إنك تعرف ماذا تكسب . ولكن كيف يمكنك أن تجعل ما تكسبه يكفى احتياجاتك ويسد نفقاتك ؟ . . قسمه إلى أجزاء ، وحدد هذه الأجزاء واجعلها تؤدى ما عليك من ديون ، وتدفع عنك فواتير الحساب . تنبه جيداً لما قد يكون من ثقوب أو شقوق . . وتأكد أن الأشياء الصغيرة هى التى تهدم الميزانية فى أغلب الأحيان .

اقتصد (نصف فرنك) من هنا ، و (ربع ريال) من هنا ، ووفر شيئاً مما تصرفه فى الكماليات ، وشيئاً من الميزانية الخاصة باللهو والتسلية . وابحث عن أنواع المتعة مما لا يكلفك إلا القليل أو أقل من القليل . فالتسلية الغالية التى تزيد عن الحد المألوف إنما هى فى الغالب من الأسباب التى تقلل من قيمة الشخص وتصغر من شأنه ، وتحط من قدره وكرامته . إنها ترخص من شخصيتك ، وتضعف من اعتمادك على نفسك ، وتسقط جاهك ، وتخفض من حالك .

حاول أن تمكث فى بيتك بضع ليال معينة كل أسبوع تقضيها فى الاستفادة بأى شىء . وتعلم كيف تمتع نفسك بأقل النفقات ، فى بعض الأمسيات ، وليس ثمة أفضل من الاستمتاع بقصة تقرأها أو كتاب تطالعه ، أو مذياع تستمع إليه .

كن شرّاء حريصا . وكن حكيما أصيل الرأى ، متصيداً للصفقات الرخيصة . استخلص الفائدة من السلعة التى تبتاعها ، ولا تضيع شيئاً أو تبذر فى شىء . ومن اليسير أن تتعلم كيف تستمتع بحرصك ودقتك فى نفقاتك ومصروفاتك . لا تشتر ما لاتحتاج إليه فتبيع ما تحتاج إليه. فمن السرف أن تشترى كل ما تشتهى . . واعلم أن الثروة تنتقل من يد من لا يحسن استعمالها إلى يد من يحسنه. ستجد لذة أى لذة فى تنظيف حلتك القديمة وارتدائها مدة أطول . وستنتشي بالحلة الجديدة التى استخرجها لك الحائك من الحلة القديمة التى كنت سترميها ، بعد أن قلبها وعدّل ونسق فيها .

رقع ، وأرتق ، وأصلح — هذه الكلمات الثلاث يجب أن تتدخل بخفة ، وتتسلل إلى السيطرة على النفس فى كل حياة عظيمة ، فاخرة جميلة ، وفى كل عمل ناجح .

كرّر ما يأتى بينك وبين نفسك بكل قوة وبكل حماسة إلى أن يصبح جزءاً من لا شعورك :

إننى أتعلم الآن كيف أنفق من دخلى وأتصرف فيه بحكمة وتبصر .

إننى أقتصد فى الأشياء التى تعودت أن أسرف فيها .

إننى أتدرب على صيانة ما أشتريه من حاجيات ، وأحرص على حسن استخدامها واستعمالها على أكمل وجه .

إننى لست بخيلا أو أنانيًّا أو محبًّا لذاتى أو كزّ اليدين ،

منقبض الكف . ولكنى إنسان متأمل ، مفكر ، متزن .

إننى أدقق فى المصروفات الصغيرة ، وأتجنب الإفراط الزائد ، والمغالاة المفرطة فيما لا حاجة لى به من معادن أو فضيات أو أدوات زينة مما يعد من الكماليات .

إننى أعرف جيداً كيف أحصل على المتعة والمسرة وأسباب اللهو والتسلية فى أوقات الفراغ بأقل النفقات إن لم يكن بدونها .

هذه العادة الجديدة التى من شأنها أن أكون حريصاً فى استعمال نقودى ، أصبحت جزءاً هاماً من حياتى اليومية . . إنها أعطتنى فكرة أخرى تتعلق برفعتى وسموى . هى أن أهلل طرباً ، وأمتلىء زهواً وابتهاجاً بما أحسه من قوة روحية .

إلى هنا تكون قد تعلمت أن المشكلة الكبرى فى حياتك هى أن تحمل نفسك على أن تكون وحدة ، أى أن تجعل كل جزء منك على وفاق مع جميع الأجزاء الأخرى ، تتعامل مع بعضها بتوافق ، وتخدم بعضها بانسجام .

وبعد ، كيف تقتصد ؟ . .

إنك إن لم تكن حاولت أن تقتصد فعلاً ، فابدأ تواً بوضع مبلغ صغير كل يوم أو كل أسبوع فى « حصالة » أو فى صندوق الادخار . ابدأ من الآن ، واقتطع شيئاً مما يزيد عن حاجتك . واستغن عن الأشياء التى لا لزوم لها ، والتى ليست لك بها حاجة . . « اركن » قيمتها ، كما أسلفنا ، مع مدخراتك اقتن مالاً وأعده ، واجعله عدة ليوم الشدة . .

ليس ثمة فضل أو فضيلة فى التوفير إذا كان الغرض منه مجرد الاقتناء والتملك . . إنما المهم هو ما يمكن أن تعمله بالمال المدخر ، وما يمكن أن يعمله لك ومن أجلك .

إنه حاسة الكفاية والسعة والاستقلال والشعور بالاحترام الذاتى . . .

إنه فكرة امتلاك شىء ما يتمم أو يكمل دخلك المتناقص بعد فترة من حياتك لتؤمن به مستقبلك . . .

إنه القدرة والتأثير والنفوذ الذى يمكنك أن تحصل عليه جميعاً لتبدو به أمام أسرتك والذين يمكن أن يعتمدوا عليك . .

إنه الغرض الذى يرفع عن كاهلك القلق والهم ، ويحررك من قيود الحزن والأسى ، ويخفف عنك حدة الصدمات العصبية التى قد تحدث فيما سيأتى من أيام حياتك . . .

إنه المثل الأعلى لوجود بشرى أوسع وأرحب ، ولبقاء إنسانى أكثر كمالاً وأعظم سعة . . .

إنه انتماء وانتساب إلى الأسرة الإنسانية العادية ، فهو لذلك أرقى وأسمى وأفضل وأعلى تعبير موجود فى الحياة . . والحياة المتزنة فحسب هى الحياة السعيدة الصحية .. وحسن إدارتك لمالك إنما هى أعظم عامل فى ذلك الكمال وفى تلك الصحة .

استشر بعض من يوثق برأيهم ويعتد بنصحهم فى الوفر والتدبير ، واظفر بخلاصة آرائهم وتجاريبهم . واسأل الذين نجحوا فى التوفير ، أولئك الذين كانوا موفقين فى الاستثمار فى

أضيق نطاق وفى حدود ميزانية صغيرة . اجمع هذه الحجج والبراهين ثم اتخذ لنفسك طريقة التوفير التى تروقك .

وإنى – وأنا من المشتغلين فى الشئون التجارية والمالية من زمن طويل – أرجو أن تسمح لى يا قارئى العزيز أن أسدى إليك النصح خالصاً بأن تنأى كلية عن المقامرات أيًّا كان نوعها . وأن تبتعد عن المضاربات المالية أو التجارية . وكن بعيداً كل البعد عن فكرة القمار أو الحصول على شىء بدون شىء ، أو امتلاك أشياء بدون وجه حق . وضع نصب عينك دائماً أن المال الحرام لا يدوم ، وأن « اللى يجى بلاش بيروح بلاش » .

أخيرا ، حاول أن تنهض وترتفع بنفسك فوق الهموم التى تنشأ دائماً من « القلق المالى » .

ليس المال ، وإنما حب المال ، هو أساس كل شر . . وربما يكون معنى حب المال : الهم المرهق ، والقلق المزعج ، والجشع الأنانى ، والكفاح التعس البائس فى سبيل التألق الكاذب والمظهر الخدّاع ، والنضال الذى ينطوى على الحسد لبلوغ مركز رفيع أو منصب عال يتفق مع الثروة ، والبحث بدون جدوى عن مكان فى طابور الدخول إلى الغنى والثراء ، الغنى الظاهر والثراء البادى للعيان .

أما بالنسبة إلى الباحث عن الحقيقة وطالب التحصيل العالى ، لا يعدو كل هذا أن يكون كالطبول الجوفاء ، أو كالزبد لا يلبث أن يذهب جفاء .

سر قدماً ، وادخر مالاً ، ودرب نفسك على الاقتصاد والتوفير . ولا تبع نقداً بدين كما يقول لقمان . .

عش بثروتك ، ولا تعش لها . كن مبتهجاً ، طروباً ، راضياً بما قدر لك من رزق ، وبما آتاك الله من فضله ، واشكر الله على ما وهبك من عقل راجح ، راض ، قنوع .

والفقر إنما هو الجهل بعينه . إنه الحاجة إلى معرفة أن الروح ، وليست الماديات ، هى التى تكون الثروة وتنميها ؛ وأن الروح الخالقة التى فيك وفى كل النفوس العظيمة ، المتزنة ، هى التى تنبت الكثير من الفيض ، وتنتج الكثير من الخير .

فإذا كنت أهلاً للمال بحق ، يتحتم عليك أن تتعلم كيف تهب ، وكيف تعطى ، وكيف تمنح . .

والثروة يجب أن تكون أول ما تكون فى العقل ، فهى إذن ستكون الصوت المدوى الصادر من اللاشعور ، والذى يهدى إلى الكمال . . .

وهى الاتجاه الكريم ، النبيل ، نحو الحياة الكريمة . . .

وهى الفكرة بأنها جزء من الناسوت المشترك الأعظم ، والإنسانية العظيمة العامة ، والمجتمع الإنسانى المترابط . . .

وهى المثل الأعلى للتآزر والتآلف والتآخى مع الجماهير . .

وإنها هى قانون المطابقة لحقائق الوجود العظيمة ، المطلقة ، الشاملة . . .

والإنسان عليه أن ينفق ماله فى الحق ، ولا ينفقه فى الباطل .

قال تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا » أى لم ينفقوا فى المعصية ، ولم يمنعوا من الطاعة .

إن ثروتك يمكن أن تقاس إلى حد ما بمقياس المال . ولكن الثروة الحقيقية إنما هى ، فى الأصل وقبل كل شىء : أخلاقك ، واتجاه عقلك ، وكمال روحك ، واكتمال شخصيتك ، وشجاعتك ونفسك الجادّة المجدة ، والتوق إلى مطالب الروح ، والتعطش إلى الغبطة الدائمة ، والرضا الثابت ، والسرور المقيم . .

اتخذ القرار التالى ، وكرره دائماً بصيغة التوكيد :

« الكسب ، والصرف ، والادخار ، والمنح — هذى هى الأسس العملية التى تدخل الآن فى حياتى المهنية بتوافق واتساق .. إننى قائم بترتيب ما بداخل نفسى وخارج نفسى ، وتجديد وفاقى مع عالمى العملى الخارجى.. وبذلك أعلو فوق المتاعب ، وأرتفع فوق المصاعب والاضطرابات التى من شأنها دائماً هدم سلام الجميع . وإبادة خيرهم ورفاهتهم . . وبعد أن أفرغ من عمل كل شىء صائب ، معقول ، مما سلف ذكره ، مما يؤدى إلى النجاح فى العمل ، أقدم رصيدى وديعة لدى القانون السماوى العظيم — قانون العرض والطلب — عرض أعمالى ، وطلب الجزاء عليها » . .

فهرس

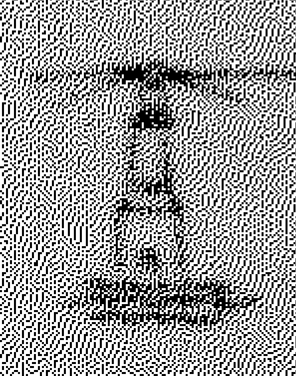
تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢

يناير ١٩٦٢ الثمن ٣٠ مليماً

اقرأ

مصطفى الشهابي

الجغرافيون العرب



دار المعارف بمصر

الجغرافيون العرب

مصطفى الشهابي

الجغرافيون العرب

اقرأ ٢٣٠
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٣٠ – فبراير سنة ١٩٦٢

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

مقدمة

لعب العرب دوراً أساسياً فى تقدم العلوم الحديثة ، برغم تعدد أنواعها . ذلك أنهم ترجموا واقتبسوا أهم ما عثروا عليه من تراث الفراعنة واليونان والهنود ، مما مكن الأجيال التالية من أن تقف على تطورات العلوم فى العصور المتعاقبة — برغم ضياع بعض المؤلفات القديمة — وتعرف محتويات تلك المؤلفات .

ولما تمت للعرب دراسة تراث الأمم التى سبقتهم واستوعبوه جيداً بدأوا فى بناء نهضة عربية مجيدة ، فأضافوا إلى الآراء والمعلومات القديمة ما رأوه من تحسينات أو نظريات خاصة ، وابتكروا أجهزة جديدة ساعدتهم على القيام ببحوث أدت إلى نتائج أكثر دقة ممن سبقوهم ، وهكذا قدموا للأجيال التالية قواعد وأسساً سليمة شيدوا عليها النهضات العلمية التى كان لها الفضل فيما نراه اليوم من رقى وحضارة .

وقد شهدت الفترة التى بين النصف الثانى من القرن الثامن وأول القرن الثانى عشر للميلاد عصراً كان العرب فيه سادة العالم فى مختلف العلوم والفنون ، لدرجة أن ثقافتهم وعلومهم طغت على سائر الثقافات المعاصرة لتلك الفترة . وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت اللغة العربية يومئذ اللغة الدولية للعلوم .

ولكن بعض مؤرخى تاريخ العلوم وتطورها — وجلهم من

الأجانب ــ أغفلوا نصيب العرب أو مروا به مر الكرام ، وسلطوا الأضواء على ما كتبه اليونان ، ونسبوا بعض النظريات إلى علماء أجانب جاءوا فيما بعد القرن الثانى عشر بينما علماء العرب سبقوا هؤلاء إلى تلك النظريات .

وقد يكون السبب فى ذلك عدم إلمام هؤلاء المؤرخين باللغة العربية إلماماً كافياً يمكنهم من دراسة المخطوطات العربية .

كما أن كثيراً من المخطوطات العربية لم يبدأ الاهتمام به إلا أخيراً ، بعد ظهور كثير من الكتب الأجنبية فى تاريخ العلوم .

وقل من تعرض من الأجانب للاعتراف بفضل العرب ، بسبب التعصب الأعمى ضد العرب .

ومن النواحى الهامة التى برز فيها العرب ، علم الجغرافيا وهو موضوع هذا الكتاب ، الذى صدر بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافى العربى الأول بمدينة القاهرة .

تمهيد

منذ ظهر الإنسان على وجه الأرض أغرم بحب الاكتشاف ، ولكنه وجد فى بداية الأمر صعوبات شديدة اضطرته إلى النضال نضالا شديداً ضد قوى الطبيعة وضد الحيوانات المفترسة ، ولذلك مضت عدة قرون وقف فيها الإنسان عن الانتقال لمسافات طويلة ، فلما تيسرت له السبل أخذ يضرب فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويركب متون البحار ويتجشم أعظم المشاق ويصبر على ما يصادفه من مكاره لكى يكتشف بلاداً جديدة أو يختط طريقاً لم تطأه قدم إنسان من قبل .

ولقد كانت المحاولات الأولى لوصف الأرض أو وصف جزء منها غير مبنية على مشاهدة لأحد المعاصرين ، بل كانت معلومات استقاها الرواة ممن سبقهم ، ولكنها كانت بداية الجغرافيا على أية حال .

وكلمة « جغرافية » معربة عن اليونانية ، وهى فى الأصل اليونانى تتكون من (جيو) أى الأرض و (جرافى) أى الرسم والتصوير ، ومعنى الكلمتين معاً « وصف الأرض » .

علاقة الجغرافيا ببعض العلوم :

الجغرافيا من أقدم العلوم وقد كانت للجغرافيين منزلة

مرموقة منذ أقدم العصور ، ويرى « سترابون »[1] أن الجغرافيين أوفر الناس حكمة وأنهم كلهم فلاسفة ، وذلك للعلاقة الوثيقة بين الجغرافيا وأغلب العلوم الأخرى ، فهى شديدة الاتصال بالرياضيات وعلى الأخص فى النواحى الفلكية ، وبعلمى الطبيعة والكيمياء ، فالجغرافى يستعين ببعض نظرياتهما وببعض الأجهزة المستعملة فى دراستهما لقياس الحرارة والرطوبة والارتفاع والكثافة وغيرها من الظواهر الطبيعية والكيماوية .

وهى تتصل كذلك بعلمى الجيولوجيا والحياة ، لحاجة الجغرافى إلى الإلمام بتركيب سطح الأرض أو غلافها اليابس ، وما يعتريه من التغيرات وأثر ذلك فيما يوجد على سطح الأرض من حيوان ونبات وكذا توزيع النبات والحيوان فى جميع أجزائها .

وهناك علاقة بين الجغرافيا وبين دراسة البحار والمحيطات وتوزيعها والمد والجزر والتيارات البحرية .

وتتناول الجغرافيا كذلك دراسة الغلاف الجوى وأثره فى الأحياء ، وهو ما يسمى بعلم الظواهر الجوية .

ويحتاج الجغرافى كذلك إلى مهارة ودقة فنية حتى يتمكن من رسم الخرائط والظواهر الطبيعية والنباتات والحيوانات وغيرها .

وللعوامل الجغرافية أثر كبير فى مجرى التاريخ .

من ذلك تظهر علاقة الجغرافيا بكثير من العلوم والفنون .

---

(١) مؤرخ وعالم جغرافى يونانى ، ولد حوالى سنة ٦٣ ق . م .

التأليف الجغرافى عند القدماء

قدماء المصريين والجغرافيا :

كان المصريون أول أمة عنيت بالجغرافيا ، وإن لم يظهر ذلك بشكل واضح . فالمتصفح للأدب المصرى القديم يجده مليئاً بقصص أسطورية أو حقيقية أغلبها يدور حول رحلات قام بها أبطال تلك القصص إلى سورية ، وهى تعطى وصفاً لتلك البلاد يستدل منه أحياناً على مواقع بعض المدن والأنهار كما توضح طرق المواصلات ، وتدل على العلاقة الوثيقة بين مصر وسوريا منذ القدم .

فأسطورة إيزيس وأوزوريس تروى كيف قتل ست أخاه أوزوريس بوضعه فى صندوق محكم وإلقائه فى نهر النيل ووصول ذلك الصندوق إلى ببلوس (جبيل) فى فينيقية ، ثم بحث إيزيس عن جثمان زوجها واهتدائها إليه أخيراً .

وغير هذه الأسطورة ، أساطير الأمير المسحور وغيرها ، ومن القصص قصة سنوحي الذى هرب من مصر والتجأ إلى جنوب سورية حيث أقام عدة سنوات محبوباً من ملكها وأهلها ، فلما كبرت سنه شعر بالحنين إلى مصر فبعث يستأذن ملكها فى العودة فأذن له وأحسن استقباله .

وتوجد — عدا هذه القصة — قصص عدة ، منها قصة الأخوين ومغامرات ويناموں .

الجغرافيا عند اليونان والرومان :

لم يتعرض اليونان فى بادئ الأمر للتأليف فى الجغرافيا برغم ما تركوه من آثار علمية جليلة ، وذلك لضيق مساحة بلادهم وصراعهم الدائم مع الفرس .

غير أن بعض المؤلفين القدماء تناول فيما كتبه نواحى جغرافية ، فهذا هومر — الذى عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد — يسرد فى الإلياذة والأوديسية حوادث ووقائع حربية قام بها اليونان فى القرون السحيقة ضد سكان طروادة التى كانت تقع فى الجزء الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ، ويصف طبيعة البلاد التى مر بها اليونان وأحوال سكانها ونظم الحياة فيها .

واقتصر أغلب ما كتبه المؤلفون اليونانيون الذين جاءوا بعد هومر على وصف البلاد اليونانية الكبرى مثل أثينا ، أما من تعرضوا للأرض فقد وصفوها وصفاً مغرقاً فى الخيال ، وقالوا عن بلاد الشرق إنها مهد الثروة الطائلة ، والشمال إنه مقر السعداء ، والجنوب أنه مسكن الأحباش المسالمين ، أما الغرب فقد أسرفوا فى خيالهم إزاءه إذ زعموا أن به الجزائر الطافية وجزائر السعادة وجزائر المباركين ومركز جميع مجارى المحيطات ، وذهبوا إلى أنه قامت فيه أمة غنية قوية وأن به حقول اليزيا حيث

يقيم الأبطال الذين أسبغوا عليهم صفة الخلود أمثال هرقل ، وقد وصفها هومر وهزيود ويندر — شعراء الإغريق المشهورون — وكانت منشأ خرافة الأتلنتس .

وبرغم ما شاب كل ذلك من خرافات وأساطير فهى دليل على بداية الاهتمام بالمظاهر الجغرافية .

وفى القرن الخامس قبل الميلاد ظهر هيرودوت الذى طاف بأغلب بلاد الشرق الأدنى — ومنها مصر والشام — وتحدث عنها فى كتابه ، غير أن أغلب ما كتبه يتصل بالنواحى التاريخية ، ولذلك اشتهر باسم « أبو التاريخ » . ولكن كتابه لا يخلو من موضوعات جغرافية هامة ، إذ أنه يتناول وصف البلاد التى مر بها وأنهارها — كالنيل فى مصر — ويتحدث عن السكان وعاداتهم وعن الحيوانات والنباتات .

وأول جغرافى يونانى قديم هو ديسباركس ، الذى كان تلميذاً لأرسطاطاليس وظهر فى القرن الثالث قبل الميلاد وألف كتاباً أسماه باليونانية « باريودوس تيس جيس » ومعناها بالعربية الطواف حول الأرض ، ولابد أنه اشتمل على شيء من الجغرافيا ولكنه مفقود .

ولما شرع اليونان فى إنشاء مستعمرات اتسعت معلوماتهم الجغرافية ، وقد تجلى نبوغهم الجغرافى عندما قامت دولة البطالمة فى مصر إذ ظهر فيها عدد كبير من أعلام الجغرافيا مثل أراتوستنيس Eratosthenes وبطليموس وغيرهما .

أما الرومان فلم يهتموا فى بدء تكوين دولتهم بالعلوم وإنما اهتموا بالحرب ، ولما استولوا على بلاد اليونان بهرتهم علومهم فاقتبسوا منها الشيء الكثير ، ولكنهم لم يعنوا بالجغرافيا العناية الواجبة إلا عندما اتسعت أملاكهم وأصبح البحر المتوسط بحيرة رومانية ، يومئذ كتبوا يصفون البلاد النائية عن إيطاليا ويلخصون ما كان معروفاً عن سطح الأرض لدى غيرهم من الأمم.

والمؤلفون القدماء فى الجغرافيا — سواء من اليونان أو الرومان أو العرب — ينقسمون إلى قسمين :

١ — مؤلفون اهتموا بالكرة الأرضية واستطاعوا أن يهتدوا إلى كرويتها وإلى قياس أبعادها ورسم خطوط طول وعرض لها ، كما قسموها إلى أقاليم حسب دوائر العرض وقرروا عدة نظريات خاصة بالأرض ومكانها بين الأجرام السماوية ورسم بعضهم خرائط لإيضاح ما قام بدراسته .

٢ — مؤلفون تناولوا الأقطار المختلفة بالوصف بناء على ما شاهدوه بأنفسهم أو سمعوه من غيرهم ، أمثال هيرودوت واسترابون وديودور الصقلى وعدد كبير من المؤلفين العرب الذين سنتناولهم فى فصل تال .

وقد أصاب بعض هؤلاء شيئاً كثيراً من النجاح برغم جهلهم بجزء عظيم من سطح الأرض .

واشهر كتاب الجغرافيا القدماء هو بطليموس المشهور باسم « الجغرافى » والذى عاش فى الإسكندرية فى القرن الثانى

بعد الميلاد ، إذ استطاع أن ينظم المعلومات الجغرافية وينسقها حتى أصبح كتابه أهم مرجع لدى الجغرافيين الذين جاءوا بعده .

وليست لدينا ترجمة عربية كاملة لكتاب بطليموس ، ولا ريب أنها ظلت موجودة مدة طويلة فلما ظهر الإسلام وقويت شوكة العرب وترجمت كتب اليونان الجغرافية وغيرها إلى العربية كان علم الجغرافيا من العلوم التى عنى العرب بدراستها .

وقد بنى الجغرافيون العرب على ما كتبه بطليموس وأضافوا إلى ما كتبه هو وغيره ، ما وقفوا عليه أثناء أسفارهم ورحلاتهم المتعددة فى مختلف الجهات ، ونبغ منهم عدد كبير سنتحدث عنه فى فصل تال .

ورسم العرب الخرائط الجغرافية فى صدر الدولة العباسية ، وكانوا يجعلون أساس رسومهم قياس العرض والطول . وأول من رسم منهم خريطة الأرض على هذا الإساس محمد بن موسى المعروف بالخوارزمى فى زمن المأمون . على أنهم لما أخذوا فى الارتحال أغضوا عن تلك المقاييس وصاروا يرسمون الخرائط بلا قياس ، فيكتفون بتعيين مواقع البلاد بالنظر إلى الجهات الأربع بلا تقدير للأبعاد بينها .

ولم تكن عندهم قاعدة لتعيين الجهات المذكورة فى الخريطة كما يفعلون اليوم (فإن الخرائط عندنا مقيدة فى تعيين جهاتها أن يكون أعلاها شمالا وأسفلها جنوباً ويمينها شرقاً وشمالها غرباً) ، فالغالب عندهم أن يجعلوا الجهات فى زوايا

الخارطة . على أنهم أخذوا بعد ذلك فى تعيين الأبعاد بعد الأماكن ، وأقدم من عينها منهم الشريف الإدريسى .

وكانت الدراسات الجغرافية القديمة تكاد تكون متشابهة حتى العصور الحديثة ، وذلك لأن الأقطار التى كانت معروفة هى ما يحيط بالبحر المتوسط أما الجهات البعيدة كالهند والصين فلم تصلنا عنها إلا معلومات ناقصة ومشوهة وغريبة ، كما أن هناك قارات ومحيطات كانت مجهولة تماماً .

ولا شك أن عدم توفر وسائل الانتقال واختلال الأمن والخلاف بين الدول والشك فى الأجانب ومشاكل الغذاء عبر الصحراء والمحيطات — كل ذلك له أثره فى تضييق المجال أمام الرحالة القدماء ورحالة العصور الوسطى .

وقد اعتاد المؤلفون الجغرافيون فى العصور الوسطى الاهتمام بوصف ما يشاهدونه من عجائب البلاد التى يزورونها ، وكثيراً ما يسارعون إلى تصديق كل ما يسمعونه دون نقد أو تحليل أو تفسير لعقول .

ولم تبدأ الدراسات الجغرافية على أسس سليمة ، إلا بعد عصر الكشوف الجغرافية التى كان أهمها كشف أمريكا سنة ١٤٩٢ م ، وساعد على تقدمها ما صحبها من إتقان ودقة فى رسم الخرائط

وبعد أن كانت الجغرافيا القديمة مجرد سرد أرقام وقصص ومشاهدات أصبحت الجغرافية الحديثة علماً له أصوله وقواعده وفروعه المختلفة .

الفصل الأول

العرب أسبق الأمم إلى الكشوف الجغرافية

العرب من أكثر الأمم حباً للتنقل والسياحة وقد عرفوا بذلك فى العصور القديمة . فقد هاجر كثير من القبائل من جنوب الجزيرة العربية وأواسطها إلى بلاد الأنهار أو بلاد الخصب الدائم أو المرعي الموفور ، وإن ما نراه من هجرة السوريين واللبنانيين إلى البلاد الأمريكية وغيرها لامتداد لذلك الميل الغريزى عند العرب . وكان اشتغال العرب بالتجارة براً وبحراً أكبر مشجع لهم على ارتياد الأماكن النائية .

هذه مصر ازدهرت فيها الحضارة منذ آلاف السنين فأرسلت البعثات لكشف حوض النيل وارتياد الصحراء الشرقية والليبية وشبه جزيرة سيناء ، ونشطت فيها الزراعة والصناعة وفاضت بها الغلات والمصنوعات فحملتها القوافل فى البر ومخرت بها السفن فى البحر متجهة إلى البلاد المجاورة لتصريفها فيها .

ولتسهيل نقل المتاجر من داخل البلاد إلى البحر الأحمر حفرة قناة سيزوستريس بين النيل وذلك البحر ، وعندما حفرت

قناة السويس بعد ذلك بألوف السنين اتبعت الطريق التى كانت تسير فيها القناة القديمة من البحر الأحمر إلى البحيرات المرة .

وفى عهد الملكة حتشبسوت (فى النصف الأول من القرن الخامس عشر قبل الميلاد) وصلت التجارة المصرية إلى بلاد بونت (الصومال) وجنوب الجزيرة العربية .

وفى القرن السابع قبل الميلاد تولى حكم مصر الملك نخاو Neco وكان عظيم الاهتمام بنشر تجارة مصر فى العالم الخارجى . وكانت قناة سيزوستريس قد أهملت وطمرتها الرمال فشرع نخاو فى إعادة حفرها ، ثم عدل عن ذلك بعد أن فقد فى هذه المحاولة ١٢٠ ألفاً من الفلاحين المصريين ، وبعد أن أنذره الكهنة بأن الأجانب سيتخذون من هذه القناة وسيلة للإضرار بمصر !

أول رحلة بحرية حول أفريقية :

لم يثن ذلك من عزيمة نخاو ، فوجه عنايته إلى إرسال البعثات البحرية ترتاد البحار للكشف عن الطرق التجارية والبحث عن بلاد جديدة للإتجار معها . وقد شجع نخاو على ذلك أمران :

١ ـ نجاح البعثة البحرية التى تمت فى عهد حتشبسوت

وقيام السفن المصرية فى السنوات التالية برحلات طويلة من البحر الأحمر نحو الجنوب .

٢ ــ كان له أسطول عظيم يعمل فى قيادته عدد كبير من الفينيقيين الذين كانوا وقتئذ أمهر الملاحين وأشجعهم وكان لهم على الملاحة فضل عظيم .

وكان البحر الأحمر يومئذ بحيرة فينيقية ، وفيه احتكر الفينيقيون التجارة مع الدول التى تطل على سواحله ، ولهذا كان اختيار نخاو لهم لقيادة سفنه فيه جانب كبير من بعد النظر حتى يضمن لأسطوله السلامة فى البحار ، ولا يتعرض له الفينيقيون فى الموانى التى يتجرون معها .

وقد أصدر نخاو أمره إلى أسطوله هذا بالسفر من قاعدته فى البحر الأحمر للطواف حول أفريقية والعودة عن طريق مضيق جبل طارق ، الذى كان القدماء يسمونه (عمود هرقل) .

وكان المصريون يعتقدون أن الأرض يحيط بها الماء من جميع الجهات ، فأراد نخاو برحلته هذه أن يكشف ذلك الجزء الذى يحيط بالساحل الإفريقى ، ولعله كان يأمل أن يعثر له رجاله على أراض تدر عليه الخير العميم .

خرج الأسطول المصرى الفينيقى من إحدى الموانى المصرية التى على البحر الأحمر ، وكان ملاحوه يعتقدون أنهم سيفرغون من رحلتهم فى بضعة أشهر . وسار الأسطول جنوباً والشمس عن

يساره محاذياً ساحل أفريقيا الشرقي ، ولقي كثيراً من المتاعب والمشاق بعد خروجه من البحر الأحمر عن طريق باب المندب ، ومر ببلاد الصومال ، ثم انعطف الساحل نحو الغرب فوقع في خلد الملاحين أنهم أوشكوا على الوصول إلى ساحل موريتانيا ، ولكنهم كانوا إزاء ساحل كينيا ، وساروا إزاء ساحل ناتال الحالية . . .

وذات يوم دهش الملاحون ، فقد رأوا الشمس تشرق عن يمينهم . . . ولم يدروا أنهم داروا حول الطرف الأقصى من جنوبي أفريقيا وهو الذي مر به بعد ألفي عام بارثلمي دياز Barthelmy Diaz وسماه رأس العواصف ثم سمي رأس الرجاء الصالح (أو عشم الخير !) .

وواصل الأسطول سبيل العودة محاذياً ساحل أفريقية الغربي ، حتى وصل مضيق جبل طارق . . ومن جبل طارق سارت سفن الأسطول حتى وصلت إلى أحد فروع النيل وسارت فيه حتى وصلت إلى عاصمة مصر . .

وبذلك انتهت تلك الرحلة وسجل التاريخ لمصر القيام بأول رحلة حول أفريقية .

وقد استغرقت هذه الرحلة نحو ثلاث سنوات ، نفدت في خلالها مؤونة الملاحين مراراً ، فكانوا ينزلون إلى الساحل فيحرثون الأرض ويبذرون الحب وينتظرون حتى يحصدوا

محصوله ، ثم يواصلون سيرهم حتى تنفد مؤونتهم مرة أخرى فيعيدون الكرة ، وفضلا عن زراعتهم القمح فقد اشتغلوا أيضاً بصيد كثير من الأسماك والحيوان ، وليس هناك ما يدل على حدوث قتال بينهم وبين أهالى تلك البلاد ، بل يحتمل أنهم صادقوهم ومنحوهم هدايا .

وهكذا كان للعرب فضل السبق فى كشف طريق الرجاء الصالح قبل المحاولات التى قام بها البرتغاليون بنحو ألفى عام .

الفينيقيون والملاحة :

كان الفينيقيون فى طليعة الأمم القديمة التى اشتغلت بالتجارة عبر البحار . فركبوا البحر ووجدت فى بلادهم صناعة بناء السفن على ساحل البحر المتوسط الشرقى حيث قامت فينيقيا (لبنان الحالية تقريباً) وأصبحت تلك المنطقة عامرة بأسباب الملاحة والملاحين ومراكز التجارة لأن موانيها كانت نهاية الطرق البرية من قبل آسيا وبداية الطرق البحرية إلى القارتين الإفريقية والأوربية ، واتصل الفينيقيون بإخوانهم المصريين وهاجر عدد كبير منهم أقام فى العاصمة منفيس يشتغل بالتجارة واتخذوا حياً خاصاً عرف باسم حى« الصوريين» نسبة إلى صور . وامتد نشاط الفينيقيين إلى الجزء الغربى فأنشأوا مستعمرات عدة على سواحل البحر المتوسط أشهرها مستعمرة

قرطاجة شمال مدينة تونس الحالية ، وبنوا السفن عند العقبة وعمان كما بنوا فى العقبة أسطولا لسليمان الحكيم .

ومن العقبة اتجهت السفن العربية بين الهند وفارس وسواحل أفريقية الشرقية وسمى البحر هناك باسم بحر العرب وسمى الساحل الشرقى لأفريقية باسم السواحل ، وظل هذا الاسم حتى اليوم يطلق على اللغة التى يتكلمها الأفريقيون فى تلك الجهات إذ هى تسمى « السواحلية » .

من هذا التاريخ المجيد يظهر لنا أثر الفينيقيين فى إحكام الصلات بين أغلب الجهات المعمورة مما كان له أثره فى توسيع المعارف الجغرافية

وجرت عادة الملاحين فى الأزمنة القديمة أن يجوبوا البحار على مقربة من الشواطئ ، فكانت المسافة التى يقطعونها بين مكان وآخر أطول مما لو شقوا عباب البحر ، فضلا عن تعرضهم لخطر الارتطام بالصخور القريبة من الشواطئ ، كما أنهم كانوا يسيرون نهاراً فقط ، فإذا ما أقبل الليل أرسوا سفنهم فى مكان أمين . أما الفينيقيون فقد شقوا عباب البحر نهاراً وليلا ، مهتدين ليلا بالنجوم ، ولذا أطلق اليونانيون اسم « الفينيقى » على القطب الشمالى الثابت دائماً فى مكانه ، لأن الملاحين الفينيقيين اتخذوه مرشداً لهم فى أسفارهم .

وكانت منطقة جبل طارق فى القرن السابع قبل الميلاد تعج بالسفن الفينيقية التى تتجر مع إسبانيا والبرتغال وبريطانيا

– التى أطلق عليها الفينيقيون يومئذ « بلاد الصفيح » أو القصدير لأنهم كانوا يستوردونه منها – ويقال إن نشاطهم التجارى امتد إلى شمال غربى أوربا حيث شبه جزيرة إسكنديناوة (السويد والنرويج) حيث وجدت هناك عملات عربية .

وعرف الفينيقيون بمعاملة الشعوب الغريبة عنهم بالكرم والحسنى وكانت لهم طريقة لطيفة فى الاتجار مع الأجانب ، ذلك أنهم كانوا ينزلون إلى البر ، ويضعون بضاعتهم على الساحل ، ثم يوقدون ناراً يتصاعد دخانها ، ويعودون إلى سفنهم ، فعندما يرى الأهالى الدخان المتصاعد يسرعون نحو الشاطئ ويفحصون ما عليه من بضاعة ويضعون بجانبها ما تساويه فى نظرهم من الذهب ، ويتراجعون إلى مسافة بعيدة . عندئذ ينزل الفينيقيون إلى البر مرة أخرى ، فإذا راقهم ما تركه الأهالى من ذهب ورأوا أنه يكفى كثمن لبضاعتهم أخذوه ورحلوا ، أما إذا رغبوا ثمناً أعلى رفضوا أخذه ، وعادوا إلى سفنهم ثانية وانتظروا صابرين ، فيعود الوطنيون ويزيدون على الذهب ؛ ثم ينسحبون حتى يتأكدوا من رضاء التجار .

وقد اشتهر الفينيقيون البحارة بالاحتفاظ لأنفسهم بأسرار الطرق التجارية ، حتى تظل التجارة دائماً فى أيديهم . ومن المعروف أنهم كانوا – فى سبيل المحافظة على تلك الأسرار – يؤثرون الموت . ويروى أن إحدى سفنهم تعقبتها سفينة رومانية ، فما كان من السفينة الفينيقية إلا أن جنحت إلى أقرب شاطئ

ولم تتم رحلتها حتى يئست منها السفينة الرومانية ، وابتعدت عنها . بل إن الفينيقيين هم الذين ابتكروا تلك القصص المخيفة عن الأهوال التى يلاقيها كل من تجول فى البحار ، من حيوانات ضخمة ومخلوقات مخيفة وكوارث لا ينجو منها أحد ، مما نراه فى قصص السندباد وأمثالها ، فقد ابتكروا تلك القصص ليدخلوا الرعب فى قلب كل من تحدثه نفسه بركوب متن البحار للتجارة حتى يحتكروا ذلك الميدان .

وفى جنوب الجزيرة العربية قامت حضارات زاهرة فى اليمن ، كان اعتمادها على النشاط التجارى فى البحر العربى والمحيط الهندى ، فاتصل اليمنيون بشعوب أفريقية الشرقية وجزرها ، وكان لهم عليها بعض السلطان ، وكانوا يتجرون مع أهلها فى الأفاويه والطيوب ، كما اتصلوا بالهند وما وراءها من أقطار ، وإلى هؤلاء اليمنيين القدماء يرجع الفضل فى معرفة الطرق البحرية فى تلك الجهات .

العصر الإغريقى والرومانى :

ولما عظم شأن الإغريق والرومان احتفظت البلاد العربية بأهميتها كمركز للحركات الكشفية والدراسات الجغرافية أيضاً ، وساهم العرب فى معاونة الإغريق والرومان على كشف سواحل أفريقية الشرقية والغربية وبعض الطرق الصحراوية فى القارتين الأفريقية والآسيوية .

الفصل الثانى

اهتمام العرب بالرحلات

عندما بدأ القرن الثامن الميلادى أصبح للعرب ملك واسع الأرجاء . إذ أنهم فى أواخر القرن السابع وفى بداءة هذا القرن فتحوا بلاد ما وراء النهر – أى بلاد العجم أو فارس – وبلاد أفغانستان وبلاد الأندلس ، فامتدت دولتهم من حدود الهند شرقاً إلى المحيط الأطلنطى غرباً ، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز إلى صحارى أفريقيا .

وكان لهذا الاتساع العظيم أثره فى اهتمام العرب بالجغرافيا وبالرحلات ، لعدة أسباب :

١ – أن هذا الملك الواسع الذى أسسه العرب كانت أنحاؤه المختلفة تتطلب الدراسة والوصف ، مما دفع بعض الخلفاء والحكام العرب إلى أن يوفدوا مبعوثيهم وسفراءهم إلى البلاد الإسلامية والعربية المختلفة لدراسة أحوالها ومعرفة طبائع سكانها وبيان الطرق والمسالك المؤدية إليها ، تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة بين سكانها ولتوثيق الروابط بين السلطة المركزية وبين حكام الأقاليم ، وقد اقتصرت هذه الرحلات على الدولة الإسلامية .

٢ – أن الإسلام يحث على طلب العلم وعلى تجشم المشاق

فى هذا السبيل ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم (اطلبوا العلم ولو فى الصين) أكبر دليل ، لذلك كان طلاب العلم يتركون أوطانهم ويسيرون شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً من إقليم إلى آخر يدرسون على مشاهير الأساتذة ويقابلون أعلام الفقهاء .

٣ ـ كان ألوف المسلمين يتجهون من أطراف العالم الإسلامى إلى الحجاز يحجون إلى بيت الله الحرام ، مما أتاح لبعضهم مشاهدة مناطق مختلفة وأقطار متعددة تناولوها بالوصف والتحليل فيما رووه أو كتبوه .

٤ ـ اتسع نطاق التجارة العربية فانتشرت قوافل التجار العرب فى أغلب أجزاء العالم المعروف فى ذلك الوقت ، وخاضت سفنهم مختلف البحار والمحيطات ، وعرفتهم الطرق التجارية المعروفة يومئذ . ولم تقتصر تلك الرحلات على البلاد العربية بل تجاوزتها إلى الدول المجاورة .

٥ ـ الثراء الذى امتازت به البلاد العربية فى العصور الوسطى .

٦ ـ الميل الغريزى عند العرب للبحث والاطلاع ، ولذلك اتخذ كثير منهم السياحة وسيلة للدراسة والوقوف على ما بالبلاد الأخرى من عجائب وغرائب .

٧ ـ شعور العربى بأنه فى بلده ما دام فى ديار عربية .

٨ ـ كانت للعروبة هيبة فى سائر دول العالم ، فكان

العرب المسافرون يلقون من كرم الضيافة وحسن المعاملة ما يحبب إليهم الرحلات والأسفار .

٩ ـ أن الدين الإسلامى قدر متاعب السفر ، فخفف على المسافرين بعض الواجبات الدينية فى الصلاة والصوم .

١٠ ـ كان العالم العربى فى العصور الوسطى يمثل دائماً كتلة ثقافية وروحية واحدة على الرغم من المنازعات السياسية .

١١ ـ وكان العالم العربى كذلك يمثل وطناً حقيقياً لا للمسلمين فقط بل لمواطنيهم من المسيحيين واليهود أيضاً .

١٢ ـ ولو أن بعض العلماء فى الغرب يعزوا اختراع البوصلة للصينيين ، إلا أن القرائن تدل على أن العرب أول من استعملوها فى رحلاتهم البعيدة فضلا عن الاسطرلاب الذى ينسب للعرب اختراعه وصناعته .

كل تلك الأسباب هيأت للرحلات والأسفار ، فقام من العرب رحالة جابوا أرجاء العالم ، ولم تستطع الظروف السياسية كالحروب بين الملوك والأمراء أن توقف رحلات العرب إلا مؤقتاً ثم سرعان ما تعود سيرتها الأولى .

الفصل الثالث

أهمية الرحلات العربية

للرحلات العربية ميزات هامة منها :

١ ــ أنها ساعدت على زيادة المعلومات عن كثير من أجزاء العالم وكشف بعض المجهول منها ، فعرف العرب نواحى لم يعرفها الأوربيون إلا فى العصور الحديثة .

٢ ــ أنها سدت الفراغ أو الفجوة الزمنية بين عهد بطليموس العالم اليونانى وعهد ماركوبولو العالم الإيطالى .

٣ ــ أن ما كتبه العرب كان أساساً لما كتب فى العصور التالية فحققه الأوربيون أو زادوا عليه .

٤ ــ أن أخبار الرحالة العرب وقصصهم أكثر تنوعاً وأشد حيوية وقوة مما نجده مسطوراً فى مؤلفات علماء اليونان . فقد ساهموا فى التعريف بالشرق الأقصى وإفريقية ، وعبروا الصحراء ، وعرفوا مجاهل هذه القارة التى ظل الأوربيون حتى القرن الثامن عشر يقفون عند سواحلها . وكان الرومان يتخيلون وجود الصين ، ولكن الرحالة المسلمين عرفوها وكتبوا عنها منذ بداءة القرون الوسطى .

٥ ــ ظلت المعلومات التى قدمها الرحالة العرب المرجع الوحيد فيما بين القرن التاسع والرابع عشر للميلاد .

٦ — يبدو أثر العرب فى هذه النواحى فى هذا العدد الكبير من المصطلحات العربية الأصل التى تصادفنا فى مجموعة الألفاظ المتصلة بالتجارة والملاحة .

فضل العرب على علوم البحار :

ذكرنا ما كان للعرب فى مصر وفينيقية من أثر فى تقدم المعارف الجغرافية قبل ظهور الإسلام .

وفى خلال سنوات معدودات من فتح الشام ومصر بدأ العرب فى بناء الأساطيل البحرية التى مكنتهم من قهر أساطيل الروم فى البحر المتوسط .

وقد حدثت أول معركة بحرية عربية هامة فى ٢٩ أغسطس عام ٦٥٤ م عندما هزم أسطول عربى مكون من مائتى سفينة أسطولا بيزنطياً أكثر منـــه عدداً بالقرب من الإسكدرية فى المعركة المشهورة باسم « ذات الصوارى » ، وقد أصبح ذلك اليوم عيداً للبحرية العربية . ومنذ تلك الموقعة بدأ نشاط العرب البحرى ، الحربى والتجارى . فلما اتسعت الدولة العربية ازداد الاهتمام بصناعة السفن وتنظيم الأساطيل وإحياء المعارف البحرية للضرب فى شتى الآفاق بحثاً عن السلع والأسواق .

وكانت الأساطيل العربية تجرى ما يسمى بالمناورات أمام الخلفاء فى الأعياد والمواسم ، وانتشرت فى طول البحر المتوسط وعرضه وتملك العرب بواسطتها الكثير من جزره وبعض بلاده ،

وشهدت مصر والشام بعدئذ فى عهد الفاطميين والأيوبيين والمماليك معارك بحرية عدة انتصر فيها العرب على الأوربيين .

ولم يدون الملاحون العرب فى أول الأمر تجاربهم البحرية كعلم قائم بذاته ، بل اكتفوا بتداولها وتوارثها ، وتبادل الانتفاع بها شفاهة ، وقد ورد بعضها فى مناسبات عارضة ، تضمنتها مؤلفات الرحالة الجغرافيين .

غير أنه سرعان ما دعت الحاجة إلى دراسة فن الملاحة كعلم قائم بذاته ، فألفت فيه كتب اتسمت بطابع الحيوية والتجربة . دون فيها ربابنة السفن عصارة تجاربهم فى كتب بسيطة ذات أسلوب بسيط ولكنها عامرة بالحقائق الصادقة .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الربابنة وتجار البحر « كانوا يحتفظون بكتب يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها » . كما وضع أبو القاسم بن خرداذبة دليلا للمسافرين يصف فيه الطريق البحرى من مصب الدجلة فى الخليج العربى حتى موانئ الصين . ويشير المسعودى إلى تلك العلوم البحرية التى يتوارثها الملاحون ويسترشدون بأحكامها فيقول : « لكل من يركب هذه البحار من الناس رياح يعرفونها فى أوقات تكون فيها مهابها ، قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب يتوارثون علم ذلك قولا وعملا ودلائل وعلامات يعلمون بها موعد هيجانه وأحوال ثورانه » .

وأشهر من كتب فى فن الملاحة على الإطلاق أحمد بن

ماجد النجدى الذى اشتهر باسم « أسد البحار » ، وقد عاش فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وترك فى ذلك الفن مؤلفات قيمة ، منها « الفوائد فى معرفة علم البحر والقواعد » ويشمل دروساً فى تاريخ الملاحة وعلاقتها بالنجوم فى الخليج العربى وبحر الهند والشواطئ العربية والأفريقية .

وقد ورث ابن ماجد تلك الثقافة البحرية ، التى دعمها بتجاربه ، عن جده الربان « عمر بن فضل بن دويك النجدى » الذى ترك رسالة فى أصول الملاحة فى البحر الأحمر ، وأوقفها لخدمة سفن الحج ، وأضاف إليها ابنه المزيد من تجاربه .

وابن ماجد هو ذلك الربان العربى الذى استعان به فاسكو دى جاما فى الإبحار من الشاطئ الأفريقى إلى تاليقوت بالهند ، وأخذ منه فكرة الانتفاع بالرياح الموسمية فى السفر إلى الهند ، ثم قتله هناك . . وهكذا يكون الوفاء !

وقد روى الرحالة الإنجليزى (برتن Burton ١٨٢١–١٨٩٠) أنه لقى بحارة فى عدن يتلون الفاتحة قبل إبحارهم ، على روح ابن ماجد الشهيد .

الفصل الرابع

العرب فى إفريقية

لما ظهر الإسلام رحل كثيرون من العرب فى القرنين الأولين للهجرة إلى سواحل أفريقية الشرقية والشمالية فسكنوا تونس وطرابلس . واجتاز كثيرون منهم صحارى القيروان وليبيا ، وتوغلوا فى البلاد ، وذهب بعضهم إلى السودان عن طريق مصر وقنا . وكانت القصير مرفأ لمراكبهم ، يبحرون منها إلى مضيق باب المندب فى البحر الأحمر ، ويرتادون السواحل الشرقية .

وقد وصل بعضهم فى القرن الأول الهجرى إلى سواحل جزيرة مدغشقر جنوباً ، وأسسوا فى شماليها مملكة عربية ، ما زالت آثارها وقلاعها وبقايا شعوبها ماثلة إلى الآن ، كما أن لغتهم عربية قديمة مشوبة بالحميرية .

وفى القرن الرابع للهجرة كانت كل سواحل إفريقية الشرقية وبلاد الزنج التى تليها معروفة عند العرب ، فاستوطنوها واتجروا مع أهلها فى العاج والذهب والطيوب العطرية ، وهم الذين سموا بلادها وأنهارها وجبالها بأسمائها المعروفة الآن .

وقد امتد ملك العرب فى داخل أفريقية شمالا وغرباً وشرقاً

حتى بلاد الكونغو والزولو ، ولم تزل آثارهم هناك إلى الآن .

وقد استدل العلماء من تلك الآثار على أن العرب منذ صدر الإسلام عرفوا أكثر بلاد أفريقية ، فوصلوا إلى منابع النيل ، وتوغلوا فى بحيراتها وغاباتها ومجاهلها ، ولم يكن الأوربيون يعرفون من ذلك شيئاً إلى وسط القرن الماضى ، فكان العرب أسبق إلى تلك البلاد السحيقة من الغربيين بعشرة قرون .

وقد أثبت أصحاب الخطط – وبينهم المقريزى – أن كل سواحل أفريقية الشمالية والشرقية والجنوبية ، قد كشفها العرب بعد الفتح الإسلامى بزمن وجيز ، على عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين ، فى إبان مجد العرب وسعة سلطانهم ، ثم توغلوا فى مجاهل النيل والنيجر والكونغو .

وفى بدء الفتوح الإسلامية اجتازت مراكبهم سواحل أفريقية كلها ، وملكوا الصومال وممبسة وزنجبار وموزمبيق وجزائر القمر ووسعوا تجارتهم فى تلك الجهات ، فاتجروا فى الذهب وريش النعام والعاج والتوابل والطيوب .

العرب فى آسيا :

وكما اتصل العرب بأفريقيا فقد اتصلوا بآسيا براً وبحراً ، ونزل أول أسطول عربى إسلامى بمصبات السند وشواطئ الهند

بعد الهجرة النبوية بستة عشر عاماً ونزلوا بعدئذ بجزيرة سيلان وأقامت فيها جالية إسلامية كبيرة ، ولم تمض على الهند بضعة قرون حتى قامت فيها دولة المغول الإسلامية .

ولا شك أن الملاحين العرب قد مهدوا الطريق أمام الفتوحات الإسلامية فى آسيا عامة وفى الهند خاصة .

وكان اتصال العرب بالهند وبجزيرة سيلان مصدر قصة السندباد البحرى ، ونجد صدى آخر لأسفار العرب إلى تلك الجهات فى كتاب ألف ليلة وليلة .

ولم يقف العرب عند حدود الهند بل تجاوزوها فى أسفارهم إلى بحر الصين وإلى الصين ذاتها ، ونزلوا فى جزائر الهند الشرقية التى تعرف اليوم باسم « إندونيسيا » .

العرب وكشف أمريكا :

من المعروف أن مكتشف أمريكا – أو العالم الجديد – هو الملاح الجنوىّ الأصل الإسبانى الجنسية كريستوف كولمبس .

والواقع أن مكتشفين أو مغامرين آخرين ، قد وصلوا إلى بعض أطراف أمريكا ، قبل كريستوف كولمبس ، بقرون ، أو بسنين .

وليس ينقص من قدر هذا البحار المغامر العظيم ، أن يقال

اليوم إن غيره من الملاحين قد سبقوه إلى كشف الدنيا الجديدة .

والذى يهمنا من تلك المغامرات هو ما قام به العرب إذ ثبت أنهم حاولوا اكتشاف أمريكا ، ويستند أصحاب هذه الرواية إلى ما كتبه الإدريسى فقد ذكر :

«أن جماعة من لشبونة عرفوا باسم المغرورين — وهم ثمانية فتيان إخوة أو أبناء عم — أنشأوا لهم مركباً كبيراً وزودوه من الماء والزاد ما يكفيهم عدة أشهر ، ثم خرجوا من ثغر لشبونة وساروا إلى الغرب نحو أحد عشر يوماً ، فوصلوا إلى مكان شديد الموجة فأيقنوا بالهلاك وأقلعوا ناحية الجنوب ووصلوا إلى جزيرة فيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل وهى سارحة لا راعى لها ، فنزلوا فيها ووجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى ، ولما ذبحوا بعض تلك الأغنام ، وجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها فأخذوا جلودها وأبحروا نحو الجنوب اثنى عشر يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة أخرى ، فوجدوا فيها عمارة وحرثاً فقصدوا إليها ليروا ما فيها فما لبثوا حتى أحيط بهم فى زوارق هناك ، فأخذوا وحملوا فى مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر فأنزلوا بها ، فرأوا فيها رجالا ، شعورهم مسبطة وطوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب فاعتقلوا فيها ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع دخل عليهم رجل يتكلم العربية ، ثم سألهم عن حالهم وفيم جاءوا وأين بلدهم ، فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيراً ، وأخبرهم أنه ترجمان الملك ، فلما كان اليوم الثانى ،

أحضروهم بين يدى الملك ، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروه بأنهم اقتحموا البحر ليروا ما فيه من العجائب فيقفوا على نهايته ، فلما علم الملك ذلك ضحك ، وقال للترجمان : أخبر القوم أن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر وأنهم جروا فى عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا بغير حاجة ولا فائدة تجدى .

وبعدئذ اعتقلهم الملك وأمر بتقييدهم وتركوا على الشاطئ حتى أنقذهم بعض الأهالى وأعلموهم أن بينهم وبين الأندلس مسيرة شهرين وأن المكان الذى رسوا فيه يقع فى أقصى المغرب».

ولا يستبعد أن يكون الشاطئ الذى رسوا فيه إحدى جزر أمريكا الجنوبية الواقعة شرق البرازيل ، فإن مثل هذه المدة التى قطعوها تحملهم إلى هذه المنطقة . ولا يستبعد بعد ذلك أن يكون هؤلاء العرب قد استوطنوا هذه الجزيرة ثم توغلوا فى القارة الجنوبية .

عرب السودان الغربى يحاولون كشف أمريكا :

حاول عرب السودان الغربى فى أوائل القرن الثامن الهجرى أن يبلغوا الشاطئ الغربى من المحيط الأطلانطى (بحر الظلمات) فقد كانت هناك مملكة إسلامية عظمى فى بلاد مالى تعرف باسم بلاد « التكرور » وهو أحد أقاليم تلك المملكة الواسعة . وقد حكمها فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ملك يدعى

« منسى موسى » ، وحدث أن أراد ذلك الملك الحج سنة ٧٢٤هـ سنة ١٣٢٤ م فمر بمصر وقابل الملك الناصر وقدم له ولأتباعه هدايا فاخرة .

وقد روى مؤلف مسالك الأبصار أن أحد حجاب الملك الناصر ، سأل هذا الملك عن سبب انتقال الملك إليه فقال : « إن الذى قبلى كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ، فجهز مائتى سفينة ، وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا غايته ، أو تنفد أزوادهم . وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم ، فقال : سارت السفن زماناً طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له جرية عظيمة ، فابتلع تلك المراكب ، وكنت آخر القوم ، فرجعت بسفينتى . فلم يصدقه ، فجهز ألفى سفينة : ألفاً للرجال وألفاً للأزواد ، واستخلفنى ، وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك ، فكان آخر العهد به وبمن معه . »

وقد أثير موضوع سبق العرب لكشف أمريكا خلال شهر أبريل سنة ١٩٦١ ، ذلك أن الدكتور « هوى لزلى » — العالم الصينى المولد وخريج جامعة هارفارد الأمريكية وأستاذ علم النبات بجامعة بنسلفانيا الأمريكية — ألقى بحثاً فى الجمعية الشرقية الأمريكية « بمدينة فيلادلفيا » التى تضم أساتذة الدراسات الجغرافية ، وقد استند فى بحثه إلى وثائق محفوظة فى الصين يرجع عهدها إلى القرن الثانى عشر والثالث عشر ،

وقد ورد فيها اسم مدينة« مولان بى » على الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية وأنه كان من المحاصيل التى تنتجها تلك المدينة الذرة الهندية ، والقرع العسلى ، وثمار غريبة نعرفها حالياً باسم الجوافة والبيباز والأناناس ، وهذه كلها لم تكن معروفة قبل كولومبس ، ولكن الوثائق أثبتت أنها كانت معروفة للعرب الذين قاموا قبل عام ١١٠٠ من الطرف الغربى للعالم الإسلامى — ومن ميناء الدار البيضاء على التحديد — ورسوا فى عدة مواضع على الساحل الأمريكى .

وانتهى الدكتور (لزلى) إلى أن البحارة العرب قاموا نحو عام ١١٠٠ من الطرف الغربى للعالم الإسلامى — ومن ميناء الدار البيضاء على التحديد — ورسوا بسفنهم فى عدة مواضع على طول الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية .

وقد وصل الدكتور « لى » إلى هذا الرأى بعد أن أنفق الأعوام الثمانية الأخيرة فى تتبع انتشار المحاصيل الزراعية والحيوانات فى شتى أنحاء العالم . .

وقد أيد هذه النظرية الدكتور لين شنج يانج أستاذ التاريخ واللغة الصينية بجامعة هارفارد ، ووصفها بأنها مثيرة للغاية . كما أيدها الدكتور ريتشارد رودلف رئيس المؤتمر الذى عقدته الجمعية الشرقية الأمريكية ، وقال : والآن ينبغى على الأساتذة العرب أن يتابعوا دراسة تاريخهم ، وليبدأوا من هذه المنطقة .

وهذه هي المرة الثالثة التي يعاد فيها بحث هذه المسألة منذ

مطلع القرن العشرين ، فإن مدير متحف البرازيل عثر قبل نهاية القرن التاسع عشر على صخرة إلى جوار ريو دى جانيرو عليها نقوش قريبة الشكل من الحروف العربية القديمة (أو الفينيقية)

فإذا كانت الرحلة من أفريقية إلى أمريكا الجنوبية قد حدثت حوالى القرن الثانى عشر ، فالمحقق أن الملاحين العرب هم الذين قاموا بها ، إذ أن الملاحة العربية يومئذ كانت الملاحة الوحيدة التى تستطيع القيام بمثل تلك الرحلة ، لأن العرب بنوا نوعاً من السفن لاختراق المحيطات

فإذا كانت الرحلة قد تمت فمن المحقق أن القائمين بها كانوا من العرب ، وذلك لأن العرب آمنوا بكروية الأرض فى الوقت الذى كان فيه علماء أوربة يقولون بأن الأرض مسطحة . . بل إن الكنيسة الغربية عاقبت كل من شك فى هذا الادعاء . . وقد نادى بمبدأ كروية الأرض أكثر من واحد من الجغرافيين العرب مثل ابن خرداذبة وابن رستة وغيرهما .

وهذا الإيمان لم يكن كافياً وحده لدفع الجغرافيين العرب للاتجاه غرباً واكتشاف أمريكا ، بل يسره لهم معرفتهم للبوصلة واستخدامهم لها على نطاق واسع فى الملاحة قبل أن تعرفها أوربا بمئات السنين .

وكانت فكرة البوصلة واستخدامها هى الخطوة الثانية التى كان لابد منها لتشجيع الجغرافيين العرب على ارتياد المحيط

الواسع المجهول وهم مطمئنون إلى أنهم لن يضلوا طريقهم . .

ومن هنا يمكن القول بأنه من المستبعد أن يكون العرب قد ارتادوا المحيط الأطلنطى من غير أن يكتشفوا أمريكا .

وقد روى المسعودى فى أوائل القرن العاشر للميلاد فى كتاباته أن الشمس إذا غربت على بحر الظلمات (المحيط الأطلانطى) كان ظهورها بعد ذلك على شواطئ الصين الشرقية ، ومن هذا وأمثاله علم كولمبس أنه يصل إلى الهند إذا اتجه غرباً من إسبانيا ، فليس بالمستغرب أن يقدم على هذه المحاولة قبله من كانوا يطلعون فى كتبهم الجغرافية على هذه المعلومات . .

وحسبنا حتى الآن من فضل هذه الكشوف أنها لم تكن لتحدث لولا الجغرافية العربية والملاحة العربية ، أيا كان المنتفعون بهما من أبناء الشمال أو أبناء الجنوب .

الفصل الخامس

بعض الجغرافيين والرحالة العرب :

وقد ظهر بين العرب عدد كبير من الجغرافيين من فلكيين ورحالة ، كلهم أفادوا العالم بما ألفوه من الكتب فى علم الفلك ، أو وصف لرحلاتهم وصفاً جمعوا فيه ما شاهدوه خلالها ، مما يتصل بشتى ضروب المعرفة من تاريخ واجتماع وجغرافيا وغير ذلك .

وقد يضيق النطاق عن حصرهم جميعاً ولذلك سنكتفى بإيراد تراجم موجزة للتعريف بأشهرهم وبيان جهودهم مع بعض مقتطفات مما كتبوه أو رووه .

وقد راعينا فى ذكرهم الترتيب التاريخى بقدر الإمكان ، وها هى أسماؤهم :

الخوارزمى ، سليمان السيرافى ، ابن خرداذبة ، ابن فضلان ، اليعقوبى ، البلخى ، البتانى ، الاصطخرى ، المسعودى ، البكرى ، ابن حوقل ، المقدسى ، الإدريسى ، ناصرى خسرو ، أبو حامد الغرناطى ، الهروى ، ابن جبير ، ياقوت الحموى ، عبد اللطيف البغدادى ، ابن سعيد ، القزوينى ، العبدرى ، أبو الفدا ، ابن بطوطة ، ابن خلدون .

الخوارزمى

هو أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى ، أصله من خوارزم . وقد ظهر الخوارزمى فى عصر المأمون وكانت له مكانة سامية لديه ، فأحاطه بالرعاية ووكل إليه شئون « دار الحكمة » التى أنشأها فى بغداد .

ويعتبر الخوارزمى واضع الأساس الأول لعلم الجغرافية العربى ، ذلك أن كتابه صورة الأرض الذى وضع فى أواخر عهد المأمون — أو فى عهد خليفته المعتصم على ما يراه بعض المستشرقين — يعتبر من أمهات الكتب ، ويكفى أن نذكر ما سجله عنه المستشرق « نللينو » الإيطالى إذ يقول إنه ما من أمة أوربية كان فى مقدورها أن تنتج مثل هذا الكتاب فى فجر نشاطها العلمى . وقد أورد الخوارزمى فى كتابه الأسماء اليونانية القديمة والأسماء المعاصرة له ، مما يدل دلالة واضحة على اهتمامه ببطليموس وتأثره به .

وقد اشترك الخوارزمى فى وضع الخرائط التى طلبها المأمون للأرض ، كما رسم مصوراً لوادى النيل بعد أن اشترك فى قياس درجة من درجات محيط الأرض .

وتوفى سنة ٢٣٦ هـ ٨٥٠ م .

سليمان السيرافى

تاجر عراقى الأصل ظهر فى القرن التاسع الميلادى ، كان مقيماً بسيراف على الساحل الشرقى للخليج العربى ، وكانت يومئذ ميناء فارسياً هاماً .

وقد رحل طلباً للتجارة واجتاز بحار الهند ماراً بسيلان وملقا وزار بلاد الصين ، ودون أخبار رحلته سنة ٢٣٧ هـ سنة ٨٥١م فوصلت إلينا فى كتاب لعراقى مجهول يدعى « أبو زيد حسن السيرافى » ذيلها بطائفة من المعلومات عن الهند والصين وبيانات دقيقة عن علاقة العرب بهاتين الأمتين فى القرنين التاسع والعاشر بعد الميلاد .

وتمتاز هذه الرحلة والذيل الذى وضعه أبو زيد بما فيهما من وصف صادق للطرق التجارية والعادات وأهم المنتجات فى الهند وسيلان وجاوة والصين . كما أن بها أحاديث عن أحوال الصين الاجتماعية فى ذلك العهد وعلاقة المسلمين بها يومئذ ورعاية ملوكها للمسلمين الذين يقصدونها للإقامة بها ومنحهم نوعاً من الامتيازات الأجنبية ، إذ كان ملك الصين يولى رجلا مسلماً الحكم بين المسلمين المقيمين هناك ليصلى بهم ويقيم بينهم أحكام الشريعة الإسلامية .

وفى تلك الرحلة أيضاً أول إشارة لمؤلف غير صينى عن

الشاى ، فقد جاء عنه أن « عند أهل الصين حشيشاً يشربونه بالماء الحار ويقال له الساخ . . . وفيه مرارة ويغلى الماء ويذر عليه منه » .

وفيه يروى إشارة إلى أن بصم أصابع اليد عوضاً عن الإمضاء كان أمراً مألوفاً فى الصين .

وتعتبر رحلته هذه أساساً لما ألف بعدئذ من قصص السندباد البحرى ، لما ورد فيها من أخبار عجيبة .

ابن خرداذبة

هو أبو القاسم عبد الله بن خرداذبة . فارسى الأصل ، كان مجوسياً ثم أسلم على يد البرامكة . قدم إلى بغداد وتعرف على إسحق الموصلى الموسيقى الشهير ودرس عليه الموسيقى ، ثم تولى إدارة البريد والخدمة السرية فى إقليم الجبال (ميديا جنوب غربى بحر قزوين) وقد مكنه هذا العمل من الحصول على معلومات قيمة عن الأماكن النائية ، وأقام فى سامرا على نهر دجلة حيث وضع كتابه « المسالك والممالك » سنة ٢٣٠ هـ سنة ٨٤٤ م وهو أول كتاب جغرافى يتضمن دليلا للطرق وأشهر البلاد التى تقع عليها ، وقد تناول فيه وصف الصين وكوريا واليابان ، كما ذكر الطرق التجارية الرئيسية فى العالم العربى . وهو هام أيضاً فى الطبوغرافيا التاريخية ، وقد اعتمد عليه من جاءوا بعده من

الجغرافيين . ومما يؤسف له أن هذا الكتاب فقد ، ولا توجد منه اليوم سوى نسخة مختصرة .

وقد توفى سنة ٣٠٠ هـ ــ سنة ٩١٢ م .

ابن فضلان

هو أحمد بن عباس بن رشيد . كان مولى لأحد الخلفاء العباسيين وللقائد محسن بن سليمان الذى أعاد مصر سنة ٢٩٢ هـ ــ سنة ٩٠٥ م إلى سلطان الخلافة العباسية بعد أن استقل بها الطولونيون ، وقد نال فى بغداد حظوة عند الخليفة لوفرة علمه .

وحدث فى سنة ٣٠٩ هـ ــ سنة ٩٢١ م أن أرسل ملك الصقالبة (البلغار) ــ وكان هذا الملك يقيم حول نهر الڤولجا شرق موسكو ــ إلى الخليفة يطلب إليه أن يرسل له من يفقهه فى الدين ويعرفه شرائع الإسلام ، ويبنى له مسجداً وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة فى جميع أجزاء مملكته ، ويبنى له حصناً يتحصن فيه من أعدائه . فرحب الخليفة بهذا الطلب ، وانتدب وفداً للقيام بما طلبه ملك الصقالبة . وعهد لأحمد بن فضلان برئاسته

وغادر الوفد بغداد سنة ٣٠٩ هـ سنة ٩٢١ م ووصل إلى ديار الصقالبة بعد أحد عشر شهراً لقى خلالها المصاعب الكثيرة من البرد والتعرض للكيد والنهب وما إلى ذلك ، وفى طريق عودته

إلى بغداد دوّن وصفه لرحلته . وكان ما كتبه مرجعاً لمن جاءوا بعده كالاصطخرى والمسعودى وياقوت الذى أخذ عنه الكثير فى « معجم البلدان » . وقد عنى المستشرقون بهذه الرحلة كثيراً لأنها أحد المصادر النادرة للتعريف بتلك المنطقة التى كانت منعزلة عن العالم يومئذ .

وقد ذكر ابن فضلان بعض العجائب التى لفتت نظره فى بلاد الصقالبة ، فمن ذلك وصفه لليل والنهار ، إذ قال : «إنه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار . فلما كانت الليلة الثانية جلست خارج القبة وراقبت السماء فلم أر من الكواكب إلا عدداً يسيراً ظننت أنه نحو الخمسة عشر كوكباً متفرقة . وإذا الشفق الأحمر الذى قبل المغرب لا يغيب البتة . وإذا الليل قليل الظلمة . . . ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمر كل شىء فيه من الأرض والجبال وكل شىء ينظر الإنسان إليه حين تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى ، فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبد السماء . وعرفنى أهل البلد أنه إذا كان الشتاء عاد الليل فى طول النهار ، وعاد النهار فى قصر الليل . »

وتحدث عن تجمد نهر جيحون قائلا : « وجمد نهر جيحون من أوله إلى آخره . وكان سمك الجمد سبعة عشر شبراً ، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجول تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق ، وهو ثابت لا يتخلخل ، فأقام على ذلك ثلاثة

أشهر . فرأينا بلداً ما ظننا إلا أن باباً من الزمهرير قد فتح علينا منه ، ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديدة . وإذا أتحف الرجل من أهله صاحبه ، وأراد بره قال له : « تعال إلى حتى نتحدث فإن عندى ناراً طيبة . . . »

ولقد كنت أخرج من الحمام ، فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتى وهى قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار . »

ووصف ابن فضلان روسيا وبلاد الخزر وشعوبهما فقال عن معاملة الروس للمرضى : « وإذا مرض منهم الواحد (ضربوا له خيمة) نائية عنهم ، وطرحوه فيها ، وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء ، ولا يقربونه ولا يكلمونه ، بل لا يتعهدونه فى كل أيام مرضه لا سيما إن كان ضعيفاً أو مملوكاً . فإن برئ وقام رجع إليهم ، وإن مات أحرقوه ، فإن كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير . »

اليعقوبى

هو أحمد بن أبى يعقوب بن واضح العباسى إذ ينتسب إلى أسرة الخلفاء العباسيين فى مصر . وقد قام برحلات طويلة فى أرمينية وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب ثم عاد إلى بغداد حيث توفى سنة ٢٨٤ ﻫ سنة ٨٩٧ م .

وأهم مؤلفاته « كتاب البلدان وفيه تناول وصف بغداد وسامرا وإيران والكوفة والبصرة وجزيرة العرب الوسطى والجنوبية والشام ومصر وبلاد النوبة والمغرب ، وقد فقدت الفصول الخاصة بالهند والصين والإمبراطورية البيزنطية .

وقد حرص فى هذا الكتاب على تدوين ملاحظاته عن المظاهر الطبيعية وعن المجتمعات التى شاهدها ، ولذلك يعتبر فى طليعة المهتمين بالجغرافية البشرية .

وقد أبدى فى كتابه شدة تعلقه ببغداد إذ يقول : « وإنما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرة الأرض ، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التى ليس لها نظير فى مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبراً وعمارة وكثرة مياه »

وقد امتاز كتابه هذا بأنه وصف فيه الدولة الإسلامية فى عصره وصفاً دقيقاً منظماً ، لذلك لم يكن كثيراً عليه تقدير الجغرافيين له إذ وصفوه بأنه « أبو الجغرافية الإسلامية » .

البلخى

هو أبو زيد أحمد بن سهل . ولد بجوار بلخ ، ثم قصد إلى العراق طلباً للعلم حيث قرأ التاريخ والفلسفة على الكندى فى بغداد ، فلما عاد إلى بلده عمل فى خدمة أميرها السامانى . .

وكان البلخى قليل الرحلة ، وقيمته ليست فيما كتب عن البلدان ومراحلها ، ولكنه كان أول من استقل عن بطليموس . فقد

وضع «كتاب الأشكال أو صورة الأقاليم» وهو ما يصح أن يسمى بداءة الأطلس العربى ، إذ أنه مجموعة من الخرائط والرسوم مع الشرح والبيان ، وبذلك فتح فتحاً جديداً فى رسم الخرائط وشرحها وقد ألف البلخى أيضاً كتاب المسالك والممالك .
وتوفى سنة ٣٢٢ هـ سنة ٩٣٤ م .

البتانى

هو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتانى . ولد لأسرة كانت فى مبدأ أمرها صابئية ولذلك قيل له الصابى ، أما هو فكان مسلماً . ويسمى الرّقّى نسبة إلى الرقة على الضفة اليسرى من نهر الفرات ، حيث قضى معظم حياته ، وتوفى سنة ٣١٧ هـ سنة ٩٢٩ م .

ابتدأ البتانى فى دراسة الفلك وفى رصد النجوم فى الرقة سنة ٢٦٤ هـ سنة ٨٧٧ م ، فعكف على الرصد والتحقيق إلى آخر أيام حياته ، واستنبط حقائق جليلة القيمة ، شهد بفضلها العلماء فى زمانه ومن بعده ، ولا سيما فى الغرب حتّى القرن الثامن عشر والتاسع عشر .

وقد أطلق عليه بعضهم اسم « بطليموس العرب » ، إذا أكب على دراسة كتب بطليموس وتفهمها أحسن تفهم ، ثم ناقضها فى مواضع كثيرة وصحح أغلاطها .

وتمكن البتانى بفضل أرصاده الخاصة من أن يحدد تحديداً دقيقاً مقدار ميل فلك البروج ، وحسب طول السنة الشمسية والفصول ومدار الشمس الحقيقى والمتوسط ، وحقق كثيراً من مواقع النجوم وبحث فى حركات القمر والكواكب السيارة وصحح بعض المعلومات عنها ، وأثبت خطأ بطليموس فى بعض ما ذهب إليه . وابتدع طريقة بارعة فى تحديد الظروف والأحوال لرؤية القمر عند تولده .

واكتشافاته فى الرياضيات جعلته أول من أسس علم المثلثات الحديثة من مسطحة وكروية ، وجميع تصانيفه مفقودة إلا كتاب الزيج المعروف بزيج الصابى . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية .

وقد اتبع البتانى الطريقة العلمية الحديثة فى جميع بحوثه الفلكية . فقد درس أولا ما كتبه السلف عن علم النجوم ثم قام بالرصد بنفسه ، للتحقق أولا من صحة ما ورد فى كتب السلف وثانياً لتصحيح ما قد تطرق إلى تلك الكتب من الأخطاء وثالثاً لوضع نظريات أو طرق علمية جديدة واستنباط معلومات ودساتير علمية جديدة . وقد وفق فى هذه الأمور جميعها توفيقاً نادراً .

الاصطخرى

هو إسحق أبو إبراهيم بن محمد ، ينسب إلى بلدة إصطخر (برسبوليس) فى فارس .

عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى الموافق للنصف الأول من القرن (العاشر الميلادى) . ووضع كتابه «الأقاليم» ووضحه بالخرائط ، كما ألف كتاب المسالك والممالك عام ٣٢٢ هـ ٩٣٤ م الذى وصف فيه نتائج مشاهداته فى الأقاليم التى زارها .

ويرى المشتغلون بدراسة المؤلفين الجغرافيين العرب أن الاصطخرى اعتمد على البلخى فى كتابه ، بل وفى خرائطه .

وقد تلاقى ابن حوقل بالاصطخرى (سنة ٣٤٠ هـ سنة ٩٥١ – ٩٥٢ م) وذكر أن الاصطخرى صنع خريطة غير دقيقة للسند لكنه صنع خريطة دقيقة لفارس ، فأراه ابن حوقل خريطتين من صنعه إحداهما لأذربيجان والأخرى للجزيرة ، فأعجب بهما الاصطخرى وطلب من ابن حوقل أن يراجع له كتابه وينقحه ويحسنه فأجابه إلى طلبه ، وبذلك أصبح الاصطخرى دليل الرحالة الجغرافى . ولما ألف ابن حوقل كتابه سار على نهج الاصطخرى ، ولكن خرائطه كانت أدق .

وكتابا الاصطخرى وابن حوقل يضمان وصفاً دقيقاً لكل جزء

من أجزاء العالم الإسلامى وأشهر مدنه وأماكنه .

ومما يسجل بالإعجاب ما يذكره الدكتور فيليب حتى فى كتابه « تاريخ العرب » من أن الاصطخرى زين كتابه بالخرائط الملونة ، كل دولة على حدة .

المسعودى

هو أبو الحسن على بن الحسين ، ويتصل نسبه بعبد الله ابن مسعود ، ومن هنا جاءت النسبة . نشأ فى بغداد وهى مركز من مراكز العلم الكبرى ، ثم أقبل على العلم والتجول وجمع كثيراً من الحقائق الجغرافية والتاريخية ولذلك كانت شهرته كمؤرخ وجغرافى على السواء . فزار فارس ثم الهند وسرنديب (سيلان) ورافق بعدئذ جماعة من التجار إلى الصين وجال فى المحيط الهندى فزار زنجبار وسواحل أفريقية الشرقية ومدغشقر والسودان، ثم طاف بآسيا الصغرى والشام والعراق وعمان وأخيراً قصد إلى مصر واستقر بالفسطاط سنة ٣٤٥ هـ وتوفى فيها فى السنة التالية ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م)

وقد كتب المسعودى عشرات من الكتب ، عما لقيه من التجارب والمشاهدات خلال رحلاته ولكن أكثرها ضاع ، ككتاب « أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة » ، وكان يضم ثلاثين مجلداً

لا يوجد منها سوى جزء واحد فى مكتبة ڤينا ، هو الجزء الأول .

وقد قدم المسعودى لكتابه هذا بالحديث عن هيئة الأرض ومدنها وجبالها وأنهارها ومعادنها وانقسام الأقاليم وتباين الناس ... إلخ ، ثم أتبعه بكتاب « الأوسط » فجعله إجمال ما بسطه ، وهو بدوره لا توجد منه سوى نسخة فى أكسفورد يقال إنها مخطوطة لهذا الكتاب .

أما أعظم كتبه التى وصلت إلينا فهى :

١ - « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الذى يعتبر من أجل المصنفات العربية ، وقد قال فى مقدمته إنه أراد به إجمال ما بسطه فى كتاب « أخبار الزمان » واختصار ما بسطه فى كتاب « الأوسط » وفيه تعرض لعدة معلومات جغرافية كاستدارة الأرض وإحاطتها بغلاف جوى ، وبحث طبيعة العواصف فى الخليج العربى والجهات المجاورة ، وشرح ظاهره المد والجزر .

وهو قسمان : أولهما وصف الخليقة وقصص الأنبياء باختصار ، ثم وصف الأرض والبحار والعجائب والغرائب وتاريخ الأمم القديمة وما كان لها من الأديان والعادات والمذاهب ، وعرض للأيام والشهور والتقاويم وكل ما يتعلق بذلك من جزئيات وكليات .

أما القسم الثانى فيتناول تاريخ الإسلام من أواخر عهد الخلفاء الراشدين إلى أوائل خلافة المطيع لله العباسى .

٢ — «التنبيه والإشراف»: ويتناول الأفلاك وهيئاتها ، والنجوم وتأثيراتها ، والعناصر وتراكيبها ، وكيفية أفعالها ، والبيان عن قسمة الأزمنة ، وفصول السنة ، وما لكل فصل من المنازل والتنازع فى المبتدأ به منها . . . والرياح ومهابها وأفعالها وتأثيراتها ، والأرض وشكلها وما قيل فى مدار مساحتها وعامرها وغامرها ، والنواحي والآفاق وما يغلب عليها . . . »

ويغلب على المسعودى تواضع العلماء ، ولذا نجده فى مروج الذهب يرجو القارئ أن يعذره عما يجده من تقصير ، أو إغفال « لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا ، من تقاذف الأسفار وقطع القفار ، تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر» ،

والمطلع على مؤلفات المسعودى يلاحظ إشاراته الكثيرة لمؤلفات عدة لم يعد لها وجود ، مما يدل على أنه قرأ كل ما تيسر له فى عهده . وبعض أفكاره الجغرافية سبقت الإشارة إليها فى مؤلفات من سبقوه ، وهو ينفرد بمزية لم يشاركه فيها من قبله من جغرافيي العرب إذ تحدث عن الشعوب والبلاد المجاورة للعالم الإسلامى فى عصره .

ولم تخل كتابات المسعودى مما وقع فيه غيره من الجغرافيين والمؤرخين العرب ، إذ يميل إلى الاستطراد وتسجيل الخرافات والموضوعات السطحية دون أن يتناولها بالنقد العلمى .

وقد قال ابن خلدون عن المسعودى إنه « صار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه وأصلا يعولون فى تحقيق الكثير من

أخبارهم عليه » . وقدر علماء الإفرنج جهوده فسموه « بلينيوس المشرق » .

البكرى

هو أبو عبيد بن عبد الله البكرى ، ولد فى بيت شرف وإمارة بإحدى إمارات الأندلس ، فلما اغتصبت الإمارة من أسرته بعد سقوط الخلافة فى الأندلس لجأ أبوه إلى قرطبة وأقام فيها .

ولد المترجم له سنة ٤٣٢ هـ ١٠٤٠ م والتحق بخدمة بعض الأمراء وهوى القراءة وأحب الكتب حباً جماً ، « حتى كان يمسكها فى قماش غال إكراماً لها وصيانة » .

وهو يعتبر أول وأكبر جغرافى أنجبته الأندلس ، وعلى الرغم من أنه لم يبرح الأندلس فقد ألف عدة كتب أكبرها وأهمها هو المسمى « المسالك والممالك » ، ولم يبق منه إلا جزء عن المغرب يذكر فيه الطرق ويصف المدائن والقرى .

وقد اعتمد فى كتابه هذا على عدة كتب منها كتاب « مسالك أفريقية وممالكها » للجغرافى الأندلسى محمد بن يوسف الوراق المشهور باسم محمد التاريخى ، وعلى ما كتبه إبراهيم بن يعقوب التاجر اليهودى النخاس .

وله كتاب آخر هو « معجم ما استعجم من أسماء البلاد

والمواضع» وقد وضعه غير مفكر فى الناحية الجغرافية الخالصة ولا معنى إلا بما تحتاج إليه النصوص القديمة من ضبط وتفسير . فما أكثر أسماء الأماكن والبلاد العربية التى ترد فى الشعر والسير والحديث والتاريخ ، وما أكثر ما يقع فيها من التحريف والتصحيف والاختلاط والاختلاف ، وما أشد حاجة هذه الألفاظ إلى الضبط والتحقيق ! ومن أجل هذا ألف أبو عبيد معجمه . وقد أكبر القدماء هذا الكتاب ورجعوا إليه وانتفعوا به واعتمدوا على ما يمتاز به من الدقة والضبط . ثم عرفه المستشرقون الأوربيون فى العصر الحديث ، فنوه به بعضهم وجد فى نشره البعض الآخر .

وتوفى البكرى سنة ٣٦٣ هـ ؛ ٩٧٣ م

ابن حوقل

هو أبو القاسم محمد بن العلى الموصلى ، ولد فى بغداد ونشأ فيها وأقبل على التجول فى البلاد الإسلامية يوم انقطع المسعودى عن الارتحال .

بدأ الرحلة سنة ٣٣١ هـ ؛ ٩٤٣ م من بغداد وعاد إليها بعد ثلث قرن ، زار خلالها العالم الإسلامى من شرقيه إلى غربيه ، وتغلغل فى مناطق أخرى كثيرة عدا الصحراء التى لم يشاهد منها إلا جزءاً يسيراً حتى إنه دخل بلاد البلغار ووصل إلى أعالى نهر

القُوبلها طلباً للارتزاق من التجارة ورغبة فى دراسة البلاد والشعوب .

وقد قرأ كثيراً واتصل كثيراً إذا استمر فى جولاته نحو ثلاثين عاماً ، ولقى الاصطخرى فطلب إليه أن يراجع كتابه « المسالك والممالك » ففعل ، ولم يلبث ابن حوقل أن ألف كتاباً يحمل نفس الاسم معتمداً على ما كتبه الاصطخرى .

واتصل ابن حوقل بالفاطميين ، ويذهب بعض المستشرقين إلى أنه كان يتجسس لهم فى الأندلس ، وذلك لأنهم كانوا يطمعون فى امتلاك تلك البلاد فى بداية الأمر .

ومما قاله حثاً للخليفة الفاطمى على فتحها : « ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده ، مع صغر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة » .

ووصف برقة بقوله : « فأما برقة فمدينة وسطة ليست بالكبيرة الفخمة ولا بالصغيرة الزرية ، وهى أول منبر ينزله القادم من مصر إلى القيروان . وبها من التجار وكثرة الغرباء ، فى كل وقت،ما لا ينقطع : طلاباً لما فيها من التجارة ، وعابرين عليها مغربين ومشرقين . وذلك أنها تتفرد فى التجارة بالقطران الذى ليس فى كثير من النواحى ، والجلود المجلوبة للدباغ بمصر ، والتمور الواصلة إليها » .

ويقول عن طرابلس : « . . . وهى مدينة بيضاء من

الصخر الأبيض على ساحل البحر ، خصبة حصينة كبيرة . . .
وهى ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية ، وارتفاعها دون
ارتفاع برقة فى وقتنا هذا ، وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة
القليلة الشبه بالمغرب وغيره كالخوخ الفرسك والكمثرى اللذين
لا شبه لهما بمكان . إلى مراكب تحط ليلا ونهاراً ، وترد
بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحاً ومساء من بلد
الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم ، وأهلها قوم
مرموقون بنظافة الأعراض والثياب والأحوال ، متميزون بالتجمل
فى اللباس ، وحسن الصور والقصد فى المعاش ، إلى مروآت
ظاهرة وعشرة حسنة ورحمة مستفاضة ونيات جميلة . . . »

المقدسى

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد ، ويعرف بالمقدسى
لأنه ولد فى بيت المقدس ، وعاش فى القرن الرابع الهجرى
(العاشر الميلادى) .

ويعتبر المقدسى آخر الجغرافيين العرب الكبار ، وهو
يمتاز عن غيره بأنه اعتمد على الرحلة والمشاهدة فى كتاباته ،
كما كان دقيق الملاحظة يهتم بالتحرى والتمحيص لما ينقل .

وقد طاف المقدسى متنكراً فى بعض البلاد على ما يبدو

مستبدلا باسمه اسماً آخر ، حتّى يستطيع دراسة أية بيئة يصل إليها دون أن يثير الريبة .

وقد لاقى فى جولاته مشاق كثيرة وتعرض لاخطار عديدة وصادف مفارقات عجيبة ذكر بعضها فى قوله : « وطردت فى الليالى من المساجد وسحت فى البرارى وتهت فى الصحارى . وصدقت فى الورع زماناً ، وأكلت الحرام عياناً ، وصحبت عباد جبل لبنان ، وخالطت حيناً السلطان ، وملكت العبيد ، وحملت على رأسى بالزنبيل . وأشرفت مراراً على الغرق ، وقطع على قوافلنا الطرق ، وخدمت القضاة والكبراء ، وخاطبت السلاطين والوزراء ، وصاحبت فى الطرق الفساق ، وبعت البضائع فى الأسواق ، وسجنت فى الحبوس ، وأخذت على أنى جاسوس . . .

وكم نلت العز والرفعة ، ودبر فى قتلى غير مرة . وحججت وجاورت وغزوت . ليعلم الناظر فى كتابنا أنا لم نصنفه جزافاً ولا رتبناه مجازاً ، ويميزه من غيره ، فكم بين من قاسى هذه الأسباب ، وبين من صنف كتابه فى الرفاهية ووضعه على السماع . . »

واقتصرت جولاته على البلاد الإسلامية فى عصره ، كما أنه لم يزر الهند والأندلس ولذا لم يتعرض لهما فى كتابه .

ورسم للبلاد التى زارها خرائط ملونة قال عنها : « ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة ، وجعلنا رمالها

الذهبية بالصفرة ، وبحارها المالحة بالخضرة ، وأنهارها المعروفة بالزرقة ، وجبالها المشهورة بالغبرة ، ليقرب الوصف إلى الأفهام . »

ولم يظهر كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » إلا عندما بلغ الأربعين ، ولذلك كان نموذجاً للكتاب العلمى المرتب المنظم ويقول فى سبب تأليفه :

« أما بعد فإنه ما زالت العلماء ترغب فى تصنيف الكتب ، لئلا تدرس آثارهم ، ولا تنقطع أخبارهم ، فأحببت أن أتبع سننهم ، وأقيم علماً أحيي به ذكرى ، ونفعاً للخلق أرضى به ربى . ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم فصنفوا على الابتداء ، ثم تبعتهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه ، فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه وأنفرد بفن لم يذكروه ، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها . . . »

وكتب عما رآه فى إقليم مصر من عجائب يقول : « فيه عجائب منها الهرمان اللذان هما إحدى عجائب الدنيا من حجارة ، شبه عماريتين (هودجين) ارتفاع كل واحدة أربعمائة ذراع فى عرض مثلها ، قد ملئت بكتابة يونانية (كذا) وفى داخلهما طريقان إلى أعلاهما ، وطريق تحت الأرض . . . وسمعت فيهما أشياء مختلفة ، فمنهم من قال هما طلسمان ، ومنهم من قال كانتا أهراء (مخازن) يوسف ، وقيل بل كانت قبورهم . . . ويقال مكتوب عليهما : إنى بنيتهما فمن كان يدعى

قوة فى ملكه فليهدمهما ، فإن الهدم أيسر من البناء ، فأراد بعض الملوك هدمهما ، فإذا خراج مصر لا يقوم بهدمهما ، فتركهما . وهما أملسان ... يريان من مسيرة يومين وثلث لا يصعد فوقهما إلا كل شاطر ، وحولهما أمثالهما عدة صغار ، وهذا يدل على أنها مقابر . . . وبعين شمس شبه منارتين طويلتين ، قطعة واحدة ، على رأسهما شبه حربة ، تسميان المسلتين . . . وقرأت فى كتب الطلسمات أنهما طلسمان للتماسيح . وبالإسكندرية منارة قد أرسى أساسها فى شبه جزيرة صغيرة يدخل إليها فى طريق ضيقة بالصخر محكمة . . . والمنارة فى جزيرة ، وفيها ثلاثمائة بيت يصعد إلى بعضها الفارس بفرسه ، وإلى كلها بدليل . . . ويقال إنه كان فيها مرآة يرى فيها كل مركب أقلع من سواحل البحر كلها . . . »

أبو عبد الله محمد الإدريسى

ولد فى سبتة من أعمال المغرب نحو سنة ٤٩٣ هـ ؛ ١٠٩٩م من الأسرة الإدريسية التى حكمت ملقة فى المغرب الأقصى ، إذ هو حفيد إدريس الثانى الحمودى أحد أمرائها الذى ينتسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم . ولما كبر رحل إلى قرطبة لطلب العلم فى جامعتها ، ولما أتم بغيته غادرها وطاف فى الأندلس ، ثم زار شمال أفريقية وآسيا الصغرى . وسمع به الملك رجار — أو

روجيه الثانى Roger النورماندى فاستدعاه — وكان النورمان قد احتلوا صقلية وطردوا حكامها المسلمين منها إلا أنهم عاملوا من بقى بها من المسلمين بالحسنى — ولبى الإدريسى دعوته . وكان هذا الملك محباً للعلم راغباً فى نشره ، حريصاً على جمع العلماء حوله والعطف عليهم ، فدخل الإدريسى فى زمرة المقربين إليه ، وسرعان ما أدرك الملك عظم فضله؛ فأغدق عليه النعم رغبة فى الإفادة من علمه.

وبقى عنده مدة طويلة ألف فى أثنائها كتابه المشهور فى الجغرافيا ، المسمى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ويعرف أيضاً باسم « كتاب رجار » أو « الكتاب الرجارى » — نسبة إلى روجر —

وقد ذكر الإدريسى فى مقدمة الكتاب السبب فى تأليفه ، فهو يقول : « فلما اتسع سلطانه (أى سلطان رجار) أراد أن يعرف كيفية بلاده ويعلم أشكالها وحدودها ومساكنها براً وبحراً ، فطلب الكتب التى ألفت فى الجغرافية والأقاليم ، فلم يجد ذلك مشروحاً فيها مفصلا . فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم فلم يجد عندهم أكثر مما فى الكتب . فبعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين فيها فسألهم عنها وباحثهم فيها ، فما اتفق عليه فيه رأيهم وصح عندهم نقله أبقاه ، وما اختلفوا فيه أرجأه . وأقام فى ذلك خمس عشرة سنة . . . فلما تم كل شىء أمر أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة (كرة) عظيمة

الجرم ضخمة الجسم فى وزن ٤٠٠ رطل . ثم أمر الفعلة أن ينقشوا عليها صورة الأقاليم السبعة ببلادها وأطوالها وأقطارها وسبلها وريفها وخلجانها وبحارها ومجاريها ونوابع أنهارها وغامرها وعامرها ، وما بين كل بلد وغيره من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات والمراسى المعروفة ، ولا يغادروا فيها شيئاً . »

ثم طلب إلى الإدريسى أن يؤلف له كتاباً يصف فيه الكرة الأرضية الفضية فوضع له الكتاب الذى أشرنا إليه ، ومما يؤسف له أن الكرة فقدت بعد وفاة روجر .

وكان كتاب الشريف الإدريسى المعول عليه فى الدراسات الجغرافية فى ذلك الوقت ولمدة طويلة فيما بعد . ذلك لأنه استعان فيه بما قام به من رحلات وبما وقف عليه ممن استحضرهم روجر .

وكانت خريطة الإدريسى الدستور المتبع فى رسم الخرائط فحاكاها ونقل عنها رسامو الخرائط . وتبين أن الإدريسى كان واقفاً تمام الوقوف على منابع النيل ، لأنه صورها على شكل بحيرات كما أثبت الاكتشاف الجغرافى فيما بعد عن بحيرتى « فيكتوريا » و « ألبرت » .

وقد تناول فى كتابه ما فى النيل عند بلاد النوبة من تماسيح وأسماك وما بالسودان من فواكه ونباتات .

وهو يمتاز على من سبقه من الجغرافيين المسلمين بما كتبه عن أوربا ، بفضل ما حصل عليه من الرواد الذين بعث بهم

روجر إلى أقصى أطراف أوربا كإسكنديناوه (السويد والنرويج وفنلندة) ولهذا نجد من جاء بعده من الجغرافيين العرب ينقل عنه ما كتبه فى هذا الموضوع .

أما ما أورده عن البلاد الشرقية فكان أغلبه نقلا عمن سبقوه من الجغرافيين مضافاً إليه مشاهداته الخاصة .

وهو يعنى بالجغرافيا البشرية وعادات الأهالى فيسب فى ذكرها .

وقد بذل المجمع العلمى العراقى عناية خاصة بخريطة الإدريسى ، فاعتمد خريطة « ميلر » وقابلها بالخرائط العربية فى نسخ الكتاب ، وأخرج من كل ذلك خريطة عربية بطول مترين وعرض متر فى سنة ١٩٥١ . والعلامة الألمانى ميلر هو الذى استخرج خريطة الإدريسى ونشرها بالحروف اللاتينية ، وطبعت الخريطة طبعة ملونة متقنة فى سنة ١٩٣١ .

وقسم الإدريسى العالم المعروف من جهة الطول ، فجعل كل إقليم مقسماً عشرة أقسام متساوية من الغرب إلى الشرق ، كما هى الحال فى درجات الطول المعروفة فى الجغرافية الحديثة . ثم إنه جعل لكل قسم من هذه الأقسام السبعين خريطة خاصة ، عدا الخريطة العالمية الجامعة : وهذه الخرائط السبعون محفوظة فى نسخ كتاب الإدريسى ، ومنها استخرج ميلر خريطته المعروفة .

ومما يجب ذكره أن الإدريسى وصف ما وصف من البلاد

والأمصار بعد مشاهدة وعيان . فقد زار إسبانيا ومراكش وآسيا الصغرى وطوف فى أنحاء آسيا ، ويظن بعضهم أنه زار سواحل إنجلترا وفرنسا . وكان العرب فى ذلك الزمان وقبله ينظرون إلى البحر الأطلنطي على أنه بحر ملىء بالخبايا الرهيبة ، وقد سموه بحر الظلمات لاعتقادهم أنه ليس وراءه إلا الظلام الدامس .
وأخذ الإدريسى بهذه الفكرة ، ولذلك نجده يكتب عن رحلة قام بها جماعة من لشبونة وركبوا بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه فيسميهم بالمغرورين ، وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى الفصل الخاص بالعرب وكشف أفريقية .

وللإدريسي كتب أخرى منها « أنس المهج وروض الفرج » وفيه سلك مسلكاً جديداً ، إذ وصف فيه بعض بلاد أوربا وجبالها وأنهارها وصفاً مفصلا ، وكان هذا الكتاب مدار علم العرب بمعرفة الغرب .

وله كتاب سماه « روض الأنس ونزهة النفس » — أو كتاب « الممالك والمسالك » — ألفه لغليوم الأول الذى خلف روجر بعد وفاته سنة ٥٤٨ ﻫ ؛ سنة ١١٥٣ م ووجدت خلاصات منه فى مكتبة بإستانبول :

وله خلاصة لكتاب « نزهة المشتاق » وقد طبعت منه أجزاء فى أماكن مختلفة وعلى أيدى بعض المستشرقين .

كما ترجم الكتاب إلى بعض اللغات ، منها ترجمة باللاتينية والإسبانية .

وهذه العناية العظيمة التي بذلها العلماء فى أوربا بكتاب الشريف الإدريسي تدل دلالة واضحة على عظمته وعلى أنه من أدق المؤلفات وأتقنها ، لذلك لم يكن غريباً أن يطلق على الإدريسي « استرابون العرب » .

وتوفى الإدريسي سنة ٥٦٢ هـ ؛ سنة ١١٦٦ م .

ناصري خسرو

فارسى الأصل ولد فى بلدة من أعمال بلخ سنة ٣٩٤ هـ؛ سنة ١٠٠٣ م ، ونال حظاً وافراً من معارف عصره وقام فى شبابه بجولات فى إيران وتركستان والهند والجزيرة العربية ثم اشتغل وزيراً لدى السلاجقة ، ومر به حين من الدهر عاش خلاله عيشة ترف وبطالة حتى سنة ٤٣٧ هـ ؛ ١٠٤٥ م إذ ضحى بمنصبه وبدأ حياة جديدة كلها تقوى وعلم وسفر ، بدأ من مرو ، فمر بنيسابور والرى وتبريز ، ثم دخل بلاد الشام وزار أمهات مدنها ثم حج إلى مكة وعاد إلى القدس ، وسافر إلى مصر ثم حج ثانية وعاد ، وظل فى بلاط الخليفة المستنصر الفاطمى سنتين إلى أن غادر القاهرة سنة ٤٤١ هـ ؛ سنة ١٠٥٠ م إلى جدة . وبعد أن حج للمرة الأخيرة عاد إلى بلاده . . . وفى مصر اتصل ببعض رؤساء الشيعة الإسماعيلية فتحول إلى مذهبهم ، وكلفه الخليفة المستنصر أن يدعو لمذهب

الإسماعيلية فى خراسان ولكن حكامها وقفوا على ما يقوم به فاضطهدوه واضطروه إلى مغادرة البلاد ، فقصد إلى بلاد ما وراء النهر حيث توفى سنة ٤٥٣ هـ ؛ سنة ١٠٦١ م .

كان ناصرى خسرو دقيق الملاحظة يتقصى الأخبار ورواياتها ، فجاءت رحلته المعروفة باسم « سفرنامه » Safar Naméh أو « زاد المسافر » وصفاً دقيقاً للحالة الاجتماعية والاقتصادية قبيل مجىء الصليبيين إلى سورية .

أما وصفه للقدس وللحرم الشريف بها فمن أدق ما وصل إلينا ، إذ أنه ضبط أبعاد المسجد الأقصى وقياساته . وفى القدس عنى ناصرى خسرو ، بزيارة الأماكن المقدسة كلها ، ونوه بنشاط أهلها فى استغلال أراضيهم الزراعية واهتمامهم بزراعة الزيتون ، كما تحدث عن استغلالهم للبحر الميت وقال : « إن القار المجموع من مياه البحر الميت يستعمل فى طلاء الأجزاء السفلى من الأشجار لحفظها من الديدان ويستعملها الصيادلة للمحافظة على العقاقير من الحشرات » .

وكذلك وصفه لمصر فهو من خير ما وصل إلينا ، أخذه عنه من أتى بعده من المؤرخين . وقد تناول فيه القاهرة والبلاط الفاطمى والإدارة الحكومية فى زمن المستنصر بالتفصيل . كما يتحدث عن الحياة الاجتماعية والاحتفالات العامة وذكر ما بالقاهرة من دور العلم والحمامات والأسواق والمساجد ودور الصناعة وغير ذلك .

كما ذكر قصصاً تشهد بالتسامح الديني الذي عرف عن العصر الفاطمي ، وباطمئنان المسيحيين واليهود إلى عدل الخليفة وحكومته .

ولما غادر القاهرة عائداً إلى بلاده مر بأسيوط ونوه بصنع القماش واستخراج الأفيون فيها .

وقد خص ناصري خسر مكة المكرمة ومناسك الحج ومشاعره فيها بقسط كبير من جهده ووقته ، وأعجب بنظام الحكومة القرمطية فى إقليم الأحساء بالجزيرة العربية ، وذكر أنه إذا أعسر أحد السكان فيه أقرضوه مالا يستعين به على تدبير موره ، وأن الذى يستدين شيئاً لا يطالب بدفع ربح عنه ، وأن الغريب الذى يحسن إحدى الحرف يقرض عند وصوله إلى هذا الإقليم مبلغاً من المال يستعين به على شراء عدده . وإذا تهدمت دار أو مطحنة ، وعجز صاحبها عن إصلاحها ، فإن حكام الإقليم ينيطون ببعض عبيدهم إتمام هذا الإصلاح من غير أجر . وللحكومة فى الأحساء مطاحن تنفق عليها ويطحن الناس فيها قمحهم بالمجان . وقد سجل ناصرى إعجابه بهذه النظم التى تذكرنا الآن ببعض الاتجاهات الاشتراكية فى العصور القديمة وفى العصر الحديث .

أما البصرة فقال عنها : إن هذه المدينة كانت تقوم فى أنحائها ثلاثة أسواق فى اليوم الواحد ، وأن رواد تلك الأسواق كانوا يودعون أموالهم عند أصحاب المصارف المالية ويأخذون منهم

إقراراً باستلامها ثم يدفعون قيمة كل ما يشترونه « شيكاً » أو « إذناً » يقبض البائع قيمته من صاحب المصرف . وهكذا لا يستعمل التجار النقود فى معاملتهم وإنما يستخدمون « الشيكات » أو « أذونات الصرف » يدفع قيمتها أصحاب المصارف .

ومن البصرة عاد إلى مرو ، فلما اشتد السلاجقة فى طلبه اختفى بجبال خراسان حتى مات سنة ٤٥٢ هـ ؛ ١٠٦٠ م .

أبو حامد الغرناطى

هو محمد بن عبد الرحمن بن سليمان القيسى الأندلسى . ولد فى غرناطة سنة ٤٧٣ هـ؛ سنة ١٠٨٠ م ، وقد مال منذ شبابه للأسفار فزار إفريقية الشمالية وصقلية سنة ٥١١ هـ ؛ سنة ١١١٧ م ، ثم ذهب إلى مصر وبعد أن قضى بها زمناً غادرها إلى بلاد الشام فالعراق ثم اتجه ناحية الخزر (قزوين) ووصل إلى ضفاف نهر الفولجا وطاف ببلاد الخزر والبلغار ثم زار القسطنطينية . وقد دون كل مشاهداته فى كتابه « تحفة الأصحاب ونخبة الإعجاب » ،

وله كتاب جغرافى يسمى « تحفة الكبار فى أسفار البحار » . وفى بغداد أقام ردحاً من الزمن ألف فيه كتاب « المعرب عن عجائب المغرب »

ومما جاء فى كتاباته عن سبب دخول الإسلام فى بلاد

البلغار أن مسلماً يشتغل بالطب قصد إلى تلك البلاد ، واتفق أن كان ملكها وزوجه مريضين مرضاً مستعصياً فعرض عليهما الإسلام إن هو شفاهما من مرضهما فوعداه بتلبية ما عرضه ، فعالجهما ودخلا فى الإسلام ومعهما أغلب سكان تلك البلاد .

ومن الأحاديث الغريبة التى سمع بها فى بلاد البلغار حديث السمكة « التى ثقبوا أذنها ، وجعلوا فيه حبالا ، وجرّوا تلك السمكة ، فانفتح أذنها ، فخرجت من داخلها جارية تشبه الآدمية ، بيضاء حمراء الخدين ، سوداء الشعر ، من أحسن النساء ، فأخذها أهل « يورا » وأخرجوها إلى البر ، وتلك الصورة تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح ، وقد خلق الله لها فى وسطها مثل جلد أبيض ، كالثوب الصفيق القوى ، من وسطها إلى ركبتيها يستر عورتها ، كأنه إزار مشدود على وسطها ، فأمسكوها حتى ماتت عندهم ، وقدرة الله تعالى لا نهاية لها . . .

ويظهر من هذا ميله لرواية كل ما يسمعه وعدم تناوله إياه بالنقد .

وتوفى فى دمشق سنة ٥٦٥ هـ ؛ سنة ١١٦٩ م .

الهروى

هو على بن أبى بكر ، وقيل أبى طالب . أصل أسرته من هراة لكنه ولد فى الموصل وطاف فى بلاد الشام والعراق واليمن والحجاز ومصر وبلاد الروم وصقلية وغيرها من جزر البحر المتوسط ، وزار القسطنطينية فى زمن الإمبراطور عمانوئيل كومنينوس (١١٤٣ — ١١٨٠)م ، وزار دمشق سنة ٥٦٨هـ؛ وهبط الإسكندرية سنة ٥٧٠ هـ ؛سنة ١١٧٤م،وحمله القائد أبو القاسم بن حمود رسائل إلى صلاح الدين يطلب فيها تجهيز حملة ضد صقلية . وكان الهروى فى القافلة التى نهبها ريتشارد (قلب الأسد) فى جنوب فلسطين سنة ٥٨٨ هـ ؛ ١١٩٢ م ففقد فيها كتبه وبعض ما جمعه من مذكرات ، وطلب ريتشارد الهروى ليقابله فرفض لحنقه على ما جرى له على يد الصليبيين . ثم قصد إلى دمشق فحلب حيث قضى أيامه الأخيرة فى ظل الملك الظاهر بن صلاح الدين الذى قربه إليه وشمله برعايته وبنى له مدرسة بظاهر حلب حيث توفى سنة ٦١١ هـ ؛١٢١٤م ، وقد دفن بتلك المدرسة .

وقد ألف الهروى بضعة كتب لم يصل إلينا منها سوى كتاب « الإشارات إلى معرفة الزيارات » وهو يتناول الآثار والعمائر الدينية التى زارها .

وهما كتبه عن زيارته لمصر قوله عن الأهرام :

« الأهرام من عجائب الدنيا ، وليس على وجه الأرض شرقيها وغربيها عمارة أعجب منها و أعظم و أرفع ، ورأيت بمصر أهراماً كثيرة منها خمسة كبار والباقى صغار . فأما الكبار فاثنان عند الجيزة واثنان عند قرية يقال لها دهشور ، وهرم عند قرية يقال لها ميدوم . وقد اختلفت أقاويل الناس فيها وفى بانيها وما يريد بها ، فمنهم من قال إنها قبور للملوك ، ومنهم من قال إنهم عملوها خوفاً من الطوفان ، وقيل إن المأمون فتح هرماً منها ، وهو أحد الهرمين اللذين عند الجيزة ؛ فوجدوا داخله بئراً مربعة ، فى تربيعها أبواب يفضى كل باب منها إلى بيت فيه موتى بأكفانهم ، وقيل إنهم وجدوا فى رأس هذا الهرم بيتاً فيه حوض من الصخر على مثال القبر ، وفيه صنم كالآدمى ، وفى وسطه إنسان عليه درع من الذهب مرصع بالجوهر ، وعلى صدره سيف لا قيمة له وعند رأسه حجر ياقوت كالبيضة ضوؤه كالنار » .

وبما ذكره عن الأقصر أنها « مدينة بها من الآثار والقصور والأصنام وصور السباع والدواب ما لم أر مثله فى بلاد الصعيد ولا فى غيرها ، وذرعت يد صنم فكان من المرفق إلى مفصل الكف سبعة أذرع » .

ومن طريف ما يروى عنه ما ذكره ابن خلكان إذ قال إنه « لم يصل إلى موضع إلا كتب خطه فى حائطه » .

ابن جبير

كان جالساً فى حجرته يقرأ عندما دخل عليه خادمه وقال له إن رسولاً من قبل أمير غرناطة جاء ليبلغه بالتوجه فوراً إلى بيت الأمير . . ليكتب له كتابا .

ولم يقلق ابن جبير فقد كانت تربطه بالأمير صداقة وطيدة . .

ودخل ابن جبير على الأمير فوجده يتناول الشراب ، ومد الأمير يده إليه بكأس فأظهر ابن جبير الانقباض وقال : « يا سيدى ما شربتها قط » ، غير أن الأمير غضب وقال : « والله لتشربن منها سبعا ! » فلما رأى ابن جبير إصراره استسلم وشرب الكؤوس السبع . . وأحس الأمير بشىء من الندم ، أو لعله أراد أن يكافئ ضيفه على مجاملته له ، فملأ الكأس سبع مرات بالدنانير الذهبية وأفرغها فى حجره ، فحملها ابن جبير إلى منزله واعتزم أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير .

وباع ابن جبير بعض ما يملك وأضاف ثمنه إلى عطية الأمير .

وما هى إلا أيام حتى استأذن من الأمير فى الحج ، ولكيلا يمنعه من السفر أبلغه أنه أقسم قسما لا رجوع فيه أن يحج فى تلك السنة فأذن له .

وكانت مصر يومئذ تحت حكم صلاح الدين ، الذى لم يلبث بعد قليل أن هب ليوحد كلمة العرب ويحمل عبء حماية البلاد العربية من اعتداءات الأوربيين المتوالية ، التى عرفت باسم الحملات الصليبية والتى ساهم فى رد بعضها ، عندما أغار الصليبيون على الإسكندرية سنة ١١٦٧ م وعلى دمياط سنة ١١٦٩ م .

ولد أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانى ، فى بلنسية Valencla فى العاشر من ربيع الأول ٥٤٠ هـ ١١٤٥ م . وقد درس الفقه والحديث ، والشعر والأدب ، حتى أصبح عالماً فاضلا ، وأديباً بارعاً ، وشاعراً مجيدا .

ثم استوطن غرناطة Grenada ، وهناك توثقت صلته بأميرها ، فلما وقعت حادثة الشراب خرج إلى الحج ، سنة ٥٧٨ هـ سنة ١١٨٢ م . فذهب إلى سبتة ومنها إلى سردينيا حيث رأى أسرى المسلمين العرب يباعون فى سوق العبيد فأحس بالألم الشديد وأدرك أن ما أصاب هؤلاء البؤساء إنما هو نتيجة تفكك العالم العربى يومئذ ، ولذلك اتجه إلى تسجيل كل مشاهداته ليقف عليها العرب وليعلموا إلى أى مدى يجب أن تتحد كلمتهم ، وأن يصلحوا أحوالهم حتى يستطيعوا مواجهة الخطر الإفرنجى .

وأخيرا وصلت سفينته إلى الإسكندرية . ثم دخل المدينة ، ولما رأى منارة الإسكندرية الشاهقة الارتفاع جذبت انتباهه . كما وقف طويلا عند بعض آثارها ، و بعد ثمانية أيام غادر

الإسكندرية إلى القاهرة حيث زار القلعة أثناء بنائها ، وذكر أن صلاح الدين يعتزم إقامة سور عظيم يحيط بالقاهرة ومصر القديمة .

ثم يقصد إلى الجيزة وتدهشه الأهرامات ، ويستمع إلى رأى الناس فى أمر بنائها فمنهم من يجعلها قبوراً لعاد وبنيه ومنهم من يزعم غير ذلك ، وبالجملة فلا يعلم شأنها إلا الله عز وجل . . وعلى مقربة من هذه الأهرامات صورة من حجر ، قد قامت كالصومعة على صفة آدمى هائل المنظر (أبو الهول) .

ويتجه بعد ذلك إلى أسيوط فيعجب بجمال مناظرها . . ثم يمر بقنا ويعجب بنسائها لأنهن لا يغادرن بيوتهن . . ثم يصل إلى بلدة قوص ، وعندها يجتاز الصحراء الشرقية إلى البحر الأحمر ليستقل من ميناء عيذاب سفينة إلى جدة . وعندما يصل إلى جدة ينزل ضيفا على قائد من قبل أمير مكة اسمه مكثر بن عيسى ، ولكنه يستنكر معاملة أهل جدة للحجاج ويقول : « لقد صيروا الحجاج من أعظم غلاتهم التى يستغلونها ، ينتهبونهم انتهابا ، فالحاج لا يزال فى غرامة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه» .

وأخيرا يصل إلى مكة فيؤدى فريضة الحج . . ثم يسافر إلى المدينة ويزور قبر النبى ويصفه وصفاً تفصيليا ، ويواصل بعدئذ سفره إلى الكوفة فبغداد وهناك يرى القار أحد منتجات النفط (البترول) لأول مرة يستعمل فى طلاء جدران حماماتها

حتى ليخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل وتدهشه فيها كثرة المساجد والمدارس .

ثم يغادر بغداد إلى الموصل ، ويمر بمدينة « سر من رأى » فيرثى لحالها ثم يمر بموقع يعرف بالقيارة وفيه يرى القار – أو البترول – فى « وهدة من الأرض سوداء كأنها سحابة ، قد أخرج الله منها عيونا كبارا وصغارا تنبع بالقار ، وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنها الغليان . ويصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطا على الأرض أسود أملس ، صقيلا رطبا ، عطر الرائحة ، شديد التعلك فيلصق بالأصابع لأول مباشرة من اللمس . وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود ، تقذفه إلى جوانبها فيرسب قارا ، فشاهدنا عجبا كنا نسمع به فنستغرب سماعه . وبمقربة من هذه العيون على شط دجلة ، عين أخرى منه كبيرة أبصرنا على البعد منها دخانا فقيل لنا : إن النار تشتعل فيه إذا أرادوا نقله ، فتنشف النار رطوبته المائية وتعقده فيقطرونه قطرات ويحملونه . وهو يعم جميع البلاد إلى الشام ، إلى عكة ، إلى جميع البلاد البحرية » .

ويصف الجامع الأموى وصفاً تفصيليا ويذكر كيفية بنائه .

وبعد أن يغادر دمشق إلى عكا « قاعدة مدن الإفرنج بالشام ، ومحط الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ، مرفأ

كل سفينة ، والمشبه فى عظمتها بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق » .

ورأى بعينيه الفظائع التى يعانيها الأسرى المسلمون ، فهم « يرسفون فى القيود ويصرفون فى الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والأسيرات المسلمات كذلك فى سيقانهن خلاخيل الحديد » . وهنا ينوه بما اعتاده مسلمو الشام من البذل لافتداء أسرى المغاربة .

ثم يبحر إلى صقلية وأخيراً يعود إلى غرناطة وهذه الرحلة ، هى التى يصفها لنا فى كتابه المشهور « برحلة ابن جبير » .

ثم يقوم برحلة أخرى عندما يبلغه نبأ فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين ، وقد استمرت تلك الرحلة من سنة ٥٨٥ هـ إلى سنة ٥٨٧ هـ . وقد عاش بعد ذلك فى مالقة (شرق جبل طاوق)ثم فى سبتة وفاس .

أما رحلته الثالثة والأخيرة فقد بدأها من سبتة سنة ٦٠١ هـ ، وفى هذه المرة مكث بمكة زمنا طويلا ثم بالقدس فالإسكندرية حيث توفى بها ، فى ٢٧ شعبان سنة ٦١٤ هـ سنة ١٢١٧ م .

وكان ابن جبير مشتغلا بدراسة الحديث وتدريسه ، فلا غرو أن رأيناه حريصا على مقابلة أقرانه من المحدثين ، خلال رحلاته الطويلة . ولكننا نستخلص مما نقرأه فى رحلته أنه كان واسع الاطلاع ، فى مناحى أخرى .

ولعل أشهر خلال ابن جبير كلها حسن نكتته ولطافة دعابته .

عاش ابن جبير فى وقت كانت فيه الخصومة السياسية بين العرب وأوربا فى إبانها ، فلا غرو أن رأيناه أحيانا يصب جام خصومته وغضبه على أعداء العرب ، ولكنه فى الوقت ذاته كان يظهر تسامحا صادقا عجيبا ، كما يبدو ذلك من سفره على سفن الفرنجة ، أثناء عودته إلى بلاده ، ومن انضمامه إلى قافلة من تجار الفرنجة فى سفره من دمشق إلى عكا ، ومن ثنائه على ما كان لوليم الثانى ملك صقلية من ميل إلى المسلمين .

وقد تداول قراء العربية رحلة ابن جبير منذ نحو سبعين عاما ، وقام الأستاذ رايت Wright أحد أساتذة جامعة كمبردج بإصدار طبعة جيدة منها ، وفى سنة ١٩٥٥ أصدر منها الدكتور حسين نصار الأستاذ بجامعة القاهرة طبعة محققة مشكولة .

ياقوت الحموى

هو الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى .

ولد فى بلاد الروم (الأناضول الحالية) ومن هنا تسميته أحيانا بالرومى فى سنة ٥٧٥ هـ ؛ سنة ١١٧٩ م . وقد أسر وهو

صغير وبيع لتاجر حموى كان يقيم فى بغداد فنسب ياقوت إليه وغلب عليه لقب الحموى . ورأى التاجر أن يفيد من هذا الحدث النابه ليستعين به فى حساباته فأدخله مدرسة يتعلم فيها الكتابة إلا أن ياقوت توسع فى دراسته واهتم بالنحو والأدب . وأرسله سيده فى تجارات له فى الخليج العربى وعمان والشام ، فأغرم ياقوت بالرحلة .

ثم أعتقه سيده سنة ٥٩٦ هـ ؛ سنة ١١٩٩ م . ولم يلبث أن دب بينهما خلاف ، فتعاطى ياقوت نسخ الكتب ليعيش منه . وقد أفاد من ذلك كثيرا ، إذ هيأ له الاتصال بعدد من الأدباء والرواة . ثم عاد الود بينه وبين سيده القديم إلى ما كان عليه ، فاستأنف ياقوت أسفاره التجارية ، وعند عودته وجد أن سيده قد مات بعد أن أوصى له ببعض ثروته . فاشتغل ياقوت بتجارة الكتب ، ولكنه اشتاق إلى الأسفار والتنقلات ، فأخذ يتجول فى فارس والجزيرة العربية وآسيا الصغرى ومصر والشام ، وحيثما حل كان يلتهم ما فى خزائن البلاد من الكتب . وفى مرو بدأ بوضع كتابه « معجم البلدان » ، ثم رحل إلى خوارزم حيث استقر بعض الوقت ، فلما علم بتحرك جنكيزخان نحو الغرب هرب إلى الموصل . ومنها كتب إلى الوزير ابن القفطى ، فى حلب ، يرجوه العون ، فأمده بما قوم به أوده واستدعاه إلى حلب . لكن ياقوت عاد بعد سنتين إلى الموصل ، حيث انصرف إلى إتمام معجمه الذى فرغ من وضعه فى سنة ٦٢١ هـ ؛

سنة ١٢٢٤ م . ثم زار مصر . وعاد إلى حلب فعمل فى تنقيح المعجم ، وتوفى فيها فى رمضان سنة ٦٢٦ هـ : آب ـ أغسطس سنة ١٢٢٩ م .

وقد دفع ياقوت إلى وضع معجمه ما حدث له فى مرو عندما ثارت مناقشة تتعلق بتشكيل اسم مكان ، فأدرك حاجة المؤلفين إلى « كتاب فى هذا الشأن مضبوطا ، وبالإتقان وتصحيح الألفاظ بالتقييد محطوطا ، ليكون فى مثل هذه الظلمة هاديا ، وإلى ضوء الصواب داعياً .

ولذلك بادر إلى وضع معجمه مرتبا على حروف الهجاء ، ومهد له بخمسة فصول تتناول صورة الأرض ، ومعنى الإقليم ، وبعض الاصطلاحات الجغرافية مثل : البريد والفرسخ ، والطول والعرض إلى غير ذلك . وضبط الأسماء وأشار إلى كل من دفن فى كل بلد من الصحابة والعلماء والأعيان . كما دوّن أخبار بعض الرحالة كابن فضلان .

وأصبح معجم ياقوت موسوعة جغرافية لا غنى عنها ، ولما أتمه شعر بما بذل فيه من جهد مضن ولذلك يتحدث عنه بقوله : « وعلى ذلك فإننى أقول ولا أحتشم ، وأدعو إلى النزال كل عالم فى العالم ولا أنهزم : إن كتابى هذا أوحد فى بابه ، مؤمر على أضرابه ، لا يقوم بإبراز مثله إلا من أيد بالتوفيق . وركب فى طلب فوائده كل طريق ، فغار تارة وأنجد ، وطوح لأجله بنفسه فأبعد ، وتفرغ له فى عصر الشبيبة وحرارته ، وساعده

العمر بامتداده وكفايته ، وظهرت منه أمارات الحرص وحركته » .

وامتاز ياقوت عن كثير ممن سبقوه بعدم الأخذ بالخرافات والأساطير . وذكر ياقوت أن البعض طلب إليه اختصار معجمه فأبى ، وناشد ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه عدم اختصاره .

ومما قاله « أن المختصر لكتاب كمن أقدم على خلق سوى ، فقطع أطرافه فتركه أشل اليدين ، أبتر الرجلين ، أعمى العينين ، أصلم الأذنين » .

ولكن وصيته لم ترع ، على الرغم من هذا الرجاء الحار . فقد اختصره صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق فى كتاب سماه « مراصد الاطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع » ، كما أن السيوطى لخصه فى كتابه « مختصر معجم البلدان » .

ولياقوت مؤلفات أخرى غير معجم البلدان أهمها « معجم الأدباء » المسمى « إرشاد اللبيب إلى معرفة الأديب » ، وهو يتضمن معلومات جغرافية إلى جانب المعلومات الأدبية . وتوفى عام ٦٢٧ هـ : ١٢٢٩ م .

عبد اللطيف البغدادى

هو موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف ، موصلى الأصل ، بغدادى المولد .

ولد سنة ٥٥٧ هـ ؛ سنة ١١٦٢ م ببغداد فى أسرة اشتهر أفرادها بالعلم ، ولذا انكب منذ صغره على إجادة الخط وحفظ القرآن والشعر ؛ وتلقى جانباً كبيراً من كل ذلك على بعض أفراد أسرته ، وعلى بعض شيوخ بغداد .

ثم انتقل إلى الموصل ، وهناك علم بما يلقاه العلماء من رعاية فى كنف صلاح الدين فقصد إلى دمشق ، وكانت سورية ومصر يومئذ تحت حكم صلاح الدين . ثم توجه إلى القدس فعكا ، حيث التقى ببعض رجال صلاح الدين ومنهم القاضى الفاضل الذى زوده بوصية إلى نائب صلاح الدين فى مصر . ولكن إقامته لم تطل بها إذ عاد إلى القدس لما علم بمهادنة صلاح الدين للصليبيين ، وهناك قابله ولقى منه كل تقدير ، إذ قرر له ثلاثين ديناراً كل شهر كما قرر له أبناء صلاح الدين رواتب أخرى ، وطلب إليه أن يتجه إلى دمشق ليدرس للناس .

وبعد قليل مات صلاح الدين ، فرحل البغدادى إلى مصر حيث أقام زمنا يدرس بالأزهر وشهد فترة الغلاء والأوبئة .

ووضع أهم مؤلفاته وهو « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » ، وفيه وصف رحلته إلى مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى وتناول مختلف شئونها وتعرض لما ضمته من آثار كالأهرام وأبى الهول ومنارة الإسكندرية وعمود السوارى .

وقد أعجب البغدادى ببناء الهرم وتحدث عنها بقوله :

« والعجب فى وضع الحجر بهندام ليس فى الإمكان أصح منه ، بحيث لا تجد بينهما مدخل إبرة ولا خلل شعرة ، وبينهما طين كأنه الورقة لا أدرى ما صفته ولا ما هو . وعلى تلك الحجارات كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرفه » .

ثم روى بعدئذ محاولة الملك العزيز بن يوسف هدم الهرم الثالث وفشل هذه المحاولة .

ومما يدل على نزعته إلى التحقيق والتوفيق أنه سمع أن قوما اعتادوا ارتقاء الهرم دون عناء ، فاستدعى أحدهم وطلب إليه أن يصعد إلى قمته وأن يقيس أبعاده عندها ، فلما أبلغه إياها شك فى صحتها واعتزم القيام بذلك بنفسه .

وذكر ما جرت به العادة من تكسير التماثيل وتخريب الآثار وفتح المقابر بحثا عن الكنوز والذهب المدفون مع الموتى .

أما وصفه للقحط فهو وصف تقشعر له الأبدان ، إذ وصلت الحالة بالفقراء إلى أكل لحم الميتة والكلاب ، ثم انتهوا إلى أكل من يتخطفونه من الآدميين وبالأخص البدينين والصغار . ومما رواه أنه شاهد بنفسه طفلا صغيرا مشويا فى قفة وقد أحضر إلى دار الوالى ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر الوالى بإحراقهما . وروى كذلك أن الناس كانوا يتفننون فى اصطياد بعضهم بعضا ، وخاصة المشتغلين بالطب إذ كانوا يستدعونهم بزعم علاج مرضى ثم يفتكون بهم . كما تناول وصف ما أصاب

البلاد من أوبئة وروى فى هذا الصدد قصصا محزنة .
ثم قصد بعدئذ إلى القدس فأقام بها مدة ، وكان يتردد إلى الجامع الأقصى ويدرس فيه . ثم اتجه إلى دمشق مرة أخرى ونزل بالمدرسة العزيزية سنة ٦٠٤ هـ وهناك ظهر نبوغه فى الطب . ثم سافر إلى حلب ومنها إلى بلاد الروم فأقام فيها زمنا ، ثم عاد إلى حلب . ثم خطر له بعدئذ أن يحج وأن يمر ببغداد فى طريقه إلى مكة ليقدم للخليفة المستنصر شيئا من تصانيفه ، ولكنه مرض عقب وصوله إلى بغداد — بعد أن غاب عنها نحو خمسة وأربعين عاما — وتوفى بها فى المحرم سنة ٦٢٩ هـ : سنة ١٢٣١ م .

ابن سعيد

هو أبو الحسن على بن سعيد المغربى . ولد بغرناطة سنة ٦١٠ هـ ؛ سنة ١٢١٤ م فى أسرة كريمة ، وكان جده وأبوه من أهل الأدب والتأليف ، فقد بدأ جده « كتاب المغرب فى حلى المغرب » وعمل فيه أبوه وأتمه هو .
تلقى العلم فى إشبيلية ، ثم عمل لابن جامع وزير الموحدين بأفريقية ، غير أنه وقعت فرقة بين ابن سعيد وأحد أقربائه المشتغلين فى خدمة ذلك الوزير فخشى ابن سعيد نتائجها ، واستأذن للحج . فلما وصل الإسكندرية وكان والده قد رحل

إليها وأقام فيها — أدى معه فريضة الحج ، ولكن الأب توفى أثناء العودة وأقام الابن بمصر .

وحدث أن جاء مصر رسول من الملك الناصر لزيارة مصر فى مهمة كلفه بها مليكه ، فتعرف ابن سعيد إليه ، فأكرمه وحبب إليه الرحلة إلى حلب ليغترف مما فى خزائنها من كتب . فلما وصل إليها دخل على الملك الناصر فأنشده قصيدة أعجبته فأقبل عليه وقدم له ما استطاع من مساعدات وأغدق عليه الخلع والأموال .

ثم قصد دمشق فالموصل وبغداد ، فالبصرة وحج وعاد إلى المغرب فنزل بتونس واتصل بخدمة الأمير أبى عبد الله المستنصر .

ثم قصد دمشق واستقر بها حيث أدركته المنية سنة ٦٨٥ هـ؛ سنة ١٢٧٤ م .

ومؤلفات ابن سعيد كثيرة منها « المقتطف من أزاهير الطرف » و « الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد » (أى تاريخ أسرته وبلده) ، و « المشرق فى حلى المشرق » ثم « المغرب فى حلى المغرب » وهو الذى أتم تأليفه .

والكتابان الأخيران يجمعهما « كتاب فلك الأرب المحيط بحلى لسان العرب » ، وقد مهد لهما بمقدمة جغرافية عامة تعرف باسم « فلك الأرب» . وكلا الكتابين تناول ذكر البلاد وأقسامها ومدنها ، وأهم أبوابه القسم الخاص بالأندلس والذى يسمى « وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس » .

ووضع ابن سعيد كذلك مختصراً لجغرافية بطليموس اعتمد عليه أبو الفدا فى جغرافيته ، كما وضع كتابا آخر عن رحلته إلى مكة هو « النفحة المسكية فى الرحلة المكية » .

ويؤخذ على ابن سعيد أنه خلط بين الأقاليم ، وفى بعض الأحيان يشوب أوصافه الخطأ . وقد وثق به أبو الفدا أول الأمر فنقل عنه ، ثم تبين أخطاءه فيما بعد فصححها . ورغم ذلك فقد أثنى عليه أبو الفدا والمقريزى وابن خلدون وابن خلكان وغيرهم .

القزوينى

هو زكريا بن محمد القزوينى ، ولد فى بلدة قزوين . التى تقع جنوب بحر قزوين — أو بحر الخزر — فى سنة ٦٠٠ هـ ؛ سنة ١٢٠٣ م . وهو من أصل عربى ، وقد طاف فى صباه بإيران والعراق والشام ، ثم قصد إلى دمشق حيث اتصل ببعض علمائها ، وتولى القضاء ببعض مدن العراق فى عهد الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين وظل فى منصبه حتى سقطت بغداد فى يد المغول سنة ٦٥٦ هـ .

وأهم كتبه كتابان : أولهما فى الفلك والجغرافية الطبيعية وعنوانه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » جمع به ما عرف وسمع من خصائص البلاد والعباد ، ولكنه ضم الغث

والسمين من المعلومات دون نقد أو بحث .

وهو قسمان : أولهما يتناول الأشياء السماوية ، والثانى يتناول الأشياء الأرضية .

أما الكتاب الثانى فله عنوانان مختلفان : أقدمهما هو « عجائب البلدان » وأما العنوان الثانى فهو « آثار وأخبار العباد » ، ويبحث فى الجغرافيا التاريخية وما يتصل بها ، وفيه وصف لأحوال البلاد وسكانها ، وقد قسمها إلى سبعة أقاليم وتحدث عن بلاد كل إقليم . ولم يقتصر فيه على البلاد الإسلامية بل ذكر البلاد الأوربية وغيرها ، وزوده بمجموعة من الرسوم والصور . وقد نقل القزوينى فى هذا الكتاب الكثير مما كتبه بعض الجغرافيين المسلمين ، وبالأخص فيما يتصل بالأندلس والبلا د الفرنسية والألمانية والهولندية ، كما اتصل بكثير من الرحالة وقرأ كتبهم وأفاد من مشاهداتهم .

ومن العجائب التى رواها القزوينى والتى لا يصدقها العقل ما ذكره عن جزيرة فى بحر الصين لا يسكنها إلا النساء ، « لا رجال معهن أصلا ، وأنهن يلقحن من الريح ويلدن النساء مثلهن ، وقيل إنهن يلقحن من ثمرة شجرة عندهن يأكلن منها ، فيلقحن ويلدن نساء » .

وذكر عن حلب « أنه ظهر بها سنة أربع وعشرين وستمائة تنين بغلظ منارة وطول مفرط ، ينساب على الأرض ، يبلع كل حيوان يجده ، ويخرج من فمه نارا تحرق ما تلقاه من شجر

أو نبات ، واجتاز على بيوت أحرقها ، والناس يهربون منه يمينا ويسارا ، حتى انساب قدر اثنى عشر فرسخا ، فأغاث الله تعالى الخلق منه بسحابة نشأت وتدلت إليه ، فاحتملته ، وكان قد لف ذنبه فى كلب ، فرفع الكلب وهو يعوى فى الهواء ، والسحاب يمشي به والناس ينظرون إليه إلى أن غاب عن الأعين » . . .

وكانت وفاته سنة ٦٨٢ هـ ؛ سنة ١٢٨٣ م .

العبدرى

هو محمد بن على ، وينسب إلى جده الأعلى عبد الدار ابن قصى القرشى . وأصل أسرته من بلنسية ، ولكنها أقامت بالمغرب ، فى طفولة العبدرى أو صباه . وقد سافر لتأدية فريضة الحج مجتازا شمال أفريقية حتى وصل الإسكندرية فمكة عن طريق البر .

وقد عنى العبدرى فى كتابه « الرحلة الغربية » ببيان المواقع الجغرافية والمعالم الأثرية ودراسة العادات .

ومما ذكره عن الجزائر قوله : « إن حصونها تتحدى الأعداء بمتانتها ، لكنها خالية من العلم . . وليس فيها من يمكن أن يعد من العلماء » . . .

وقال عن تونس : « للمدينة عدة أبواب يمكن الدخول

منها ، وخارج كل منها ضاحية جميلة تكاد تكون فى اتساع المدينة نفسها . . . ولو أن تونس يتاح لها نهر يروى عطشها ، لفاقت جميع حواضر الإسلام ، ولكن من سوء الحظ فماؤها نزر يسير ، والناس يشربون من ماء المطر الذى يخزنونه فى الآبار .

« وتونس مدينة كبيرة الأهمية إذ هى عاصمة أفريقية (جمهورية تونس اليوم) . . ولم أر لا فى الشرق ولا فى الغرب قوماً كأهلها فى دماثة الخلق ورقة الطبع . . . وفى أهلها من بلغ فى العلم الدرجة القصوى ، وبينهم من يمتاز بعلو الهمة . . . وهناك من يترك عمله ليتمتع بصحبة عالم . . . كما حدث لى » .

ثم يصف قرطاجة وآثارها ، ولكنه يهتم بالقناطر التى تجرى قناة الماء فوقها والتى يسميها التونسيون « حنايا » ، ويشير إلى الاهتمام بإصلاحها لأنها توصل بعض الماء من قرطاجنة إلى تونس . .

ويقول عن أهل برقة : « انهم يتكلمون العربية بصفاء أهل الحجاز بحيث أن ولدا سأل الحجاج قائلا لهم : « يا حجاج . . أمعكم شيئا تبيعونه ؟ » وقد شكل كل كلمة فى السؤال » .

ومما تناوله أيضا وصفه لما كان يلقاه القادمون إلى ثغر الإسكندرية من قسوة موظفى الجمارك وتغاليهم فى التفتيش إذ يقول : « وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبى ، وجعل الانفصال عنهم غاية أربى . وذلك أنه لما وصل

إليها الركب جاءت شرذمة من الحرس . . . فمدوا فى الحجاج أيديهم ، وفتشوا الرجال والنساء ، وألزموهم أنواعا من المظالم ، وأذاقوهم ألوانا من الهوان ، ثم استحلفوهم وراء ذلك كله » . . .

وهو يشبه ابن بطوطة فى طريقة روايته لأخبار رحلته ، ولكنه يفترق عنه فيما يبدو على أسلوبه من تكلف وجرى وراء الألفاظ .

أبو الفدا

هو الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ، وينتهى نسبه إلى المظفر بن شاهنشاه ابن أخى صلاح الدين الأيوبى .

ولد بدمشق سنة ٦٧٢ هـ ، ولما عاد حكم حماه إلى أسرته عاد معها واشترك فى بعض ما قامت به من حروب ، ولما انقطع حكم حماه عن أسرته ظل فى خدمة نائبها . ولما استرد الملك الناصر محمد بن قلاوون ملك مصر عين المؤيد نائبا عنه فى حماه سنة ٧١٠ هـ ؛ سنة ١٣١٠ م ، وكانت العلاقات بينهما طيبة .

وقد زار أبو الفدا مصر مرارا ، وطاف بأغلب بلاد الشام .

واشتغل بعلوم عدة ، وله فيها مؤلفات قيمة أشهرها :

١ — المختصر فى أخبار البشر ، وهو فى التاريخ العام ويعرف بتاريخ أبى الفدا .

٢ ــ تقويم البلدان ، وهو فى الجغرافيا ووصف الأقاليم ، وقد مهد له بمقدمة بين فيها الدافع له على تأليفه فقال : « لما طالعت الكتب المؤلفة فى البلاد ونواحى الأرض من الجبال والبحار وغيرها ، لم أجد فيها كتابا موفيا بغرضى » . ثم ذكر بعض هذه المؤلفات وبين نواحى النقص التى رآها فيها كعدم ذكر خط الطول والعرض وإهمال ضبط الأسماء .

وتظهر فى كتاب أبى الفدا دقته فى التعبير عن الحقائق العلمية المعروفة فى عهده ، كما يشعر القارئ بإحاطته بكل ما يكتب فيه مع عنايته بالتحقيق والضبط ، وقد ذكر فى مقدمته أنه جمعه مما تفرق فى كتب عديدة .

وقد أورد فى كتابه ضروبا من النظريات لا يزال عدد كبير منها صحيحا ، ككروية الأرض ، وتحدث عن خط الاستواء والجهات المعمورة فى أيامه .

وتكلم عن نهر النيل فقال : « ومبتداه وأوله الخراب الذى هو جنوب خط الاستواء ، ولذلك تعسر الوقوف عليه ، ولم يتصل بنا من أخباره إلا ما نقل عن اليونان ، ونسب إلى بطليموس أنه ينحدر من جبل القمر من عشرة مسيلات منه ، بين كل نهر منها والآخر درجة فى الطول » .

وذلك دليل على قلة المعلومات عن ذلك النهر الكبير يومئذ .

ويتناول هذا الكتاب بعض النواحي المسكونة ويصفها

وصفاً إقليميا ، فيذكر الحدود والبلادالمتاخمة ، والأنهار والجبال والمدن والنواحى المختلفة ، والأجناس واللغات أحيانا ، إلى غير ذلك ، مع ضبط الأسماء .

ومن البلاد التى تكلم عنها : جزيرة العرب ، ومصر ، والشام ، والمغرب ، والسودان ، والأندلس ، وفارس ، والهند ، والصين ، وبلاد الروم ، وأرمينية ، وخراسان .

وهذا الكتاب يعد مفخرة من المفاخر العلمية للعصر المملوكى ، كما أنه من الكتب الجغرافية الجليلة التى خلفها لنا علماء العرب .

وكانت وفاة أبى الفدا سنة ٧٣٢ ﻫ ؛ سنة ١٣٣١ م .

ابن بطوطة

لو رجع بنا التاريخ عدة قرون ، إلى الفترة فيما بين سنة ٧٥٤ وسنة ٧٦٩ ﻫ (١٣٥٣ — ١٣٧٧ م) وانتقلنا إلى مدينة فاس لشاهدنا شيخاً جليلا جالسا وسط الحدائق الغناء ، ومن حوله حلقة كبيرة من أصدقائه من أعيان المدينة وكبرائها ، وهم ينصتون بإعجاب ودهشة إلى مغامراته التى يقصها عليهم حتى ليتهمه بعضهم بالاختلاق أو الجنون ، إذ يتنقل بمستمعيه من وسط أفريقيا إلى روسيا ، ومن الهند إلى الصين .

ذلكم الشيخ الجليل ، هو ابن بطوطة ، أعظم رحالة العرب جميعا .

ولد أبو عبد الله محمد بن بطوطة فى بلدة « لواتة » ونشأ فى مدينة طنجة سنة ٧٠٣ هـ ؛ سنة ١٣٠٤ م والذى نعرفه — عن لسانه هو — أن والده كان قاضياً وأنه هو أيضا ولى القضاء ، إلا أن حوادث طفولته ومستوى تعليمه مجهولة لدينا . ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره ، غادر بلدته لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن يؤمئذ يعلم البلاد التى سوف يقدر له زيارتها ورؤية أطرافها ، أو يقدر أنه سيغيب عن أهله وأقاربه نحو ثمانية وعشرين عاما أو أنه سيصل إلى أقطار لا يعلم أهل المغرب عنها غير أسمائها .

وتنقسم رحلات ابن بطوطة إلى ثلاث مراحل أو سفرات واسعة النطاق ، جاب فيها أكثر ما عرف فى عصره من البلاد .

فالرحلة الأولى من سنة ١٣٢٥ إلى سنة ١٣٤٩ زار فيها شمال أفريقية ومصر والشرق الأوسط وأفريقية الشرقية وجزيرة العرب واليمن . ثم قصد إلى القسطنطينية وبعد أن أقام بها فترة من الزمن عاد إلى الهند ، ثم سافر مع أعضاء البعثة « الدبلوماسية» التى أرسلها سلطان الهند محمد شاه إلى ملك الصين .

والرحلة الثانية من سنة ١٣٥٠ إلى سنة ١٣٥١ زار فيها الأندلس وجبل طارق وغرناطة .

والرحلة الثالثة من سنة ١٣٥٢ إل سنة ١٣٥٤ زار فيها السودان وغرب أفريقيا .

ورغم أن ابن بطوطة لم يسجل أغلب تواريخ الأحداث التى مرت به فى رحلاته فإنه أثبت اليوم الذى فارق فيه وطنه وبدأ أولى رحلاته ، ففى اليوم الثانى من رجب سنة ٧٢٥ ه بدأ ابن بطوطة رحلته من طنجة إلى الإسكندرية بطريق البحر ، وقد وصفها وصفاً موجزا ، ولا سيما المنار وعمود السوارى وتحدث كثيرا عمن لقيهم من علمائها .

ومن طريف ما ذكره عن دمياط أنها كانت مسورة ، وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج منها إلا بإذن حاكمها ، وكان هذا الإذن مدونا على ورق مختوم بخاتم الحاكم فيسمح له حراس أبواب المدينة بمبارحتها بعد فحص هذه الورقة .

ثم وصف القاهرة والفسطاط وذكر المساجد والمدارس والنيل الذى وصفه بأنه أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار ، وقد لاحظ فيضانه ، وعجب من زيادته فى شدة الحر عند نقص الأنهار الأخرى وجفافها ، وابتداء نقصانه حين تزيد الأنهر الأخرى وتفيض .

واهتم ابن بطوطة بزيارة الأهرام ، ولكنه لم يذكر أبا الهول . وقد ذكر بعض الأساطير عن أصل الأهرام فقال إنهم يزعمون

« أن الذى بناه هو هرمس[1] الأول ، الذى كان أول من تكلم عن الحركات الفلكية ، وأنذر الناس بالطوفان ، وخاف ذهاب العلم واندثار الصناعات ، فشيد الأهرام ، وصور جميع الصناعات والآلات ، ورسم على جدرانه العلوم والفنون لتظل مخلدة » .

ثم غادر القاهرة إلى الأقصر فأدفو ، فالبحر الأحمر ليستقل السفينة إلى الحجاز ، ولكنه لما وصل إلى ميناء عيذاب وجد حاكمها فى حرب مع المماليك فتعذر السفر عليه وعاد إلى القاهرة ثم قصد إلى بلاد الشام . وهو يصف الطريق وصفاً مسهباً ويذكر أن فى كل مرحلة من الصحراء فندقا ينزل فيه المسافرون بدوابهم ، وبخارج كل فندق ساقية لشرب الدواب وحانوت يبتاع منه المسافر كل ما يحتاجه . كما ذكر أنه فى كل نقطة للحدود تدفع الضرائب وتفحص جوازات السفر .

ومن الغريب أن رحالة إيطاليا يدعى فرسكوبالدى Frescobaldi لدى زار مصر فى سنة ١٣٨٤ ، أى بعد ابن بطوطة بنحو ستين عاما فجاءت أوصافه والأرقام التى أوردها عن السكان وعدد المراكب فى النيل والمتاجر والمساجد كما دونها ابن بطوطة أو قريبا منها .

وقد رأى فى دمشق حادثة طريفة يقصها علينا فيقول :

---

(١) يلاحظ التقارب بين كلمة هرم وهرمس .

« مررت يوما ببعض أزقة دمشق ، فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصينى — وهم يسمونه الصحن — فتكسرت . واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم : اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأوانى . فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن » .

وعقد ابن بطوطة فصلا للكلام على الأوقاف بدمشق ، كتب فيه : « إن الأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها . . . ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن وهن اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبيه يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان بين ذلك . ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير » .

وبعد أن حج ابن بطوطة زار العراق وبلاد فارس والحجاز وزار اليمن وساحل إفريقية الشرقية ، وطاف حول سواحل جزيرة العرب . وبعد ذلك ذهب إلى بلاد الروم حيث حظى بشىء من أعظم الأشياء فى حياته ، هو مقابلته جماعة الإخوان أو الفتيان . وهم جماعة اشتهروا بالمروءة والفضل ، وقد أثنى ابن بطوطة على كرمهم وحسن ضيافتهم ثناء عاطرا ، حيث

يقول : « وعند وصولنا لمدينة لاذق مررنا بسوق لها ، فنزل إلينا رجال من حوانيتهم وأخذوا بأعنة خيلنا ، ونازعهم فى ذلك رجال آخرون ، وطال بينهم النزاع حتى سلّ بعضهم السكاكين ، ونحن لا نعلم ما يقولون . وخفنا منهم ، وحسبنا أنهم يريدون نهبنا . ثم بعث الله لنا رجلا حاجا يعرف اللسان العربى ، فسألته عن مرادهم ، فقال : إنهم من الفتيان ، وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندها . فعجبنا من كرم نفوسهم » .

وبعد أن عبر ابن بطوطة البحر الأسود ، ذهب إلى شبه جزيرة القرم بجنوب روسيا حيث طاف بأرضها ، حتى اقترب من ستالينجراد ثم زار القسطنطينية وقصد بعد ذلك إلى الهند واتصل هناك بالسلطان محمد بن تغلاق ، ومكث فى خدمته سبع سنين . وقد مرت على ابن بطوطة فترات كان فى أثنائها تارة محبوبا مقربا من السلطان ، وتارة مقصيا مغضوبا عليه ، حياته معرضة للخطر الحقيقى .

وحدث أن أرسله السلطان فى بعثة إلى عاهل الصين فتحطمت سفينته ، وبدلا من أن يعود ليواجه غضب السلطان ، آثر أن يستأنف رحلاته مرة أخرى .

ثم ذهب إلى الصين ، وفى وصفه لها نجد أقدم إشارة إلى استخدام ورق النقد فى المعاملات ، وهو من اختراع الصينيين ، إذ يقول : « وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد ، كل قطعة منها قدر الكف

مطبوعة بطابع السلطان . وإذا تمزقت تلك الكواغد فى يد إنسان ، حملها إلى دار كدار السكة عندنا ، فأخذ عوضا جددا ودفع تلك ، ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها . وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار ، يريد شراء شيء ، لم يؤخذ منه ولا يلتفت إليه » .

وكانت الصين آخر ما وصل إليه ابن بطوطة من الأقطار . وقد عاد منها بطريق البحر إلى الخليج العربى ، ثم جاب بلاد الفرس والعراق والشام ومصر مرة أخرى ، وبعد أن أدى فريضة الحج للمرة السابعة والأخيرة ، عاد إلى فاس من الإسكندرية بطريق البحر ، واتصل هناك بالسلطان أبى عنان فارس من سلاطين بنى مرين . عندئذ لم يكن باقيا من البلاد الإسلامية سوى بلدين اثنين لم يزرهما ابن بطوطة ، هما الأندلس وبلاد السودان فى وسط إفريقيا فرحل لزيارتهما فى السنة التالية ، ثم عاد مرة أخرى إلى فاس عام ٧٥٤ هـ ؛ ١٣٥٣ م .

وأعجب السلطان أبو عنان المرينى بقصة ابن بطوطة ورحلاته ، فأمر كاتبه محمد بن جزى الكلبى — وكان صديقا لابن بطوطة — أن يدوّن ما يمليه عليه ابن بطوطة من قصصه وأسفاره . وقد أطلق ابن جزى على الكتاب اسما جديرا به ، وهو « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . وقد استحق ابن بطوطة ولا ريب تلك الراحة الطويلة التى تمتع بها خلال السنوات الخمس والعشرين من آخر حياته ، إلى أن

انتقل إلى رحمة ربه سنة ٧٧٩ هـ ؛ ١٣٧٧ م .

ولرحلات ابن بطوطة أهميتها ، ذلك أن أوصافه لأغلب الأقاليم التى زارها لا تختلف عما يكتبه أى سائح فى العصر الحاضر .

والقارئ لرحلة ابن بطوطة يلاحظ أنه لم يكن يطمح عند بدء رحلته إلى غير أداء فريضة الحج ، ولذلك كان القسم الخاص بالمراحل الأولى من رحلته قاصراً على ذكر العلماء والصالحين الذين قابلهم ، والزوايا التى أقام فيها ، ووصف بعض المدن الكبرى التى مر بها وصفاً عابراً لا دقة فيه . ولم يعن بدراسة أحوال المجتمع والشئون السياسية وتقلبها ، وقنع بالتحدث عن كرامات الأولياء والزاهدين . ولكنه بعد أن وجد الترحل سهلا والزوايا التى يأوى إليها الغرباء كثيرة وعطايا الولاة والحكام كافية ، بحيث تنفى عنه الحاجة إلى السؤال أو إلى الأموال الطائلة ، مال إلى الأسفار . وتفتح ذهنه على ما يراه من أحداث فصار يسجله ويقارنه بغيره فى الدويلات والممالك التى يزورها ، حتى صار مضرب المثل فى دقة الملاحظة ، وأصبح يصف طبائع الناس وطرق معايشهم وموارد رزقهم ، وصلاتهم بمن جاورهم ، ويعنى بأحوال الأمراء والحكام واحتفالاتهم فى الأعياد ، و « البروتوكول » المتبع فى مقابلاتهم ومحادثاتهم ومعاملاتهم ، ويقارن بين أثمان النقود المتداولة فى الممالك ، ويسجل المسافات بالأميال والفراسخ والأيام .

ويمتاز عن سواه من الرحالة السابقين واللاحقين بالتفوق فى الدرس ، إذ لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ألم بها وبسطها بتفصيل ، وهو أول من أخبرنا بأن مسلمي الهند توجوا عليهم سلطانة هى — « رضية » بعد أن ثاروا على أخيها « ركن الدين » وقتلوه ، وبقيت — فى الحكم أربع سنين ثم خلعوها . وروى لنا كذلك اسم السلطانة خديجة التى حكمت جزر « ذيبة المهل » الواقعة قرب خليج البنغال .

ولا يضير ابن بطوطة بعض التحريف فى أسماء الأقاليم والمدن التى زارها . والغالب أن الذين سبقوه إلى دخول تلك الديار هم الذين حرفوا تلك الأسماء ، أو أن ابن بطوطة — اعتمد على ذاكرته وحدها — وهو يملى أنباء رحلاته ونسى صحة لفظ الأسماء . لأنه فقد أمواله ومذكراته بعد عودته من الشرق الأقصى

مكانة ابن بطوطة بين الرحالة العرب :

شهد ابن بطوطة العصر الذى بلغت فيه الحضارة العربية ذروتها واتسعت رقعة الدولة العربية من حدود الهند شرقا إلى المحيط الأطلنطى غربا ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالا إلى صحارى أفريقية جنوبا . وكان سابع سبعة من أعلام الجغرافيين العرب هم : القدسى ، الإدريسى ، ابن جبير ، السمعانى ، ياقوت ، البيرونى ، وابن بطوطة . ولكنه — كرحالة — يكاد يكون أرفع الجغرافيين العرب مقاماً وأكثرهم طوافا ، وأوفرهم

استيعاباً للأخبار ، وأشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية وحديث رحلاته الطويلة يشهد بأنه من المغامرين الذين يدفعهم حب الاستطلاع والرغبة فى الاستمتاع بالحياة إلى ركوب الصعب من الأمور .

وقد اهتم الأوربيون بهذه الرحلة كثيرا ، وبحثوا عن مخطوطها الأصلى فلم يجدوا سوى مختصرا اكتشفه السائح بوركارت Burchart ، ثم اكتشف المستشرق كيسجارتن Kasegarten نسخة خطية ثانية ، فترجم عنها إلى اللغة اللاتينية ، وأخيرا طبعت الرحلة فى باريس مع ترجمة فرنسية بإشراف عالمين مستشرقين ، كما نقلها إلى الإنجليزية أحد القسس ، ونشر تلخيصا عنها المستشرق جب Gibb ، وهى أيضا مترجمة إلى اللغات الألمانية والبرتغالية والتركية .

وقد طبعت فى القاهرة طبعتين آخرهما طبعة منقحة سنة ١٩٣٤ تحت عنوان « مهذب رحلة ابن بطوطة » بإشراف وزارة المعارف (التربية والتعليم) .

ابن خلدون

ابن خلدون من صميم العرب ، ينتسب إلى أسرة عربية الأصل يمنية منحدرة من ملوك كندة كانت تنزل فى حضرموت ، فلما ظهر الإسلام واتسع الفتح حتى بلغ إسبانيا نزح جده إليها

واسمه خالد ، ثم أبدل هذا الاسم إلى خلدون للتصغير والتحبيب .

كانت الهجرة فى أول عهد إسبانيا بالفتح الإسلامى ، وأصابت أسرته فيها إقبالا عظيما ولكنها اضطرت للنزوح إلى تونس عندما شدد أهل إسبانيا الأصليون النكير على العرب ، فولد مؤرخنا العظيم فى هذه المدينة سنة ٧٣٢ ﻫ الموافقة سنة ١٣٣٢ م ، فلما بلغ سن التعلم حفظ القرآن الكريم وأخذ الفقه المالكى واللغة والنحو عن أبيه ، ودرس سائر العلوم المعروفة فى زمنه على أساتيذها المشهورين ، وحصل منهم على شهادات بتفوقه فيها . فلما بلغ السادسة عشرة عين فى وظيفة بديوان صاحب تونس . ثم رحل إلى فاس فأسند إليه سلطانها أمانة ديوانه ، أى جعله كاتبا خاصا له . وما عتم أن اتهم بمكاتبة أحد الأمراء المسجونين لإحداث ثورة فسجن ثلاث سنين ، ثم أطلق سراحه فشخص إلى الأندلس وشغل فيها محلا فى ديوان صاحب غرناطة . ثم نزح إلى بجاية فجعله صاحبها وزيرا له جزاء مساعدته إياه . ثم طلبه صاحب تلمسان وعرض عليه أن يجعله أمينا له فشغل هذه الوظيفة مدة . ثم اضطر أن يعود إلى فاس ومنها قصد إلى الأندلس سنة ٧٧٦ ﻫ فلم يصادف حظا من سلطان غرناطة ، فعاد إلى تلمسان كارها المناصب الحكومية وعكف على الدرس والبحث والتأليف .

ثم بدا له أن يرحل إلى مصر للاطلاع على عيون مؤلفاتها ، فعينه ملكها « برقوق » قاضيا للمالكية ثم عزله ، فرحل إلى مكة

فالمدينة . ثم آب إلى مصر ، حيث عاد إلى تولى القضاء ثم عزل عنه . وفى خلال ذلك سافر إلى الشام ، وكان فى دمشق عندما حاصرها تيمورلنك وافتتحها. والتقى الرجلان فأعجب به عاهل المغول ودعاه للبقاء معه ، فتخلص بلباقة وعاد للقاهرة . وما فتئ يعاد إلى منصبه ويعزل بفعل الدساسين حتى تكرر ذلك ست مرات ، إلى أن توفى سنة ٨٠٨ هـ ؛ سنة ١٤٠٦ م .

واشتهر ابن خلدون بكتابه الذى سماه « ديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ، وهو فى جملة أجزاء كبيرة . واشتهر كذلك بالمقدمة التى وضعها لهذا التاريخ وهى المعروفة باسم « مقدمة ابن خلدون » ، تناول فيها عدة موضوعات وثيقة الصلة بالجغرافية البشرية والاجتماعية . وقد خصص ابن خلدون القسم الأول من مقدمته لبحث العمران البشرى وتحدث عن البحار والأنهار ، وذكر الأقاليم الجغرافية السبعة المألوفة وما يدخل تحت كل منها . ثم تعرض لتأثير الإقليم فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم وضرب السودان مثلا لتأثير المناخ على الأخلاق إذ يقول : « ولما كان السودان ساكنين فى الإقليم الحار ، استولى الحر على أمزجتهم . . وفى أصل تكوينهم كان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أسرع فرحا وسرورا » .

ويخصص فصلا ممتعا لنشأة البلدان والأمصار وضرورة التعاون بينها ، ثم يتناول توزيع الصناعات على المناطق المختلفة

فى الدولة ثم يتحدث على العمل والإنتاج والأجور والزراعة والتجارة ووسائل نقل السلع مخصصاً فصلا للاحتكار . وكل هذه البحوث هى ما يسمى الآن بالجغرافيا البشرية أو الجنسية والجغرافيا الاقتصادية .

ولم تقتصر مؤلفاته على التاريخ والمقدمة بل وضع كتابا فى المنطق ، واختصر فلسفة ابن رشد ، وألف فى الفقه والرياضة والأدب . ولم ينس ابن خلدون أن يسجل حياته فى كتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » وهو كتاب حافل للحياة التى عاشها ابن خلدون ، بما فيها من أحداث وأعلام ومشاهد ، مما يجعله وثيقة جغرافية تاريخية أدبية تكشف عن العصر الذى عاشه والبلاد التى رآها .

لم يكن ابن خلدون علما من أعلام التاريخ العربى فحسب بل إنه قائد من قادة الفكر الإنسانى ، اعترفت له أوربا بفضل سبقه فى بعض ميادين البحث التى طرقها ، لم يكتب لعصره أو أمته أو لغته فقط بل كتب لكل من شاء أن يتفقه فى سياسة الدولة وعلم العمران البشرى ، وحسبه أنه جمع فى جعبته خلاصة تجاربه واتصالاته بدول العرب والمسلمين التى كانت قائمة فى فى عهده بالقارات الثلاث : أوربا وآسيا وإفريقية .

ولقد مكن لابن خلدون من هذه المنزلة عدة عوامل ، أهمها : عبقرية ممتازة ، واطلاع واسع على ما كتبه من سبقوه من المفكرين ، وعصر حافل بالتقلبات السياسية عاش فيه وخاض

غمار اضطراباته ، بل سطر كثيرا مما قام به من النشاط السياسى والعلمى فى الدول المتعددة التى خدمها ، وحسبنا فى تقدير مؤهلات هذا العالم الجليل ما أشرنا إليه من مناصب تقلدها .

وكما عرف ابن خلدون عز الحكم ،عرف مذلة السجن ، وكما تمتع بالحظوة من الملوك والخلفاء فقد اصطلى بنار الجفوة وأشواك الدسائس ، وكما امتحن بالناس امتحن بأهله إذ غرقت زوجته وأولاده وهم فى طريقهم إلى مصر ، فاعتزل الحياة وعكف على التأليف فأخرج لنا ثروة من العلم أصبحت تراثا فى الشرق والغرب . والحق أن عددا قليلا من مؤلفى العرب قد حظى بمثل ما حظى به ابن خلدون من علماء أوربا وأمريكا ، دراسة ونقدا وترجمة .

ومما يسجل لابن خلدون بالإعجاب ، إنصافه لابن بطوطة عندما رماه سامعوه بالغلو والمبالغة ، واعترافه بالفضل لمن سبقه فيما تصدى له من بحوث ، وتواضعه العلمى الذى يتجلى فى قوله أنه على الرغم مما بذله من جهد فى مقدمته إلا أنه قانع بأن يعد نفسه مجرد ممهد للطريق لمن يجىء بعده ..

الفصل السادس

المؤلفات الجغرافية فى عصر المماليك

على الرغم مما اتسم به بعض سلاطين المماليك فى مصر من ظلم وفوضى ، فقد وجه نفر منهم اهتمامه إلى العلوم والفنون فظهرت فى عصرهم مؤلفات جغرافية وفلكية عدة ، أهمها :

سرور النفس بمدارك الحواس الخمس :

لابن منظور الأفريقى المتوفى عام ٧١١ هـ (١٣١١ م) ، وهو جزءان فى وصف الليل والنهار والكواكب والمطر والبرق وغير ذلك .

مباهج الفكر ومناهج العبر :

لجمال الدين محمد بن إبراهيم الوطواط المتوفى عام ٧١٨ هـ (١٣١٨ م) ، وهو يقع فى أربعة أجزاء تكلم فيها عن علم الهيئة ووصف الأرض والحيوان والنبات .

نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر :

تأليف شمس الدين الدمشقى المتوفى عام ٧٢٧ هـ (١٣٢٦ م) وهو يشتمل على وصف الأرض وأقاليمها وما فيها من بحار وجزر وجبال وطرق وآثار وعمائر وحيوان ونبات ، وأحجار ، ومساحات الأرض ومسافاتها ، وكذلك أنساب الأمم واختلاف طبائعها .

نهاية الأرب فى فنون الأدب :

تأليف أبو العباس شهاب الدين المعروف بالنويرى المتوفى عام ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) ، وهو فى أكثر من ثلاثين مجلدا ، ويعتبر أحد الكتب الجامعة الهامة . اعتمد عليه كثير من المؤلفين ، وفيه فصول عن الأجرام السماوية والسحاب والمطر والثلج والصواعق والنيازك والفصول ، ووصف الأرض وما فيها من جبال وأنهار وبحار ، ووصف لطبائع الإنسان والحيوان والأسماك والنبات وغير ذلك .

مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار :

لشهاب الدين بن فضل الله العمرى المتوفى عام ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م ، وهو موسوعة ضخمة فى أكثر من عشرين مجلدا . وهو عمدة بين الكتب ، استمد منه كثيرون ، وفيه موضوعات شتى منها وصف الأرض وسكانها وحيوانها ، وأقطارها ومسالكها وما فيها من أنهار وجبال وجزر وبحار وبرك ومبان . ، فضلا عن استطرادات تاريخية وأدبية قليلة الوجود فى سواه ، وكثير من تراجم الأعلام .

التحفة السنية فى أسماء البلدان المصرية :

تأليف شرف الدين بن الجيعان كتبه عام ٧٧٧ هـ (١٣٧٥ م) وهو يشتمل على إحصاءات إدارية وخراجيةعن الأرض فى أيام الملك الأشرف شعبان .

الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة :

تأليف أبو حامد القدسى المصرى المتوفى عام ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) فى وصف جغرافيتهما وتاريخهما .

التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطط القاهرة :

تأليفأقبغا الخاصكى وزير السلطان قانصوه الغورى المتوفى عام ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) .

فضائل الشام :

تأليفعماد الدين الحنفى المتوفى عام ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) .

الفصل السابع

عصر الكشوف الجغرافية

قامت بعض دول أوربا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعدة كشوف جغرافية ، وقد حفزها إلى ذلك أسباب شتى منها :

١ ــ فشل الصليبيين فى محاولاتهم استعمار بعض البلاد العربية ورغبتهم فى استعمار أراض أخرى .

٢ ــ انقسام العرب فى الأندلس وتغلب البرتغاليين والإسبانيين عليهم وسقوط غرناطة آخر حصن للعرب سنة ١٤٩٢ .

٣ ــ كان تحكم الأتراك فى طرق التجارة المارة بآسيا الصغرى وتحكم المماليك فى مصر والشام حافزا للبرتغاليين على كشف طرق جديدة توصل إلى الهند عن طريق البلاد العربية .

ولا شك أن تلك الكشوف لم يصبها النجاح والتوفيق إلا بفضل ما ورثه أو نقله البرتغال والإسبان عن عرب الأندلس من أدوات وخبرات ومعلومات كفلت لهم تحقيق كشوفهم الجغرافية .

ومن الغريب أن العرب عاونوا البرتغاليين فى الوصول إلى الهند سنة ١٤٩٦ ، فقد ثبت أن ابن ماجد الملاح العربى ساعد

فاسكورى دى جاما البرتغالى في تسيير أسطوله من ساحل إفريقية الشرقية إلى الهند وبذلك كشف البرتغاليون الطريق إليها .

وتنبه العرب فى مصر بعدئذ إلى خطر البرتغاليين فى تلك المناطق ، فاتحد الغورى سلطان مصر مع البنادقة وحاربوا البرتغاليين ، ولكن البرتغاليين انتصروا عليهم انتصارا حاسما فى موقعة « ديو » أمام بمباى سنة ١٥٠٩ ، وبهذه الموقعة تقوى مركز البرتغال فى الشرق وبدأت بعدئذ الدول التى تمس سواحلها المحيط الأطلنطى تبنى نفوذها التجارى والاستعمارى فى الشرق .

وبينما كانت هذه الأحداث تجرى كان مغامر برتغالى آخر يدعى البوكرك يضع خطة جهنمية ليختطف جثمان الرسول الطاهر ثم يعرضه على المسلمين مقابل التخلى للأوربيين عن فلسطين ، ودار بخلده كذلك مشروع وهمى آخر ألا وهو تحويل مجرى النيل حتى يصب فى البحر الأحمر بدلا من البحر المتوسط حتى يحرم مصر من مياهه وطميه ويتم هلاكها ، ولكن الأقدار لم تمهله لينفذ خطته الأولى ولا مشروعه الثانى إذ توفى سنة ١٥١٥ م .

ودخلت مصر وباقى الدول العربية فى فترة خمول وركود بعد أن سيطر عليها العثمانيون منذ عام ١٥١٧ .

الفصل الثامن

العصر العثمانى

وجاء الغزو العثمانى للبلاد العربية فى أوائل القرن السادس عشر ، فكان أكبر كارثة منيت بها فى تاريخها . إذ عاش العالم العربى فى عزلة تكاد تكون تامة عن العالم الخارجى ، فى الوقت الذى كانت تسير فيه بعض الدول الأوربية نحو نهضة أدبية وعلمية وسياسية أيقظت شعوبها فيما بعد ، وخلقت منها دولا موحدة تعتز بقوميتها وتعمل على إنماء ثروتها وزيادة نفوذها ، حتى إذا ما بدأ القرن التاسع عشر أخذت الدول الأوربية تحتل بعض أجزاء العالم العربى جزءا فجزءا والأتراك عاجزون عن ردهم .

الفصل التاسع

جهود مصر فى عالم الجغرافيا منذ القرن التاسع عشر

ظهرت فى مصر نهضة شاملة منذ بداية القرن التاسع عشر ، امتدت إلى النواحى الجغرافية إذ قامت مصر بمجهود عظيم فى سبيل الكشف عن حوض النيل وشرق إفريقية ، ففتحت أمام العالم المتمدين طريق النهر إلى قلب القارة المظلمة وبذلك ساعدت على حل لغز النيل .

وقد سارت البعثات العلمية المصرية يومئذ ترافق الجيوش المصرية تجوب الأقطار الجديدة ، باحثة منقبة ، مدوّنة كل ما تشاهده فى دقة وعناية حتى تسنى لها جمع معلومات قيمة ونماذج عديدة من الصخور والمعادن والنباتات ورسم شتى الخرائط وكتابة التقارير الوافية مما أضاف الكثير إلى المعلومات الجغرافية عن القارة الإفريقية .

ومن أهم ما تم فى تلك الفترة على أيدى فريق من الضباط المصريين بإرشاد بعض الإخصائيين الأجانب :

١ ــ رسم خريطة لجزيرة العرب بعد الحروب الوهابية ، عليها مواقع الجبال ومجارى المياه ، وعمل أبحاث عن السكان وطبائعهم

وأعمالهم مع شذرات عن بعض الأماكن والآثار ، ضمها كتاب عنوانه « الأبحاث الجغرافية والتاريخية على بلاد العرب » .

٢ ـ إصدار كتاب « الرحلة إلى سيوة » عقب فتحها سنة ١٨٢٠ وبه خرائط لها وأبحاث عن جغرافيتها وتاريخها .

٣ ـ وقبل فتح السودان كانت المعلومات عن النيل محدودة للغاية ، فلما تم فتحه وضعت عنه عدة كتب ورسمت لبعض أجزائه خرائط تبين الطرق والمسالك .

ثم زادت المعلومات عن النيل بفضل الرحلات التى قام بها البكباشى سليم أفندى سنة ١٨٣٩ ، سنة ١٨٤٠ ، سنة ١٨٤١ والتى استطاع خلالها أن يصل إلى مقربة من غندكرو التى تبعد عن الخرطوم ١٠٨٠ ميل جنوبا ، وبذلك لم يبق بين سليم وبين منابع النيل إلا مرحلة وجيزة ، ولكنه لم يستطع متابعة السير لهبوط مياه النيل ولوجود الجنادل والشلالات فى تلك المنطقة .

وقد وضع سليم تقارير عن رحلاته ألحق بها جداول لأرصاد الجو وضمنها معلومات قيمة عن مجرى النيل والفروع التى تصب فيه والقبائل التى تقيم هناك وكذا الطرق والمسالك .

وترجمت تقارير هذه الرحلات إلى الفرنسية ونشر بعضها بمجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية وغيرها ، فكانت حافزا لكثير من الأوربيين على ولوج ميدان الكشف الإفريقى ، ولذلك قام عدد غير قليل من المستكشفين الإنجليز بجولات وفقوا خلالها إلى الكشف عن منابع النيل ووسط إفريقيا ومن هؤلاء

سبيك وصموئيل بيكر ولفنجستون وستانلى وغيرهم .

وقدمت مصر لهؤلاء كل مساعدة ممكنة، كما أن بعضهم كان يعمل باسمها كصموئيل بيكر. ولولا ذلك لما تمت تلك الحلقة المجيدة من أعمال الكشف خلال القرن الماضى .

٤ — ولما نظمت هيئة أركان حرب للجيش المصرى فى العقد السابع من القرن الماضى قام ضباطها بأعمال مجيدة فى سبيل الكشف الجغرافى لبعض المناطق الإفريقية المجهولة ووضع خرائط ورسوم تفصيلية لها ونذكر من هؤلاء :

محمد مختار باشا(١٨٣٥ — ١٨٩٧) . اشترك فى فتح هرر سنة ١٨٧٥ ورسم لها وللجهات المجاورة لها وازيلع خرائط دقيقة ، كما اشترك فى رسم خريطة مفصلة لأفريقية سنة ١٨٧٧ كانت أدق خريطة عرفت حتى ذلك الحين ، وارتاد شواطئ الصومال سنة ١٨٧٨ (وكانت تابعة لمصر وقتئذ) لاختيار موقع لإقامة فنار ورسم خريطة لتلك الجهات . وفى سنة ١٨٨٠ جاب نواحى السودان الشرقى عندما كان رئيسا لأركان حرب الجيش المصرى بالسودان وقد قام بنشر عدة أبحاث جغرافية هامة بجريدة أركان حرب الجيش المصرى وبمجلة الجمعية الجغرافية المصرية ، كما ألقى بهذه الجمعية عدة محاضرات جغرافية .

ومن أشهر مؤلفاته كتاب « التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية» . وهو يبدأ من السنة الأولى للهجرة حتى سنة ١٥٠٠ هجرية .

محمود باشا الفلكى (سنة ١٨١٥ – سنة ١٨٨٦) : وهو يعد أنبغ من أنجبتهم مصر الحديثة فى الفلك والرياضيات ، تخرج فى مدرسة المهندسخانة وعين مدرسا بها ووضع أول تقويم سنوى (نتيجة) فى سنة ١٢٦٤ هـ سنة ١٨٤٨ م وقارن فيه بين التواريخ الهجرية والميلادية والقبطية ، ثم أوفد فى بعثة إلى فرنسا لدراسة الفلك ، ووضع أثناء وجوده بها عدة رسائل فلكية هامة . ولما عاد سنة ١٨٥٩ وضع خريطة جامعة للوجه البحرى لم يسبقه أحد إلى مثلها كما وضع خريطة ثانية للوجه القبلى وثالثة للإسكندرية .

وخطط معالم الإسكندرية القديمة ، وله عدة رسائل منها رسالة ممتعة عنوانها « عمر الأهرام والغرض من بنائها » وقد أخذ بنفسه مقاييس الأهرام ووضع رسالة فى التنبؤ بارتفاع النيل قبل وقوعه ، وهو الذى أنشأ مدفع الظهر بالقلعة . وقد تقلب فى عدة وظائف منها توليه نظارة مدرسة المهندسخانة والرصدخانة ووزارة الأشغال ثم المعارف ، وانتقل إلى رحمة الله وهو وزير للمعارف ورئيس للجمعية الجغرافية .

إسماعيل باشا الفلكى : من تلاميذ محمود باشا الفلكى : وقد درس بالمهندسخانة وسافر إلى باريس لدراسة الفلك ثم عاد واشتغل ناظرا للرصدخانة ثم المهندسخانة ، ومن أهم أعماله إصلاح مقياس النيل عند أسوان سنة ١٨٧٠ ، وله مؤلفات فى الفلك والرياضيات أهمها « الآيات الباهرة فى النجوم الزاهرة »

وكان ينشر تقاويم فلكية سنوية ، وتوفى عام ١٩٠١ .

٥ ــ وفى البحار قام بعض ضباط البحر المصريين برحلات جريئة ، فهذا القبودان سليمان حلاوة (١٨٢٨ ــ ١٨٨٥) يتم فى سنة ١٨٧٠ رحلته حول إفريقية على الباخرة المصرية سمنود، فكان أول مصرى وعربى طاف بسفينة مصرية حول إفريقية فى العصور الحديثة وقد استغرقت رحلته ثلاثة أشهر وستة أيام ، ولما عاد نقل إلى المدرسة البحرية وألف كتابا يسمى « الكوكب الزاهر فى فن البحر الزاخر » .

وأحدث رحلة بحرية قام بها مصريون هى رحلة الباخرة مباحث التى قصدت فى أواخر سنة ١٩٣٣ إلى المحيط الهندى وعلى ظهرها علماء بريطانيون ومصريون لدراسة طبوغرافية قاع ذلك المحيط ورواسب قاعه وأحيائه البحرية وخواص مياهه وتياراته البحرية وأحواله الجوية ، وقد وفقت إلى مجموعة قيمة من الاكتشافات والمعلومات .

وفى أواخر سنة ١٩٣٤ أقلعت تلك الباخرة مرة أخرى وعلى ظهرها أول بعثة مصرية أوقيانوغرافية شهدها التاريخ فاتجهت إلى البحر الأحمر لدراسة طبوغرافيته وسبر أغواره ، وقد نجحت فى مهمتها وعادت بنتائج أضافت الشىء الكثير إلى ما يعرف عن ذلك البحر .

٦ ــ إنشاء الرصدخانة : (المرصد) : أنشئ أول مرصد فلكى فى مصر فى العصور الحديثة سنة ١٨٤٦ ببولاق ، وفى

سنة ١٨٦٥ نقل إلى العباسية ، وكان يشغل مبنى مكانه الآن طرف المبانى الجديدة لجامعة عين شمس عند نفق العباسية ، واشتهر باسم « النظارة » . ولما اتسع نطاق أعمال المرصد ورؤى أن تشمل أرصاده أرصادا خاصة بالمغناطيسية الأرضية — يجب أن تكون أجهزتها بعيدة عن المؤثرات الخارجية كخطوط المواصلات الحديدية — رؤى أن ينقل هذا المرصد إلى مكانه الحالى فى حلوان ، وتم ذلك سنة ١٩٠٣ .

وقد قام المرصد منذ ذلك التاريخ بعمل صور عديدة للأجرام السماوية والسدم والمذنبات والسيارات ، ونشر رسائل علمية مختلفة ، وكانت أرصاده عن مذنب هالى سنة ١٩١٠ والكوكب السيار بلوتو سنة ١٩٣٠ فى المرتبة الأولى بين أرصاد المراصد الأخرى .

ونظرا لتأثر بعض أجهزة المرصد بكهرباء خط حلوان مما يجعل البيانات التى تعطيها غير دقيقة فقد أقيمت محطة أرصاد إضافية بالفيوم ومنظار جديد فى طريق القاهرة — السويس حتى يكون بعيدا عن كهرباء مدينة القاهرة وضواحيها .

٧ — إنشاء الجمعية الجغرافية المصرية : وفى سنة ١٨٧٥ أنشئت الجمعية الجغرافية المصرية لتحقيق غرضين :

١ — دراسة الجغرافيا فى جميع فروعها .

٢ — الكشف عن البلاد الإفريقية التى لا تزال مجهولة أو غير معروفة تماما .

وقد تولى رئاستها فى بداية عهدها المستكشف المشهور جورج شفينفورت ، ثم تولى الرئاسة بعده بعض الأعلام المصريين منهم أيوب باشا ومحمود الفلكى باشا .

وقد قامت هذه الجمعية بنشر عدد كبير من البحوث الجغرافية القيمة على صفحات مجلتها ، وأصدرت مجموعة طيبة من الكتب الجغرافية القيمة . واهتمت فى سنواتها الأولى بترقية دراسة الجغرافية فى المدارس المصروة ، وضربت مداليات خاصة كانت تقدمها إلى من يظهر نبوغا وتفوقا من طلبة المدارس ، كما طبعت عدة خرائط للحائط بالعربية .

ومن على منبر تلك الجمعية ألقى عدد من المستكشفين محاضرات عما قاموا به من دراسات ، ومن هؤلاء ستانلى وبورتون ، كما ألقى عدد من المصريين محاضرات أخرى ، وفيما يلى أسماء بعضهم وبعض ما ألقاه من محاضرات :

مختار باشا : هرر ، الصومال ، السودان ، السنة الهجرية .

محمود باشا الفلكى : حاجة مصر إلى مراصد ، استخدام أعالى النيل لزيادة الفيضان ، تقدم دراسة الجغرافية فى مصر .

أحمد زكى باشا : تخطيط العرب للفيوم فى القرن السابع للهجرة ، مستندات جغرافية إسلامية اكتشفت فى الآستانة .

محمد بك بيرم : القيروان .

أحمد كمال باشا : الجغرافيا عند قدماء المصريين .

محمود بك سالم : السائحون المسلمون .

٨ ــ كشوف أحمد محمد حسنين باشا : وفى أواخر سنة ١٩٢٢ قام أحمد محمد حسنين باشا برحلة اخترق فيها صحراء ليبيا من السلوم إلى حدود السودان وعاد إلى مصر فى صيف سنة ١٩٢٣ ، وقد استطاع بهذه الرحلة أن يصل إلى النتائج الجغرافية الآتية :

١ ــ حدد الموقع الحقيقى لآبار الظيعن وواحة الكفرة . وبذلك أعيد تصحيح خريطة القارة الأفريقية .

٢ ــ كشف واحتى أركنو والعوينات فى الركن الجنوبى الغربى من مصر ، وأمكنه تعيين موقعيهما وسعة مناطقهما بالتقريب .

٣ ــ كشف طريقا فى الجنوب الغربى من مصر ، يجتاز سهل أردى وأنيدى فى إفريقية الاستوائية الفرنسية إلى دارفور .

٤ ــ تمكن من تعيين مناسيب مضبوطة للبارومتر على طول الطريق .

وبذلك استطاع الحصول على معلومات قيمة عن طبيعة تكوين الجبال فى منطقة واسعة لم يعرف عنها شىء من قبل ، وأثبتت هذه المعلومات عدم احتمال وجود مخرج صرف لبحيرة تشاد فى اتجاه شرقى .

وقد ألف عن رحلته كتابا بالإنجليزية وكتابا آخر بالعربية عنوانه « فى صحراء ليبيا » .

رحلات محمد ثابت :

ومن اشتهروا بين المصريين بكثرة رحلاتهم المغفور له الأستاذ محمد ثابت إذ كان المصرى الوحيد — حتى اليوم — الذى تمكن من زيارة أغلب أركان المعمورة إذ طاف بكثير من الدول المعروفة فى جميع القارات لا طلبا للرياضة والنزهة كما يفعل الكثيرون بل حبا فى الدرس والاستطلاع ، وقد سجل مشاهداته فى عدة كتب صدرت باسم « جولات » .

كلمة ختامية

وبعد فهذه صفحات موجزة عن جهود العلماء العرب فى ميدان الجغرافيا وهى على إيجازها تقدم صورة صادقة لأهم ما قاموا به .

ولم تكن الجغرافيا هى الميدان الوحيد لنشاط العرب العلمى بل هناك ميادين أخرى عديدة ، تناولتها بعض كتب هذه السلسلة ، وستتناول بقية النواحى الأخرى وبهذا يتسنى لأحفاد العرب الأمجاد الوقوف على مواطن العزة والمجد فى تاريخ أجدادهم ، حتى يكون لهم من ذلك حافز لمواصلة الجهود لإعلاء شأن العروبة فى جميع الميادين وخاصة الميادين العلمية .

فهرست

صفحة

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢

